تفسير القرآن الكريم

الجزء الحادي والعشرون

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ٤٦ إلى الآية ٥٢ من سورة العنكبوت

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ -١- . وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ -٢- . وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَنْ لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ -٣- بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ -٤- . وَقَالُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ! قُلْ : إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ -٥- . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ -٦- . قُلْ : كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن	ولا تَجرِ بينكم وبين الكتابيين من اليهود والنصارى مناقشة ، إلاّ بالحسنى واللين والملاطفة .
إلا الذين ظلموا منهم	إلا الذين يبالغون فى الإيذاء والاعتداء ، ولا يُقلعون عن الإشراك .
ونحن له مسلمون	ونحن له خاضعون .
وكذلك أنزلنا إليك الكتاب	وبمثل ذلك أنزل الله القرآن على محمد .
ومن هؤلاء	ومن أهل مكة .
وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون	ولا ينكر ما جئتَ به من الأدلة الدالة على صدق رسالتك إلا الموغلون فى الكفر والجحود .
إذن لارتاب المبطلون	لو كنت قارئاً أو عالماً بكتاب قبله ، لجاز لهؤلاء أن يشكوا فى أمرك .
هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم	كون محمد لا يقرأ ولا يتلو من قبل القرآن كتاباً آخر ، يعترف به أحبار اليهود والنصارى بينهم وبين أنفسهم .
وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون	وما ينكر نبوة محمد إلا كل ظالم لنفسه ، يحملها على الكفر والتكذيب .
لولا أنزل عليه آيات من ربه	هلا أنزل على محمد معجزات تدل على صدقه ، كما أنزل على من سبقه من الأنبياء .
إنما الآيات عند الله	إنما الذى يملك أن يأتى بالمعجزات هو الله وحده .

الألفاظ	شرحها
أنا نذير مبين	أنا أخوفكم بأس الله وعذابه ، وأبين لكم إنذاره .
يُتلى عليهم	يقرأ عليهم .
وذكرى	وعبرة وموعظة .
كفى بالله بينى وبينكم شهيداً	حسبى أن يكون الله شاهداً عادلا بينى وبينكم : لى مالى ، وعلىّ ما علىّ .
يعلم ما فى السموات والأرض	لا يخفى عليه شىء ، فيجازى حقاً وعدلا .
آمنوا بالباطل وكفروا بالله	صدّقوا بالشرك وأقروا به ، ولم يوحدوا الله .
أولئك هم الخاسرون	هؤلاء هم الذين خرجوا من الدنيا بصفقة الخاسر المغبون .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله رسوله محمداً والذين آمنوا به ، أنهم إذا جادلوا واحداً من الكتابيين — اليهود أو النصارى — يترفقون بهم ، ولا يعنفون عليهم ، ويحاسنونهم ولا يخاشنونهم ، ويلاطفونهم ولا يغالظونهم ، فإن الإنسان قد يبلغ بالمحاسنة والملاينة ما لا يبلغ بالمخاشنة والمغالظة ؛ وأهل الكتاب أهل دين سماوى ، وفى صحيح كتبهم — لو أنصتوا إليه — ما فيه مقنع لهم ؛ فهم غير المشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ؛ وهم غير الذين ظلموا أنفسهم ، الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، والذين قالوا : إن لله ابنا ، والذين غيروا فى كتب الله وبدلوا ، فأخفوا بعضها ، وأظهروا بعضها ،

وأضافوا إليها وحذفوا منها ، خاضعين فى ذلك إلى أهوائهم ، أو متبعين شياطينهم ، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، تجوز مغالظتهم ومخاشنتهم ؛ وقد رسم القرآن الكريم للمسلمين طريقاً من المحاسنة فى المناقشة ، والملاينة فى المجادلة ؛ وذلك أنه أمرهم أن يقولوا لمجادليهم : آمنا بالذى أنزل إلينا ، وهو ما جاء به القرآن ، وآمنا بالذى أنزل إليكم فى صحيح التوراة والإنجيل، والإله الذى نعبده وتعبدونه واحد ، ونحن مطيعون له ، منقادون خاضعون لما يأمر به ؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فلا خلاف بيننا وبينكم .

٢ ــ والدليل على أن محمداً ومن اتبعه آمنوا بالذى أنزل إلى اليهود فى التوراة ، وبالذى أنزل إلى النصارى فى الإنجيل ــ أن الكتاب الذى أنزل إليه وهو القرآن ، جاء مصدقاً لما ورد فى الصحيح الذى لم يتناوله تغيير ولا تبديل من هذه الكتب ، وبعض الذين نُزّل عليهم كتابهم الصحيح وآمنوا به ، يؤمنون بالقرآن الذى أنزل على محمد ، كعبد الله بن سَلاَم وغيره ممن على شاكلته ، وبعض أهل مكة آمنوا به أيضاً ، وهذه الآيات الواضحة البينة يسلم بها العقلاء ، ولا ينكرها إلا كل من أظلم قلبه بالكفر ، لأنها واضحة جلية ، لا شبهة فيها ، ولا غموض ، ولكن الجاحدين الكافرين كعبد الله بن الأشرف ، ومن لف لفه من المصممين على إنكار نبوة محمد ، لا ينتفعون بنور الإيمان .

٣ ــ لم لا يصدق هؤلاء الناس أن القرآن الذى أنزل عليك من عند الله ؟ فلست كاتبه لأنك أمىّ لا تكتب ، ولم يُلقَ إليك من غيرك لأنك لم تجلس إلى معلم ليعلمك هذا ؛ ولو قد حصل شىء من هذا فكتبت أو تلقيت ، لحق لهم أن يرتابوا فيك ، وقالوا : إن الذى نجده فى كتبنا أمىّ ، وأنت أمىّ حقّاً ؛ فلماذا ينكرون نبوتك ، ويشكون فى صدقك ؟!!

٤ — هذا القرآن الذى جئت به دلائل واضحات على صدق نبوتك ، وليس سحراً أو شعراً ، فالذين يتفقهون فى هذا الدين من أمة محمد يحفظون القرآن ويرددونه ، ويفهمون ما ترمى إليه آياته من المغازى والمعانى ، ولا ينكر ذلك إلا الذين يظلمون أنفسهم بعدم الدخول فى الدين الصحيح ، الذى لا يقبل شكًّا ، ويصرون على كفرهم وعنادهم .

٥ — لم يُقنع قريشاً أن تكون معجزة محمد القرآن الذى بهرهم ببلاغته وفصاحته ، والذى عجزوا عن أن يأتوا بمثل سورة من سوره القصار، فضلاً عن الطوال ؛ وطلبوا أن يأتيهم بمعجزة مادّية محسوسة ، لأن عقولهم القاصرة لا تدرك قيمة الروحانية القرآنية ، ورجَوْا أن يجرى الله له مثل الذى كان يجرى لغيره من الأنبياء : كصالح صاحب الناقة ، وموسى صاحب العصا ، وعيسى صاحب المائدة ؛ فلما طلبوا منه هذا أمره الله أن يقول لهم : لست أنا الذى آتى بالآيات ، ولكن الله هو الذى يأتى بها على ما يريد من مادّية أو روحانية ، لأمور تقتضيها حكمته ؛ وعمل النبى إنما هو محصور فى تبليغ الرسالة إلى من أرسله الله إليهم ، وتبشير المؤمنين بالجنة ، وتخويف المكذبين من النار ، وإيضاح مصيرهم لهم ، مؤكداً ما سيؤول إليه أمرهم ، بما يجرى على يديه من معجزات أرادها الله ، والمعجزة إنما يجريها الله على يد النبى ، لإزالة شك الشاكين ، فليس يهم العاقل أن تكون نوعاً معيناً من الخوارق .

٦ — على أنه إن كان إنزال الآية شرطاً لإيمانهم ، أو لم يكفهم هذا القرآن الذى أنزلناه عليك معجزاً بفصاحته وبلاغته ؟ كان يجب أن يفتتنوا بتلاوته عليهم ، فإن فى تلاوته عليهم إدحاضا لحجتهم ، وهو المعجزة الخالدة الباقية على الدهر ، وليس كالمعجزات المادية الأخرى التى يطلبون مثلها ، كالعصا واليد وإحياء الموتى ، لأنها زالت بزوال وقتها ، ولأنها كانت فى

مكان واحد ، وقد انتهى أثرها ، وبقاء معجزة القرآن دائمة ، فيه موعظة متجددة للعقلاء الذين ينفرون من الاستجابة لهذا الدين الصحيح ، لمجرد التعصب الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم الضالين ؛ وقد انتشر فى بقاع الأرض ، وفيه رحمة لهم فى الدنيا بإنقاذهم من الضلالة ، وفيه ذكرى لقوم يؤمنون ، بإرشادهم إلى الحق .

٧ — قل لهؤلاء المعاندين المكابرين : حسبى أن يكون الله شاهداً بينى وبينكم ، عارفاً صدقى وكذبكم ، مطلعاً على إخلاصى وتعنتكم ، وهو لا يخفى عليه شىء ، لأنه يعلم كل ما يجرى فى السموات وفى الأرض ، ظاهراً أو باطناً ، جليلاً أو حقيراً ، محسوساً أو معقولا ؛ وجميع الذين ظلوا على عنادهم واستكبارهم ، وبقوا على كفرهم ، وعموا عن الحق ، وأقاموا على الباطل ، وكفروا بالله وأشركوا به — هؤلاء جميعاً خسروا الدنيا والآخرة ، لتكذيبهم رسوله ، وجحدهم لكتابه .

(٢)

من الآية ٥٣ إلى الآية ٥٥ من سورة العنكبوت

وَيستَعجلونَكَ بِالعَذَابِ ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءهُمُ العَذابُ وَلَيأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ –١–. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ، يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَيَقُولُ : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ –٢–.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولولا أجل مسمى	ولولا وقت محدود قدره الله فى سابق علمه ، وجعله موعداً لتعذيبهم .
لجاءهم العذاب	لعجل الله لهم العذاب كما يطلبون .
بغتة	فجأة .
وهم لا يشعرون	وهم لا يحسون أن هذا وقته .
ذوقوا ما كنتم تعملون	ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا .

مجمل المعنى

١ — الذين كفروا بك ، ولم يستجيبوا لك ، يسألونك أن تعجل لهم العذاب الذى تهددهم به ، وتتوعدهم بوقوعه عليهم ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قدر لهم أجلا محدوداً يعيشون إليه ، وقدر لهم وقتاً معلوماً يعذبون فيه ؛ ولولا أن الله قدر لكل شىء وقته وأوانه ، لوقع عليهم هذا العذاب حينما طلبوه منك استخفافاً بوعيدك لهم ، ومع ذلك فإن العذاب سيدهمهم ، ويحل بهم بغتة ، ويأخذهم فجأة ، من غير أن يشعروا .

٢ — هؤلاء الناس يستعجلونك الآن بالعذاب ، وسيرون — حين يدهمهم العذاب — أن نار جهنم ستحيط بهم ، فلا يجدون أنفسهم إلا غارقة فى بركان من نار : فالنار فوق رءوسهم ، وتحت أرجلهم ، وعن يمينهم ، وعن شمالهم ، وخلفهم وقدامهم ، فكأنهم فى غلاف من نار جهنم . وإذ ذاك يقال لهم على سبيل التبكيت والتقريع : ذوقوا جزاء أعمالكم التى كنتم تعملونها فى الدنيا .

(٣)

من الآية ٥٦ إلى الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ، فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ —١—. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ —٢—. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ : الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ —٣—. وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ، اللَّهُ يَرْزُقُهَا ، وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ —٤—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فإياى فاعبدون	فخصونى دون غيرى بالعبادة .
كل نفس ذائقة الموت	كل حى إذا انتهى أجله ذاق مرارة الموت ، وقاسى شدته .
لنبوئنهم من الجنة غرفاً	لننزلنهم علالىّ فى الجنة ، وهى جمع عُلِّيَّة .
وكأيِّن من دابة	وكثير من الدواب والكائنات الحية .
لا تحمل رزقها	لا تستطيع أن تحصِّل رزقها وتحتفظ به .

الألفاظ	شرحها
الله يرزقها وإياكم	الله يتكفل برزقها ورزقكم .
وهو السميع العليم	وهو الذى يسمع ما تقولونه من أنكم تخافون الفقر إذا هاجرتم ، ويعلم ما فى نفوسكم من إخلاص للدعوة ، واعتماد عليه .

مجمل المعنى

١ — ضايق الكفار من أهل مكة المسلمين ، وآذوهم فى أموالهم ، وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم ، وأوشكوا أن يقتلوهم لو قدروا على قتلهم ؛ فأراد الله أن يحبب إليهم الهجرة من بلادهم إلى بلاد يجدون فيها متسعاً وأمناً ، ومجالا لعبادة الله وحده ، من غير أن يلحقهم أذى ، فناداهم نداء فيه عطف عليهم ، ورحمة بهم : « يا عبادى الذين آمنوا » ، وأكد لهم أن أرضه واسعة ، وأن أى بقعة يحلون فيها يجدون أهلاً بأهل ، وإخواناً بإخوان ، وجيراناً بجيران ؛ ويجدون فى كل أرض مرتزَقاً ، وإنما تفضُل أرض أرضاً ، بأن يجدوا مجالا لحرية العقيدة ، وبعداً عن الأذى ، وقبولا للدعوة ، وقلوباً تستجيب وتؤمن ، فلماذا لا يهاجر المهاجر لتسلم له عقيدته ودينه ، فإنه واجد بدل المال مالاً ، ولن يجد بدل الدين ديناً ؟

٢ — وإذا كان المهاجر يخشى على نفسه أن يموت فى مَهجره ، فهو مخطئ ، لأن كل حى سيموت ، وسيعانى من كرب الموت وشدته ومرارته ما يعانى ، سواء أكان فى وطنه بين أهله وعشيرته ، أم كان بعيداً عن وطنه وأهله وعشيرته ، وطعم الموت للمقيم والمغترب واحد ، فلا عليك إذا فررتَ

أيها المؤمن بعقيدتك ؛ ومرجع الكل إلى الله يوم القيامة ، ليحاسب كل إنسان بما عمل .

٣ — فالذين أخلصوا إيمانهم لله ، وصفت قلوبهم ، وعملوا الأعمال الطيبة الصالحة ، ينزلهم الله فى منازل رفيعة عالية ، ويتنعمون بأحلى ألوان النعيم ، فهم فى مساكن فخمة أنيقة عالية ، تجرى من تحتها الأنهار ، وتكتمل فيها السعادة التى يتصورها الإنسان اليوم فى أعلى درجاتها ، وهذه سعادة كل من وصل إليها وتمتع بها ، لا تزول عنه ولا تحـُول ، وإنما هى خالدة باقية ، وهذا أحسن جزاء يجازى به الله المخلصين من عباده ، الصابرين على المكاره التى أذاقهم إياها المشركون وأعداء الدين ، والذين صبروا على مرارة الهجرة ، وترك المال والوطن والأهل والولد ، ولم يتكلوا إلا على الله .

٤ — وإن الله هو الذى يدبر لكل حى رزقه ، فكثير من الدواب التى تدب على ظهر الأرض ، لا تستطيع أن تحصِّل رزقها بنفسها ، ولكن الله هو الذى يدبر لها ذلك الرزق ، ويهيئ لها من الظروف والملابسات ما يجعلها تعيش وتحيا ، فلا يجوز للذين يأمرهم الله بالهجرة فراراً بدينهم أن يخافوا الفقر ، لأن الذى كفل الرزق ، وهو الله — سبحانه وتعالى — كفله للضعيف والقوى على السواء ؛ وإذا كان الله قد أودع فى الإنسان قوة يستعين بها على كسب رزقه ، فإن مجرد وجود هذه القوة فيه ، لا يجعله يستغنى عن توفيق الله وتدبيره فى الحصول على ذلك الرزق ؛ وكم من الناس تساوت فيهم القـُدرات والمواهب ، ولكن أرزاقهم مختلفة ، فهذا موسّع له ، وذاك مقتر عليه ؛ ومرد ذلك إلى إرادة الله ؛ فلا تخشوا الفقر إذا هاجرتم ، فإن الله يعلم ما فى نفوسكم من إخلاص للدعوة ، واعتماد عليه ، ويعلم ما سينتهى إليه أمركم من إعزاز ونصر ، وما سيصير إليه أمر عدوكم من إذلال وخزى ، وهو السميع لكم حين تلجئون إليه ، العليم بحالكم وجميع حاجاتكم .

(٤)

من الآية ٦١ من سورة العنكبوت إلى آخر السورة

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللّٰهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ —١— . اللّٰهُ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ —٢— . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ؟ لَيَقُولُنَّ : اللّٰهُ ، قُلِ : الْحَمْدُ ،
لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ —٣— . وَمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ
وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ —٤— .
فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ —٥— . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ،
وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ —٦— . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا
آمِنًا ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ
اللّٰهِ يَكْفُرُونَ ؟ —٧— . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا ،
أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ؟ —٨— .
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فأنى يؤفكون	فكيف يُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟
يبسط الرزق	يوسع الرزق .
ويقدر له	ويضيق عليه .
إن الله بكل شىء عليم	إن الله يعلم كل شىء ، فيوسع على من يستحق التوسعة ويقتر على من يستحق التقتير .
فأحيا به الأرض من بعد موتها .	فجعل الأرض تُنبت به النبات ، بعد أن كانت لا تنبت .
قل : الحمد لله	قل : أحمد الله على إقرارهم بالحق .
بل أكثرهم لا يعقلون	بل أكثر هؤلاء المشركين لا يميزون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم .
لهو ولعب	تعليل للنفوس بما تلتذ به التذاذاً سريعاً انقضاؤه .
وإن الدار الآخرة لهى الحيوان	وإن الدار الآخرة لهى الدار التى تكون فيها الحياة الدائمة ، التى لا تنقطع ولا تزول .
لو كانوا يعلمون	لو كان المشركون يعلمون أن الدنيا زائلة ، وأن الآخرة باقية ، لآمنوا .
ركبوا فى الفلك	ركبوا السفينة فى البحر .
مخلصين له الدين	يخلصون فى وقت الشدة لله إخلاصاً لا تشوبه شائبة .
إذا هم يشركون	يعودون فجأة إلى إشراكهم .

الألفاظ	شرحها
ليكفروا بما آتيناهم	لينكروا ما أنعم الله به عليهم من نعمة النجاة وغيرها ؛ وهذا فيه تهديد ووعيد وتوبيخ لهم .
حَرَماً أمنا	حرّمنا على الناس أن يدخلوه محاربين ، فأمن ساكنُه .
ويُتخطف الناس من حولهم	ويغار على الناس المجاورين لهم ، فيُسلَبون ويؤسرون ويُقتَلون .
أفبالباطل يؤمنون	عجباً لهم ! أبعد هذا يشركون بالله ؟ !
افترى على الله كذباً	اختلق الكذب على الله .
أو كذب بالحق لما جاءه	أو كذب برسالة ربه التى جاء بها محمد .
أليس فى جهنم مثوى للكافرين	إن فى جهنم سكناً لهؤلاء المشركين .
جاهدوا فينا	قاتلوا المشركين من أجلنا .
لنهدينهم سبلنا	لنوفقنهم إلى الطريق المستقيم .

مجمل المعنى

١ — الكفار الذين تحاول أن تقنعهم بأنك رسول الله ، وبأن الله واحد لا يجوز أن يعبد سواه — إذا سألتهم : من خالق السموات والأرض ؟ أجابوا من غير تردد ولا تشكك : خالق السموات والأرض هو الله ؛ وإذا سألتهم : من الذى سخر الشمس والقمر ، وذللهما لعباده ، وجعلهما يجريان فى مدارات وأفلاك خاصة ، وجعل مصالح خلقه مرتبطة بهذا الدوران ؟ أجابوا من غير تردد ولا تشكك : الذى فعل ذلك هو الله ؛ وإذا كانت

هذه هى إجاباتهم التى يجيبون بها طائعين مختارين ، أفلا يكون من العجب أنهم ينصرفون عن عبادة الله الذى شهدوا له بالقدرة ، إلى عبادة غيره من الأصنام والأوثان ؟! ! إن فى إجاباتهم دليلا ضمنيًّا على عجز هذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، واعترافاً بعجزها عن أن تخلق سماء أو أرضاً ، وعن أن تسخّر شمساً أو قمراً ، فعبادتهم لها بعد هذا الإقرار سفاهة وضلال .

٢ — الله القادر هو الذى يرزق عباده ، ويهيئ لهم الأسباب التى يكسبون بها معايشهم : فيوسع على هذا ، ويضيق على غيره ، وليس بسطه الرزق أو تضييقه عبثاً ، ولكنه يعلم كل شىء علماً حقيقيًّا ، ويُجرى الأرزاق حسب ما قدّره فى سابق علمه ، فلا يليق بالغنى أن يزدرى الفقير لفقره .

٣ — هؤلاء الكفار أنفسهم ، إذا سألتهم : من الذى ينزل الماء من السماء بقدرته ، فينزل هذا الماء على الأرض فترتوى منه ، فتحيا من مَوات ، وينبت فيها الزرع مختلِفَ الأنواع والألوان ؟ أجابوا من غير تردد ولا تشكك : الله هو الذى يفعل ذلك ؛ فإذا اعترفوا بذلك — يا محمد — فاحمد الله على إقرارهم بالحق ، وعلى جريان هذه الحقيقة على ألسنتهم وهم معاندون مكابرون ، وأكثرهم لا يعقلون فلا يميّزون بين الضار والنافع ، والهدى والضلال ، ولا يتدبرون ما أيدناك به من الآيات البينة ، فاستوجبوا لأنفسهم النار ، وبئس المصير !

٤ — وحقيقة هذه الحياة الدنيا أنها دار لهو ولعب ، متاعها قليل ، يتحول ويزول ، ثم هى سريعة المرور ، والناس فيها لاهون بها ، مشغولون عن غيرها ، مفتونون بنعيمها الذى يمر مروراً سريعاً ثم ينقضى ، فلا دوام له ولا بقاء ، أما الدار الآخرة فهى دار الحياة الصحيحة الباقية الدائمة ، التى لا تزول ولا تنقطع .

٥ — ومع أن هؤلاء الكفار مشركون معاندون ، فإنهم يعرفون لله قدرته فى خلق السموات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتصريف الرياح ، وإنزال المطر ، وإحياء الأرض ، وهم إذا ركبوا سفينة وسارت بهم فى البحر ، وثارت الريح ، واشتد الموج ، وترجحت السفينة واضطربت ، وخافوا على أنفسهم — نسوا أصنامهم ، وذكروا الله ، ولجئوا إليه ، واستعانوا به ، وتوجهوا إليه بقلوبهم ، ودعوه ليأخذ بيدهم ، وينجيهم مما هم فيه من كرب ، ويزيح عنهم ما بهم من شدة ؛ فإذا رآهم أحدٌ وهم فى هذه الحالة ، لا يظن إلا أنهم مؤمنون حقًّا ، وموحدون صدقاً ، فإذا نجاهم الله من الغرق ، وخرجوا سالمين إلى البر ، نسوا لطف الله بهم ، وعادوا إلى إشراكهم وكفرهم ، وكأنهم لم تمر بهم محنة ، ولم يكونوا منذ قليل فى كرب شديد .

٦ — الناس الذين هذه حالهم من الكفر بنعمة الله ، وإنكار فضل الله الذى لمسوه بأيديهم ، ورأوه بأعينهم — الله لهم بالمرصاد ، فليكفروا ما شاءوا أن يكفروا ، وليتمتعوا بنعيم الدنيا على الوجه الذى يريدون أن يتمتعوا به ، فإنهم سوف يعلمون يوم القيامة العاقبة السيئة ، التى أرداهم فيها سوء تصرفهم ؛ وفى هذا تهديد لهم ووعيد ، وتحذير من سوء المصير .

٧ — مشركو مكة هؤلاء الذين لم يؤمنوا بمحمد ، وطلبوا أن يأتيهم بآية غير الآية العظيمة التى خصهم الله بها — وهى القرآن — ألم يروا أن فضل الله عليهم عظيم ؟ فقد أسكنهم فى حرم آمن ، وَحرّم على الناس أن يدخلوه محاربين أو مغيرين ، فأهله بذلك آمنون على أنفسهم وأموالهم ، وأولادهم وجميع مصالحهم ، فى حين أن غيرهم فى أى بلد آخر عرضة لأن تعلن عليه فى بلده حرب ، أو تُشَنَّ عليه غارة ، فهو بذلك ليس مطمئنًّا على

نفسه وولده ، وليس آمنا على ماله وأهله ، ومع هذا الفضل الكبير الذى غمرهم الله به من دون سائر الناس ، فإنهم مصرون على الإشراك وعبادة الأصنام من دون الله ، وجحود نعمته ، وعدم الاعتراف بفضله .

٨ — ولا أحد من خلق الله جميعاً أظلم من الذين يختلقون الكذب ويفترونه على الله ، وينسبون إليه ما لم يصدر عنه ، فإذا ارتكبوا منكراً مثلاً وعيب عليهم ذلك ، قالوا : إنما نفعله كما كان يفعله آباؤنا ، والله أمرنا بذلك ؛ وكذلك لا أحد من خلق الله جميعاً أظلم من الذين يرون الحق أمامهم واضحاً فيكذبونه ، والدليل على صدقه قائماً فينكرونه ، كبعث محمد ودعوته إلى التوحيد ، وتقديم القرآن دليلاً معجزاً على صدقه ؛ إن فى جهنم مُقام أولئك المكذبين المنكرين المعاندين ، وإقامتهم فيها إقامة دوام وتخليد ، لما كان منهم من كفر ، وإنكار للتوحيد ، وتكذيب للرسول .

٩ — أما الذين جاهدوا فى سبيل الله ، فمنعوا أنفسهم من الضلال ، وحموها من غواية الشيطان ، وعصموها من الهوى ، أو قاتلوا أولئك الكافرين ، ونصروا محمداً ، فإن الله يوفقهم إلى الطريق المستقيم ، ولا سيما الذين أرادوا بجهادهم نصرة الدين ، والعمل على نشره ، وخذلان أعدائه ؛ ويؤكد الله أنه مع كل محسن من خلقه ، سواء أكان إحسانه لنفسه أم لربّه ، وحسْبُه أن يكون الله معه فى دنياه وآخرته .

سُورَةُ الرُّوم

نزلت بمكة ، ماعدا الآية ١٧ ، فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٦٠ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية السابعة

الۤـمۤ ، غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ -١- . وَعْدَ اللهِ ، لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الۤـمۤ	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
فى أدنى الأرض	فى أقرب أرض إلى بلاد العرب .
غلبهم	انهزامهم .

الألفاظ	شرحها
فى بضع سنين	فى عدد من السنين ، فوق الثلاث ودون العشر .
لله الأمر	الله وحده هو المختص بتدبير كل أمر على حسب إرادته وقدرته .
من قبلُ ومن بعدُ	من قبل كل شىء ، ومن بعد كل شىء .
ويومئذ	ويوم ينتصر الروم على فارس .
يفرح المؤمنون بنصر الله	يفرح المسلمون بأن الله حقق وعده ، وهو انتصار الروم على الفرس ، فيكونون قد صدقوا فيما أخبروا به .
وهو العزيز الرحيم	والله هو الشديد فى انتقامه من أعدائه ، الواسع الرحمة لأهل طاعته من عباده .
ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون	ولكن غير المؤمنين من قريش — وكانوا كثرة فى ذلك الحين — لا يعلمون أن الله منجز وعده ، وأنه لا يخلفه أبداً .
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا	غاية علمهم ما يهيئون به لأنفسهم أمور معاشهم فى الدنيا .
غافلون	لا يفكرون فى الآخرة ، ولا يهتمون بها .

بين الفرس والروم

كان الفرس والروم أعظم دولتين قبل الإسلام : إحداهما فى الشرق وهى دولة فارس ، والأخرى فى الغرب وهى دولة الروم ، وكانت الحرب قائمة بين الدولتين ؛ ومن هذه الحروب ما وقع بين كسرى أنوشِرْوان ملك فارس ، وجستنيان

إمبراطور الروم ، فقد زحفت جيوش كسرى على بلاد الروم ، حتى بلغت ساحل البحر الأبيض المتوسط قرب أنطاكية ، سنة ٥٧١ م ، وهى سنة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، واستمرت الحرب قائمة بينهما عشرين عاماً ؛ فلما جاء كسرى الثانى ، صمم على أن يضمّ دولة الروم إلى ملكه ، فانتزع الشام ومصر ، وتوغل جيشه فى آسيا الصغرى ، حتى وقف على ضفاف البسفور ، سنة ٦١٧ م ، أى قبل الهجرة النبوية بخمس سنين .

فزع هِرَقل إمبراطور الروم ، وأعد جيشاً قويًّا ، وبدأ محاربة الفرس من جديد سنة ٦٢٢ م ؛ وهى السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة ، واستمرت هذه الحرب ست سنين ، أى إلى سنة ٦٢٨م ، وهى سنة ٦ هـ ، فانتصر فيها الروم ، واستردوا أملاكهم ، وامتد سلطان هرقل ، وتقلصت مملكة الفرس .

ويفسر هذا قوله تعالى : « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

هذه الحروب كلها ضعضعت الدولتين ، وأضعفتهما إضعافاً شديداً ، فخرّبت الديار ، وأقفرت المزارع ، وأفقرت الناس ، وساءت حالهم ، وتفككت أوصال الدولتين تفككاً شديداً ، فشاعت الفتن ، وكثرت الدسائس ، وتطاحنت الأحزاب ، وضعف كسرى وقيصر ضعفاً جَعل ابنَ الأول يقتله ويثب على عرش أبيه ، وجعل ابن الثانى يتآمر على عزل أبيه ، واغتصاب العرش منه .

مجمل المعنى

١ — وقعت الحرب بين فارس والروم ، فغلبت الروم ، فشقّ على محمد وأصحابه أن ينتصر الفرس — وهم مَجوس وثنيون — على الروم — وهم كتابيون — وفرح كفار مكة ومشركو قريش لانتصار الفرس ، وأعلنوا شماتتهم لمحمد وأصحابه ،

فأنزل الله على محمد أن الروم بعد هزيمتهم سيَغلِبون فى المستقبل القريب ، وحدد الأجل ببضع سنين ، فخرج أبو بكر — رضى الله عنه — إلى الكفار ، وقال لهم : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ، ولا يُقرَّنَّ الله أعينكم ، فوالله ليظهرنّ الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقام أبىّ بن خلف إلى أبى بكر ، وقال له : كذبت يا أبا فَصيل — يعرّضون بكنيته ، — والفصيل : ولد الناقة — ، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله ، فقال : فلنتناحب — أى نتواهن — على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ ، وإن ظهرت فارس على الروم غرمتَ — إلى ثلاث سنين ؛ ثم جاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بما كان بينه وبين أبىّ بن خلف ، فقال له : فهلا احتطت ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وأمره أن يزايد فى الخطر ، ويمُد فى الأجل ؛ فرجع أبو بكر إلى أبىّ ، وجعل الخطر مائة قلوص ، والأجل تسع سنين ، وكان ذلك قبل تحريم المراهنة ؛ ثم كان ما كان بين فارس والروم من حروب ، على النحو الذى ذكرناه آنفاً ، وانتهت هذه الحروب بانتصار الروم على فارس ، وتحقق وعد الله لمحمد ؛ وهو وحده المختص بتدبير كل أمر ، المنفرد بإنفاذ أحكامه وفق إرادته وقدرته ، من قبل هذه الغلبة ومن بعدها ، فيقدّر لهذا أن يُهزم ، ولذاك أن ينتصر ؛ وحينما تحقق ما أخبر به محمد من أن الروم سينتصرون على فارس ، فرح المؤمنون لأسباب :

أولها — انتصار أهل الكتاب على الوثنيين .

وثانيها — تحقق ما أخبر به ، وفى هذا تقرير لمركز النبوة وصدق الرسالة .

وثالثها — أن الله سلط هاتين الدولتين المسيطرتين على العالم ذلك فى الزمان

بعضهما على بعض ، فأضعفتهما الحروب ، وضعضعتهما المشاحنات ، وكان فى إضعافهما تقوية للإسلام ، وإذلال للكفار .

والله وحده هو القادر على أن ينصر أولياءه ، وينتقم من أعدائه ، ويهيئ الأسباب لإذلالهم — وهو فى الوقت نفسه واسع الرحمة ، يسبغها على من يشاء من عباده المؤمنين به ، وأوليائه الذين صغت قلوبهم لذكره ؛ والعلاقة بين بدء السورة بقوله : « الم » ، والتعقيب بقوله : « غلبت الروم » ، أن الله أراد أن يتحدى المعارضين من الخلق الذين ينكرون أن القرآن أنزله الله على رسوله ، بأن القرآن المكون من هذه الأحرف الثلاثة وما يشابهها من الحروف الهجائية ، يبدو إعجازه لجميع الخلق كافة بأنه أنبأ بالغيب ، فذكر حادثاً لا يقع إلا بعد بضع سنين ، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده ، فكان هذا دليلا قاطعاً على أن القرآن من عند الله .

٢ — وعد الله محمداً أن الروم ستنتصر على فارس ، وإذ وَعدَ الله فوْعدُه صِدق ، ولا بد أن يتحقق ، ولكن كثيراً من عباده ، وهم مشركو مكة وكفار قريش — وكانوا وقتئذ كثرة — لا يعرفون أن وعد الله لا بد من تحقيقه ؛ وهم إذ يجهلون هذا ، ويجهلون كل مايتعلق بشئون الآخرة ، ولا يفكرون فى البحث وراءها — يهتمون بمسائل الحياة الدنيا ، ويعرفونها معرفة خبير بها ؛ فهم يعرفون مواقيت الزرع والحصد ، وطرق البناء والتخطيط ، ووسائل توفير العيش الهنىء فى الدنيا ، وأسباب الراحة ، ولا يمتد نظرهم إلى ما وراء هذا ، فهم منصرفون عن الآخرة والتفكير فيها ، ومحاولة العلم بها ، والعمل لها ، ألا ساء ما يعملون !

(٢)

من الآية ٨ إلى الآية ١١ من سورة الروم

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ ؟ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ -١- . أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ -٢- . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ -٣- . اَللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إلا بالحق وأجلٍ مسمى	إلا بالعدل ، فلم يخلقها باطلا وعبثاً . وغاية محدودة مقدرة فى علمه ، لا يعلمها غيره .

الألفاظ	شرحها
عاقبة الذين من قبلهم	نهاية المكذبين لرسلهم .
وأثاروا الأرض	وحرثوا الأرض وزرعوها .
فما كان الله ليظلمهم	فحين عاقبهم الله وعذّبهم بسبب رسلهم ، لم يكن ظالماً لهم .
كانوا أنفسهم يظلمون	كانوا يظلمون أنفسهم ، بعصيانهم وعدم طاعتهم .
عاقبةَ الذين أساءوا	آخر أمر الذين كذبوا رسلهم ، وكفروا بربهم .
السُّوءَى	العقوبة التى هى أسوأ العقوبات وأشدها ، وهى تخليدهم فى جهنم .
يستهزئون	يسخرون .
يبدأ الخلق	ينشئ الخلق إنشاء ، ويبتدعه ابتداعا .
ثم يُعيده	ثم يرده خلقاً آخر بعد إفنائه .
ثم إليه ترجعون	ثم تردون إليه بعد الإعادة للحساب .

مجمل المعنى

١ — هؤلاء المعاندون المكابرون ، لو أنهم فكروا ورجعوا إلى أنفسهم ، لثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، والحق ينافى الباطل ، والباطل يؤدى إلى الفساد ، ولو كان فى السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا ، ولو فكر هؤلاء المعاندون المكابرون ، لَثبت لهم كذلك أن خلقه كله غير دائم ولا أبدىّ ، وإنما هو يعيش إلى أجل محدود قدّره الله فى سابق علمه ، وهو يوم القيامة الذى يحاسب فيه كل إنسان على ما عمل فى الدنيا ، ومع ذلك فإن كثيراً من الناس ينكرون هذا

اليوم، وينكرون لقاء ربهم، وهذا دليل على غفلتهم وجهلهم وسوء تفكيرهم .

٢ — هؤلاء الذين يكذبونك يا محمد ، لمَ لا يتأملون فى البلاد التى يسيرون فيها شمالا إلى الشام ، أو جنوباً إلى اليمن ، فى تجاراتهم وغيرها ، ليعرفوا ما كان عليه أهلها السابقون ، كعاد وثمود وغيرهما من الأمم والشعوب ؟ فقد كانوا فى رفَـه من العيش، ورَغَـد من الحياة ، فعمروا الأرض ، وأخرجوا منها خير ما يخرُج من زروع وفواكه وأشجار ، واتخذوا بيوتاً عظيمة ، وكان لهم عزّ وسلطان كبير لم تبلغه قريش ؛ فلما انحرفوا عن الحقّ ، وتنكبوا طريق الدين الصحيح ، أرسل الله إليهم أنبياء ، مثل هود وصالح ؛ فالذين آمنوا بهم سعدوا ونجوا ، والذين لم يؤمنوا بهم ، واستمروا فى عنادهم وطغيانهم ، عذبهم الله فى الدنيا بالعواصف أو الصواعق أو غير ذلك ، ولم ينفعهم ما كانوا فيه من قوة وعزة ، وجاه ومنعة ؛ وهم بكفرهم ظلموا أنفسهم ، وتسببوا لها فى العذاب ، وما كان الله ظالماً لهم حين عذّبهم .

٣ — وهؤلاء المكذبون لرسلهم ، لا ينتهي تعذيبهم عند ما لاقوْا فى الدنيا ، ولكنهم يجدون فى الآخرة أقبح ما يكون من تعذيب ، وأشنعه وأشدّه ، فيخلدون فى جهنم أبداً ، بسبب تكذيبهم رسل الله وآياته ، وبسبب استهزائهم بالرسل ، وبما كانوا يقدمونه لهم من أدلة قاطعة على صدق ما جاءوا به ، فكانت السُّوءَى عاقبتَهم على كفرهم .

٤ — الله الذى يكذب بوحدانيته هؤلاء المعاندون ، هو الذى أنشأ الخلق إنشاء ، ودبَّر له النظام المحكم الذى يحفظ كيانه ووضعه إلى انتهاء أجله ، وهو الذى يعيد هذا الخلق مرة أخرى يوم القيامة ؛ وهو الذى يحاسب كل واحد على ما كسب وما اكتسب ، فالمرجع إليه وحده .

(٣)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٩ من سورة الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ، وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ –١– . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ –٢– . فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا ، وَحِينَ تُظْهِرُونَ –٣– . يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تقوم الساعة	تجيء القيامة .
يُبلس المجرمون	ييئس الكافرون ، ويقفون حيارى مدهوشين .

الألفاظ	شرحها
من شركائهم	من زملائهم فى الشرك ، والداعين إليه .
كافرين	منكرين لهم ، متبرئين منهم .
يتفرقون	يفترق المؤمنون والكافرون ، كل إلى وجهته .
فى روضة يحبرون	فى جنة يتمتعون بمختلف أنواع المتع ، وألوان السرور .
مُحضرون	حاضرون فيه لا يغيبون عنه ، ولا يتخلصون من شدته وتراكمه .
فسبحان الله	فسبحوا الله وصلُّوا له .
حين تُمسون	حين تدخلون فى المساء .
وحين تصبحون	وحين تدخلون فى الصباح .
وله الحمد فى السموات والأرض	ولله وحده — دون غيره — الحمد والشكر .
وعشيًّا	وبعد الزوال وقبل المساء .
تُظهرون	تدخلون فى وقت الظهر .
ويحيي الأرض بعد موتها	يخرج منها الزرع والنبات ، بعد أن كانت ميتة مقفرة .
وكذلك تخرجون	ومثل إحياء الأرض بإخراج النبات منها ، يكون إحياؤكم بعد موتكم ، بإخراجكم من قبوركم .

مجمل المعنى

١ — حينما تقوم القيامة ، يرى الكافرون أن هذا وقت الفصل بين الناس ، فيتمنّون أن لو عادوا إلى الدنيا ، ولكنهم لا يعودون ، وييئسون من الخلاص من عذاب الله الواقع بهم ، ويتلفتون حولهم يبحثون عن زملائهم فى الكفر ، وإخوانهم الذين كانوا يدعونهم إلى الضلال ويزينونه لهم ، فيجدونهم مثلهم ، يقاسون ما يقاسون من عذاب ؛ فلا يستطيعون أن يشفعوا لأنفسهم فضلا عن أن يشفعوا لغيرهم ؛ فيتبرءون منهم ، ويكفرون بهم ، ولكن فات الأوان .

٢ — وحينما تقوم القيامة أيضاً يتفرق المؤمنون والكافرون : فأما المؤمنون فيذهبون إلى الجنة التى أعد الله لهم فيها أنواع النعيم ، وكرّمهم فيها غاية التكريم . ولو أرادوا أن يتصوروا الحالة التى سيكونون عليها فى الآخرة ، فعليهم أن يتصوروا روضة فيها أنواع النباتات والأزهار ، والمياه الجارية ، والطيور المغردة ، والثمار الناضجة ، والنسيم العليل ، وهم على صحة كاملة ، وبال فارغ ؛ ينعمون بهذا كله ، فليس عند الإنسان عيشة أهنأ من هذه العيشة ؛ ومع ذلك فإن للمؤمنين فى الآخرة خيراً منها ؛ وأما الكافرون الذين كفروا بالله ، وكذّبوا رسله ، ولم يؤمنوا باليوم الآخر ، فإنهم سيعذبون فى نار جهنم ، ويخلدون فيها ، ويقاسون حر نارها ، « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » .

٣ — يأمر الله المؤمنين الذين وعدهم الجنة أن يؤدوا الصلوات الخمس فى أوقاتها : فحين تُمسون : صلاة المغرب والعشاء ، وحين تصبحون : صلاة الصبح ، وحين العشىّ : صلاة العصر ، وحين تُظهرون : صلاة الظهر ؛ فهذه أوقات

خمسة ، فيها صلوات خمس ، تؤدى فى أوقاتها ، والله مع ذلك هو المخصوص بالحمد من جميع مخلوقاته فى السموات وفى الأرض ، ولا ينكر ذلك إلا الكفار المعاندون .

٤ – والله سبحانه وتعالى هو الذى يخرج الطائر من البيضة ، ويخرج النبات الغض الطرى من الحبة ، ويخرج النخل والخوْخ من النَّوَى ؛ وهذه كلها أشياء حية ، فيها مقومات الحياة ومظاهرها من نموّ وغيره ، خرجت من أجنة لا يظهر عليها أى مقوّم من مقوّمات الحياة ، وإن كانت الحياة كامنة فيها ، إلا أن الإنسان لا يحسها ، فهى فى حكم الميتة ؛ وهذه الأشياء الميتة تخرج من الأشياء الحية نفسها ، فالبيضة تخرج من الطائر ، ونواة البلح تخرج من النخلة ، وحب الذرة والقمح والشعير يخرج من نباته الحى ، وهكذا ؛ وكذلك الأرض المقفرة الميتة ، ينزل عليها الماء فيحييها ، ويخرج النبات منها ؛ ومثل هذا كله خَلْقُنا بدءاً لنعيش فى الدنيا مؤمنين أو كافرين ، وخلقُنا إعادة ليحاسب كل بما عمل من خير أو شرّ .

(٤)

من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٧ من سورة الروم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ –١– . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ –٢– . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ –٣– . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ –٤– . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ –٥– . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ –٦– . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ –٧– . وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ –٨– .

شرح الألْفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن آياته	ومن الأدلة على قدرته .
أن خلقكم	أن خلق أصلكم وأولكم ، وهو أبوكم آدم .
تنتشرون	تملئون الأرض وتتصرفون فيها .
من أنفسكم	من شكل أنفسكم ، وعلى هيئتكم .
لتسكنوا إليها	لتطمئنوا إليها ، وليتم التآلف والتجانس بينكم .
إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون	إن فى خلق الله إياكم على هذهِ الطريقة ، وفى خلق زوجاتكم على هذه الصورة ، أدلّة على قدرة الله للمؤمنين العقلاء الذاكرين .
للعالمين	للعاقلين الذين يفهمون ويفكرون .
منامكم	نومكم .
يسمعون	يسمعون كلام الله فيتعظون .
خوفاً وطمعاً	يخيفكم البرق إذا كنتم فى غير حاجة إلى المطر وتزعجكم صواعقه ورعوده ، وتطمعون فيه وتتمنونه إذا كنتم فى حاجة إلى المطر .
أن تقوم السماء والأرض بأمره	قيام السماء والأرض على النظام البديع الذى نراه .
إذا دعاكم دعوة من الأرض .	إذا رغب فى إحيائكم بعد الموت .
إذا أنتم تخرجون	تسرعون إلى الخروج من الأرض أحياء .

الألفاظ	شرحها
قانتون	خاضعون مطيعون .
وهو أهون عليه	إعادة الخلق أيسر من بدء خلقه ، والبدء والإعادة بالنسبة إلى الله سواء .
وله المثل الأعلى	وله الوصف السامى الذى ليس لغيره مثله .
فى السموات والأرض	عند أهل السموات وأهل الأرض .
وهو العزيز الحكيم	والله عزيز فى انتقامه من أهل الكفر ، حكيم فى تدبيره وتصريفه على أى وجه كان .

مجمل المعنى

ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات بعض الأشياء الدالة على قدرته ، فإنه هو وحده القادر على الإنشاء والإفناء ، والإحياء والإماتة ، والإيجاد والإعدام ؛ ونشرح هذه الآيات فيما يلى :

١ — من العلامات الدالة على قدرته تعالى أنه خلق آدم من تراب ، فخلق حياة من موات ، ثم هيأ له ما جعله يتناسل هو وذريته من بعده ، حتى انتشروا فى الأرض وملئوها وعمروها .

٢ — ومن العلامات الدالة على قدرته تعالى أيضاً ، أنه بعد أن خلق آدم من تراب ، خلق له حوّاء ، وجعلها على صورته وهيئته ، ليسكن إليها وتسكن إليه ، وليتم بينهما التآلف والتوادّ والتراحم ، وكان من نسلهما على هيئة كل منهما وصورته أناسىّ من الذكور ومن الإناث ، فتزاوجوا

وتناسلوا ؛ وفى هذا دلائل على قدرة الله، يعرفها ويقدرها كل من يفكر فيها تفكير تذكر واعتبار .

٣ — ومن الدلائل على قدرة الله كذلك ، أنه خلق السموات والأرض ابتداء بقدرته وتدبيره ، وصيّرها على هذا النظام البديع ؛ وأنه بعد أن خلق آدم وحواء ، جعل ذريتهما مختلفة الألسن : فهذا يتكلم العربية ، وذاك يتكلم الإنجليزية ، وغير ذلك ؛ وقبل هؤلاء كانت السريانية واللاتينية وغيرهما ؛ وقبل هؤلاء جميعاً ، كانوا يتكلمون بلغات بُدائية يتفاهمون بها فى حدود حاجاتهم ، وأكثر من هذا أنك قلما تجد صوت إنسان ذكراً كان أو أنثى — ونَبْرُه يتفق مع صوت إنسان آخر ، ومع هذا الاختلاف الكبير فى الألسنة ، فإن هناك اختلافاً أيضاً فى الألوان : فمنهم السود والبيض والحمر والسمر ؛ واللون العام فى الجنس البياض أو السواد مثلا ، ولكنك إذا دققت النظر فى البيض أو السود أو غيرهما ، شق عليك أن تجد لون أبيضين أو أسودين متشابهاً تمام الشبه ؛ وهذه الأشياء كلها تدل دلالة قاطعة على قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، لا يدركها إلا العالمون المتفقهون ، لدقة ما بينها من فروق .

٤ — والله خلق ليلاً ونهاراً ، وكان الناس ينامون فى الليل، ويسعون فى النهار لقضاء حاجاتهم ، والسعى وراء معايشهم ، والتصرف فى أرزاقهم ؛ والإنسان الآن بعد اختراع الآلات ، أصبح يعمل فى الليل وفى النهار ، ويلتمس راحته فى غير وقت العمل ليلا كان أو نهاراً ، ولكنه ما زال يعترف أن النوم المريح ما كان فى الليل ، وأن أفضل العمل ما كان فى النهار ، فآية الله ما زالت وستبقى قائمة ، يعرفها الذين يسمعون هذه الآيات ، فيعتبرون بها .

٥ — ومن الدلائل على قدرته تعالى ، أنه يريكم البرق ، فتكونون منه على إحدى حالتين : حالة خوف وجزع ، وحالة اطمئنان واسترواح ؛ أما الحالة الأولى فتعتريكم إذا كنتم على سفر ، فتزعجكم الصواعق ، وتخيفكم الرعود ، ثم ينزل المطر فيعوقكم عن متابعة السفر ، وكذلك إذا كنتم مقيمين تترقبون المطر فيبرق البرق ، ويرعد الرعد ، ولا ينزل المطر .
وأما الحالة الثانية فتأتى إذا كنتم مقيمين فى موسم زرع الشعير أو خروج المراعى ، فإن البرق يبشر بنزول المطر الذى تستطيعون أن تنتفعوا به فى إرواء الأرض ، وبهذا تحيا الأرض ، وينقلب جدبها خصباً ؛ وتستنبتون ما تشاءون من حبّ لكم ، ومرعى لماشيتكم ؛ وهذه الآيات لا يعرفها إلا عقلاء الناس الذين يفهمون ويتدبرون .

٦ — الأرض والسموات قامت بأمر الله وقدرته وإرادته ، وقامت الكواكب ومنها الأرض بوضعها الحالى ، وثبتت فى الفضاء بما بينها من تجاذب ، والتجاذب حقيقة ثابتة بالمشاهدة والواقع ، ولكن : ما حقيقة الجاذبية وماهيتها ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف تكون ؟ فهذه كلها أمور اختص الله سبحانه وتعالى بها ، لا يدركها أحد ؛ وقد قامت هذه الكواكب كلها على قانون الجذب العام ، ولم يكشفه العلماء إلا من نحو قرنين وبعض قرن ، ولكن القرآن أشار إليه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ؛ والجاذبية التى أراد الله أن يجعلها بين الأرض وغيرها من الكواكب ، ثم بين الكواكب بعضها وبعض — ذات أثر كبير جداً فى عمران الكون ؛ فلولاها مثلا لطارت الأجسام عن الأرض فى الفضاء اللانهائى ، ولولاها لما استقرت المياه فى البحار والمحيطات ، ولما سقط مطر ، ولا تكوّن نهر ، ولا كانت حياة ؛ ومع أن قانون الجذب العام تقوم عليه الكواكب كلها فى أماكنها ،

فإن إرادة الله تقضى بأن يختل هذا النظام يوماً ، فتمور السماء مَوْراً ، وتقوم القيامة ، ويفنى الناس ، ثم يدعوهم الله ويبعثهم بعد الموت ، فيخرجون من الأرض أحياء كحالتهم الأولى ، ليحاسبوا على ما قدموا من عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ .

٧ — إذا كان هذا كله دليلا على قدرة الله ، وعلى أنه من صنعه ، فإن كل شيء فى ملكه منقاد له ، مطيع لأمره ، وما يبدو على بعضهم من كفر وجحود ، فسببه كبر وعناد ، وهم جميعاً يشهدون بينهم وبين أنفسهم أن هناك إلهاً ، وأن الإله خالق كل شيء ، ويتصرف فى كل شيء .

٨ — الله الذى أقيم الدليل على قدرته بما تقدم من الأمثال وبغيرها ، مما يقع تحت حس الإنسان وتحت سمعه وبصره ، هو الذى بدأ الخلق ، وهو الذى يعيده ، ولا شك أن الإعادة أيسر من الإنشاء ، ولا شك كذلك أن الله — وهو صاحب هذه القدرة العظيمة — كل شيء هيّن عليه : إعادة أو إنشاء ، وله أسمى مثَل فى الصفات ، وأسمى مثَل فيما يفعل فى الأرض أو فى السماء ، أو فيما بين الأرض والسماء ، ومعروف فى عرف الإنسان أن إعادة الشيء أهون من إنشائه ، فضرب الله لنا المثل بما نفعل نحن ، لأن كل شيء على الله يسير ، وكل ما يريده يكون ، فهو قاهر لكل شيء ، حكيم فيما يريد ويفعل .

(٥)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٢ من سورة الروم

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ، فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ —١—. بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ؛ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ —٢— . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ —٣—. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ : مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من أنفسكم	من أقرب شيء إليكم ، وهو أنفسكم .
مما ملكت أيمانكم	من عبيدكم الذين تملكونهم .

الألفاظ	شرحها
فيما رزقناكم	فيما أعطيناكم من مال .
تخافونهم كخيفتكم أنفسكم	تخافون عبيدكم أن يقاسموكم أموالكم ، كما تخافون غيركم أن يقاسموكم هذا المال بدون وجه حق .
كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون	وكما بيّنا بالأدلة العقلية قدرتنا على فعل ما نريد ، بيّنا هنا ما يدركه العاقلون من ضرب هذا المثل .
ظلموا	ظلموا أنفسهم بإشراكهم بالله .
بغير علم	جهلا منهم بالواجب عليهم نحو الله من توحيد .
فمن يهدى من أضل الله	فلا أحد يهدى للإيمان من قدّر الله عليه الضلال .
وما لهم من ناصرين	وليس للذين قدر الله عليهم الضلال من ينصرهم ، ويأخذ بيدهم ، ويبصّرهم بطريق الخير .
فأقم وجهك للدين	فاتبع الدين الصحيح ، وبيّن التوحيد والفطرة .
حنيفاً	معتدلا سليماً من جميع الشوائب التى شابت الديانات الأخرى .
فطرة الله التى فطر الناس عليها	اتبع دين الفطرة والطبيعة التى خلق الله عليها الناس ، وهو دين التوحيد .
لا تبديل لخلق الله	لا تغيير لما قدّره الله ، فمن قدّر الله له السعادة لا يشقى ، ومن قدر له الشقاء لا يسعد .
ذلك الدين القيم	هذا الدين — وهو دين الفطرة ، دين الإسلام ، دين التوحيد — هو الدين المستقيم .
لا يعلمون	لا يفكرون تفكيراً ينبنى عليه علم يقينى صحيح .

الألفاظ	شرحها
منيبين إليه	راجعين إليه تائبين ، مطيعين له ، مقبلين على عبادته .
واتقوه	وخافوه ، وأطيعوا أمره .
فرقوا دينهم	غيّروا فى أصوله ، وأدخلوا عليه من البدع والضلالات ما أفسده .
وكانوا شيعاً .	وكانوا فرقاً وأحزاباً ، فتعددت آراؤهم ومذاهبهم .
كل حزب بما لديهم فرحون	كل جماعة منهم مسرورون بما ابتدعوا من مذاهب وآراء .

مجمل المعنى

١ — أراد الله أن يبين للمشركين بطريق التمثيل سوء ما يصنعون من إشراك به وهم عباده ، فسألهم : أيرضى أحدكم أن يكون عبيده ومواليه شركاء له فى ماله الذى أعطيناه إياه ، ويكونون سواء فى هذا المال : ينتفعون به ، فينفقون ، ويتمنعون ، ويتصرفون ، فيعطون هذا ، ويحرمون ذاك ، ويسيطرون عليه سيطرة تجعلهم — فيما يظنون — ذوى حق فيه ، فيقاسمونكم إياه كما يقاسمكم الشريك الحقيقى ؟ ! ولو أنه طُلب إليكم أن تجيبوا عن هذا السؤال ، لأجبتم بالرفض طبعاً ؛ فإذا كنتم لا تقبلون هذا من عبيدكم الذين هم ناس مثلكم ، ولا فرق بينكم وبينهم أكثر من أن الله وّسع عليكم رزقكم ، وجعلكم تملكونهم عبيداً ، فكيف تقبلونه على الله ، وهو الذى خلقكم ورزقكم ، وخلق مَن تُشركون معه فى العبادة أيًّا كان جنسه

ونوعه ؟ وبمثل هذا التفصيل البديع ، والتوضيح المفهم المقنع ، بيّن الله ما يدركه العاقلون بضرب هذا المثل .

٢ — قامت الحجة على عبدة الأصنام والمشركين بالله ، بعدأن ضرب الله لهم هذا المثل الواضح ، ولكنهم — جهلاً منهم بالواجب عليهم نحو الله وتوحيده — ظلوا قائمين على عَماهم ، وغلب عليهم هواهم ، وعكفوا على عبادة الأصنام ؛ ومثل هؤلاء قَدّر الله عليهم الضلال ، فلن يهتدوا ، ولن يكون لهم ناصر يخلّصهُم من عذاب الله ، أو يرشدهم إلى الخير ، فيؤثر فيهم ، ويخرجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان .

٣ — يأمر الله نبيه ومن معه وغيرهم من الناس أن يتبعوا الدين الصحيح : دين التوحيد ، وهو دين الفطرة المعتدل السليم السمح ، الخالى من جميع الشوائب التى لَصقت بالديانات الأخرى التى سبقته ، وهو الدين الذى يولد الناس عليه ، كما جاء فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه ، كما تُنتج البهيمةُ بهيمة جمعاء — أى سالمة من العيوب كاملة — هل تحسون فيها من جدعاء ؟ — يعنى مقطوعة الأذن » ، فالإنسان يولد بفطرته سليماً مبرّأ من كل عيب ، ولكنه صالح لأن يشكل على الشكل الذى يريده له أبوه أو أمه ، وهو أصلح ما يكون لدين الفطرة : دين التوحيد ، فإذا اتجه به أبوه أو أمه إلى غير ذلك ، نشأ على الدين الذى يخالف طبيعة البشر ؛ ومثله فى ذلك كمثل البهيمة ، تولد سليمة كاملة الأعضاء ، وأصحابها هم الذين يملكون أن يحافظوا على سلامتها ، ويملكون أن يشقّوا آذانها ، ويقطعوا أنوفها ؛ وكل ما قدره الله للإنسان يجرى عليه : فمن

قدّر الله له السعادة كان سعيداً ، ومن قدر له الشقاء كان شقيًّا ، لا يغيَّر ما قدَّره الله ولا يبدل ؛ وهذا الدين الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الدين الذى يتناسب مع طبيعة الناس ، هو دين الفطرة السمح السهل ، إذا صادف القلوب وهى فارغة تمكن منها تمكناً شديداً ، ولكن أكثر الناس لا يفكرون تفكيراً صحيحاً قويماً ، يهديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

٤ — يأمر الله محمداً وأمته أن يكونوا على الدين الصحيح ، دين الفطرة ، مطيعين لله ، مقبلين على عبادته ، مقيمين الصلاة ، بعيدين عن الشرك وعن المشركين الذين حادوا عن الطريق الصحيح ، ونظروا إلى دياناتهم نظرات ذات هوى ، وأولوا مسائلها تأويلا يتفق مع هواهم ، فتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، وتعصب كل حزب لرأيه ، ودافع عن مذهبه ، وفرح به ، وأعماه ذلك عن النظر الصحيح ، فظل على غيّه ، واستمرأ ضلاله ، فلم يتبين الحق ، وانبهم أمامه طريق الهدى .

(٦)

من الآية ٣٣ إلى الآية ٤٠ من سورة الروم

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ —١— . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ، فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ! —٢— . أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟ —٣— . وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَاهُمْ يَقْنَطُونَ —٤— . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٥— . فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ —٦— . وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ —٧— . اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ! —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مس الناس ضر	أصاب الناس شدة ، من قحط أو فقر أو مرض أو غير ذلك .
منيبين إليه	راجعين إليه ، ومقبلين عليه .
فسوف تعلمون	فسوف تعرفون نتيجة عملكم .
أذاقهم منه رحمة	تفضل بنعمة العافية عليهم ، وتفريج الكرب عنهم .
سلطاناً	كتاباً فيه حجج وأدلة .
وإن تصبهم سيئة	وإن يلحق بهم بلاء وشدة وعقوبة .
بما قدمت أيديهم	بسبب ما عملوا من المعاصى .
إذا هم يقطنون	إذا هم ييئسون من رحمة الله وفرجه ، ويهملون فرائضه .
يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر	يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء من عباده .
فآت ذا القربى حقه	فأعط القريب حقه من مالك .
والمسكين	والذى لا يملك ما يقوته .
وابن السبيل	والذى انقطع به الطريق فطلب الضيافة .
يريدون وجه الله	يقصدون بعملهم رضا الله وثوابه .
وأولئك هم المفلحون	وأولئك هم الفائزون فى الدنيا برضا الناس ، وفى الآخرة بثواب الله .
وما آتيتم	وما أعطيتم .
ليربو	ليزيد ويزكو .

الألفاظ	شرحها
فلا يربو	فلا يزيد ولا يزكو ، ولا تجرى عليه بركته .
من زكاة تريدون وجه الله	من صدقة تبتغون بها فضل الله ، فلا رياء ولا سمعة ، ولا طلب نفع ، ولا غير ذلك .
فأولئك هم المضعفون	فأولئك هم الذين تضاعف لهم الحسنات أضعافاً ، ويصيبهم من الخير والنعيم شيء كثير .
الله الذى خلقكم	الله وحده هو الذى فعل هذه الأشياء ، ولا يستطيع غيره أن يفعل شيئاً منها .
من شركائكم	من أصنامكم التى تعبدونها من دون الله .
سبحانه	تنزيهاً له عن المصاحب والشريك والزوجة والولد !

مجمل المعنى

١ — من طبيعة الإنسان أنه إذا أصابته شدة : فمرض مثلا ، أو أصيب فى ماله أو ولده ، أوكان راكباً بحراً فأصيب مركبه ، أو لعب به موج شديد ، أو كان راكباً طيارة فأحس عطباً فى محرك من محركاتها ، أو غير ذلك من الأمور التى ليس فى إمكانه أن يخلص نفسه منها بسهولة ويسر ، أو تجعله يحس أن الموت منه قريب — إذا حدث للإنسان شيء من هذا ، فإن أول شيء يحضره هو الله ، يضرع إليه ، ويدعوه ليكشف ما به من ضر ، ويكون فى هذا الوقت مخلصاً لله ، صافى النية ، طاهر القلب ، وينوى أنه إذا قدر له أن يكشف الله عنه ما به من ضر ، فيصح من المرض ، أو ينجو من الغرق ، أو تسلم طائرته من العطب ، فإنه سيكون

من عباده المخلصين له ، الذين لا يفتُرون عن عبادته ، ولا يقصرون فى حق عبد من عباده ، فإذا تم لهم هذا لا يلبثون — ما عدا قليلا من عباد الله المخلصين — أن ينسوا ما كانوا فيه من بلاء عظيم ، وما كان لله عليهم من فضل فى كشف الغمة عنهم ، ويعودون إلى ضلالهم وغيهم ، بل إن بعضهم يعودون إلى إشراكهم بالله ، وبئس ما يصنعون !

٢ — ولكن الله — سبحانه — لا يبالى هؤلاء ، فليشركوا ما شاءوا أن يشركوا ، وليتمتعوا بدنياهم ما شاءوا أن يتمتعوا ، ولينسوا فضل الله عليهم ما شاءوا أن ينسوْا ، فإن الله من ورائهم محيط ؛ وفى هذا تهديد لهم ، ووعيد بسوء مصيرهم .

٣ — هؤلاء الذين يشركون بالله ، هل لديهم دليل على صحة ما يذهبون إليه من عبادة الأصنام والأوثان ؟ كلا ! لم ينزل الله عليهم كتاباً يحتجون به ، ويستدلون منه على صحة ما يصنعون من شرك .

٤ — وعادة الناس — إلا من عصم الله — أنهم يفرحون بما ينعم الله به عليهم من مال وولد، وصحة وجاه وسلطان ، ونحو ذلك من الأشياء التى تسرهم فى دنياهم ، وإذا أصيبوا بشىء من فقر ، أو رزئوا فى ولد ، أو سُلبوا سلطاناً ، أو غير ذلك مما يزعجهم ويُحزنهم ، أو يضايقهم فى معاشهم أو جاههم ، تألموا لذلك ،ويئسوا من رحمة الله ، وقد ينصرفون عن إخلاصهم لله ، وهذا دليل على ضعف الإيمان ، وفتور النية ، وزلزلة العقيدة .

٥ — ولو أن الناس فكروا بعض التفكير ، لعلموا أن الله هو الذى يعطى ويحرم، ويوسع رزق هذا ويضيق رزق ذاك ، وأن كل شى من خير أو شر بيده ؛ ولكن لا يعتبر بهذا إلا ذوو القلوب المؤمنة المطمئنة ، الواثقة بالعدالة الإلهيـــة .

٦ — وإذا كان كل شيء مرجعه إلى الله ، والرزق مرجعه إلى الله ، فإنه يجب على الإنسان ألا يضن بماله ، وأن يخرج حق غيره من ماله طيبَ النفس ، راضى القلب ، فيعطى أقاربه حقوقهم ، وخير الصدقة ما كان للقريب ، وقد جعل الله الصدقة عليهم حقًّا لهم ، ليهون عليه أن يؤدى الحق ، وليأخذوا هم الصدقة من غير أن يتأذوا ؛ وكما أن للقريب فى مال قريبه الغنىّ حقًّا ، فإن للمسكين حقًّا ، وإن لابن السبيل حقًّا ، وتوصيل حقوق هؤلاء جميعاً إليهم ابتغاء وجه الله ، عمل جليل من المعطى ، يقدره الله له ، ويثيبه عليه فى الدنيا ، بأن يبارك له فى ماله ، وفى الآخرة ، بأن يدخله الجنة .

٧ — الربا ربوان : ربا حرام وربا حلال ، أما الربا الحرام فقد سبق الحديث عنه ، عند تفسير قوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ... » ، (تراجع الصفحة ٤٠ ومابعدها من تفسير الجزء الثالث) ، وأما الربا الحلال فهو المقصود فى قوله تعالى : « وما آتيتم من رباً ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » ، وذلك أن تقدم لغيرك هدية أو هبة من مأكول أو ملبوس أو مشروب ، أو تعاونه فى تجارة أو عمل مثلا ؛ ولا تقصد أن تقدم هذا لمجرد المعاونة والمؤازرة ، ولكنك تريد أن يرد عليك بما هو أفضل منه ، والذى يفعل هذا لا له ولا عليه ، فليس له أجر ، وليس له وزر ، وماله لا يزيد ولا يزكو ، ولا ثواب عليه ، وما يقدمه الإنسان صدقة خالصة لوجه الله من ماله أو عمله ، فذلك هو الذى يثيب الله عليه ، ويجعل جزاءه أضعافاً مضاعفة .

٨ — الله هو القادر على كل شيء ، المتصرف فى كل شيء ، فهو الذى خلق الخلق جميعاً ، وهو الذى رزقهم جميعاً بعد خلقهم ، وهو الذى يميتهم ، بعد أن يستوفوا آجالهم ، وهو الذى يحييهم يوم القيامة ليحاسبهم ، فهل

يستطيع أي معبود للمشركين الذين يشركون مع الله آلهة أخرى أن يتصرف فى حياة الكائنات : خلقاً ورزقاً ، وإماتة وإعادة ؛ أو أن يتصرف فى بعض هذا ؟! الحق أنه لا يستطيع ، والمشركون أنفسهم يعترفون أن آلهتهم لا تستطيع ؛ فالله وحده هو القادر ، وهو منزه عن الصاحب والشريك والزوجة والولد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !.

(٧)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٥ من سورة الروم

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ -١- . قُلْ : سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ -٢- . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ، لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ظهر الفساد فى البر والبحر	انتشرت المعاصى فى كل مكان ، حتى عمت الأرض كلها ، ماءها ويابسها .
بما كسبت أيدى الناس	بسبب ما يفعله الناس ، ويرتكبون من الشرور والآثام .

الألفاظ	شرحها
ليذيقهم بعض الذى عملوا	ليعذبهم جزاء ما ارتكبوا من السيئات .
لعلهم يرجعون	لعل إذاقتهم العذاب على بعض ما ارتكبوا من ذنوبهم ، يجعلهم يرجعون عن غيهم ، ويثوبون إلى صوابهم :
فأقم وجهك للدين القيم	فاتبع الدين الصحيح ، وهو دين الإسلام .
لا مرّد له من الله	لا مرجع عنه ، وهو يوم القيامة ، إذا أتى فلن يكون إلا الحساب ، ولا رجعة إلى الدنيا .
يومئذ يصّدّعون	يومئذ يتفرق الناس : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .
فعليه كفره	فعليه جزاء كفره .
فلأنفسهم يمهدون	فإنما يمهدون لأنفسهم مهاداً طيباً فى الجنة يوم القيامة ، بما يعملون من الصالحات .

مجمل المعنى

١ — عمّ الفساد ، وانتشرت المعاصى ، ولم يسلم أحد من ارتكاب الخطايا فى برّ ولا بحر ، وظهر هذا كله فى أفعال الناس ؛ فأراد الله أن يعظهم وينبههم لعظم ما يفعلون ، فألحق بهم العذاب جزاء على بعض ما يرتكبون من خطايا وآثام ، لعله أن يكون فى ذلك عبرة لهم .

٢ — وأمر الله رسوله محمداً أن يطلب إلى قومه الذين لا يؤمنون به ، أن يسيروا فى الأرض المجاورة لهم ، ليروا آثار من كان قبلهم ممن كذبوا رسلهم ،

كعاد وثمود ، فإن أكثرهم أشركوا بربهم ، ولم يؤمنوا بنبيهم ، فعذبهم الله بسبب كفرهم .

٣ — وأمره كذلك أن يوجه وجهه إلى الجهة التى أرادها الله له ، وهى الدين المستقيم القويم ، ولا يتأثر بعناد قومه وتكذيبهم ، وسيأتى اليوم الذى لا مردّ له ، اليوم الذى يلقى فيه كل إنسان جزاءه على ما قدم من عمل ، فيذهب المؤمنون إلى الجنة ، ويساق الكافرون إلى النار ؛ والكافر فى هذا اليوم عليه عقاب كفره ، والصالح له جزاء صلاحه وإيمانه ، فقد أعد لنفسه بما قدّم من عمل صالح مأوى مريحاً ، وفراشاً هنيئاً فى الجنة ؛ وإذ يفرّق الله الناس فريقين : فريقَ أهل الجنة ، وفريقَ أهل النار ، يجزى كلاً بعمله ، وهو لا يحب الكافرين .

(٨)

من الآية ٤٦ إلى الآية ٥٤ من سورة الروم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ -١- . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ -٢- . اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ -٣- . فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ ، كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ -٤- . وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ، فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ، وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ -٥- . اللهُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن آياته	ومن الدلائل على كمال قدرته .
مبشّرات	منبهات على نزول المطر الذى يرغبون فى نزوله ، فهى بشير يحمل إليهم ما يسرهم .
من رحمته	من رضاه عليكم ، بما يترتب على نزول المطر من إرواء الأرض ، وإنبات الزرع .
ولتجرى الفلك بأمره	ولتسير السفن فى الماء بإرادة الله على ما تشتهون .
ولتبتغوا من فضله	ولتطلبوا من فضل الله ما تريدون .
ولعلكم تشكرون	ولعلكم بعد أن عدد الله بعض نعمه عليكم ، تشكرون له فضله بالطاعة والتوحيد .
بالبينات	بالمعجزات والأدلة التى تُثبت ثبوتاً قاطعاً أنهم صادقون فيما جاءوا به .
فانتقمنا من الذين أجرموا	فعذبنا الذين أجرموا ببقائهم على الكفر ، وإيذاء أنبيائهم .
الرياح	تيارات هوائية ناشئة من اختلاف الضغط الجوى علواً وانخفاضاً .

الألفاظ	شرحها
فيبسطه فى السماء	فيجعله ينتشر فى السماء هنا وهناك .
كِسَفاً	قطعاً ، والكِسَف : واحدها كِسْفة .
الودْق	المطر .
من خلاله	من بين فروجه .
يستبشرون	يسرون لنزوله ، ويفرحون به .
لمبلسين	ليائسين قانطين .
إلى آثار رحمة الله	إلى آثار المطر بعد نزوله .
يُحيي الأرض بعد موتها	يجعل فيها حياة بعد موت ، وخصباً بعد جدب .
إن ذلك لمحيي الموتى	إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها ، يكون قادراً على إحياء الناس بعد موتهم .
ريحاً	ريحاً دَبُوراً لا خير فيها ، فلا تثير السحاب ولا تسوقه .
فرأوه مصفراً	فرأوا السحاب أو الزرع أصفر اللون ، لأن السحاب الأصفر لا يمطر ، والزرع الأصفر ييبس ولا يثمر .
لا تُسمع الموتى	لا تؤثر فى هؤلاء الناس ، فهم كالموتى لا يسمعون ولا يعتبرون ، وهذه أحط درجات الحس الإنسانى .
ولا تُسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين	الذى لا يسمع بطبعه ، لا تستطيع أن تُسمعه صوتك إذا ناديته ولو كان مقبلا ، فكيف إذا كان مدبراً ؛ وهؤلاء الكافرون سلبهم الله نعمة الفهم والتبصر ، فكأنهم صُمٌّ لم يسمعوا .

الألفاظ	شرحها
وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم	ولست قادراً على إهداء من أعماه الله عن طريق الصواب .
إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا	لا يستمع لك ، ولا يتأثر بدعوتك ، إلا الذين شرح الله صدورهم للإيمان ، فسمعوا فتدبروا ، واتعظوا فآمنوا .
فهم مسلمون	فهم مطيعون لله ولرسوله ، مستجيبون للدعوة ، ملتزمون حدودها .
من ضعف	من أصل ضعيف حقير مَهين ، وهو النطفة ، أو فى حالة ضعف .
ثم جعل من بعد ضعف قوة	ثم درّجكم فى مراحل النمو الجسمى والعقلى حتى نضجتم ، وصرتم قادرين على التصرف .
ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وَشيبة	ثم ردّكم بعد القوة الجسمية والعقلية إلى الضعف فى الناحيتين كلتيهما .
العليم	الخبير بما يصح أن يجرى لتدبير شئون هذا الخلق كله ، فى الأرض والسماء وما بينهما ، وفيما وراء الأرض والسماء .
القدير	الذى لا يمتنع عليه شىء ، ولا يعجزه شىء .

مجمل المعنى

١ — من الدلائل القاطعة على قدرة الله تعالى ، أنه يرسل الرياح ، ويجعلها تجرى هنا وهناك ، بناء على ما يحدث من ضغط مرتفع أو منخفض ؛ وهذه الرياح

تحمل بخار الماء ، وتحمله فى الجو إلى طبقات باردة ، فيتكاثف وينعقد ماء، وتتضامُّ قطيراته الدقيقة بعضها إلى بعض، وتكوِّن السحاب ، ويزداد تكاثف السحاب حتى يعجز الهواء عن حمل مائه ، فيسقط مطراً ، يرحم الله به عباده ، فيرتوون هم ، ويسقون حيوانهم ، ويستنبتون زرعهم ، فيخرج المرعى للماشية ، ويخرج الحب — وليس عمل الرياح مقصوراً على أنها تثير السحاب ، وتحمله إلى حيث يسقط مطراً ، ولكنها هى التى تسوق السفن فى البحار ، فتدفعها إلى الجهة التى يريد الملاح إن كان وجهته أن يسير فى اتجاهها ، وذلك بأمر الله وقدرته وإرادته ، وبأمره كذلك لا تكون الرياح مواتية ، فيُضطرّ الملاحون إلى تأجيل سفرهم ، وإرساء سفنهم ؛ وإن سقوط المطر النافع ، والسير فى البحر بالسفن سعياً وراء الرزق ، وتمكين الناس من الإفادة من هذا وذاك — كله من فضل الله على عباده ، لعلهم إذ يذكرون هذا ويفكرون فيه ، يشكرون له إنعامه عليهم ، وتلطفه بهم .

٢ — لقد أرسلنا قبلك يا محمد رسلا إلى الناس ، فبلغوا الرسالة ، وأقاموا الأدلة على صدقهم ، وكان الناس بين مصدق ومكذب ، أما الذين كذبوا ، وظلّوا على كفرهم ، فقد عذبهم الله ، وأخذهم أخذاً شديداً ؛ وأما الذين آمنوا، فإن الله نجاهم ونصرهم على أعدائهم، ومن حق المؤمن على الله أن ينصره ، وينجيه من العذاب .

٣ — الله — سبحانه وتعالى — هو الذى يجعل الرياح سبباً فى إظهار السحاب ، بعد أن يتبخر الماء بالحرارة من البحار والأنهار ، وهذا السحاب ينتشر فى الجو بفعل الريح أيضاً ، ولكنه يختلف كثرة وقلة، ووجوداً وعدماً ، باختلاف أنواع الرياح ، فمن الرياح : الدائم والموسمى ، والمحلى والإعصارى ،

وينشأ من هذه الأنواع المختلفة اختلاف فى انتشار السحاب ، ونوع كثافته ، وكثرة المطر هنا وقلته هناك ، فالمنطقتان : الاستوائية والبحرية الغربية « غرب أوربا والأمريكتين » ، يدوم المطر فيهما ، والمنطقة المدارية من العالم كله مطرها صيفى ، ومنطقة البحر الأبيض وما يشبهها مطرها شتائى ربيعى ، ومنطقة الصحراوات مطرها قليل نادر ؛ وهذه كلها أمور تجرى على مشيئة الله وإرادته ، فإنه حيث تتهيأ أسباب الأمطار ترى السحاب قطعاً منتشرة ، ولكنه بسبب شحنات كهربية أودعها الله إياها ، تجرى أمور طبيعية من تجاذب وتنافر ، فتحدث برقاً ، يعقبه رعد ، يأتى بعده المطر ؛ وهذا المطر ينزل على من حرموا الماء فى الصحراء فيفرحون له ، ويستبشرون به ، لما يترتب على نزوله من خير لهم ، مع أنهم كانوا قبل نزوله عليهم يائسين من رحمة الله ، فلا أمل عندهم بسقوطه ، ولكن الله أرحم بعباده ، ورحمته تدركهم بعد أن يبلغ اليأس منهم كل مبلغ .

٤ — هذا المطر الذى ينفع الله به عباده ، ويجعله رحمة لهم ، يحيى الأرض بعد موتها ، ويكسبها الخصب والنماء ، والله الذى قدر على إحياء الأرض ، قادر كذلك على إحياء الموتى يوم القيامة لحسابهم ، بل هو قادر على أن يفعل كل شىء يريده .

٥ — يرى الناس الأرض ميتة ، ويتأخر عنهم المطر ؛ فييئسون من رحمة الله ، ثم يسقط المطر فتحيا الأرض ، فيفرحون بنعمة الله ، ثم تهب الريح على الزرع فيصفرّ وييبس ، فيعودون إلى قنوطهم ويأسهم وكفرهم ؛ والناس الذين تكون هذه حالهم ، لا يرجى الخير منهم ولا لهم ؛ فقد أغلقت قلوبهم ، وصَمَّت آذانهم ، وعميت أبصارهم ، وأنت يا محمد لست مكلفاً أن تفتح القلب المغلق ، ولا أن تُسمع الأصم ، ولا أن تهدى الأعمى ؛

ولكن الذى عليك أن تبلغ رسالة ربك ، فيؤمن بك الذين هداهم الله ، فسمعوا مواعظه ، فقبلتها قلوبهم ، ولم تمجها أسماعهم ، فاستجابوا للدعوة ، والتزموا حدودها .

٦ — ومن الأدلة التى تثبت قدرة الله تعالى خَلْقُ الإنسان نفسِه ، وتطورات حياته فى أدوارها المختلفة : فهو مخلوق أولا من شىء ضعيف حقير مهين ، هو النطفة الخارجة من أصلاب الرجال وترائب النساء ، وبعد أن يتم الإخصاب بين حيوان الرجل وبويضة المرأة ، يتقلب الجنين فى أدوار مختلفة ، تظهر فيها عجائب القدرة الإلهية : فالنطفة البيضاء تتحول فى الرحم إلى علقة حمراء ، ثم تتحول العلقة الحمراء إلى جسم بعضه قوىّ صُلب وهو العظم ، وبعضه ليّن طرى وهو اللحم ، واللحم يكسو العظم ، ويتم التكوين ، وتكون الحياة والنموّ ، والحركة والإدراك ، والنضج والكمال الخِلقىّ والعقلىّ ، حتى إذا انتهى إلى سنّ معينة ، بدأ يتناقص كماله شيئاً فشيئاً ، ويقرب من عهد الطفولة وئيداً وئيداً ، وكلما طال عمره ، كان أدنى إلى الضعف والشيخوخة والشيب ، وقد يطول عمر بعض الناس ، حتى يعودوا أطفالا فى عقولهم وتفكيرهم وتصرفاتهم ، « ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » ، ومهما طال العمر فإنه إلى نهاية ، هى الموت ، فسبحان الله الذى يخلق ما يشاء على ما يشاء ! وهو وحده العليم بما يصح أن يجرى فى شئون هذا الكون كله ، لا يمتنع عليه شىء ، ولا يعجزه شىء .

(٩)

من الآية ٥٥ من سورة الروم إلى آخر السورة

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ : مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ —١— . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَلٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ —٢— . فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ —٣— . وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ، كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ —٤— . فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الساعة	القيامة .
يُقسم المجرمون	يحلف المشركون .
ما لبثوا غير ساعة	ما أقاموا فى الدنيا إلا وقتاً قصيراً .

الألفاظ	شرحها
يُؤفكون	يُصرفون عما فيه خيرهم وصلاحهم .
الذين أوتوا العلم	الذين عقلوا ففهموا فعلموا ، فآمنوا عن علم ويقين .
فى كتاب الله	فيما قدّر الله فى سابق علمه .
إلى يوم البعث	إلى يوم القيامة .
لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم .	لا ينفع الكفار الذين ماتوا على كفرهم أنهم يعتذرون ، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا .
ولا هم يستعتبون	ولا هم يُسْتَرضون ، ولكنهم يتركون لحالهم من قلق وحيرة ، وندم وحسرة وعذاب .
ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل	أقمنا لهم كل دليل حسى ومعنوى على صدق محمد .
ولئن جئتهم بآية	ولئن أتيتهم بمعجزة .
إن أنتم إلا مبطلون	لستم أيها المؤمنون إلا متبعين للباطل الذى يسحرُكم به نبيكم .
يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون	يغلق الله قلوب الذين لا يفقهون ولا يفهمون ، فلا يتأثرون بالمعجزات .
إن وعد الله حق	إن ما وعدك الله من نصر لا بد من وقوعه .
ولا يستخفنك	ولا يستفزّنك الكافرون فيفتنوك عن دينك ورسالتك ، والمراد : أتباع محمد .
لا يوقنون	لا يؤمنون عن يقين .

١ — ٢ — ٣ — ٤ —

مجمل المعنى

١ — حينما تقوم القيامة ، ويبعث الناس من جديد ، يرى الكافرون ما أمامهم من هول الحساب ، فترجع ذاكرتهم إلى ما كانوا عليه فى الدنيا ، فيقسمون أنهم ما أقاموا فيها غير وقت قصير من الزمان ، كأنهم لم يتمكنوا فيه من مراجعة أنفسهم وعقولهم ، حتى يعودوا إلى صوابهم ، ويتمنون أن لو رجعوا إليها ليستدركوا ما فاتهم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويؤمنوا برسلهم ؛ وبمثل هذا التفكير السقيم ، كانوا يُصرفون عما فيه خيرهم وصلاحهم ، ويحلفون أنهم على صواب ، ويحاولون أن يوهموا غيرهم أنهم على الحق ، ولكنهم بينهم وبين أنفسهم يعلمون أنهم على ضلال .

٢ — الذين منحهم الله عقلاً صحيحاً ، وتفكيراً سليماً ، دَرسوا ففهموا ، فعلموا فآمنوا ، يقولون للكافرين الذين يقسمون أنهم ما لبثوا غير ساعة : لقد أقمتم فى الدنيا كما قدر الله لكم أن تقيموا ، وهذا هو يوم البعث الذى كنتم تسمعون خبره ولا تؤمنون به ، وكنتم تكابرون وتكذبون بهذا اليوم ، ولا تحبون أن تُصغوا إلى ما يلقى إليكم .

٣ — وفى هذا اليوم لا ينفع هؤلاء الكافرين اعتذارهم بعد تكذيبهم بالبعث ، وإنكارهم إياه ، ولا يكونون من الذين يُسترضَوْن بالعودة إلى الدنيا كما كانوا يُسترضوْن من قبل ، ويُدعون إلى الإيمان ، ولكنهم يُتركون لحالهم من قلق وندم ، وحيرة وحسرة وعذاب ، حتى ينتهى حسابهم ، ثم يلقى بهم فى نار جهنم خالدين فيها أبداً .

٤ — والله سبحانه وتعالى أقام الأدلة التى لا تقبل شكًّا ولا تأويلاً ، على أن محمداً صادق فيما أتى به ، ولم يترك دليلاً حسّيًّا ولا معنويًّا من غير أن

يذكره ، ولكنهم أغلقت قلوبهم ، فلم يعترفوا بهذه الأدلة الكثيرة ، وكل معجزة يأتى بها محمد ينكرونها ، ويصفونها بأنها باطلة ؛ وهكذا يختم الله على قلوب الذين لا يفقهون ولا يفهمون ، فلا يؤمنون ولا يتعظون .

٥ — أمر الله نبيه أن يصبر على أذى الكفار ، وألا ييئس من رحمة الله ، وأن يستمر فى تبليغ رسالته على الوجه الذى أمره به ، ووَعْدِه الذى وعده إياه ، وهو تمكينه وتمكين أصحابه من أعدائهم ، ونصرهم عليهم ، وقال له : لا تكن مبالغتهم فى إيذائك والاستخفاف بك ، سبباً فى ضجرك ويأسك ، فإن الله قدّر عليهم الخسران ، وقدّر لك الفوز والنجاح .

سُورَةُ لُقْمان

نزلت بمكة ، ماعدا الآيات التى من ٢٧ — ٢٩
فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٣٤ آية

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١١

الٓمٓ ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ : الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ —١— . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ —٢— . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ، خَالِدِينَ فِيهَا ، وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —٣— . خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ —٤— .

هٰذَا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ — ٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آلم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
الكتاب الحكيم	الكتاب المحكم ، وهو القرآن .
هدى ورحمة للمحسنين	فيه هداية ، وأمن ورحمة ، للذين يعبدون الله فيحسنون عبادته ، فيصلون ويزكون ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويتفهمون معانيه .
يوقنون	يؤمنون إيماناً يقينياً بالبعث والحساب ، والحشر والجزاء ، ولا يخالط إيمانهم رائحة من شبهة .
يشترى لهو الحديث	يفضل كل حديث باطل ، يشغل صاحبه عن الحديث الجيد النافع ، وعن عبادة الله وذكره .
بغير علم	من غير دراية ولا تفكير ولا تجربة .
ويتخذها هزواً	ويستهزئ بها ويكذبها ، والضمير يعود على سبيل سبيل الله .
عذاب مهين	عذاب مذل ، يسبب لهم الخزى والعار .
تتلى عليه آياتنا	يُقرأ عليه القرآن .
ولى مستكبراً	أعرض عن السماع له ، نافراً منه ، محتقراً له ، زارياً عليه .

الألفاظ	شرحها
كأن فى أذنيه وقراً	كأن فى سمعه ثقلا لا يتمكن معه من السماع .
وعد الله حقـًّا	وعدهم الله بذلك وعداً حقـًّا لا خلف فيه .
رواسى	جبالا ثابتات .
أن تميد بكم	خشية أن تضطرب بكم ، ويختل توازنها .
وبث فيها من كل دابة	وفرّق على الأرض جميع أنواع الدواب ، والدواب : كل ما يدب على الأرض .
من كل زوج كريم	من كل نوع حسن من النبات .
هذا خَلق الله	هذا الذى تقدم ذكره خلقه الله .
الذين من دونه	الذين من غير الله ، وهو ما يعبده الكفار من الأصنام .
الظالمون	الذين يعبدون غير الله ، ويشركون معه غيره .
فى ضلال مبين	فى أشد أنواع الضلال ، وأقبحها وأدنئها .

مجمل المعنى

١ — هذه الآيات التى تتكون من حروف الهجاء ، وينزلها الله على محمد نبيه ، هى الآيات التى يتكون منها القرآن الكريم المحكم ، المعجز بأساليبه ومعانيه ، الذى يهدى من يقرؤه أو يسمعه ، ويتدبر معانيه ، والذى يهتدى به يستحق رحمة الله ، لأن الهداية تؤدى إلى إقامة الشعائر من صلاة وزكاة وغيرهما ، ولأن الهداية لا تكون إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالبعث والحساب والحشر والجزاء ؛ والمهتدى إذا كانت هدايته يقينية صحيحة سلم من الوسوسة ، وبعد عن الشبهة ، وهذا المهتدى وأمثاله هم الذين سيجازيهم

الله يوم القيامة، بتخليدهم فى الجنة، وتمتعهم بألوان النعيم فيها ، وهذا هو الفلاح والنجاح ، والفوز بالرضا الإلهى ، الذى لا يظفر به إلا القليل .

٢ — بعض الناس يجلسون فى المجالس، ويخوضون فى أحاديث لا فائدة منها ، ولا جدوى وراءها ، فيهزلون أو يغتابون أو ينمّون مثلا؛ وهم بذلك يشغلون أنفسهم ، ويشغلون السامعين لهم بما يضيّع وقتهم ، ويكثر أوزارهم وذنوبهم ، ويصرفونهم عن النافع المفيد من ذكر الله ، أو قراءة القرآن، أو أداء الصلاة فى وقتها ، أو الخوض فى حديث أدبىّ أو تاريخىّ ، أو تحقيق مسألة علمية أو دينية ؛ هؤلاء الناس الذين يصرفون غيرهم عن النافع المفيد إلى غيره ، بدون دراية ولا تفكير ولا تجربة ، ويستهزئون بالنافع المفيد ، سيعذبهم الله عذاباً فيه إذلال لهم ، واحتقار لشأنهم ، لأنهم إذا تليت عليهم آيات من القرآن ، أو أرشدوا إلى النافع المفيد ، نفروا منه ، وأعرضوا عنه ، وكأنهم فقدوا حاسة السمع فلا يستطيعون أن يسمعوا شيئاً ؛ وهؤلاء جميعاً لهم عذاب مؤلم موجع لا خلاص منه .

٣ — أما الذين آمنوا، أو شغلوا أنفسهم بجدّ الحديث دون لهوه ، وأقاموا الشعائر على وجهها ، فإن لهم جنات فى الآخرة ينعمون فيها بجميع أنواع المتع ، وألوان السرور ، ويبقون فيها خالدين ، لا يبرحونها ولا يخرجون منها ؛ وقد وعدهم الله ذلك ، والله لا يخلف وعده ، وهو العزيز الحكيم .

٤ — ومن الأدلة الواضحة الملموسة على أن الله قادر قدرة لا حد لها ، أنه خلق السموات من فوقنا ثابتة قائمة غير محمولة على شىء ، وإنما هو قانون الجذب العام الذى تحدثنا عنه فى غير هذا الموضع ، والذى ذكرنا فيه أن هناك جذباً قائماً بين جميع الكواكب ، ولكن ما حقيقة هذا الجذب ؟ وما ماهيته ؟ هذا سرّ خفىّ على العلم، ولايعلمه إلا الله؛ أما الجبال فإن

الله خلقها موزّعة على سطح الأرض على نظام خاص ، وهى تشبه السلسلة الفقرية من الإنسان ، يتصل بعضها ببعض اتصالا ظاهراً أو باطناً فى جوف الأرض أو تحت الماء ؛ وهذا الاتصال حاصل بين أجزائها البازلتية الغائصة فى جوف الأرض ، فهى تكسر حدة الهُوج من العواصف ، وتحفظ الأرض من الاضطراب والاختلال اللذين يأتيان بأسباب من داخل الأرض الملتهب ، المحتوى على مواد منصهرة ؛ وبعد أن خلق الله الأرض ، وجعلها صالحة للمعيشة فوقها ، خلق جميع أنواع الدواب ، وجعلها تنتشر هنا وهناك ، وعاش كل منها فى الجو والتربة التى تلائمه : حرًّا وبرداً ، وجفافاً ورطوبة ، وغير ذلك ، وأنزل المطر من السماء ، فتكونت منه الأنهار ، وعاش على مائه كل كائن حى ، وأخرج النبات النضر الذى يعيش عليه الإنسان والحيوان .

٥ — بعد أن ذكر الله بعض الأدلة القاطعة على أنه وحده خالق هذا الكون ، ومدبره ، سأل الكفار المعاندين الذين يشركون به غيره : أرونى أى شىء من مثل هذا الذى خلقته أو قريب منه ، تستطيع آلهتكم التى تعبدونها أن تصنعه ! ؟ وهذا سؤال للتعجيز طبعاً ، لأنهم لا يستطيعون ، ولكنه الطريق المفحم المعجز فى الإقناع ، أما وقد عجزوا فإنهم ظالمون ضالون ضلالاً بعيداً ، بعكوفهم على عبادتها من دون الله ، لأنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه .

(٢)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٩ من سورة لقمان

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ : أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ –١– . وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ ، لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ –٢– . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ، أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ –٣– . يَا بُنَيَّ ، إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ ، إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ –٤– . يَا بُنَيَّ ، أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آتينا لقمان الحكمة	منحنا لقمان العقل الكامل ، الذى ينتج كل صائب صحيح فى الدين والعلم .
لا تشرك بالله	لا تعبد مع الله إلهاً آخر .
ومن كفر	ومن أنكر فضل الله عليه .
فإن الله غنى حميد	فإن الله غنى عن شكر الناس إياه ، والحمد على ما يُولى من نعم .
إن الشرك لظلم عظيم .	إن إشراك غير الله معه فى العبادة ، غاية ما يكون من ظلم الإنسان .
ووصينا الإنسان بوالديه	وأمرنا الإنسان أن يبرّ والديه .
وَهْناً على وَهْن	ضعفاً فى الحمل ، على ضعف فى الولادة .
وفصاله فى عامين	وفطامه بعد انقضاء عامين من ولادته .
إلىّ المصير	إلى الله المرجع والمآب .
وإن جاهداك	وإن حاولا معك بكل وسيلة ، وبذلا معك جهدهما .
ما ليس لك به علم	ما ليس بشىء ، لأنه ليس فيه ما يمكن أن يكون علماً .
وصاحبهما فى الدنيا معروفاً	وصاحبهما فى الحياة الدنيا مصاحبة البارّ المطيع ، فيما لا يضرك فى دينك .

الألفاظ	شرحها
واتبع سبيل من أناب إلىّ	واسلك طريق من رجع إلىّ .
إلىّ مرجعكم	إلىّ مصيركم يوم القيامة .
فأنبئكم بما كنتم تعملون	فأخبركم بما صنعتم فى الدنيا .
إنها	إن الأعمال التى تعملها ، خيراً كانت أو شرًّا
مثقال حبة من خردل	قدر وزن حبة ، والخردل : نبات له حب أسود صغير جدا .
فتكن فى صخرة	فتكن مستخفية فى جوف صخرة .
أقم الصلاة	أدّ الصلاة على وجهها .
وانه عن المنكر	وانهَ الناس عن ارتكاب المعاصى .
واصبر على ما أصابك	وتحمل إيذاء الناس لك وأنت تدعوهم إلى دين الله ، واصبر على أذاهم .
من عزم الأمور	من الأشياء التى أمر الله بها ، وقطعها قطع إلزام .
ولا تصعر خدك للناس	ولا تُمل خدك للناس ولا تَلْوِه كبراً ، احتقاراً لهم ، واستصغاراً لشأنهم .
ولا تمش فى الأرض مرحاً	ولا تمش على الأرض مِشية المتكبر المختال .
كل مختال فخور	كل متكبر يفخر بما له وجاهه ، ولا يقابل نعم الله بالشكر .
واقصد فى مشيك	وتوسط فى مشيتك ، متواضعاً غير متكلف .
واغضض من صوتك	واخفض من صوتك إلى الحد المطلوب .
إن أنكر الأصوات	إن أقبح الأصوات .

لقمان الحكيم

كان لقمان رجلا نوبيًّا أسود ذا مشافر ، آتاه الله الحكمة ، ولم يؤته النبوة ، فكان صادقاً صحيح الرأى ، يُفتى بالصواب فى المعتقدات والفقه ، والمسائل الدينية والتعبدية ؛ وقيل : إنه كان يشتغل برعى الغنم لمولاه ، وقف عليه رجل يوماً ، وقال له : أنت لقمان ؟ قال : نعم ، قال الرجل : فأنت راعى الغنم الأسود ؟ ! قال لقمان : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال الرجل : وَطء الناس بساطك ، وغشيانهم بابك ، ورضاهم بقولك ، قال لقمان : يابن أخى ، إن صنعتَ ما أقول كنتَ كذلك ، قال الرجل : ما هو ؟ قال لقمان : غَضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ، وحفظى فَرْجى ، ووفائى بوعدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يَعنينى — فذلك الذى صيرنى كما ترى ، ومن ذلك نرى أن لقمان ما أوتى الذى أوتيه عن أهل ولا مال ولا حسب ، ولكنه كان رجلا مسكيناً ، طويل التفكر ، عميق النظر ؛ ومما يؤثر عنه : أن مولاه أمره بذبح شاة ، وأن يخرج له أطيب مُضغتين فيها ، فأخرج له اللسان والقلب ، ثم أمره أن يذبح شاة أخرى ، وأن يخرج له أخبث مُضغتين فيها ، فأخرج له اللسان والقلب ، فالتفت إليه مولاه متعجباً ، فقال له لقمان : ليس هناك شىء أطيب منهما إذا طابا ، ولا شىء أخبث منهما إذا خبثا .

مجمل المعنى

١ — منح الله لقمان الحكمة ، فكان يحسن التصرف فى جميع أموره ، ولا يقول إلا حقًّا ، وينصح الناس ويجمل لهم فى النصح ، ويطيع الله ، ويشكر له أنعمه ؛ وشكرُ الإنسان ربه ، وطاعته ، شكر لنفسه ، ومَجلبة خيرلها ، لأن الله سيجازيه على هذا الشكر ، فيستفيد بذلك فى الدنيا والآخرة ؛ والذى ينكر فضل الله على عباده ، ويكفر به ، لا يضر إلا نفسه ، لأن الله غنى عن شكر الشاكرين ، والحمد ثابت له ، معترف به ، رغم أنف الجاحدين .

٢ — الابن أعز مخلوق لدى الإنسان ، والوالد أشفق الناس على ولده ؛ لذلك نصح لقمان ولده نصحاً هو دستور حكيم ، لو اتبعه الولد وترسمه ، لكان نعم الولدُ خلُقاً وبرًّا وصلاحاً ، فنهى لقمان ولده أول ما نهاه عن الشرك بالله ، لأن الشرك رأس الخطايا ، وأشنع الذنوب ، ولذلك وصفه لقمان بأنه أقبح ظلم يظلمه الإنسان ، لأن فيه تسوية بين القوى القادر ، وبين الضعيف العاجز ؛ ونلاحظ أن لقمان حينما نادى ولده لينهاه عن الشرك بالله ، ناداه : يا بنى ، وهذا لفظ فيه حنان وعطف ، وتعبير عما يكنه الوالد لولده من حب له ، وشفقة عليه ؛ وعطف الوالد على الولد طبع ركبه الله فى النفس ، وليس فى نفس الإنسان فحسب ، بل كل َولود يعطف على ولده ، ونجد ذلك واضحاً فى جميع أنواع الحيوان ، لا فرق بين مستأنس ووحشى ؛ ولولا هذه الغريزة العجيبة القويّة ، التى أودعها الله جميع أنواع الحيوان ، لما اهتم والد بولد ، ولما بقى النوع على سطح الأرض ؛ لأن الوالد يرى نفسه مدفوعاً دفعاً غير شعورى نحو المحافظة على ولده الصغير ، ويعمل

على دفع كل مكروه عنه ، مهما كلفه ذلك ؛ لاحظ ذلك فى جميع الحيوانات التى تراها تجد عجباً ، وتدرك الحكمة فى أن الله سبحانه وتعالى وصّى الولد بوالديه ، ولم يُوص الوالدين بولدهما .

٣ — وصى الله الولد أن يطيع والديه فى كل ما يأمرانه به ، إلا فى أن يأمره أحدهما أو كلاهما أن يشرك بالله ، أو يرتكب كبيرة من الكبائر : كالقتل بغير حقّ ، أو شرب الخمر ، أو بترك فريضة : كالنهى عن الصلاة أو أداء الزكاة ، فعليه ألا يطيعهما فى مثل هذا ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن يردهما ردّاً جميلاً مبنيّاً على الإقناع باللطف واللين ، ولو كانا مشركين ، وعليه أن يدعوهما إلى الإسلام برفق وتلطف ، وله ألا يطيعهما فى الخروج من دينه ؛ — وإن لم يُسلما معه ، وبقيا على شركهما ، فليس له أن يَعُقّهما ، ولكن عليه أن يزورهما ، وأن يَصلهما ، وأن يبرهما بماله ؛ وعليه أن يتبع سبيل الذين يرجعون إلى الله ، ويتوبون إليه ، وهى سبيل الصالحين الطيبين ؛ والمرجع كله يوم القيامة إلى الله ، حيث يجد كل إنسان ما عمله من خير أو شر محضراً أمامه ، ويجازيه الله به ؛ وقد حكى عن سعد بن أبى وقّاص أنه أسلم ، وكانت أمه على الشرك ، فأرادت أن تفتنه عن دينه ، فقالت له : أليس الله قد أمر بالبر ؟ فوالله لا أطعَمُ طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، حتى أموت أو تكفر ؛ فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها فتحوا فاها بعصا ، ووضعوا فيه الطعام ، فنزل قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه . . . » ؛ وقد ذكر الله السبب فى توصية الولد بأمه ، وهذا يجعل لها خصوصية تمتاز بها عن الأب ، فذكر أنها حملت الابن فى بطنها ، وتقلب فى حياته من طور إلى طور ، حتى كمل خَلقه ، وخرج من حالة الضعف الشديد إلى حياة كاملة ،

وقد عانت الأم من ذلك ما عانت ، ثم يأتى طور الوضع وما يصحبه من أوجاع ، ثم طور التربية والإرضاع لعامين كاملين ؛ وفى هذه المدة كلها تتحمل الأم راضية مغتبطة كل ألم مهما اشتد وقسا ؛ لذلك كان على الإنسان أن يشكر الله أن وضع هذه الغريزة فى الأم ، وأن يشكر للأم وللأب ما بذلاه من جهد فى تربيته وتكوينه ؛ وتوصية الله الإنسان بالوالدين جاءت معترضة بين وصايا لقمان لابنه ، على سبيل الاستطراد ، للتنويه بأن طاعة الوالدين من طاعة الله .

٤ — أعلم لقمان ولده أن كل شىء مهما دق وصغر ، ومهما استخفى فى جوف صخرة ، أو فى أرض أو فى سماء ، لا بد أن الله يعلمه ؛ فهو سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، لذلك كان كل عمل يعمله الإنسان ، خيراً أو شرًّا ، يعلمه الله ، ويجازى عليه .

٥ — وأمر لقمان ابنه ونهاه : أمره بأمَّهات الطاعات ، وهى إقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والبعد عن المنكر ، والاعتدال فى المشى ، وغض الصوت ، حتى لا يكون كأقبح أنواع الحيوان صوتاً ، والصبر عند المصائب ، وهى تجمع مسائل الإيمان كلها ؛ ونهاه عن التكبر ؛ وأول مظهر من مظاهر التكبر تصعير الخد ، ومشية المختال ، وكلتاهما صفة يكرهها الله ، ويكره من يتصف بها .

(٣)

من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٦ من سورة لقمان

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ –١– . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ –٢– . وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ، وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ –٣– . وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ –٤– . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، قُلِ : الْحَمْدُ لِلّٰهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سخر لكم	ذلل لكم كل شيء ، وجعله صالحاً للانتفاع به .
وأسبغ عليكم نعمه	وأتم عليكم نعمه ، وجعلها شاملة .
ظاهرة و باطنة	معلومة بالحس والمعاينة ، ومعلومة بالدليل والاستنباط .
يجادل فى الله	يخاصم فى توحيد الله .
بغير علم	بغير حجة ولا دليل عقلى أو حسى يستند إليه .
ولا هدى	ولا بيان يوضح طريق الحق ، ويهدى إليه .
ولا كتاب منير	ولا كتاب منزل ينير له طريق الحق ويوضحه .
عذاب السعير	عذاب النار الشديدة التى تتسعر وتتلهب .
ومن يُسلم وجهه إلى الله	ومن يخلص عبادته لله وحده ، فيفوّض كل أموره إليه .
وهو محسن	وهو مطيع بقوله وفعله وقلبه وتفكيره .
فقد استمسك بالعروة الوُثقى	فقد استمسك بدين قوىّ متين ، استمساكاً يؤدى به إلى النجاة .
وإلى الله عاقبة الأمور	مصاير الأمور كلها إلى الله دون غيره .
فلا يحزُنك كفره	لا يَهولنَّك كفر من كفر بك ، ولا يُفزعنك كيد من يكيد لك .
فننبئهم بما عملوا	فنطلعهم على أعمالهم السيئة ، ونجازيهم عليها .
عليم بذات الصدور	عليم بما يخفى الناس فى نفوسهم وخواطرهم .

الألفاظ	شرحها
نمتعهم قليلاً	نتركهم فى الدنيا وقتاً قصيراً ، يتمتعون فيها على ما يشتهون .
ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ	ثم نسوقهم سوقاً إلى عذاب شديد فى نار جهنم .
ليقولُن : الله	ليعترفن بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض .
بل أكثرهم لا يعلمون	بل أكثر هؤلاء المعاندين لا ينظرون فى الأشياء نظر تدبر وتفكر ، يهديهم إلى العلم الصحيح .
إن الله هو الغنى الحميد	إن الله هو الغنىّ عن شكر الشاكرين ، وتوحيد الموحّدين ، المستحق لكل حمد وثناء ، وإن أنكر ذلك الكافرون .

مجمل المعنى

١ — أيها المعاندون ، انظروا تروا أن الله ذلّل لكم كل شىء ، وجعلكم تنتفعون به انتفاعاً مباشراً أو غير مباشر ، فجعلكم تنتفعون بما فى السموات من شمس وقمر ونجوم وسحاب ، وبما على الأرض من حيوان ونبات وجماد ، وبما فى جوفها من معادن حجرية وسائلة ، فاستنبطتم الأدوية التى تداوون بها أمراضكم ، والكهرَبا التى انتفعتم بها فى شتى مصالحكم ، وفى كل يوم تأتون بالعجيب الذى ينفعكم ، وهذه كلها نعم أسبغها الله عليكم ، وأتمها لكم ، بعضها ظاهر مُحَس ، وبعضها معنوى غير مُحَس ، ومع هذا كله نجد بعض الناس يخاصمون غيرهم ويجادلونهم فى الله ، ولا يُقرون

بالتوحيد جهلا منهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يقيموا دليلا على صحة ما يذهبون إليه من ضلال ، وليس عندهم كتاب يعتمدون عليه ، ويُرجعون أمورهم الباطلة إليه .

٢ — وإذا طلب إلى هؤلاء المعاندين أن يتركوا ما هم عليه من ضلال ، ويتبعوا الحق الذى قام عليه الدليل ، نفروا من ذلك ، وإذا طولبوا بالدليل عجزوا ، فلجئوا إلى أنهم يعبدون ما كان يعبده آباؤهم من قبل ، فهم مقلدون لا غير ، وهذا أحط درجات العقل ، وغاية ما يصل إليه الإنسان من دركات التفكير الذى يؤدى إلى فقدان الشخصية ، ومحو صفة الإنسانية ، فهم دائبون على التقليد ، ولو كان هذا التقليد يؤدى بهم إلى أتعس حال ، وأسوأ مصير ، وهو عذاب جهنم الشديد ، الذى سيخلدون فيه يوم القيامة .

٣ — والذين يُخلصون عبادتهم لله وحده ، ويفوضون أمورهم إليه دون غيره ، ويطيعونه طاعة حقة ، يخلصون لها بقلوبهم وعقولهم وأقوالهم وأفعالهم ، يكونون قد استمسكوا بالدين الصحيح المتين ، استمساكاً يؤدى بهم إلى النجاة ، وينتهى بهم إلى السلامة الدائمة التى يجدونها فى الجنة يوم القيامة ، لأن الله إليه مصير كل شىء ، فمن أحسن فله إحسانه ، ومن أساء فعليه إساءته ؛ وأصل العروة : مَدخَل زر القميص .

٤ — والذين كفروا ، ولم ينفعهم نصحك إياهم ، ودعوتهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم ، لا تحزن عليهم ، ولا يضايقك أنهم لم يستجيبوا لك ، ولا يُوئسنَّك أنهم لم يؤمنوا بك ، فإن مصيرهم إلى الله ، وسيطلعهم على ما عملوا من شر ، لأن كل شىء يعلمه الله ، ظاهراً كان أو خفيًّا : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، هؤلاء الناس يتمتعون متاعاً قليلاً فى

الدنيا ، لأنهم مهما طال عمرهم بها ، فإن ذلك قصير جداً إلى ما يقاسونه في جهنم ، وإلى خلودهم فيها ، يعذبون بها عذاباً شديداً ، لا مخلص لهم منه .

هـ — ومن عجيب أمر هؤلاء الناس ، أنك حين تناقشهم وتسألهم : من الذى خلق السموات والأرض ؟ ، لا يترددون فى أن يقولوا لك : الذى خلق السموات والأرض هو الله ، ومعروف أن الذى يخلق هو الذى يملك ، وهو الذى يتصرف ، ومعروف كذلك أن الذى يخلق يكون غنياً عمن يخلقه ، غنياً عن شكره وعبادته ، مستحقاً لكل حمد وثناء على أنه خلق من خلق فى أبدع صورة .

(٤)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٣١ من سورة لقمان

وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ —١—. مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ؛ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ —٢— . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؟، وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ —٣—. أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ —٤—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يمده	يزيد ما فيه .
ما نفدت كلمات الله	ما فنيت الألفاظ التى يعبَّر بها عما فى علم الله وقدرته .

الألفاظ	شرحها
إلا كنفس واحدة .	إلا كخلق نفس واحدة ، وكبعث نفس واحدة .
يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل	يجعل الليل والنهار يدخل أحدهما فى وقت الآخر .
وسخر الشمس والقمر	وذلل الشمس والقمر ، وجعلهما بصورة تنفع الإنسان .
إلى أجل مسمى .	إلى وقت معلوم ، وهو يوم القيامة ، وتجرى الكواكب جميعاً إلى غاية تنتهى عند هذا اليوم .
بما تعملون خبير	عالم علماً شاملا بكل ما تعملونه .
ذلك بأن الله هو الحق	فعل الله الأشياء التى ذكرها فى الآية السابقة ، لتعلموا وتعترفوا بأنه هو الواحد الذي لا يجوز أن يشرك به .
وأن الله هو العلى الكبير	وأن الله هو الأعلى شأناً ، والأقوى سلطاناً .
الفلك	السفن .
بنعمة الله	بتقدير الله ، ورحمته بكم ، وتسخيرها لكم للانتفاع بها .
ليريكم آياته	ليريكم بعض الدلائل على قدرته .
لكل صبار شكور	لكل كثير الصبر على ما قدر الله ، ولكل شاكر على نعم الله .

مجمل المعنى

١ — نزل فى سورة الإسراء قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » — فذهب اليهود إلى محمد ، أو أرسلوا إليه ، وقالوا له : يا محمد ؛ كيف

عُنينا بهذا القول ، ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان لكل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التوراة قليل من كثير » ، ونزل قوله تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام . . . » ، إلى آخر الآية ، وهذه الآية نزلت بالمدينة .

والمعنى : أنه لو جىء بالشجر النابت على ظهر الأرض جميعه ، وبُرى أقلاماً ، واتخذ ماء البحر مداداً تغمس فيه هذه الأقلام ، فإذا نَفد ماء البحر مده بحر من بعده بحر ، ثم بحر آخر إلى سبعة أبحر ، حتى ينفد ماؤها جميعاً ، وكتبت بهذه الأقلام كلمات الله وعلمه وحكمته — لتقصفت الأقلام وفنيت على كثرتها ، ولنفد ماء الأبحر السبعة على قلة ما يعلق بالقلم عند غمسه ، وبقى علم الله لم ينفد ولم ينته ؛ وليس معنى هذا أنه إذا جىء بأقلام أكثر ، وبمداد أكثر ، يمكن أن ينفد علم الله ، حاش لله ! ولكن الغرض أن الله يضرب لهم المثل بشىء عظيم يتمثلونه على قدر عقولهم وتفكيرهم ، أما علم الله فإنه لا ينفد ولا ينتهى ، ولا يمكن تدوينه وتسطيره ، فكيف يستكثر هؤلاء اليهود على أنفسهم أن يقال فيهم : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، إن الله عزيز لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، حكيم يصرف كل أمر على حسب مشيئته وإرادته وقوّته ، وعلى حسب ما قدّر فى علمه ، لا تنفد كلماته ، ولا تقف عند حد عجائب صنعه ، ونظير هذا : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مدداً » .

٢ — بدءُ خلق الناس والعوالم كلها ، وبعث الناس والأحياء كلها يوم القيامة — لا يستأهل كله من الله جهداً ، وليس خلق هؤلاء جميعاً وبعثهم ، إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، فليس عسيراً على الله ما يعسر على عباده ؛ وقد

نزلت هذه الآية حينما اعترض أبىّ بن خلف وبعض رفاقه على محمد ، وقال : كيف نبعث خلقاً جديداً فى ساعة واحدة ، فى حين أن الله حينما بدأ خلقنا ، خلقنا أطواراً : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ثم عظاماً ، ثم كسا العظام لحماً ؟ ويؤكد الله أنه يسمع ما يقوله هؤلاء الأفاكون ، ويعلم ما يفترونه عليه ، وسيحاسبهم عليه .

٣ — هؤلاء الأفاكون مثل أبى بن خلف ومن معه ، ألم يعلموا أن الله قادر على كل شىء ؟ وإن نظرة إلى أى شىء مما يقع تحت حسهم مما خلق الله ، ليدلهم دلالة قاطعة على قدرته ، وإن أقرب شىء إليهم هو الليل والنهار فهما يتعاقبان ، ويتداخلان ، فيطول أحدهما ويقصر الآخر ، ويكون نهار فى نصف الكرة الأرضية فى وقت ، وليل فى نفس الوقت فى النصف الآخر ، وذلك نتيجة لدورة الأرض حول نفسها وحول الشمس ، بفعل الجاذبية التى سبق أن بينا قدرة الله فيها ، ودلالتها على أنه وحده خلق هذا الكون كله ؛ ويمكن أن ينظر هؤلاء المكابرون أيضاً إلى الشمس التى تطالعهم كل صباح ، وتغيب عنهم كل مساء ، وإلى القمر الذى يطالعهم ، ويغيب عنهم فى كثير من أمسياتهم ، ليعرفوا أن هذين الكوكبين سخرهما الله لصالحهم ولحياتهم ، ومع ذلك فهما يجريان : كل فى مداره ، وسيظلان كذلك على هذا النظام الجميل البديع ، إلى الوقت المعلوم الذى ضربه الله نهاية لهذا الكون ، حيث تقوم القيامة ؛ وأكد الله لهم أن الذى يقدر على خلق هذه الأشياء وتذليلها للإنسان — لا بد أن يكون خلقه إياها عن علم ومعرفة ، والذى خلق هذه الأجرام العظيمة عن علم ومعرفة ، يمكنه أن يعرف كل شىء ، ومنه أعمالكم التى تعملونها ؛ وقد ضرب الله لكم هذه الأمثال لتتدبروا فيها ، ولتخرجوا من هذا التدبر — إن كنتم

عاقلين — بأنه وحده هو الذى يستحق التوحيد والإيمان به ، والخضوع له ، دون غيره مما تشركونه معه من أصنامكم التى تصنعونها بأيديكم ، وتعبدونهامن دونه ، وتقرون أيضاً أنه هو الأعلى شأناً ، والأكبر سلطاناً ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

٤ — ولو أن هؤلاء المعاندين فكروا فى آثار قدرة الله ، لرأوا السفن تجرى فى البحار هنا وهناك ، مدفوعة بالريح التى سخرها الله ، فينقلون عليها أنفسهم وحيوانهم ومتاعهم ، ويستخدمونها فى مصالحهم ، ولاعتقدوا أنه لا أحد يقدر على خلق البحار ، وتسخير الرياح ، غير الله ؛ وإذا كانت السفن فى هذا العصر تسير بالبخار وتعظم ،حتى تكون الواحدة منها كالمدينة العائمة ، تتحرك فوق سطح الماء ، فإن ذلك دليل أكبر على القدرة الإلهية ، التى تتجلى فى عقل الإنسان الذى صنعها ، وفى حمل الماء إياها ، بل إن الغواصة نفسها إن دلت على العقل الجبار ، فإنما هى أدل على قدرة الخالق الأعلى ، الذى دبّر لنا هذا بعطفه علينا ، وبره بنا ، ورحمته لنا ، ليرينا آيات قدرته ماثلة أمام أعيننا ؛ وفى هذه الآيات أدلة ظاهرة واضحة لكل إنسان يصبر على البلاء ، ويشكر على النعماء ، يصبر على قضاء الله إن ألمّ به خطب ، ويشكر له ما أولاه من نعم لا تعد ولا تحصى .

(٥)

من الآية ٣٢ من سورة لقمان ، إلى آخر السورة

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ؛ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ –١– . يَاأَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ –٢– . إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
غشيهم	غمرهم وغطّاهم .
كالظلل	كبير هائل كالجبال يركب بعضه بعضاً ، جمع ظُلة : وهي ما يتظلل به الإنسان .

الألفاظ	شرحها
دعوُا الله	فزعوا إلى الله لينجيهم
مخلصين له الدين	بقلوب مخلصة صافية من أدران الشرك والشك والهوى .
فمنهم مقتصد	فبعضهم يتبع القصد ، وهو الطريق المستقيم ، طريق الإيمان الصحيح .
ختار كفور	مبالغ فى غدره وجحوده .
لا يجزى والد عن ولده	لا يحمل والد عقابا مقضيًّا به على ولده .
ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً	ولا يحمل ولد عقاباً مقضيًّا به على والده .
إن وعد الله حق	إن الله وعدكم أن يجىء يوم الحساب ، وهذا الوعد مُوفًّى به حتماً .
فلا تغرنكم الحياة الدنيا	فلا تخدعنكم مباهج الحياة الدنيا ، فتصرفكم عن الآخرة .
ولا يغرنكم بالله الغَرور	ولا يخدعنكم الشيطان عن توحيد الله وعبادته .
عنده علم الساعة	عنده دون غيره معرفة الوقت الذى تقوم فيه القيامة.
وينزل الغيث	وهو وحده ينزل المطر فيما حدّد له من زمان ومكان.
ويعلم ما فى الأرحام	ويعلم دون غيره ماتحمله الأرحام من الأجنة قبل الولادة : نوعاً ولوناً وشكلا ، وما يخبأ له من سعادة أو شقاء ، وصحة أو مرض ، وغير ذلك .
ماذا تكسب غداً	ماذا تحصل عليه من خير أو شر ، نتيجة لما تعمل .

الألفاظ	شرحها
بأى أرض تموت	فى أي مكان يدركها الموت .
إن الله عليم خبير	إن الله يعلم ظواهر الأشياء و بواطنها .

مجمل المعنى

١ — الذين يركبون البحار يكونون فى فزع ورعب ، لأنهم إن يسلموا من الغرق ، لا يسلموا من المخاوف والفزع ، وهم فوق خوفهم الطبيعى ، إذا ثار بهم البحر ، وعلا الموج ، وطغى عليهم الماء — فزعوا إلى الله ، ولجئوا إليه أن يزيح عنهم الكرب ، ويكشف الغمّ ، ويخلصهم مما هم فيه ، ولم يفكروا أن يلجئوا إلى آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، لأنهم مع عبادتهم لها ، مؤمنون بأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع أن تجلب خيراً ، أو تدفع شرًّا ؛ فإذا استجاب الله لهم دعاءهم ، ونجاهم إلى البر سالمين ، نسوا ما كانوا فيه من فزع ورعب ؛ إلا أن بعضهم — ولعله أقلهم — يظل متبعاً طريق القصد ، فيعترف بنعمة الله الذى نجاه ، وبعضهم الآخر ينسى ما تفضل الله عليه به من النجاة ، كأنْ لم يدعُه إلى ضرّ مسه ، ويعود إلى طغيانه وكفره وغدره ، وهؤلاء غدارون منكرون للجميل .

٢ — يأمر الله الناس أن يتقوه ويخافوه ، ويحذرهم يوم القيامة ، وهو ذلك اليوم الذى يحاسب فيه كل إنسان على ما قدّم من خير أو شرّ ، فلا يدفع أحد عن أحد شيئاً ، ولا يحمل إنسان عن إنسان بعض عقابه ، مهما كانت العلاقة بينهما فى الدنيا : فالوالد لا ينوب عن الولد ، والولد لا ينوب عن الوالد ؛ ويوم القيامة الذى وعد الله به آت لا شك فيه ؛ وإذا كان الأمر

كذلك فقد أمرنا الله ألا نغترّ بهذه الحياة الدنيا ، وألا ننخدع بزخارفها ومباهجها ، وألا يخدعنا الشيطان الخبيث بوسوسته ، كما خدع غيرنا من قبل .

٣ — جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من أهل البادية، اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة ، وقال له : إن امرأتى حُبلى ! فأخبرنى : ماذا تلد ؟ وبلادنا جدبة ، فأخبرنى : متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت : متى وُلدتُ ، فأخبرنى : متى أموت ؟ وقد عمِلتُ ما عملتُ اليوم ، فأخبرنى : ماذا أعمل غداً ؟ وأخبرنى : متى تقوم الساعة ؟ . فأنزل الله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة . . . » ؛ وقد اشتملت هذه الآية على الأمور الغيبية التى اختص الله بها ، فلم يطلع عليها أحداً من خلقه ، لا ملَكاً ولا نبياًّ مرسلا ، وهذه الأمور خمسة :

(ا) علم الساعة : ويراد به الوقت المحدود، الذى تقوم فيه القيامة ، فإن هذا اختص الله به ، « يسألونك عن الساعة أيان مُرْساها ؟ قل : إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلاهو » ، وفى حديث جبريل عليه السلام، قال : أخبرنى عن الساعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

(ب) وإنزال المطر : قد وصل العلم الحديث إلى معرفة الأوقات التى يسقط فيها المطر ، ويكاد يحددها ؛وكذلك وصل إلى معرفة الأماكن التى يسقط المطر فيها ، ويكاد يحددها ؛ وأكثر من هذا أنه يكاد يحدد الكميات التى تسقط هنا ، والتى تسقط هناك ! فما المراد إذن ، بأن الله ينزل الغيث ؟ الغيث : ماء المطر الذى يغيث الناس ، ويرد لهفتهم ؛ فيحيي أرضهم ، ويسقى حيوانهم ، ويطفىء

ظمأهم ، وقد ينزل المطر فلا يكون غيثاً ، ولكنه يكون عيثاً يفسد ، بأن يكون سيولا تجتاح الأخضر واليابس ، وتغطى العامر والغامر ، وتغرق الحى والميت ، وتهدم الدور والقصور ، فلا تُبقى ولا تذر ؛ والمطر مفسداً كان أو مصلحاً ، ينزل بتقدير الله وتدبيره ، وإرادته وعلمه ، والمطر ينزل من السحاب ، والسحاب يتكون من البخار ، والبخار يخرج من ماء البحار ، وأشعة الشمس هى التى تبخره ، والهواء هو الذى يحمله ، والرياح هى التى تسوقه هنا وهناك ، وبرودة الجو هى التى تكثفه ، ويسقط المطر بعد هذا كله على رءوس الجبال التى تعترضه ، أو فى السهول والوديان حين يشتد تكاثف الماء ، فيعجز الهواء عن حمله ، فتتدافع قطراته على الأرض . وهذه كلها أمور تنتهى عند علم الله ، الذى لا يطَّلع عليه أحد سواه .

(ج) وعلم ما فى الأرحام : الكائنات الحية كلها أجنة فى الأصل ، تطورت أطواراً مختلفة : الحيوان فى الأرحام ، والطير فى البيضة زمن التفريخ ، والنبات فى الحبة أو غيرها ؛ وقد ذكر الله أنه يختص بعلم ما فى الأرحام ، ولكنه فى الحقيقة يختص بعلم ما فى الأرحام وما فى غيرها ، من كل ما يلاقيه الجنين فى تطوراته الأولى ، ومراحل نموه المختلفة ، ثم ما سيلقى فى حياته بعد ذلك ، حين وجوده فى الدنيا : من سعادة أو شقاء ، ومن صحة أو مرض ، ومن راحة أو تعب ؛ وعلم الله بذلك فوق علم الناس جميعاً ، فقد يعرف الطب نوع الجنين : أذكراً هو أم أنثى ؟ وقد يعرف المنجِّم شيئاً تصدقه فيه المصادفة المحضة ، ولكن الواقع يكذبه فى أشياء ، فليس ذلك من علم الغيب فى شىء .

(د) ومعرفة المستقبل : لا يعرف الإنسان ما يجرى عليه بعد لحظة ، مهما بلغ من الرقى العلمى ، والنضج العقلى ، ومهما حنكته التجارب ، وعركته الأيام ، وإن كهانة الكاهن ، وضرب الودع ، وقراءة الكف ، وتخطيط الرمل ، ومسارّة الأثر — كل أولئك تنجيم يجرى وراءه العامة وضعاف العقول ، ليقفوا على ما سيلقون من سعادة أو شقاء ، وغير ذلك ؛ ولأجل أن يوهم هؤلاء الناس السذج بأنهم صادقون ، يخبرونهم ببعض ما وقع لهم فيما مضى ، فيصادف ذلك حقيقة ، فيصدقونهم فى الإخبار بما سيأتى ، والواقع أنهم يخبرونهم بمسائل عامة تقع لكل إنسان فى حياته ، فيغفُل السامع عن ذلك ، ويصدق ما يسمع ، ويعتقد أن هؤلاء المحترفين الذين يعرفون البخت صادقون فيما يخبرون به من الغيبيات ، وينسى أن هذه الأمور لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ، فإنه هو الذى يعلم الغيب وحده ؛ ولو أن أحداً غيره يمكنه أن يعلم شيئاً من هذا ، لكان أولى بمعرفته ملك من ملائكته ، أو رسول من رسله ، ولكنهم لا يعلمون .

(هـ) ومكان الموت : من أفضل نعم الله على الإنسان ، أنه لا يعرف الوقت الذى يموت فيه ، ويفارق الحياة ، إذ لو أن الناس عرفوا هذا ، لألقى الرعب فى قلوبهم ، ولانصرفوا عن عمارة هذه الدنيا ، وقد أراد الله لها أن تعمر ؛ فاختص الله نفسه بعلم الوقت الذى تموت فيه كل نفس ، وبعلم المكان الذى يقع عليها الموت فيه ، فإذا أدركه أجله وهو فى غير الأرض التى سبق علم الله بأنه سيموت

فيها ، ساقه الله إليها لأى سبب من الأسباب ، وهناك يموت كما قدّر الله له .

وبعد ، فإن هذه الأمور الخمسة ، قد اختص الله بها نفسه ، دون عباده جميعاً ، وهو عليم بها كلها علماً لا حد له ، لا يخفى عليه ما ظهر وما بطن .

سُورَةُ السَّجْدَة

نزلت بمكة ، ماعدا الآيات التى من ١٦ — ٢٠ ، فإنها نزلت بالمدينة
وآياتها ٣٠ آية

(١)

من الآية الأولى إلى الآية التاسعة

أَلٓمٓ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ —١— . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ —٢— . اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ —٣— يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ؛ ذٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آلم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
لا ريب فيه	لا مجال للشك فيه .
افتراه	أتى به من عنده ، واختلقه ، ونسبه إلى غيره .
لتنذر به قوماً	لتخوف به جماعة .
لعلهم يهتدون	رجاء هدايتهم .
فى ستة أيام	فى ستة أطوار .
ثم استوى	ثم استولى استيلاء فيه استمكان .
من ولى ولا شفيع	من ناصر ولا شافع يشفع لكم .
أفلا تتذكرون ؟	أفلا تفكرون فى آياته فتعتبروا وتتعظوا ؟
يدبر الأمر من السماء إلى الأرض	يصرّف أمر هذا الكون كله .
ثم يعرج إليه	ثم مردّ كل أمر وتدبير إليه ، ويقع تحت علمه .
فى يوم	هو يوم القيامة .
مما تعدون	مما تحسبون من أيامكم الزمنية فى الدنيا .
عالم الغيب والشهادة	عالم كل شىء : ما غاب وما حضر .
أحسن كل شىء خلقه	أحكم وأجاد كل شىء تولى خلقه وإنشاءه ، فجاء على الصورة التى يريدها .
من ماء مهين	من ماء حقير ضعيف .
ثم سوّاه	ثم جمّله وحسّنه ، وجعله متناسب الأعضاء .

الألفاظ	شرحها
ونفخ فيه من روحه	وبعث فيه الحياة .
قليلاً ما تشكرون	تشكرون شكراً قليلا .

مجمل المعنى

١ — الكتاب الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المكون من الحروف الهجائية التى تصوغون منها كلامكم — وهو القرآن —، لا شك فى أنه نزل من عند الله تعالى ، من عند رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب العوالم جميعاً ، فليس هو من صنعة إنسان ، ولا ملك ولا جانّ ؛ وليس سحر ساحر ، ولا كهانة كاهن، كما يزعم المعاندون ، وليس من أساطير الأولين ، وليس إفكاً افتراه محمد ، وأعانه عليه قوم آخرون .

٢ — وليس مفترى كما يزعمون ، وإنما هو الحقّ الذى أنزله الله عليه ، ليبشر به المؤمنين ، وينذر به الكافرين ، ويخوفهم سوء مصيرهم فى الدنيا والآخرة ، ويصور لهم بطش الله بهم ، وأخذه إياهم بسبب كفرهم ، هؤلاء القوم هم قريش الذين أرسلتَ أول ما أرسلت فيهم ، ولم يأت لهم نبى قبلك ، ولن يأتى لهم نبى بعدك ، فعطفَ الله عليهم بإرسالك إليهم ، رجاء أن يهتدوا ويؤمنوا .

٣ — الله الذى أرسلك إليهم ، لتصرفهم عما هم عليه من شرك وضلال ، هو الواحد القادر ، المنشئ المبدع ، وهو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى أطوار مختلفة ، وعلى تدرّج مخصوص ، وكان فى قدرته أن

يخلقها كلها مرة واحدة ، ولكنه تدرج فى خلقها ، لنتعلم نحن من خلقه إياها فى أناة ألا نتعجل ، وأن نتأمل فيما نأتى وندع ؛ وبعد أن خلق الله السموات والأرض فى فترات ، وعلى أطوار مختلفة ، صيرها طوع أمره ، بالاستمكان من التصرف فيها استمكاناً لا يقدر عليه أحد ، ولا يشاركه فيه أحد ؛ وإذا كان هو الخالق المنشئ المبدعَ القادر ، فهو الذى يتصرف فى خلقه كما يشاء على ما يشاء ، ولا يجد أحد من هذا الخلق كله نصيراً غيره ، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فيجب على الإنسان أن يفكر فيما حوله تفكير معتبر متعظ ، ليستفيد من تفكيره ، ويرجع إلى صوابه .

٤ — الله هو الذى يصرّف الأمور كلها فى الدنيا ، سواء أكانت هذه الأمور فى السموات أم فى الأرض ، أم فيما بين السماء والأرض ، وسواء أكانت ظاهرة أم خفية ، ثم ينتهى الأمر كله إليه فى يوم القيامة ، ذلك اليوم الطويل العسير ، الذى يحاسب فيه كل إنسان على ما عمل فى الدنيا من خير أو شر ، وهو يوم يدبّر الله فيه ما يتصور الإنسان أنه يدبّر فى ألف سنة من سنِى الحياة الدنيا ؛ والله الذى يصرّف كل هذه الأمور ، هو الذى يعلم ما يغيب عن الخلق وما يحضرُهم ، ويفرّق بين خيرهم وشرهم ، ويجازى بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وهو العزيز الذى لا يُغلب ، الرحيم لمن يستحق أن يُرْحم ، الذى خلق كل شىء فأحسن َخلقه ، وصنعه على ما أراد ، بحيث لا يستطيع أحد أن يخلق مثله على صورته وهيئته ؛ وهو الذى خلق أول إنسان — وهو أبونا آدم — من طين ، من من مادة ميتة ، وجعله فى أحسن تقويم ، ثم تناسل الإنسان كما يتناسل غيره من الحيوان ، وجعل تناسله من مادّة حقيرة َمهينة ضعيفة ، ولكن الذى قدر على بعث الحياة فى الإنسان الأول المصوَّر من الطين ، قادر

على أن يخلق من الماء المهين الضعيف الأناسيّ جميعاً ؛ وبعد أن سوّى الله آدم وقوّمه ، بعث فيه الحياة ، وجعل من تناسلوا منه يتمتعون بما أنعم عليهم من سمع وبصر وعقل ، ومع كل هذا فإن شكر الإنسان ربه على ما أولاه من نعم كثيرة ، قليل جدًّا بالنسبة لعظيم النعم .

(٢)

من الآية ١٠ إلى الآية ٢٢ من سورة السجدة

وَقَالُوا : أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ ، أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ —١— . قُلْ : يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ —٢— . وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا ، أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ؛ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ، إِنَّا مُوقِنُونَ —٣— . وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ —٤— . فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؛ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ؛ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٥— إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ —٦— . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ؛ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ؛ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ —٧— . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٧— . أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ : أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ، وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ -٩- . وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ -١٠- . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ؟ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ -١١- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ضللنا فى الأرض	متنا ودفنّا فيها ، واختلطنا بترابها .
أئنا لفى خلق جديد ؟	أنبعث ونعود خلقاً جديداً ؟
كافرون	منكرون .
وُكّل بكم	عُهد إليه فى قبض أرواحكم .
إلى ربكم ترجعون	تبعثون يوم القيامة ، ليحاسبكم ربكم على ما قدمتم من عمل .
ناكسو رءوسهم	مطأطئون رءوسهم ذلا وخجلا وندماً .
عند ربهم	عند محاسبة ربهم إياهم .
أبصرنا وسمعنا	تكشّف لنا الحق ، ورأينا بأعيننا ما كنا نكذّب به ، وسمعنا بآذاننا صواب ما كنا نخطّئه .

الألفاظ	شرحها
فارجعنا نعمل صالحاً	فأعدنا إلى الدنيا لنؤمن بك وبرسلك ، ونعمل عملا صالحاً .
إنا موقنون	إنا أصبحنا مؤمنين إيماناً لا يتسرب إليه شكٌ ، بأن البعث حقٌ ، والحساب حق .
لآتينا كل نفس هداها	لهيأنا لها سبيل الهداية ، وقدرناها لها ، فاهتدت .
حق القولُ منى	وجب القول منى ، وأنا أعلم بما سيكون من بنى آدم .
فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا	فقاسوا العذاب بسبب عدم إيمانكم بيوم البعث .
إنا نسيناكم	إنا تركناكم تقاسون العذاب ، ترك المنسىّ الذى لا يفكر فيه أحد .
عذاب الخلد	العذاب الدائم .
بما كنتم تعملون	بسبب كفركم وعصيانكم .
خرّوا سجداً	إذا وُعظوا بآيات الله تأثروا تأثراً شديداً ، وسجدوا لله شاكرين على ما منحهم من نعمة الإيمان .
وسبّحوا بحمد ربهم	ونزهوا ربهم عما يصفه الكافرون به ، وجعلوا مع تسبيحهم حمداً وثناء .
وهم لا يستكبرون	وهم لا يترفعون عن الإيمان بالله ، والسجود له .
تتجافى جنوبهم عن المضاجع	تبتعد جنوبهم عن فُرشهم ، وتتنحى عن أماكن نومهم .
يدعون ربهم خوفاً وطمعاً	يدعون الله خائفين من عذابه ، طامعين فى رحمته وثوابه .

الألفاظ	شرحها
ومما رزقناهم ينفقون	ويتصدقون على مستحق الصدقة مما أعطاهم الله ورزقهم .
ما أخفى لهم من قرة أعين	الذي حفظه الله لهم عنده من جليل الثواب الذى يسرهم .
لا يستوون	ليسوا فى ميزان واحد، وليسوا متساوين ولا متكافئين .
جنات المأوى	أرفع درجات الجنة يأوون إليها .
نزلا بما كانوا يعملون	مكانا مهيأ جزاء لهم على ما قدموا من الصالحات .
فمأواهم النار	فمصيرهم النار ينتهون إليها ، ويصيرون فيها .
من العذاب الأدنى	من عذاب الدنيا .
دون العذاب الأكبر	دون عذاب الآخرة .
ثم أعرض عنها	ثم لم يستمع إليها، ولم يتدبر معانيها .

مجمل المعنى

١ — يقول الكافرون : أنبعث خلقاً جديداً بعد أن نموت ، وندفن فى الأرض ، وتتحلل أجسامنا وتفنى ، وتختلط بالتراب ؟! يقولون هذا وينكرونه ، وليس ذلك منهم إنكاراً لقدرة الله ، ولكنه إنكار للبعث والحساب ، والثواب والعقاب .

٢ — أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء الذين ينكرون البعث والحساب ، والثواب والعقاب : إن ملك الموت الموكّل بقبض أرواحكم يتوفاكم جميعاً ، وفى يوم القيامة ترجعون إلى الله مبعوثين خلقاً جديداً .

٣ — وإن هذا المجرم الكافر الذى يكذب برسالات ربه ، ما موقفه حينما يرى زملاءه من المجرمين مطأطئين الرءوس خجلا وحياء ، وندماً على ما فرّط منهم فى الدنيا ، عند محاسبة الله لهم على ما قدموا من عمل ؟! وما موقفه حينما يراهم يقولون : ربنا إننا رأينا بأعيننا صدق وعدك ووعيدك ، وسمعنا صواب ما كنا نكذّبه ولا نؤمن به ؛ ثم يسألون الله أن يعيدهم إلى الدنيا ليحيَوا فيها حياة جديدة ، يتداركون فيها ما فاتهم ، فيؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ويعملون صالح الأعمال ، لأنهم أيقنوا إيقاناً لا يداخله أى شكّ ، فى أن ما أتى به رسل الله صحيح ، وأن البعث حق ، والحساب حقّ ، وأن الجنة والنار حق ، وأن الثواب والعقاب حق .

٤ — ولو أراد الله أن يجعل جميع الناس على هدى صحيح لفعل ، ولكن الله قدّر فى سابق علمه أن من الناس مؤمناً وكافراً ، مهتدياً وضالا ، سعيداً وشقيًّا ، وقدر فى سابق علمه أن المؤمن المهدىّ سعيد ، وأن الكافر الضال شقىّ ، وجب عليه العذاب ، إنساناً كان أو جنًّا ، مأواه جهنم وبئس المصير .

٥ — ويقال لهم إذ ذاك تبكيتاً لهم : ذوقوا عذاب جهنم ، وتقلبوا فى نارها ، بسبب نسيانكم هذا اليوم ، وعدم إيمانكم بالبعث ، وكلما اشتد عليهم العذاب لجئوا إلى الله أن يرفعه عنهم ، ويعيدهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويوحدوا ، فيرد عليهم على سبيل الاستهزاء والاستخفاف بهم : إنا نسيناكم ، وتركناكم تقاسون العذاب ترك المنسىّ الذى لا يفكر فيه أحد ، ولا يخطر على بال أحد ، وستظلون مَنسيين ، تتقلبون فى هذا العذاب الشديد تقلباً دائماً لا نهاية له ، جزاء ما كفرتم وكذبتم .

٦ — الذين يؤمنون بآيات الله إيماناً صحيحاً ، هم الذين تخشع قلوبهم لذكر الله ، وإذا سمعوا آياته أو شيئاً منها وَجلت قلوبهم ، وامتلأت خشية وهيبة ،

وسجدوا لله خاضعين خاشعين ، واختلط تسبيحهم له بحمدهم إياه ، فقالوا مثلا : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله والحمد لله ، ولم يستكبروا عن عبادته بصلاة وصيام وحج وزكاة ، وبغير ذلك من كل ما يمكن أن يدخل فى باب العبادة من قول وعمل .

٧ — هؤلاء الناس يقومون الليل إلا أقلّه ، متعبدين متهجدين ، فهم فى أوله يصلون المغرب وينتظرون العشاء ، وفى آخره يستيقظون سَحَراً ، ويهجرون مضاجعهم ، وينتظرون صلاة الصبح فى تسبيح وتحميد ، وبذلك تكون جنوبهم تجافت عن مضاجعهم أوائل الليل وأواخره ؛ والناس الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان ، وعكفوا على العبادة ، إذا ذكروا الله فى يقظة ، أو مَرّ بخاطرهم فى نوم ، ظهر عليهم أثر الإيمان والخوف من الله ، وتمثلوا هول الحساب ، فأخذهم الخوف والفزع ، ولو أرادوا أن تطمئن جنوبهم فى مضاجعها ، لما استقرت من خشية الله ؛ هؤلاء الناس يدعون الله كلما سنحت فرصة للدعاء ، يخافون عذابه ، ويطمعون فى ثوابه ، ويتصدقون طائعين مما رزقهم الله ، طمعاً فى رضا الله .

٨ — لهؤلاء الذين يذكرون الله دائماً ثواب عظيم عند الله ، هذا الثواب لا يعرف حقيقته أحد كائناً من كان ، إنساً أو جنًّا أو ملكاً ، وهو ثواب لم تقع على مثله عين ، ولم تسمع بمثله أذن ، ولم تخطر حقيقته على قلب بشر ؛ وهذا كله جزاء لما كانوا يعملون فى الدنيا من صالح الأعمال .

٩ — تخاصم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، والوليد بن عُقبة بن أبى مُعيط ، فقال له الوليد : أنا أبسط منك لساناً ، وأحدّ سناناً ، وأملأ فى الكتيبة جَسداً . فقال له علىّ : اسكت فإنك فاسق ، فنزل قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟! لا يستوون » ، وفى هذه الآية الكريمة ينكر

الله أن يكون المؤمن والفاسق فى درجة واحدة ، فهما لا يستويان ، إذ المؤمن يرضى الله عنه ، ويدخله الجنة يوم القيامة ، والفاسق يغضب الله عليه ، ويدخله جهنم يوم القيامة ، وشتان ما بين المصيرين ! وما أبعد ما بين النهايتين ! : فإن الذين آمنوا بالله ورسله إيماناً صحيحاً ، يأوون فى الآخرة إلى الجنات ، وينزلون أرفع الدرجات ، فى رحاب الله العزيز الحميد ؛ وأما الذين يكفرون بالله ، ويعصون رسول الله ، فإنهم يقيمون فى نار جهنم إقامة مؤبدة ، وكلما حاولوا أن يخرجوا منها لا يجدون سبيلا إلى الخروج ، وقد يدفعهم لهبها إلى أعلاها ، فيظنون أنهم سيقذف بهم إلى خارجها ، ولكنهم لا يلبثون أن يهبطوا إلى قرارها ، ويقول لهم خزنتها وحُرّاسها على سبيل التبكيت والشماتة : ذوقوا هذا العذاب الذى توعّدكم به نبيكم ، حينما كنتم تكذبونه ، وتصرون على هذا التكذيب .

١٠ – هؤلاء الفاسقون الخارجون عن طاعة الله ، المتمردون على أنبيائه ، المنكرون لرسالاته ، لن يتركهم الله فى الدنيا ينعمون بما يشتهون ، ويُجْرون الحياة على ما يَهْوَوْن ، ولكن الله يقدر لهم عذاباً فى الدنيا يصيبهم ، وينغّص عليهم عيشهم ، وهذا العذاب يكون بمصائب الدنيا تترادف عليهم ، فتصيبهم الأمراض ، أو يفقدون الأولاد ، أو يتلف زرعهم ، أو تهلك ماشيتهم ، أو يُهزمون فى حرب ، أو يصابون فى عِرض ، أو غير ذلك من الأمور التى تقض مضاجعهم فى الليل ، وتكثر همومهم فى النهار ، لعله أن يكون فى ذلك كله أو فى بعضه موعظة لهم وعبرة ، فإذا لم يتعظوا ولم يعتبروا ، فإنهم يخرجون من هذا العذاب بالموت ، ويَخلصون منه إلى عذاب آخر أشد وأقسى ، هو عذاب الآخرة ، حيث يخلّدون فى جهنم انتقاماً منهم .

١١ـ والذين يكذّبون بآيات الله وقرآنه ، ولا يؤمنون بما جاء به رسوله ، هم أظلم الناس لأنفسهم ، لأنه كان من مقتضى وضوح ما جاء به القرآن ، ودلالته الدلالة القاطعة على أنه من عند الله ، وعلى أن محمداً صادق فى كل ما جاء به ، كان من مقتضى هذا كله ألا يكذِّب عاقل ، أمّا وقد كذب بعض الناس ولم يصدقوا — عناداً واستكباراً — فتسببوا لأنفسهم فى العذاب ، فإنهم يكونون بذلك قد ظلموا أنفسهم أبلغ الظلم وأشده ، ويؤكد الله أنه سينتقم منهم ، ويجازيهم على تكذيبهم .

(٣)

من الآية ٢٣ من سورة السجدة إلى آخر السورة

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ —١— . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ —٢— . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ —٣— . أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ : كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟ —٤— . أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ، فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟ —٥— . وَيَقُولُونَ : مَتَى هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ —٦— . قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ —٧— . فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَانْتَظِرْ ، إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الكتاب	التوراة .
فى مرية	فى شك .
من لقائه	من تلقّى موسى الكتاب .
وجعلناه هدى لبنى إسرائيل	وجعلنا التوراة المنزّلة على موسى هداية لقومه .
أئمة	قادة : يقودون ويُقتدى بهم .
يهدون بأمرنا	يدعون الناس إلى الهدى بأمر الله .
وكانوا بآياتنا يوقنون	وكانوا يؤمنون بما جاء فى التوراة إيماناً راسخاً ، لا تشوبه رائحة من شك .
يفصل بينهم	يحكم بين الأنبياء وأتباعهم ، وبين مكذبيهم .
أوَ لم يهد لهم	أوَ لم يبيّن الله لهم ؟
كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم	أبدنا كثيراً من الأمم التى قبلهم ، يغدون ويروحون فى ديارهم ، وَيرْون آثارهم .
إن فى ذلك لآيات	إن فى تلك الآثار لعبراً وعظات
إلى الأرض الجرز	إلى الأرض اليابسة الصالحة للزراعة ، ولكنها لا زرع فيها .
الفتح	الحكم والفصل .
يوم الفتح	يوم القيامة .
ولا هم ينظرون	ولا هم يُمهلون ويؤخّرون .
فأعرض عنهم	فلا تهتم بهم ولا بكلامهم ، وكأنك لم تسمع ولم يقولوا .

مجمل المعنى

١ – يخبر الله – سبحانه وتعالى محمدا – صلى الله عليه وسلم – أنه نزّل على موسى – عليه السلام – التوراة ، كما نزّل عليه القرآن ، وأنه سيلقى موسى رسول الله فى إسرائه أو فى يوم القيامة ، وأنه جعل موسى والتوراة التى جاء بها هداية لبنى إسرائيل ، كما أن القرآن هداية للناس جميعاً .

٢ – وجعل الله من بنى إسرائيل أئمة ، درسوا التوراة ، ووقفوا على ما فيها ، ونصبوا أنفسهم لهداية الناس وإرشادهم ، ودعوتهم إلى طاعة الله ، على نحو ما رَسمَ فى التوراة ، فيهتدون بإذن الله حين صَبرِهم على سماع النصح ، وتجردهم من ملاهى الدنيا ، فتسلم عقيدتهم ، ويصير إيمانهم إيماناً يقينيًّا ، لا يتطرق إليه الشك .

٣ – ويؤكد الله لنبيه محمد ، أنه هو الذى يفصل بين جميع خلقه يوم القيامة ، ويحكم بينهم حكماً عادلا ، فيثيب المحسن ، ويعاقب المسىء ، ويدخل الجنّةَ الذين آمنوا برسله ، واعترفوا بالبعث والحساب والثواب والعقاب ، والذين كذبوا رسله ، وأنكروا ما جاءوا به ، يدخلهم النار .

٤ – كان على هؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا بك يا محمد ، أن يتعظوا بما حصل للذين من قبلهم من الأقوام الذين أرسل الله إليهم رسله ، فكذبوهم ولم يؤمنوا بهم ، فأهلكهم ؛ وذلك مثل قوم نوح وهود وصالح ، فإنهم لما كذبوا رسلهم أهلكهم الله ، فأغرق بعضهم بالطوفان ، وبعضهم بالريح والعواصف ، وبعضهم بالبراكين والزلازل ، وقوم محمد فى أثناء رحلاتهم للتجارة أو غيرها إلى الشام أو إلى اليمن ، مروا بآثار هذه الأمم ، وعرفوا أخبارهم ، ووقفوا على سبب إهلاكهم ، فكان عليهم أن يعتبروا بذلك ،

لأن فى هذه الآثار عبرة وموعظة لذوى العقول البصيرة الواعية .

٥ — وإن من دلائل قدرة الله ، أنه يسوق السحاب ، وينزل المطر ، فتتكون الأنهار والبحيرات ، ويُروى هذا الماء الأرض اليابسة الصالحة للزراعة ، فتخرج فيها المراعى التى ترعاها الإبل والغنم وغيرها من الماشية ، وتُخرج الحبّ والفاكهة والخضر والبقول ، فيتغذى منها الإنسان ؛ فهل يفكر هؤلاء الذين لا يؤمنون بك و برسالتك فى هذا كله ، فيتعظوا ؟

٦ — وهؤلاء الكافرون المكذبون لا ينتهون عند كفرهم وتكذيبهم ، ولكنهم يقولون على سبيل التهكم : متى يكون اليوم الذى يحكم الله فيه بيننا وبينك يا محمد ؟ ! ومتى يكون هذا اليوم الذى نعذّب فيه ، وتنعم أنت ومتبعوك فيه ؟! إن كنتم صادقين فخبرونا عن موعد هذا اليوم .

٧ — أمر الله نبيّه أن يخبرهم أن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، وستنزعجون أيها الكفار وتفزعون حين ترونه ، فتريدون أن تؤمنوا ، ولكن لا ينفعكم إيمانكم هذا ، فقد فات أوانه ، ولن تُمهلوا ولا تؤخروا .

٨ — وأمره كذلك أن يُعرض عن هؤلاء الذين يستعجلون يوم الحكم ، ويريدون أن يعرفوا موعده ، وألا يستمر فى مُحاجّتهم ، فإن قلوبهم مغلقة ، وأن ينتظر ما يفعله الله بهم ، وهم ينتظرون ما توعّدهم الله به من عذاب .

سُورَةُ الأحْزَاب

نزلت بالمدينة ، وآياتها ٧٣

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثالثة

يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ، اتَّقِ اللهَ ، وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً -١- . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً -٢- . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اتق الله	داوم على تقوى الله .
ما يوحى إليك من ربك	القرآن .
وكفى بالله وكيلاً	وكفى اللهُ حافظاً لك ، موكولا إليه جميع الأمور .

صفاقة الكفار

رُوى أنّ أبا سُفيان، وعِكرمةَ بن أبى جهل، وأبا الأعور السُّلمى، قدموا إلى المدينة بعد غزوة أحُد، فنزلوا على عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين، والجَدّ ابن قيس، ومُعتِّب بن قُشير، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمنحهم أماناً على ما يتحدثون به إليه، فلما منحهم الأمان قالوا له: نسألك أن ترفض ذكرَ آلهتنا، وأن تقول: إنها تنفع وتشفع، ونحن نَدعُك وإلهك، وآزرهم المنافقون فيما يطلبون، فغضب عمر بن الخطاب، وقال: ائذن يا رسول الله فى قتلهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا قد أعطيتهم الأمان، فقال لهم عمر: اخرجوا فى لعنة الله وغضبه، فأمرهم النبى أن يخرجوا من المدينة، فخرجوا، ونزل قوله: « يأيها النبى اتق الله، ولا تطع الكافرين والمنافقين. . . » .

مجمل المعنى

١ – يأيها المبلغ عنّا، المأمون على رسالتنا، اثبت على تقوى الله، وداوم عليها، ولا تُطع الكافرين من أهل مكة المجاهرين بالكفر، ولا المنافقين من أهل المدينة المضمرين له، فيما يخالف شريعتك، إن الله كان عليماً بخبث طواياهم، حكيماً فيما يأمر به وينهى عنه.

٢ – واتبع القرآن الذى يوحى إليك من ربك فى كل ما تأتى وتذر، وفى الثبات على التقوى، وترك طاعة الكفار والمنافقين، إن الله كان عليماً بأعمالكم وأعمالهم، خبيراً بمكايد أعداء الإسلام وسوء نياتهم.

٣ – وفوض جميع أمورك إلى الله، فإنه كفيل أن يَرد عنك عادية العادين، ويحفظك من شرور المفسدين، ويَقيك كيدهم ومكرهم، وكفى به حافظاً، فإنه نعم المولى ونعم النصير.

(٢)

من الآية ٤ إلى الآية ٦ من سورة الأحزاب

مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ -١- . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا -٢- . النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ، إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ، كَانَ ذٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تُظاهرون منهن	تقولون للواحدة منهن : أنتِ علىّ كظهر أمى .
أمهاتكم	كالأمهات فى التحريم .
وما جعل أدعياءكم أبناءكم	لم يجعل الله المتبنَّى ابناً حقيقيًّا ، والأدعياء جمع دعىّ ، وهو الذى يُدعى لغير أبيه .
ذلكم قولكم بأفواهكم	قولكم هذا أيها اليهود المنافقون ، تقولونه بأفواهكم ، ولا حقيقة له .
يَهدى السبيل	يَهدى إلى طريق الحق .
أقسط	أعدل .
ومواليكم	وأولياؤكم فى الدين .
جناح	إثم وذنب .
وأزواجه أمهاتهم	وأزواج النبى كأمهات المؤمنين فى احترامهن ، وعدم جواز زواجهن .
أولو الأرحام	ذَوو القرابات .
بعضهم أولى ببعض	بعضهم أولى ببعض فى التوارث .
إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً	إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم فى الدِّين وصية .

ذو القلبين ، وبعض عادات الجاهلية

كان جميل بن معمر من الكفار من أحفظ العرب ، وكان يقال له : ذو القلبين ، وكان يزعم أن له قلبين يعقل بكل منهما أفضل من عقل محمد ، فلما هزم المشركون يوم بدر ومعهم جَميلُ بن معمر ، رآه أبو سفيان ، وقد علق إحدى نعليه فى يده ، والأخرى فى رجله ، فقال له أبو سفيان : ما حال الناس؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالُ إحدى نعليك فى يدك ، والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلىّ ، فعرف الناس أنه لو كان له قلبان لما نَسِىَ نَعله فى يده .

وكان الرجل فى الجاهلية يقول لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى فتطلّق ، فَحرم هذا فى الإسلام ؛ (تراجع الصفحات التى من ٣ — ٧ من تفسير جزء «قد سمع» ، لواضعى هذا التفسير) .

ولما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنة عمته : زينب جَحش — كما سيأتى فى هذه السورة — وكانت زينبُ زوجة لزيد بن حارثة ، الذى تبناه رسول الله قبل البعثة ، وكان من سبى الشام ، سبته جماعة من تِهامة وهو صبى ، فاشتراه حكيمُ بن حُزام ، ووهبه لعمته خديجة بنت خُويلد ، فلما تزوجها محمد وهبته له ، ثم جاء أبوه وعمه يرغبان فى فدائه ، فقال لهما محمد : خيراه ، فإن اختاركما فهو لكما بدون فداء ، فاختار الرقّ مع محمد ، فأعتقه وتبنّاه ، وكان التبنى فاشياً فى العرب قبل الإسلام ، يُتوارث به ويُتناصر ، فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة زَيد ، قال اليهود والنصارى والمنافقون : تزوج محمد زوجة ابنه وهو ينهى عنه ، فنزل قوله تعالى بسبب ما كل ذكرناه : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . . » ، إلى آخر الآية .

مجمل المعنى

١ — لم يخلق الله لإنسان قلبين فى جوفه ، لأن هذا يخالف سُنة الطبيعة ، وما جعل الزوجات اللاتى يقول الزوج لإحداهن : أنت علىّ كظهر أمى بمنزلة الأمّ الحقيقية ، بمجرد قوله هذا ، وما جعل من تتبنونْ من الأولاد بمنزلة الأبناء ، كما يزعم اليهود والمنافقون ، فإن ادّعاء وجود قلبين فى جوف واحد ، وقولكم لزوجتكم : أنت علىّ كظهر أمى ، وزعمكم أن الدعىّ المتبنَّى بمنزلة الابن ، كلام تقولونه بألسنتكم ، ولا حقيقة له فى الوجود ، والله يقول ما هو حق فى ظاهره و باطنه ، وهو الذى يَهدى إلى سبيل الحق ؛ فدعوا هذا الباطل ، واستمعوا إلى صوت الحق الذى لا مراء فيه .

٢ — هذا الحق ، هو أن تنسبوا المتبنَّين إلى آبائهم ، فإنه أولى وأعدل ، ووضع للشىء فى موضعه ، فإن جهلتم آباءهم ، نسبتموهم إلى وَلائهم ، فتقولوا : هذا مَولى فلان ، فإن لم يكن لهم وَلاء معروف ، فقولوا : هذا أخى — أى فى الدين — وليس عليكم ذنب فيما أخطأتم به عن غير عَمد ، أو فعلتموه قبل النهى أو بعده نسياناً ، أوسبق لسان ، ولكن عليكم الإثم فيما تعمَّدت به قلوبكم بعد النهى عنه ، كأن تنسبوا رجلا إلى غير أبيه عمداً ؛ وكان الله غفوراً رحيماً ، لا يؤاخذكم بالخطأ ، أو النسيان ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من ادعى إلى غير أبيه — وهو يعلم أنه غير أبيه — فالجنة عليه حرام » ، وقال : « وُضعَ عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما أكرهوا عليه » .

٣ — النبى أحق بالمؤمنين فى كل شىء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم عليهم ، فعليهم أن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه ،

وهو أرأف الخلق بهم ، وأعطفهم عليهم ، فيجب أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ؛ وأزواجُ النبى منزّلاتٌ منزلة أمهات المؤمنين ، فى تحريم زواجهن ، وفى استحقاق تعظيمهن ؛ وذوو القرابات بعضهم أحق ببعض فى الإرث فى القرآن فى آيات المواريث ، من المؤمنين والمهاجرين ، فالإرث بحق القرابة أولى من الإرث بحق التدين والهجرة ، الذى كان فى أوّل الإسلام وعقب الهجرة ؛ فإنه لما قدم المهاجرون إلى المدينة ، آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الأنصار ، فكان كل منهم يرث الآخر بحقّ الأخوّة فى الدين ، ثم نسخ هذا ؛ ويستثنى من ذلك ما تفعلونه أيها المؤمنون من المعروف إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين ، فيجوز لكم أن تُوصُوا لمن أحببتم منهم ، ويكون ما تفعلونه بالوصية لا بالميراث ، وإن ما ذكر من توارث ذوى القرابات ، مسطور واضح فى كتاب الله .

(٣)

من الآية ٧ إلى الآية ٨ من سورة الأحزاب

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ، لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ميثاقهم	عهودهم بتبليغ الرسالة ، والدّعوة إلى عبادة الله وحده .
ميثاقاً غليظاً	عهداً مؤكداً .
ليسأل الصادقين عن صدقهم	ليسأل الله يوم القيامة هؤلاء الرسل الصادقين عما بلّغوه .

مجمل المعنى

واذكر يا محمد حين أخذنا المواثيق والعهود من النبيين ، بأن يقوموا بتبليغ الرسالة ، والدعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ ما عداه ، — أخذنا هذه المواثيق والعهود منك ومن نوح ، ومن إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ،

وأخذنا منهم عهداً مؤكداً ، وميثاقاً شديداً ، بالوفاء بما حملوه إلى أممهم ، أخذ الله هذه المواثيق والعهود ، ليسأل يوم القيامة هؤلاء الأنبياء الذين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه ، أنهم بلغوا رسالات ربهم ، ويسألهم عما أجاب به قومهم ، ونظير هذا قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل ، فيقول : ماذا أجبتم ؟ » ، وأعددنا للكافرين عذاباً مؤلماً وجيعاً ؛ وخصّ الله هؤلاء الخمسة من الأنبياء بالذكر تفضيلا لهم — قال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » — ولأنهم أولو عَزْم ، وأرباب شرائع ، قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أنْ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

غَزْوة الأحزاب أو الخندق ، فى السنةَ الخامسة للهجرة

وهى مذكورة فى الآيات التى من ٩ — ٢٧ من سورة الأحزاب

١ — كان اليهود بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، أشد كراهة له من قريش ، ولا سيما بعد إجلائه بنى النَّضير ، فأخذوا يؤلبون القبائل العربية على محاربة المسلمين ؛ خرج جماعة منهم على رأسهم حُيى ابن أخطبَ إلى قريش بمكة ، وحرضوهم على الاشتراك معهم فى محاربة محمد وأصحابه ، ثم ذهبوا إلى قبائل غَطفان ، وبنى مُرّة ، وبنى عامر ، وبنى فزارة ، وأشجع ، وسُليم ، وإلى كل من لهم ثأر عند المسلمين ، فأخذوا يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ، ويذكرون لهم موافقة قريش على إعلان الحرب ، وبهذا استطاعوا أن يؤلبوا جمعاً حاشداً ، كان مؤلفاً من نحو ستة آلاف من قريش ، على رأسهم أبو سفيان ، وخرج عدد كبير

من غطفان وبنى فزارة ، وبنى مرّة ، وبنى عامر ، وأشجع وسليم ، وانحاز إليهم بنو سعد وبنو كنانة وأسد ، فصار هؤلاء الأحزاب أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، قصدوا جميعاً إلى المدينة تحت راية أبى سفيان ، فلما وصلوا إليها تداول زعماء هذه القبائل فى الرياسة عليهم فى أثناء الحرب ، فاتفقوا على أن يكون لكل زعيم يومٌ على التوالى .

ب — بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة ، فهالهم ما سمعوا عن هؤلاء الألوف المؤلفة ، من جند وخيل وإبل وميرة ، وعدة وذخيرة ، وكان سلمان الفارسىّ رضى الله عنه يعرف من أساليب الحرب حين كان بفارس ، ما لم تكن تعرفه العرب ، فأشار عليهم بحفر خندق حول المدينة ، فعمل المسلمون بنصيحته ، وحفروا حول المدينة خندقاً ، اشترك فى حفره ، وفى حمل التراب منه ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد كان الغبار يغطيه ، وتباطأ عن العمل فى حفره رجال من المنافقين ، معتذرين بالضعف عن العمل ، وجعلوا يتسللون إلى أهليهم ، بغير علم من رسول الله ولا إذن منه ، وتم حفر الخندق فى ستة أيام ، وأخليت المساكن التى كانت قريبة من الخندق .

ح — أقبلت قريش ومن معها من الأحزاب ، ففاجأهم الخندق ، وعاقهم عن الهجوم على المدينة ، ورأوا أن لا سبيل إلى اجتيازه ، فعسكروا خلفه ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة آلاف من المسلمين ، وجعلوا ظهورهم إلى سلْع : (جبل بالمدينة) ، فأقام هناك معسكره ، والخندق بينه وبين طوائف الأحزاب ، وتبادل الفريقان الترامىَ بالنبال عدة أيام .

د — كان ذلك فى الشتاء ، والبرد قارس ، وكانت الأحزاب تظن أن سيحاربون

زمناً يسيراً يقضون فيه على المسلمين ، ثم يعودون فائزين مكللين بأكاليل النصر ، ففوجئوا بما لم يكونوا يتوقعونه ، ورأى حُيي بن أخطب أن هذه الفرصة إن أفلتت ، فلن تعود ، فقصد كعب بن أسد سيد بَنى قُرَيظة من اليهود — وهم على مقربة من المدينة ، فى الجنوب الشرقى منها — وبينهم وبين المسلمين معاهدة ، فأخذ حُيي بن أخطب يذكر لكعب بن أسد ما أصاب اليهود من محمد ، وما ينتظر أن يصيبهم منه ، إذا لم تنجح الأحزاب فى القضاء عليه ، وطلب منه أن ينقض عهد المسلمين ، ويقطع الميرة والمدَد عنهم ، ويفتح الطريق للأحزاب من ناحيتهم ، وما زال به حتى أسلس له قيادُه ، وتحركت فيه النُّعَرَة اليهودية ، فقبل ما طلبه حُيي ، ونقض المعاهدة ، وَبرئ مما كان بينه وبين رسول الله من عهد .

هـ — اتصل برسول الله والمسلمين انضمامُ بنى قريظة إلى الأحزاب ففزعوا ، وأرسل إليهم وفداً منهم سَعدُ بن مُعاذ سيد الأوس حلفائهم ، فأخذ اليهود يخوضون فى أمر الرسول ، وقال كعب : مَن رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وتشاتم الفريقان ، وخرج سعد بن مُعاذ غضبان أسفاً .

و — عاد حُيي بن أخطب إلى الأحزاب ، وأخبرهم بانضمام بنى قريظة إليهم ، على أن يُمهلوهم عشرة أيام ، تُعد فيها عُدتها ، وألفت الأحزاب ثلاث كتائب ، فكانت كتيبة ابن الأعور السلمى من فوق الوادى من جهة الشرق ، وكتيبة عُيينة بن حصن الفزارى من أسفل الوادى من جهة الغرب ، وأقام أبو سفيان على كتيبته أمام الخندق .

ز — اشتد الفزع بالمسلمين ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزُلزلوا زلزالا شديداً ، فقد أتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، وظن أهل المدينة كل ظن ،

وأبدى المنافقون ما كانوا يُضمرونه من الكيد للمسلمين ، قال أحدهم : كان محمد يَعدنا أن نستولى على كنوز كسرى وقيصر ، وإنّ أحدنا لا يأمن على نفسه أن يخرج ليتبرز ، وقال آخر لارسول على ملأ من قومه : إن بيوتنا عَوْرة ، معرضة لهجمات العدو ، فأذن لنا أن نرجع إلى دورنا لندافع عنها ، وسمت الروح المعنوية فى الأحزاب ، حتى اندفع جماعة منهم ، فقصدوا مكاناً ضيِّقاً من الخندق ، فاجتازوه بخيلهم ، منهم عَمرو بن عبد وُد العامرى ، الذى كان يُعد بألف فارس ، وعِكرمة بن أبى جهل ، حتى صاروا بين الخندق وَسلع ، فخرج من صفوف المسلمين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فبارز عمرو بن عبد وُد فقتله ، وولى الأدبار رفقاؤه .

ح — رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلجأ إلى الحيلة — والحرب خُدعة — فقال لنُعيم بن مسعود : إنما أنت فينا رجل واحد من غَطفان ، فخذّل عنا القوم إن استطعت ، فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة ، وكان لهم نديماً فى الجاهلية — ولم يكونوا يعرفون أنه أسلم — فذكّرهم بما بينه وبينهم من مودة ، ثم قال لهم : إنكم ظاهرتم قريشاً وغطفان على محمد ، وربما لا تطيق قريش وَغطفان المقام طويلا ، فترتحلان ، فتواجهون محمداً وحدكم ، ولا قبلَ لكم به ، فينكّل بكم ، ونصح لهم ألا يقاتلوا حتى يأخذوا من قريش وغطفان رُهُناً من أشرافهم ، يكونون عندهم ، حتى لا يَتنحوا عنهم ؛ فاقتنع بنو قريظة بما قال نُعيم ، ثم ذهب إلى قُريش — فقال لهم : قد عرفتم ودّى لكم — وإنكارى دين محمد ، وقد علمت أمراً رأيت حقّاً علىّ أن أبلغكموه ، نصحاً لكم ، فاكتموا عنى ، قالوا : نفعل ، قال : اعلموا أن بنى قريظة قد ندموا على

ما فعلوا من نكث عهد محمد ، وأنهم عاملون على استرضائه وكسب مودته ، بأن يقدموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم ، على أن يكونوا معه حتى يستأصلكم ، ونصح لهم : إن بعث بنو قريظة إليهم يطلبون منهم رُهناً ، ألا يبعثوا أحداً ، ثم ذهب إلى غَطفان ، وقال : يا معشر غطفان ، أنتم أهلى وعشيرتى ، وأحب الناس إلىّ ، ولا أظنكم تتهمونى ، قالوا : صدقت ، قال : فكتموا عنى ، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم أن يبعثوا رُهناً ؛ ثم أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى كعب سيد بنى قريظة ، من يقول له : قد طالت إقامتنا ، وطال حصارنا ، فرأينا أن تفجئوا المسلمين فى الغداة ، ونحن من ورائكم ، فعاد الرسل وقالوا : إن كعباً يقول : إن غداً السبت ، ولا نستطيع القتال فيه ، ولسنا بالذين يقاتلون ، حتى تعطونا رُهناً من أشرافكم ، يكونون بأيدينا ، ثقة منا بكم ، فقالت قريش وَغطفان : إذن والله إن الذى أخبركم به نُعيم بن مسعود لحقّ .

ط — فلما كان الليل ، هبت ريح شديدة ، وَهطل مطر غزير ، وقصف الرعد ، وأومض البرق ، فتقوضت خيام الأحزاب من شدة العاصفة ، وانقلبت قدورهم ، وأخذ الرعب منهم كل مأخذ ، وكبّر الملائكة فى جوانبهم ، فخيل إليهم أن المسلمين انتهزوها فرصة فأغاروا عليهم ، فنادى أبو سفيان : الرحيلَ الرحيلَ ، وحمل قومُه ما استطاعوا حمله من متاع ، وتبعهم بقية الأحزاب ، وأصبح المسلمون فلم يجدوا منهم أحداً ، « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً » .

ى — أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رحيل الأحزاب يفكر فى أمر بنى

قُريظة ، ونقضهم العهد الذى كان بينه وبينهم ، وأنه لولا ارتحال الأحزاب لانحازوا إليهم ، فلما كان الظهر ، أمر مؤذناً فأذّن فى المسلمين : من كان سميعاً مطيعاً فلا يصليَنّ العصر إلا ببنى قريظة ، ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَب بعد طول الحصار ، فقد نَفروا إلى القتال سريعاً ، وحاصروا حصون بنى قريظة خمساً وعشرين ليلة ، لم يقع فى خلالها إلا تراشق بالنبال ، حتى جهد بنو قريظة ، ولم يجرؤ أحد منهم أن يخرج من حصونهم ، فلما أيقنوا أن حصونهم لا تجديهم نفعاً مع طول الحصار ، وأنهم لا بد واقعون فى قبضة المسلمين ، تشاوروا فيما بينهم ، على ما ينتهى إليه مصيرهم ، وإذ كان الأوس حلفاءهم ، فقد ظنوا أنهم سيدفعون عنهم ما قد يصيبهم من شرّ ، وكان الأمر كما ظنوا ، فقد سار جماعة من الأوس إلى رسول الله ، وقالوا له : يا رسول الله ، بنو قريظة حلفاؤنا ، وسألوه إطلاقهم ، كما أطلق بنى قينُقاعَ حلفاءَ الخزرج ، فقال لهم : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فقولوا لليهود : فليختاروا من شاءوا منكم ، فاختار اليهودُ سعدَ بن مُعاذ ، ونسوا أنه هو الذى فاوضهم فى عدم نقض عهدهم فأغلظوا له ، وخاضوا فى حق الرسول أمامه ، وسبوا المسلمين ، فأخذ سعد عليهم العهود والمواثيق أن يقبلوا حكمه ، فأمر سعد بنى قريظة أن ينزلوا من حصونهم ، ويُلقوا سلاحهم ، ففعلوا ؛ فحكم فيهم بأن تقتل الرجال ، وتسبى الذرارى والنساء ، وتقسم أموالهم ؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، حبس الرجال فى بعض دُور الأنصار ، ثم أمر فحفرت لهم خنادق ، ثم جىء باليهود أفواجاً ، فضربت أعناقهم ، ومنهم حُيى بن أخطب الذى رحل إليهم بعد فرار الأحزاب ، وكعب بن أسد ، وكانوا نحو سبعمائة ، ثم دفنوا فى هذه

الخنادق ، وفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم ونساءهم وأولادهم على المسلمين ، بعد أن أخرج منها الخمس .

ك — وبهذا تم للمسلمين على من ظاهروا الأحزاب النصر ، « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديراً » .

(٤)

من الآية ٩ إلى الآية ١٧ من سورة الأحزاب

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا، إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا؛ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ، وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا —١—. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا —٢—. وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: يَٰأَهْلَ يَثْرِبَ، لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ، يَقُولُونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا —٣—. وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا، وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا —٤—. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ: لَا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ، وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا —٥—. قُلْ: لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ، وَإِذَنْ لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا —٦—. قُلْ: مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ

اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ؟ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نَصِيرًا —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جنود	محاربون متحزبون من الكفار .
وجنوداً لم تروها	هم الملائكة .
وكان الله بما تعملون خبيراً	وكان الله يرى ما تعملون من حفر الخندق ، ويعلم التجاءكم إليه .
إذ جاءوكم من فوقكم	جاءت كتيبة من أعدائكم من أعلى الوادى من جهة الشرق .
ومن أسفل منكم	وجاءت كتيبة من أعدائكم من أسفل الوادى من جهة الغرب .
زاغت الأبصار	مالت عن مستوى نظرها يمنة ويسرة لشدة الرعب .
بلغت القلوب الحناجر	ارتفعت القلوب إلى رءوس الحناجر ، وهو مجرد تصوير لما بلغت إليه حالة المسلمين من شدة الفزع .
وتظنون بالله الظنونا	تظنون بالله ظنوناً مختلفة ، من حيث النصر أو اليأس .
هنالك ابتلى المؤمنون	فى هذا المقام اختبر المؤمنون بالصبر على المكاره .
وزلزلوا زلزالا شديداً	واضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الهول .

الألفاظ	شرحها
والذين فى قلوبهم مرض	والذين فى قلوبهم ضعف إيمان .
ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً	ما وعدنا الله ورسوله بالنصر إلا وعداً باطلاً .
طائفة منهم	جماعة من المنافقين .
يثرب	اسم المدينة قبل هجرة الرسول إليها .
لا مُقام لكم	لا جدوى فى الإقامة بمكان نتعرض فيه للخطر .
فارجعوا	فارجعوا من جبل سَلع إلى المدينة .
إن بيوتنا عورة	إن بيوتنا غير حصينة ، وليست مستورة عن العدو .
إن يريدون إلا فراراً	ما يريدون إلا الفرار من القتال .
ولو دُخلت عليهم من أقطارها	ولو دخل الأعداء عليهم المدينة من نواحيها .
ثم سئلوا الفتنة لآتوها	ثم سألهم الداخلون الرِّدة عن الإسلام لفعلوها .
وما تلبثوا بها إلا يسيراً	وما انتظروا بالإتيان بالردة إلا وقتاً يسيراً .
وكان عهدُ الله مسئولاً	وكان عهد الله مطلوباً مُقتضى ، حتى يُوفى به .
لا تمتعون إلا قليلاً	لا تمتعون فى الدنيا إلا قليلا ، ثم يدركك الموت أو القتل .
يعصمكم من الله	يحفظكم ويُجيركم .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، اذكروا فضل الله عليكم فى انتصاركم على أحزاب الكفار الذين تألبوا عليكم ، لإطفاء نور الإسلام — اذكروا حين جاءوكم فعسكروا

حول المدينة ، فكان فريق منهم بأعلى الوادى شرقاً ، وفريق بأسفله غرباً ، وفريق بجانب الخندق ، وهم جميعاً أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، كلهم يتحرق للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وَعسكرتم أنتم عند جبل سَلع ، وبينكم وبين أعدائكم خَندق حفرتموه بإشارة سَلمان الفارسى الذى قال : كنا ونحن بفارس إذا حوصرنا خندقنا ، وانحاز بنو قريظة من اليهود إلى الأحزاب ، ونقضوا العهد الذى كان بينكم وبينهم ، فعمّ الخطب ، واشتد الكرب ، ولم تكن الأبصار تنظر إلا إلى جهة الأعداء يميناً وشمالا ، وتردد النظر إليهم لشدة الروع ، واضطربت القلوب فى الصدور لفرط الهول ، واختلفت الظنون فيما يصير إليه أمركم من ظَفر أو فشل ، فظن المخلصون الثابتو الإيمان أن الله منجز وعده فى إعلاء دينه .

وظن المنافقون وضعاف الإيمان أن البلاء لامحالة واقع بالمسلمين ، وأن محمداً وأصحابه سيهلكون ؛ فى هذا الموقف الرهيب الذى اختُبر فيه المؤمنون ، واضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الفزع وكثرة الأعداء ، ظهرت قدرة الله القادرة ، وحكمته الباهرة ، لرفع لواء الإسلام ، وإنقاذه من بطش الطغاة ، فهبت ريح عاصفة ، فى ليلة شاتية ، فَسفتِ الريح التراب والحصباء فى وجوه الأعداء ، وقوضت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وقصفت الرعود وزمجرت ، وأومضت البروق فكادت تخطف أبصارهم ، وكبّرت الملائكة فى جوانب معسكراتهم ، فهالهم ما رأوا ، وبلغ منهم الفزع كل مبلغ ، وخيل إليهم أن المسلمين انتهزوا هذه الفرصة فأغاروا عليهم ، وأوقعوا بهم ، فلم يَسعهم إلا أن يحملوا ما استطاعوا حمله ، وفرّوا لا يَلوُون على أحد ، ونصر الله المؤمنين ، لأنه بصير بما يعملون من التجائهم إليه ، واعتمادهم عليه .

٢ — اذكروا أيها المؤمنون هذا الموقف ، إذ يقول المنافقون ، والذين فى قلوبهم ضعف إيمان ، وضعف اعتقاد بأن الله لا بد مؤيد رسوله ، وناصره على أعدائه : ما وعدنا الله ورسوله من النصر على الأعداء ، ورفع لواء الإسلام ، إلا وعداً باطلا ، حتى قال معتِّب بن قشير المنافق : يعدنا محمد بفتح فارس والروم ، والاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر ، وإن أحدنا لا يستطيع أن يخرج ليتبرز ، إن ما وعدنا به محمد ليس إلا إفكا افتراه .

٣ — واذكروا أيها المؤمنون إذ قالت طائفة من المنافقين لأهل المدينة من المقاتلين : يأهل يثرب ، لا جَدوى من إقامتكم فى سَلع بظاهر المدينة على الذل والهوان ، معرضين للقتل والأسر على يد أبى سفيان وأصحابه ، لأن مصير المسلمين إلى الهزيمة والفشل ، فارجعوا إلى منازلكم بيثرب ، فإن ذلك أسلم لكم ، ولا داعى إلى البقاء على دين محمد ، ارجعوا إلى شرككم ، وأسلموا محمداً إلى أعدائكم لتسلموا ، ويستأذن فريق منهم النبىّ فى الرجوع إلى المدينة ، يقولون : إن بيوتنا غير حصينة ، وهى معرضة لنبال الأعداء واللصوص ، فلا بد لنا أن ننصرف إليها لحمايتها ، فإنا نخاف عليها وعلى من فيها ، ونخشى سرقتها ، وليست بيوتهم كما يزعمون ، وما يريدون برجوعهم إلا فراراً من القتال .

٤ — هؤلاء المنافقون ، لو دخل عليهم الأعداء بيوتهم من نواحيها ، ثم طلب منهم الداخلون الرِّدّة إلى الكفر ، ومقاتلة المسلمين ، لفعلوها طيبة بها نفوسهم ، وما انتظروا عن إعلان الردة ، والمجاهرة بها ، إلا بمقدار الزمن الذى يوجَّه إليهم فيه السؤال ، لضعف إيمانهم ، وفرط نفاقهم .

٥ — ولقد كان هؤلاء المنافقون من بنى حارثة ، عاهدوا الله ورسوله من قبل ألا يولوا الأدبار ، كما فعلوا فى غزوة أحد ، حين هموا أن يخذلوا المؤمنين من بنى

سلمة ، (تراجع الفقرة الثانية من الصفحة ٣٤ من تفسير الجزء الرابع ، عند قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ») ، ثم تابوا على ألا يعودوا لمثلها أبداً ، وكان عهد الله مطلوباً مقتضى ، يجب الوفاء به .

٦ — قل لهم يا محمد : لن ينفعكم الفرار ، ولن يطيل حياتكم فراركم من الموت على فراشكم ، أو القتل فى المعركة ، فلكل حى أجل معلوم سبق به القضاء ، وجرى به القلم ، فإن نفعكم الفرار فنجوتكم من الموت عاجلا ، فإنكم لا تتمتعون بقية حياتكم إلا وقتاً يسيراً فى الدنيا ؛ ومهما طالت فهى قصيرة تنتهى بالموت ، والموت الذى تفرون منه لا بد مُلاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون .

٧ — قل لهم يا محمد : من الذى — يجيركم ويمنعكم من عذاب الله إن أصابكم سوء ، أو أراد بكم رحمة وخيراً ونصراً ، إنهم لا يجدون لهم من غير الله وليًّا ينفعهم ، ولا نصيراً يدفع الضر عنهم .

(٥)

من الآية ١٨ إلى الآية ٢٧ من سورة الأحزاب

قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ، وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنَا ، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا —١— . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ —٢— . أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ، فَأَحْبَطَ اللّٰهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرًا —٣— . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا —٤— . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّٰهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيرًا —٥— . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ، قَالُوا : هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا —٦— . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا —٧— . لِيَجْزِيَ اللّٰهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ

الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً —٨— وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا —٩— . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ، وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا —١٠—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
المعوقين	المثبطين من المنافقين .
هلم إلينا	تعالوا إلينا واتركوا محمداً .
ولا يأتون البأس إلا قليلاً	ولا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً ، بمقدار ما يراهم المسلمون ، ثم ينصرفون .
أشحة عليكم	بخلاء عليكم بالمعاونة ، للحقد الذى فى أنفسهم ، وهى جمع شحيح .
فإذا جاء الخوف	فإذا جاء ما يترقب منه الخوف من قبل العدو .
تدور أعينهم	تدور أعينهم يمنة ويسرة من شدة الرعب .
سلقوكم بألسنة حداد	آذوكم بألسنة شديدة الوطأة ، وأكثروا الكلام فى حقكم .

الألفاظ	شرحها
لم يؤمنوا	لم يخلصوا فى إيمانهم .
فأحبط الله أعمالهم	فأبطل الله ثواب أعمالهم .
يحسبون الأحزاب لم يذهبوا	يظنون لجبنهم وشدة فزعهم أن الأحزاب لم ينصرفوا .
وإن يأت الأحزاب	وإن يأت الأحزاب كرة أخرى .
يودّوا لو أنهم بادون فى الأعراب	يتمنوا لجبنهم لو أنهم خرجوا من المدينة ، وأقاموا مع الأعراب فى البادية .
ولو كانوا فيكم	ولو كانوا معكم فى هذه الكرة الأخرى ، وكان هناك قتال .
أسوة حسنة	قدوة حسنة فى الثبات فى الحرب ، والصبر على الشدائد .
وَصَدَق الله ورسوله	وظهر صدق الله ورسوله فيما وعدا به .
صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه	صدقوا فى عهدهم بالثبات فى القتال ، لإعلاء أمر الدين .
قضى نَحبه	قاتل حتى استُشهد ، وأصل النحب : النذر الذى يجب الوفاء به .
من ينتظر	من ينتظر الاستشهاد فى سبيل الله .
وما بدّلوا تبديلاً	وما بدّلوا فى عهدهم شيئاً من التبديل .
الذين ظاهروهم من أهل الكتاب	الذين عاونوا الأحزاب من بنى قُريظة .
من صياصيهم	من حصونهم .
وأرضاً لم تطئوها	وأرض خيبر التى يسكنها اليهود .

مجمل المعنى

١ — إن الله ليعلم المثبطين من أهل النفاق عن القتال ، المتعرضين لصد الناس عنه ، كعبد الله بن أبيّ ، ومعتِّب بن قشير ، القائلين لإخوانهم من أهل المدينة : تعالوا إلينا ، وشاركونا فى الفرار لننجو بأنفسنا ، وفارقوا محمداً ، فإنه لامحالة هالك ، وإن أباسفيان إن ظفر بكم لم يُبق منكم أحداً ، وهؤلاء المنافقون لا يشتركون فى الحرب إلا اشتراكاً ضئيلا ، رَيْثما يراهم المؤمنون ثم ينصرفون ، فهم يعتذرون عن الخروج للقتال ، ويثبطون غيرهم عنه ، فإذا اضطروا إليه درءاً للشبهة ، قاتلوا قليلا ثم انصرفوا .

٢ — يفعلون ذلك لأنهم بخلاء بمعاونتكم ، أضنّاء بالنفقة فى سبيل رفع راية الإسلام ، فإذا اشتد الهول ، وعظم الخطب ، رأيتهم من شدة رعبهم ، تدور أعينهم فى أحداقهم يميناً وشمالا ، كدوران أعين الذى يُغشى عليه من معالجة سكرات الموت ، فإذا زال الخطر عنهم ، آذوكم بما لا تحبون من القول ، وبسطوا إليكم ألسنتهم بالسوء ، فسبوكم وذموكم فى مجالسهم .

٣ — هم حريصون على طلب الخير لأنفسهم ، لذلك يَظهرون وقت اقتسام الغنائم ؛ أولئك المنافقون لم يؤمنوا إيماناً صادقاً ، بل يتظاهرون بالإيمان رياء وخداعاً ، فأبطل الله ثواب أعمالهم ، إن كانت لهم أعمال تستحق الثواب ، وكان ذلك الإبطال أمراً هيناً على الله ، متى تعلقت إرادته به .

٤ — يحسبون لجبنهم ، وخور عزيمتهم ، وشدة فزعهم ، أن أحزاب الكفار لم يعودوا أدراجهم بعد فشلهم ، فهم يتصورون أن الأحزاب ما زالوا معسكرين حول المدينة ، وإن أيقنوا بهزيمة الأحزاب ، ثم كرّ الأحزاب على المسلمين كرّة أخرى ، تمنوا لو أنهم كانوا فى البادية مع الأعراب البدو ، بعيدين عن معركة

القتال ليأمنوا على أنفسهم ، مكتفين بأنهم يسألون كل قادم من ناحية المدينة عن أخباركم مع الكفار ، لفرط جبنهم ، ولو كانوا معكم فى هذه الكرّة الأخرى المفترَضة ، ما قاتلوا إلا قتالا هزيلا ، لاجدوى منه ، رياء ونفاقاً ، ثم فرّوا جبناً وَخوَراً .

٥ — لقد كان لكم أيها المؤمنون فى رسول الله قدوة حسنة فى الثبات فى القتال ، والصبر على مقاساة الشدائد والأهوال ، لمن كان يرجو لقاء الله وثوابه فى اليوم الآخر ، والنعيم المقيم فيه ، وقرَن رجاءه بكثرة ذكر الله المؤدية إلى طاعته ، وَبذل النفس والنفيس فى سبيل رضاه .

٦ — ولما رأى المؤمنون الصادقو الإيمان الأحزاب من الكفار ، قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، من الابتلاء الذى يعقبه النصر ، فى قوله : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثلُ الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » ، (تراجع الفقرة السادسة من الصفحة التسعين ، من تفسير الجزء الثانى) ، وقد َصَدق الله ورسوله فيما وَعدا به ، وما زادتهم معاناة البلاء إلا إيماناً بالله ، وثقة بوعده ، وتسليما لأوامره ، وقضائه وقدره .

٧ — من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، من الثبات مع النبى صلى الله عليه وسلم فى القتال ، فمنهم من قاتل حتى استُشهد فى سبيل الله ، كأن الاستشهاد كان نذراً يجب عليه الوفاء به ، ومنهم من ينتظر الاستشهاد ، ويعُده أعظم قربة إلى الله ، وما بدّلوا فى العهد والإخلاص أى تبديل ، وما شكُّوا فى النصر ، وما ترددوا فى بذل حياتهم فى سبيل الله ، بخلاف المنافقين الذى لا يُوفون بعهد ، ولا يرقبون فى الفرار من الجهاد إلاًّ ولا ذمة .

٨ — لقد أمر الله بالجهاد ، ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم فى الدنيا ،

لأنهم لايبدلون شيئاً فيما أخذوه على أنفسهم من العهود والمواثيق ، كما يفعل المنافقون ، بل ثبتوا على إخلاصهم ، ويعذب المنافقين إن شاء أن يميتهم على نفاقهم ، أو يوفقهم إلى التوبة ، إن الله كان غفوراً رحيما لمن تاب .

٩ — وردّ الله أحزاب الكفار مَغيظين محنَقين ، لم ينالوا مرادهم من الظفر بالمؤمنين ، وأغنى الله المؤمنين عن القتال ، بما أرسله على أعدائهم من الرياح العاصفة ، والرعود القاصفة ، والبروق الخاطفة ، والأمطار المنهمرة ، والملائكة الذين صاحوا فى جوانب معسكراتهم ، وكان الله قويًّا على إحداث ما يريد ، غالباً على كل شىء .

١٠— وأنزل بنى قريظة من اليهود الذين عاونوا الكفار من حصونهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، فكانوا فريقاً تقتلونهم ، وهم رجالهم ، وفريقاً تأسرونهم وهم ذراريهم ونساؤهم ، وأورثكم مزارعهم وحصونهم ، وأموالهم من نقود ومواش وأثاث ، وأرضاً لم تطئوها من قبل وهى خيبر ، سنة سبع للهجرة ، وفارس والروم بعد ذلك ، وكان الله على كل شىء قديراً .

(٦)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٢٩ من سورة الأحزاب

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ، قُلْ لِأَزْوَاجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أمتعكن	أمتعكن بما أوجب الله على الرجال عند الطلاق .
أسرحكن سراحاً جميلاً	أطلقكن طلاقاً لا ضرر فيه ، وأخلِّي سبيلكن .

بعد غزوة الأحزاب وبنى قريظة

١ – دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدغزوة الأحزاب وبنى قريظة، لأنه لم يخرج إلى الصلاة كعادته ، وكان الناس جلوساً على بابه ، لم يُؤذن لأحد منهم بالدخول ، فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذِن له ، فوجد عمر النبى صلى الله عليه وسلم جالساً واجماً ساكتاً ،

وحوله نساؤه ، فقال عمر فى نفسه : والله لأقولن شيئاً أضحك به رسول الله ، ثم قال : يا رسول الله ، لو رأيتُ فلانة — يعنى زوجته — سألتنى النفقة ، فقمت إليها فوَجأت عُنقَها : (ضربت عنقها بسكين أو نحوه) ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هُن حولى يسألننى النفقة » ، فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليضربها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله ما ليس عنده ، فنهاهما رسول الله ، فقالت نساء النبى : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ليس عنده ، بناتُ كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ، والإماء والخَول ، ونحن فى الفاقة والضيق ؛ فاعتزلهن رسول الله لهذا السبب ، ولأسباب أخرى تتعلق بتآمرهن عليه ، ذكرناها فى الصفحات التى من ١٠٣ — ١٠٥ ، من تفسير جزء « قد سمع » ، لواضعى هذا التفسير ، وانقضى على اعتزال النبى صلى الله عليه وسلم زوجاته شهراً ، لا يكلم فيه أحداً فى شأنهن ، وكان أبو بكر وعمر والصحابة فى خلاله ، على أشد ما يكون من القلق على مصير أمهات المؤمنين ، وما يتعرضن له من غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن ، وشاع بين المؤمنين أن النبى طلق زوجاته ، وكان رسول الله يقضى أكثر وقته فى خزانة يصعد إليها على جذع نخلة ، وكان المسلمون فى خلال هذا الشهر يجتمعون فى المسجد مطرقين ، قد بلغ الحزن منهم كل مبلغ .

٢ — فلما استأذن عمر رضى الله عنه فى الدخول عليه ، ودخل ورأى الحصير الذى يضطجع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أثّر فى جنبه ، بكى ، ثم قال : يا رسول الله ، إن كنت قد طلقت نساءك ، فإن الله معك

وملائكته وجبريل والمؤمنون ، ثم ذكر له أمر المسلمين وحزنهم ، وما بلغهم عن طلاق نسائه ، فلما أبلغه رسول الله أنه لم يطلق نساءه ، استأذنه فى أن ينقل هذا الخبر السارّ إلى المسلمين .

٣ — فلما نزل قوله تعالى: « يأيها النبى قل لأزواجك . . . » ، إلى قوله : « أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » ، أخذ يخيِّر نساءه ، فبدأ بعائشة فقال لها: يا عائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمراً ، أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : ما هو يا رسول الله ، فتلا عليها هاتين الآيتين ، فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوىّ ؟ بل أريد رضا الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم فعل سائر زوجاته مثل ما فعلت عائشة ، ما عدا امرأة عامرية قد اختارت قومها ، وكانت بعد ذلك تقول : أنا الشقية .

مجمل المعنى

يأيها النبى ، قل لزوجاتك : إن كنتن تردن السعة فى النفقة ، والاستمتاع بزخارف الحياة الدنيا وملاذها ، فتعالين بإرادتكن واختياركن ، أمتعكن بما أوجب الله على الرجال للنساء ، من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق بقوله: « ومتعوهن ، على الموسع قَدَره ، وعلى المقتر قدره ، متاعاً بالمعروف ، حقًّا على المتقين » ، وأسرحكن سَراحاً جميلا ، فأطلقكن طلاقاً لا ضرار فيه ، والتسريح فى الأصل: مجرد الإطلاق ، ثم كُنِى به عن الطلاق ؛ وإن كنتن تردن البقاء ، فآثرتن رضا الله ورسوله ، ونعيم الدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن ، وهن اللاتى يعملن بما أمر به الله ورسوله ، فى مقابل إحسانهن ، أجراً عظيماً ، يُستحقر أمامه ما فى الدنيا من زخارف وملاذ ، ومظاهر الزينة .

(٧)

من الآية ٣٠ من سورة الأحزاب

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ، مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بفاحشة مبينة	بكبيرة ظاهر قبحها وفحشها .
يضاعف لها العذاب ضعفين	تعاقب بمثلى عقاب غيرها .

مجمل المعنى

لما خيَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، أراد الله أن يؤدبهن ، للتوقى عما يسوء النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن جرائمهن تؤذيه ، فذكر أن من يأتى من نساء النبى بكبيرة من الذنوب ظاهر قبحها وفحشها ، مثل عقوق الزوج ، وفساد عشرته ، والنشوز ، تعاقب بمثلى عقاب غيرها ، لشرف منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقدمهن على سائر النساء

فى يوم القيامة ، ولأن المعصية التى تحدث منهن ، أقبح من نظيرها فى غيرهن ، ولذا كان الذم للعاصى العالم ، أشدّ من الذم للعاصى الجاهل ، وكان عقاب الحرّ أشدّ من عقاب العبد ، وحد الثيّب أشدّ من حد البكر ، وكان ذلك هيناً يسيراً على الله ، ولا يشفع لهن كونهن زوجات رسول الله .

فهرس الجزء الحادى والعشرون من تفسير القرآن الكريم

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات •
٥	لقمان	من ٣٢ إلى آخر السورة	من ٨٥ — ٩١
١	السجدة	« ١ — ٩	« ٩٢ — ٩٦
٢	«	« ١٠ — ٢٢	« ٩٧ — ١٠٤
٣	«	« ٢٣ — ٣١	« ١٠٥ — ١٠٨
١	الأحزاب	« ١ — ٣	« ١٠٩ — ١١٠
٢	«	« ٤ — ٦	« ١١١ — ١١٥
٣	«	« ٧ — ٨	« ١١٦ — ١٢٣
٤	«	« ٩ — ١٧	« ١٢٤ — ١٢٩
٥	«	« ١٨ — ٢٧	« ١٣٠ — ١٣٥
٦	«	« ٢٨ — ٢٩	« ١٣٦ — ١٣٨
٧	«	الآية ٣٠	« ١٣٩ — ١٤٠

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثاني والعشرون

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى
فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر
مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ،
وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ،
تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

الآية ٣١ من سورة الأحزاب

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِها أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من يقنت	من يدم على طاعة ليس معها معصية ، ويخشع ويخضع .
نؤتها أجرها مرتين	نعطها مثلى أجر غيرها .
وأعتدنا	وأعددنا وهيأنا لها فى الجنة .
رزقا كريماً	نعيماً مقيما لا يفنى .

مجمل المعنى

قدمنا فى آخر الجزء الحادى والعشرين ، أن من أتت من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعصية ظاهر قُبحها وفُحشُها ، تعاقب بمثلى عقوبة غيرها ، لشرف

منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقدمهن على سائر النساء ، فالذنب الذى يقع منهن أقبح من نظيره من غيرهن ، فكان من الطبيعى أنه ما دام العقاب لزوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم على المعصية مضاعفاً ، فالعدل يقتضى أن يكون الثواب على مداومة الطاعة ، وحسن معاشرة الرسول ، وعدم مطالبته بما ليس فى طاقته ، والقناعة ، والعمل الصالح ، مضاعفاً أيضاً ؛ فمن فعلت ذلك منهن ، ضاعف الله أجرها بمقدار مثلى غيرها من سائر النساء ، وأعدلها فى الجنة العيش الهنىء ، والنعيم المقيم ، والرزق الكريم ، الذى لا يفنى ولا يزول ، زيادة على أجرها المضاعف .

(٢)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٥ من سورة الأحزاب

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ، لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ . فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا —١— . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى —٢— . وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ، وَآتِينَ الزَّكَاةَ ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا —٣— . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا —٤— . إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اتقيتن	حافظتن على طاعة الله فيما أمر به ونهى عنه .
فلا تخضعن بالقول	فلا يكن قولكن مع الرجال الأجانب عنكن ليناً يغرى بكن .
مرض	فجور وطمع .
قلن قولا معروفاً	قلن قولاً حسناً بعيداً عن الريبة ، والإطماع فيكن .
قرْن	استقررن وأقمن ، وأصله : اقرَرْن .
ولا تبرجن	لا تظهرن زينتكن ومحاسنكن للأجانب من الرجال .
الجاهلية الأولى	ما قبل الإسلام .
الرجس	الفعل القبيح ، والمعصية التى تدنس العرض .
أهل البيت	يأهل بيت النبى .
ويطهرَكم تطهيراً	ويطهركم من كل دنس تطهيراً تامًّا .
والحكمة	وسنة رسول الله .
لطيفاً خبيراً	مدبراً ما يصلح ، خبيراً بجميع خلقه .
القانتين	المداومين على الطاعات .
الخاشعين	المتواضعين لله .
المتصدقين	الباذلين أموالهم للمحتاجين .
الحافظين فروجهم	المتعففين عن الزنى .

مجمل المعنى

١ — نساء النبى صلى الله عليه وسلم فُضليات النساء ، وأمهات المؤمنين ، وزوجات خير الأنبياء والمرسلين ، ولذلك أراد الله عز وجل أن يجعلهن قدوة لغيرهن من النساء فى الآداب ومحاسن الأخلاق ، فخاطبهن بأنهن لسن كغيرهن من نساء عصرهن ، لأنهن أعظم النساء فى الفضل والشرف — إن اتقَين الله وأطعن رسوله ، فإن أكرم الناس عند الله أتقاهم ؛ ونهاهن أن يكون كلامهن ليناً ناعماً رقيقاً عند مخاطبة الرجال الأجانب عنهن . لئلا يطمع فيهن من لا يعمر قلبه بصدق الإيمان ، من ذوى الأخلاق الفاسدة ، المستخفين بحدود الله ، فيتشوفوا إلى مغازلتهن ، بل ينبغى أن يكون كلامهن — مع كونه مهذباً — مشوباً بمظهر الجد ، بعيداً عما يثير الريبة والإطماع والشبهة .

٢ — وأمرهن الله أن يلزمن دورهن للقيام بأعباء العمل فيها ، فلا يخرجن إلا عند الضرورة ، كالحج ، وزيارة الوالدين ، وعيادة المرضى من الأقارب ، وتعزيتهم بعد أن يَستأذنَّ ، وإذا خرجن وجب عليهن ألا يظهرن زينتهن ومحاسنهن للرجال ، وألا يتبخترن فى مشيتهن خشية الفتنة ، وإثارة الغرائز الجنسية ، كما كان النساء البغايا يفعلن إبان الجاهلية الأولى قبل الإسلام .

٣ — وأمرهن المولى جل شأنه أن يقمن الصلاة ، وأن يؤدين الزكاة الواجبة عليهن فى أموالهن ، ويُطعن الله ورسوله فى جميع ما يأمران به أو ينهيان عنه ، لأن الله يريد أن يكون أهلُ بيت النبى المثل الأعلى فى الكمال ، والقدوة الحسنة لغيرهن ، فهو يبعدهم جميعاً عن كل قبيح ، ويطهرهم من كل دَنس وسوء ، وإثم ومعصية .

٤ — وأمرهن أن يذكرن ويتعظن بما يتلى فى بيوتهن من آيات كتاب الله الكريم، وسنة رسوله ، ويتدبرن ما فيهما من الحكم والآداب ، ليزددن إيماناً مع إيمانهن ، ومعرفة بفضل الله عليهن ، حيث مَن ّ عليهن ّ بزواجهن من أفضل الخلق جميعاً ؛ والله لطيف بالمخلصين فى طاعته، خبير بجميع خلقه ، فاحذرن أيتها النساء مخالفة أمره ونهيه .

٥ — إن المسلمين الذين يفوّضون أمورهم إلى الله ، ويتوكلون عليه ، والمسلمات، والمؤمنين المصدقين بالله وبرسوله عن يقين واعتقاد ، والمؤمنات ، والقانتين العابدين القائمين بطاعة الله ورسوله ، المداومين على الطاعات ، والقانتات ، والصادقين فى نياتهم وأقوالهم وأعمالهم ، والصادقات ، والصابرين على الطاعات ، وعن السيئات ، وعند البلاء ، والصابرات ، والخاشعين المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم ، الذين لا تُميلهم بسطة الجاه والنفوذ عن العبادة، والخاشعات، والمتصدقين الباذلين بعض أموالهم للمحتاجين ، والمتصدقات ، والصائمين الذين لا تمنعهم شهوة البطن والفرج عن أداء فريضة الصوم ، والصائمات ، والحافظين فروجهم عما لا يحل إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، والحافظات فروجهن إلا على أزواجهن إن كن حرائر ، أو على من ملكهن إن كن إماء ، والذاكرين الله كثيراً قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، بالتسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير، وقراءة القرآن فى جميع أوقاتهم ، وبخاصة عقب كل صلاة ، والذاكرات ؛ هؤلاء جميعاً أعد الله لهم ثواباعلى طاعتهم ،ومغفرة تمحو ذنوبهم ،وأجراً عظيماً .

وقد نزلت هذه الآية لما جاءت أم ّ عُمارة الأنصارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت له : ما أرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشىء .

(٣)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٠ من سورة الأحزاب

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ؛ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا —١— . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، وَاتَّقِ اللهَ ، وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ ، وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ، لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا —٢— . مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا —٣— . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قضى الله ورسوله أمراً	أجرى الله على لسان رسوله أمراً .
الخيرة	الاختيار .
أنعم الله عليه	تفضل الله عليه بتوفيقه للإسلام ، وهو زيد بن حارثة .
وأنعمت عليه	وتفضلت عليه بالعتق والتبنى .
أمسك عليك زوجك	لا تطلّق زوجتك زينب .
واتق الله	واتق الله فى أمر طلاقها .
وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه	تخفى فى نفسك ما الله مظهره ، من إباحة الزواج بزوجة المتبنَّى .
وتخشى الناس	وتخشى قول الناس فى أن محمداً تزوج زوجة ابنه .
وطراً	حاجة .
حَرَج	إثم .
فى أزواج أدعيائهم	فى التزوج بزوجات من تبنَّوهم .
إذا قضوا منهن وطراً	إذا طلقهن المتبنَّوْن بعد انقضاء حاجتهم منهن .
وكان أمر الله مفعولا	وكان أمر الله لا بد مقضيًّا نافذاً .
فيما فرض الله له	فيما أحل الله له .
سنة الله فى الذين خلوا من قبل	سَن الله لك فى الدين سنة من سبقك من الأنبياء .
قَدَراً مقدوراً	قضاء مقضيًّا .
لا يخشون أحداً إلا الله	لا يخشون أحداً فيما أحله الله لهم .

الألفاظ	شرحها
حسيباً	محاسباً لخلقه على ما يصدر منهم .
أبا أحد من رجالكم	أباً فى الحقيقة لأحد من رجالكم ، حتى يزعموا أن زيداً ابنه .
ولكنْ رسولَ الله	ولكن كان رسول الله فيكم .
وخاتم النبيين	آخر الأنبياء ، فلا يخلفه أحد فى النبوة .

قصة زيد بن حارثة ، وزينب بنت جَحْش

ا — كان زيد بن حارثة من سَبى الشام ، سبته جماعة من تهامة وهو صبى ، فاشتراه حكيم بن خزام ، ووهبه لعمته خديجة بنت خُويلد ، فلما تزوجها رسول الله قبل البعثة ، وسنه خمس وعشرون سنة ، وهبت له زيداً ، فأعتقه وتبناه (وقد فصلنا هذا فى الصفحة ١١٤ من تفسير الجزء الحادى والعشرين.

ب — فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان زيد بن حارثة — الذى كان يُطلق عليه زيد بن محمد — من أوائل من آمن به ، وكان رسول الله يعطف عليه ، ويقدمه على كثير من الصحابة ، لما آنس فيه من الإخلاص له ، وَبذل الجهد فى رفع راية الإسلام ، وبلغ من شدة عطفه عليه ، وعنايته بأمره ، أنه فى السنة الخامسة من الهجرة ، خطب له زينب بنت جحش ، ابنة عمته : أميمة بنت عبد المطلب ، فأبت زينب هى وأخوها ، أنفة واستكباراً ، واستنكفت زينب لأنها قرشية من بيت النبوة ، وزيد كان عبداً مملوكاً ، ولم تكن بنات الأشراف من العرب يتزوجن من الموالى وإن أعتقوا ، لكن رسول الله صلى الله عليه سلم أراد القضاء

على نظام الطبقات ، فلما نزل قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ، قبلت زينب الزواج من زيد على كره منها ، وأذعن أخوها عبد الله بن جحش ، وقالا : رضينا يا رسول الله، وبنى زيد بزوجته زينب ، بعد أن دفع لها النبى صلى الله عليه وسلم مهرها عنه : عشرة دنانير وستين درهماً ، وبعض المتاع والطعام .

ج — رأى زيد بن حارثة أن زينب زوجته تتعاظم عليه ، وتُدِلّ بشرفها ، وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها لم يَجر عليها رقّ كما جرى عليه ؛ وكان زيد يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوء معاملة زوجته زينب إياه ، واستأذنه عدة مرات أن يطلقها ، فكان رسول الله يقول له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » ؛ لكن زيداً لم يطق معاشرة زينب ، ولم يبق فى قوس صبره منزع ، فطلقها .

د — وكانت العرب قبل الإسلام تجعل للمتبنى حقوق الابن ، من حيث التصاقُ نسبه بنسب من تبناه ، ووراثةُ أحدهما للآخر ، فأراد الله أن يقضى على هذه الحقوق البالية الموروثة ، إذ لو سار الدين الإسلامى على ما درج عليه أهل الجاهلية ، لكان مقتضى هذا أنه يحرُم على المتبنِّى أن يتزوج زوجة المتبنَّى ، بعد طلاقها وانقضاء عدتها ، لكن الله حرم على الآباء زوجات الأبناء الذين من الأصلاب فقط ، (يُراجع حرف « م » من الصفحة ١١٢ من تفسير الجزء الرابع) ، ومقتضى هذا إباحة زواج زوجات المتبنَّين .

هـ — وللقضاء على هذه التقاليد الموروثة ، ولإعلان ما يُبيحه الدين الإسلامى ، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب ، تطييباً لخاطرها ،

وترضية لها على تنفيذ أمر الله ورسوله ، بالزواج من رجل كان يوماً ما عبداً رقيقاً ، لكن رسول الله جال بخاطره ما يمكن أن يتقوّله عليه الناس من أنه تزوج بزوجة زيد الذى تبناه ، وكان مشهوراً بأنه زيد بن محمد ، وما يفاجئ به المسلمين — ولا سيما المنافقين — من إبطال تقليد كان متبعاً فى الجاهلية ، وهو ما أشار إليه الله تعالى فى قوله : « وتُخفى فى نفسك ما الله مُبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه » ، جال بخاطر الرسول هذه الخواطر ، لكن ما دامت هذه إرادة الله ، وما دام محمد هو الأسوة الحسنة فى كل ما يأمر الله به أو ينهى عنه ، فحسبه أن ينفذ ما شرعه الله ، وليتزوج زينب ، « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطراً » .

مجمل المعنى

١ — لا ينبغى لمؤمن كعبد الله بن جحش ، ولا لمؤمنة كزينب بنت جحش ، إذا قضى الله على لسان رسوله أمراً ، أن يكون لهم حق الاختيار فيما أمر به ، بل يجب عليهم اتباعه ، وأن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختيار الله ورسوله ، وإلا وقعوا فى المعصية ، ومن يعص الله ورسوله بمخالفة أمرهما ، فقد انحرف عن الصواب ، وحاد عن سبيل الهدى والرشاد .

٢ — واذكر يا محمد وقت قولك لزيد فتاك ، الذى أنعم الله عليه بالإسلام ، وأنعمت عليه بالتحرير من الرق ، والتربية والتبنى ، حين جاءك عدة مرات شاكياً من زوجته زينب ، التى كانت تتعاظم عليه لشرفها ، وتفخر عليه بنسبها ، وتُدل عليه بأنها من بيت النبوة ، وتعيب عليه أنه كان عبداً

رقيقاً — اذكر وقت قولك له حين جاء يشكو إليك ما يلاقيه من زوجته زينب ، ويَعرض عليك رغبته فى طلاقها : «أمسك عليك زوجك واتق الله » ، واذكر إذ كنت ترى حرجاً فى تنفيذ حكم الله ، من إباحة الزواج بزوجة المتبنَّى ، وإعلان حكم الشريعة ، والقضاء على عادة موروثة ، بأن تتزوج زينب بعد طلاقها من زيد ، وانقضاء عدتها ، ترضية لها على امتثال أمر الله وأمرك ، مخالفاً ما تواضع عليه العرب من استنكار الزواج بزوجة المتبنَّى ، فكنت تخفى فى نفسك ما الله مُعلنه من حكم الشرع ، وتخشى قول الناس — وبخاصة المنافقون — وتعييرهم إياك بأنك تزوجت بزوجة ابنك زيد ، والله أحق أن تخشاه وحده فى تنفيذ أحكامه ، فلما قضى زيد من زينب وطره ، ولم تبق له حاجة فيها ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، أبحنا لك الزواج منها ، ليكون ذلك تشريعاً للناس ، فلا يكون عليهم بأس فى الزواج بزوجات من تبنوهم ، متى أدركوا منهن حاجتهم ، وطلقوهن ، وكان أمر الله قضاء مقضيًّا نافذاً .

٣ — ما كان على النبيّ من بأس فيما أحله الله له ، سَن الله بذلك فى تعدد الزوجات سنة الذين تقدموك من الأنبياء ، فقد كان لداود مائة زوجة ، وكان أمر الله حُكماً نافذاً واجب الاتباع ؛ هؤلاء الأنبياء يبلغون رسالات الله ، ويخشونه وحده فى كل ما يأتون وما يذرون ، ولا يخشون أحداً إلا الله ، ولا يعبئون بما يخوض الناس فيه ، فيما أحله لهم ، وكفى بالله محاسباً ، فينبغى ألا نخشى غيره .

٤ — ما كان محمد أباً حقيقيًّا لأحد من رجالكم ، حتى يكون بينهما ما يكون بين الوالد والولد من حرمة زواج الأب زوجة الابن ، وليس أباً لزيد ، حتى يحرم عليه الزواج من زوجته زينب ، وإذا كان محمد أباً للقاسم وعبد الله

وإبراهيم ، فلم يعش أحد منهم حتى يبلغ مبلغ الرجال ، فالقاسم وعبد الله ماتا بمكة قبل الهجرة ، وإبراهيم ولد فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقصة زينب كانت فى السنة الخامسة ، حين لم يكن له أولاد من الذكور ، ولكن محمداً كان رسول الله ، وكان خاتم النبيين ، وآخرهم الذى يختمون به ، فليس له ابن بعده يرثه فى النبوة ، وكان الله عليماً بكل شىء ، يعلمكم الأحكام التى كنتم منها فى شك مُريب .

(٤)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٤ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ، لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً —١— . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلَامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيماً —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بكرة وأصيلا	أول النهار وآخره .
يصلى عليكم	يرحمكم .
وملائكته	ويستغفر لكم ملائكته .
من الظلمات إلى النور	من الضلال إلى الهدى .
تحيتهم	تحية المؤمنين من الله .
سلام	إخبار بالسلامة من كل مكروه .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، اذكروا الله بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم ذكراً كثيراً دائماً ، بما يستحقه من التقديس والتحميد ، والتهليل والتمجيد ، واشكروه على نعمائه ، وأثنوا عليه بما هو أهله ، وسبحوه فى أول النهار وآخره ، بأن تقولوا : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ونزهوه عن كل ما لا يليق به ؛ وخُصَّ هذان الوقتان بالذكر ، لأن ذكر الإنسان ربه ، وتسبيحه فى بدء نهاره ، يُشعره بعظمة الله ، فيرجو منه التوفيق فى عمله فى أثناء النهار ؛ وذكره وتسبيحه فى آخر نهاره ، يشعره بعظمة القادر الذى غمره بفضله ، واستحقاقه من أجل ذلك جزيل الحمد ؛ ولا ينافى هذا أن يذكر المؤمنون ربهم ، ويسبحوه فى جميع الأوقات والأحوال ، فإنه هو الذى يعمهم برحمته ، ويستغفر لهم ملائكته ، ليخرجهم من ظلمات الضلال والمعصية ، إلى نور الهدى والطاعة ، وهذه نعمة من أكبر النعم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، التى هى خير أمة أخرجت للناس ، وكان الله رحيماً بالمؤمنين ، معنيًّا بخيرهم ، وإصلاح أمورهم ، فهو يؤمِّنهم من العذاب يوم القيامة ما داموا له مطيعين ، ولأمره متبعين ، ومن مظاهر عنايته بأمرهم ، أن ملائكته يستغفرون لهم .

٢ — تحية الله للمؤمنين يوم يلقونه فى الدار الآخرة على لسان رسله : سلام لهم من كل مكروه ، ونظير هذا قوله فى سورة الرعد : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم » ، وقد هيأ الله لهم مقاماً كريماً فى الجنة ، وجزاء حسناً لهم على طاعتهم فى الدنيا .

(٥)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٤٨ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا —١— . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا —٢— . وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَدَعْ أَذَاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
شاهداً	شاهداً على من بُعثت إليهم .
ومبشراً	ومبشراً بالجنة من صدّقك .
ونذيراً	ومنذراً النار من كذبك .
وداعياً إلى الله بإذنه	وداعياً إلى توحيد الله بأمره وتيسيره .
وسراجاً منيراً	وسراجاً منيراً فى الاهتداء به .
ودع أذاهم	ولا تحفل بإيذائهم إياك ، ولا تقابلهم بمثله .

مجمل المعنى

١ — يأيها النبى ، إنا أرسلناك شاهداً على من بُعثت إليهم بإبلاغك إيّاهم رسالتك ، فتراقب أحوالهم ، وتشاهد أعمالهم ، وما يصدر منهم من تصديق أو تكذيب ، وتؤدى شهادتك يوم القيامة فيما لهم وعليهم ، ونظير هذا قوله تعالى : « ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، وأرسلناك مبشراً بالجنة مَن صدقك ، ومنذراً من كذبك وعصاك النار ، وداعياً إلى توحيد الله بإذنه وتيسيره ، وما يجب الإيمان به من صفاته ، وسراجاً منيراً ، يستضاء ويهتدى به ، ويقتبس من نوره فى إنارة البصائر ، وتبديد ظلمات الشرك والغواية .

٢ — فراقب أحوال من أرسلت إليهم يا محمد ، وبشر أهل الإيمان بأن لهم من الله فضلا كبيراً ، وعطاء جزيلا ، وثواباً عظيما يوم القيامة فى الجنة ، على صدق إيمانهم ، ونظير هذا قوله فى سورة الشورى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير » .

٣ — ولا تطع الكافرين فيما يخالف شريعتك ، والمداهنة فى الدين ، كاعترافك لهم أن آلهتهم تنفع وتشفع ، ولا المنافقين الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، ويظاهرون الكفار عليك ، ولا تبال بهم ، ولا تحفل بأذاهم ، أو بما يتهددونك به من أذى ، فإن الله عاصمك منهم ، وتوكل عليه ، فإنه كفيل أن يكفيك شرهم ، وكفى به حافظاً ، مفوّضاً إليه أمرك .

(٦)

الآية ٤٩ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ، فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ، فَمَتِّعُوهُنَّ ، وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	تزوجتم
نكحتم	تزوجتم .
تمسوهن	تباشروهن مباشرة الرجل لزوجته .
تعتدونها	تُحصونها وتعدونها وتستوفونها .
فمتعوهن	فأعطوهن ما يستمتعن به .
وسرحوهن سراحاً جميلاً	وخلوا سبيلهن ، من غير إضرار بهن .

مجمل المعنى

يأيها المؤمنون ، إذا تزوجتم المؤمنات ، ثم طلقتموهن من غير أن تباشروهن مباشرة الرجل لزوجته ، فما لكم عليهن من عدة تُحصونها وتستوفونها ، تتربص فيها المطلقات بأنفسهن ثلاثة قروء ، كالمرأة المدخول بها — والخلوة

الصحيحة كالمباشرة فى بعض المذاهب ، احتياطاً لاحتمال المباشرة — فأعطوهن ما يستمتعن به إن لم تكونوا قد سميتم لهن مَهراً ، على الموسع قدرُه وعلى المقتر قدرَه ، أو أعطوهن نصف المهر المسمّى بينكما ، وخلوا سبيلهن من غير ضرر يلحقهن ؛ وتخصيص المؤمنات بالذكر ، مع أن الحكم عام يشمل الزوجات من الكتابيات ، للتنبيه على أن المؤمن يجمل به أن يتخير لنطفته مؤمنة ؛ وهذه الآية تخصيص بعد التعميم المذكور فى قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، (تراجع الفقرة الثالثة من الصفحة ١١٢ من تفسير الجزء الثانى) ، وفرض نصف المهر مستفاد من قوله : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم ، إلاّ أن يَعفون ، أو يعفو الذين بيده عُقدة النكاح » . (تراجع الصفحتان ١٣١ — ١٣٢ من تفسير الجزء الثانى) .

(٧)

من الآية ٥٠ إلى الآية ٥٢ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ، إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللّٰهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ، اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ، خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ –١– . قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا –٢– . تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ ، وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذٰلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ، وَلَا يَحْزَنَّ ، وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللّٰهُ عَلِيمًا حَلِيمًا –٣– . لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آتيت أجورهن	أعطيت مهورهن معجلا أو مؤخراً .
مما أفاء الله عليك	مما غنَّمكه الله من نساء الكفار بالقهر والغلبة .
وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى	وأحللنا لك امرأة مؤمنة تهب لك نفسها بلا مهر .
أن يستنكحها	أن يرغب فى قبول الزواج منها .
خالصة لك من دون المؤمنين	هبة خالصة لك ، تختص بها دون غيرك من سائر المؤمنين .
ما فرضنا عليهم فى أزواجهم	ما أنزلنا على المؤمنين فى أحكام الزوجات ، بألا يزدن على أربع .
لكيلا يكون عليك حرج	لكيلا يكون عليك ضيق فيما أنت محتاج فيه إلى السعة .
ترجى من تشاء منهن	تؤخر من تشاء من زوجاتك عن نوبتها .
وتؤوى إليك من تشاء	وتضم إليك من تشاء فى غير نوبتها .
ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك	ومن طلبت منهن وعزلتها عن القسمة ، وضممتها إليك ، فلا إثم عليها فى ضمها إليك فى غير نوبتها .
ذلك أدنى أن تقر أعينهن	ذلك التفويض إلى إرادتك ، أقرب إلى سرورهن ورضاهن .
ويرضين بما آتيتهن كلهن	ويرضين كلهن بما تفرضه عليهن إرادتك .

الألفاظ	شرحها
والله يعلم ما فى قلوبكم	والله يعلم ما تنطوى عليه قلوبكم من الميل إلى بعض النساء .
من بعد	من بعد التسع اللاتى تزوجتهن .
ولا أن تبدل بهن من أزواج	ولا أن تتبدل بإحداهن أخرى تتخذها زوجة مكانها .
إلا ما ملكت يمينك	إلا ما ملكت من الإماء مهما كثرن ، فإنهن حل لك .
رقيباً	مراقباً .

مجمل المعنى

١ — يأيها النبى ، إنا أحللنا لك زوجاتك اللاتى أديت مهورهن ؛ وليس الإعطاء بالفعل شرطاً مقيِّداً للإحلال ، فقد يكون المهر المسمى متفقاً على تأخيره ؛ وذكرُ الإيتاء هنا للتنبيه على أن الأفضل تعجيل المهر ، لأن المرأة التى أعطيت مهرها تكون أطيب قلباً من التى لم تعطَهُ ، وأحللنا لك الإماء اللاتى ملكتهن بالسبى فى الحرب ، وغنمتهن ، مهما كثر عددهن ، ومنهن :

(ا) صَفية بنت حُيي بن أخطب ، التى سباها النبى صلى الله عليه وسلم يوم خيبر ، فى السنة السابعة للهجرة ، واصطفاها لنفسه ، وأسلمت وأعتقها ، جعل عتقها مهرها .

(ب) وجُوَيرية بنت الحارث ، التى سُبيت فى غزوة بنى المصطلق ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكا تبته على نفسها ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها ، (يراجع الكلام عن المكاتبة ، فى الصفحة ٨٣ من تفسير الجزء الثامن عشر ، عند قوله : « فكاتبوهم

إن علمتهم فيهم خيراً ») وتزوجها رسول الله سنة ٦ للهجرة .

وأحللنا لك المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك ، فهن أفضل من غيرهن ، والمراد بالمعيّة هنا فى قوله : « هاجرن معك » : الاشتراك فى الهجرة لا فى الصحبة ، وقد روت أم هانئ بنت أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت : خطبنى رسول الله ، فقلت له : لأنت أحبّ إلىّ من سمعى وبصرى ، ولكنى امرأة مُصْبِية : (ذات صبيان) ، واعتذرت إليه فعذرنى ، فلما أنزل الله هذه الآية لم أحل له ، لأنى لم أهاجر معه ؛ وأحللنا لك كل امرأة مؤمنة تَهَب لك نفسها ، ولا تطلب مهراً ، ومنهن :

(ا) ميمونة بنت الحارث ، وهى آخر امرأة تزوجها رسول الله .

(ب) وزينب بنت خزَيمة الأنصارى ، التى كانت تسمى فى الجاهلية : أم المساكين ، لإطعامها إياهم ، وتوفيت فى حياته .

(ح) وأم شريك الأزْديّة ، وقد طلقها رسول الله ولم يدخل بها .

فأحللنا للنبى المرأة التى تهب له نفسها ، إن رغب فى قبول الزواج بها ، فَهِبَتُها نفسها له لا يوجب حلّها إلا بإرادته ؛ وإحلال من تهبُ نفسها خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يتجاوزه إلى أفراد أمته من المؤمنين ، لشرفه بالنبوة ، واستحقاقه الكرامة من أجلها ، فهى مرتبة خُصّ بها دون غيره

٢ — قد علمنا — من حيث الحكمة — ما فرضناه على المؤمنين فى زوجاتهم ، فلا يزيدون على أربع نسوة ، وفيما ملكت أيمانهم من الإماء بشراء أو غيره ، من أنهن يحللن لمالكيهن ، وعلمنا أننا اختصصناك فمنحناك أيها النبى من

الإباحة ما لم تمنحه غيرك ، كهبة المرأة المؤمنة نفسها لك ، والزيادة على أربع ، لكيلا نضيق عليك فى أمور أنت محتاج فيها إلى السّعة ، ولكى تفرّغ قلبك لمهام أمور المسلمين ، وتبليغ رسالة رب العالمين ، ولكيلا يظن ظان أنك أثمت فيما أبيح لك ، وكان الله غفوراً لما يعسر التحرز عنه ، رحيما فيوسع على من يشاء بفضله ومنته .

٣ — إن لك أيها النبى الحرية المطلقة فى معاملة زوجاتك ، فإن شئت قسَمت بينهن ، وإن شئت تركت القسمة ، فترجئ من تشاء منهن عن نوْبتها ، وتضم إليك من تشاء منهن فى غير نوبتها ، ومَن طلبتها منهن ممن عزلتها عن القسمة ، وضممتها إليك ، فلا بأس عليك فى طلبها وضمها إليك ، لكن النبى عليه الصلاة والسلام مع هذه الإباحة ، كان يَقسم بين زوجاته تطييباً لنفوسهن ، وصوناً لهن عن الغـَيرة ، وكان يقول : « اللهم هذه قدرتى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ، يعنى قلبه ، لأنه كان يُحب عائشة أكثر من سائر زوجاته ؛ ذلك التمييز ، والتفويض إلى مشيئتك فى الإرجاء والإيواء ، أقرب إلى أن تقـَر أعينهن ، وألا يحزنّ ، وأن يرضين كلهن بما تعاملهن به ، لأن حكمهن فيه سواء ، فإن سوّيت بينهن عددن ذلك تفضلا منك ، وإن آثرت إحداهن علمن أن هذا حكم الله تعالى ، فتطمئن به نفوسهن ، والله يعلم ما فى ضمائر قلوبكم من ميلكم إلى بعض النساء دون بعض ، وكان الله عليماً بأسرار خلقه ، حليماً لا يعاجل بالعقوبة من أخطأ ؛ والمراد بقوله : « تقر أعينهن » : يؤدّى إلى سرورهن ، يقال : قرت عينه : بَرَدَت وانقطع بكاؤها ، فإن للسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارة ، ولذلك يقال فى الدعاء : أبرد الله دَمعته ، لأن دمعة السرور باردة .

٤ — لا يحل لك أيها النبى التزوج من النساء من بعد التسع اللاتى فى عصمتك الآن ، وهن فى حقك كحق الأربع بالنسبة إلى غيرك ، فإن ماتت واحدة منهن فلا يباح لك أن تستبدل بها غيرها ، ولو أعجبك حسن النساء اللاتى ترغب فى التزوج منهن ، إلا ما ملكت يمينك من الإماء ، فيحل لك أن تتخذ منهن من شئت ، وقد ملك بعد نزول هذه الآية مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس حاكم مصر ، فولدت له إبراهيم ؛ وكان الله على كل شىء مراقباً ، فلا تتخطوا ماحده لكم ؛ وفى قوله : « ولو أعجبك حسنهن » ، دليل ضمنى على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها .

(٨)

من الآية ٥٣ إلى الآية ٥٥ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَـكُمْ إِلَى طَعَامٍ ، غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلٰـكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ . فَانْتَشِرُوا ، وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذٰلِـكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْـكُمْ ، وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ –١– . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذٰلِـكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِـكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ –٢– . وَمَا كَانَ لَـكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ، وَلَا أَنْ تَنْـكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذٰلِـكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً –٣– . إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْـفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً –٤– . لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَائِهِنَّ ، وَلَا إِخْوَانِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ ، وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ، وَلَا نِسَائِهِنَّ ، وَلَا مَا مَلَـكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ، وَاتَّقِـينَ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إلى طعام	إلى تناول طعام فى وليمة أو نحوها .
غير ناظرين إناه	غير منتظرين نضجه .
فإذا طعمتم فانتشروا	فإذا أكلتم فاخرجوا وتفرّقوا .
ولا مستأنسين لحديث	ولا تمكثوا يستأنس بعضكم بحديث بعض .
وإذا سألتموهن متاعاً	وإذا سألتم أزواج النبى شيئاً من مواعين البيت .
أطهر لقلوبكم وقلوبهن	أطهر لكم ولهن من الخواطر المريبة .
ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً	ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعده أبداً .
إن ذلكم	إن إيذاء النبى وزواج زوجاته من بعده .
لا جناح عليهن	لا إثم على زوجات النبى .
ولا نسائهن	ولا نسائهن المؤمنات ، أما غير المؤمنات فيجب أن يحتجبن عنهن .

أسباب النزول

١ — كان من عادة العرب إذا أولم أحدهم وليمة أو نحوها ، ودعا القوم إليها ، أن يبكر من شاء منهم إلى منزل الداعى ، ينتظر نضج الطعام ، فإذا فرغوا منه جلسوا يتحدثون ، فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت عمته زينب بنت جحش ، أولَمَ لصحابته ، فترادفوا أفواجا ، يأكل فوج ويأتى غيره ، وحضر بعضهم قبل نضج الطعام ، وجلس طوائف منهم بعد تناوله

يتحدثون ، وأطالوا الجلوس ، وبدا على رسول الله أنه يتهيأ للقيام ، فلم يخرج أحد منهم ، فقام وطاف على زوجاته ، وسلم عليهن ، ثم عاد ، فإذا ثلاثة منهم ما زالوا جلوساً يتحدثون ، ولما كان شديد الحياء ، لم ير أن يبدُوَ منه ما يدل على استنكاره لبقائهم ، غير أنه تولى عنهم ، ثم أُخبر أنهم انطلقوا ، ونزل لذلك قوله تعالى : « يأيها الذينَ آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي . . . . . . » .

ب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل مع عائشة ، فمر عمر ، فدعاه إلى الأكل معهما ، فأصابت إصبعاً من أصابعه إصبع عائشة ، فقال : أوّه ، لو أطاع فيكن ما رأتكن َعين ، ثم قال : يا رسول الله ، لو اتخذت حجاباً ، إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزل قوله تعالى : « وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . . . » .

ج — وأتى رجل بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فكلمها — وهو ابن عمها — فقال له رسول الله : « لا تقومَنّ هذا المقام بعد يومك هذا » ، فقال : يا رسول الله ، إنها ابنة عمى ، والله ما قلت لها منكراً ، ولا قالت لى ؛ فقال رسول الله : « قد عرفت أنه ليس أحد أغير من الله ، وأنه ليس أحد أغيرَ منى » ، فمضى الرجل ، ثم قال : يمنعنى من كلام ابنة عمى ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله تعالى قوله : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً . . . »

د — ولما نزلت آية الحجاب ، قال الآباء والأبناء والأقارب : يا رسول الله ، أو نكلمهن أيضاً من وراء حجاب ؟ فنزل قوله تعالى : « لا جناح عليهن فى آبائهن . . . » .

مجمل المعنى

١ - يأيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوت النبي التى أعدها لزوجاته - وكان لكل زوجة حجرة حول المسجد ، فلما تُوفِّين ضمت إلى المسجد - إلا وقت أن يؤذن لكم إلى طعام ، فادخلوا حال كونكم غير منتظرين وقت نضجه ، والمراد : أنه لا يليق بكم أيها المؤمنون أن تدخلوا قبل أن ينضَجَ الطعام ، ثم تأكلوا ولا تخرجوا - وهذا أدب أدّب الله به من يتثاقل فى الانصراف - ولكن إذا دُعيتم ، وأذن لكم فى الدخول فادخلوا ، فإذا أكلتم فانصرفوا وتفرقوا ، ولا تمكثوا بعد تناول الطعام يستأنس بعضكم لحديث بعض - فالنهى عن الجلوس والتحدث قبل نضج الطعام ، وبعد تناوله - إن ذلكم المكث كان يؤذى النبي لضيق بيوته وفيها نساؤه ، ويضيِّق على أهله ، فيستحيي أن يجابهكم بأن يأمركم بالانصراف ، والله لا يستحيي من الحق ، فلا يمتنع عن بيانه وإظهاره ؛ وفى الآية حض على ألا يتناول أحد طعاماً عند آخر إلا إذا دعاه ، وعلى أن يأتى المدّعو فى الوقت المناسب ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها : (حسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم) ؛ وأثقل منهم من يتأخر عن الوقت المحدد من غير عذر ، لمجرد أن يبين للحاضرين عند انتظاره جلال قدره ، فيتأذى من تأخيره الحاضرون وصاحب البيت .

٢ - وإذا سألتم زوجات النبي شيئاً تستعيرونه للانتفاع به ، من مواعين وغيرها ، فاسألوهن من وراء ستر ، ذلك الستر أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأنفى للريبة ، وأبعد عن الشبهة ، فان الرؤية قد تبعث على الفتنة ، والأمر فى هذا عام ، يشمل نساء النبي وغيرهن .

٣ — ولا يليق بكم أن تفعلوا ما يكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ولا أن تتزوجوا زوجاته بعد وفاته ، لأنهن أمهات المؤمنين ، إذا كان قد دخل بهن ، أما التى لم يدخل بها منهن فيجوز التزوج بها ، وقد همّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يرجم أحدى زوجاته ، لأنها تزوجت الأشعث بن قيس الكندى ، فقالت له : ولم هذا ، وما سمّيتُ أم المؤمنين ؟ فكف عنها عمر ، وكان رسول الله رأى بكشحها بياضاً ، فقال لها : « الحقى بأهلك » ، إن ذلكم كان عند الله ذنباً عظيما ، وإثماً جسيماً ، لأن حرمة رسول الله واجبة حيا وميتاً .

٤ — إن تبدوا شيئاً كالعزم على زواج إحدى زوجات رسول الله ، أو تخفوه فى صدوركم ، فإن الله كان عليماً به ، فيجازيكم عليه .

٥ — لا إثم على زوجات النبى فى مقابلة آبائهن ، ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ، ولا أبناء إخوانهن ، ولا أبناء أخواتهن ، ولا نسائهن المؤمنات ، ولا ما ملكت ، أيمانهن من العبيد والإماء ، فلهن أن يرينهم ويكلمنهم من غير حجاب ، أما النساء الكافرات فيجب على نساء النبى أن يحتجبن عنهن ؛ واتقين الله يا نساء النبى فيما أُمرتن به ، إن الله كان على كل شىء شهيداً ، لا تخفى عليه خافية .

(٩)

الآية ٥٦ من سورة الأحزاب

إِنَّ اللّٰهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

مجمل المعنى

هذه الآية قد شرف الله بها رسوله فى حياته و بعد موته ، وبيّن منزلته عنده ؛ والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الاستغفار والدعاء ، ومن المؤمنين الدعاء والتعظيم ، فالله جل شأنه يثنى على النبى عليه الصلاة والسلام ، ويضفى عليه رحمته ورضاه ، وملائكته يدعون له ويستغفرون ، ليتم نعمته عليه ، ولم يقل الله : والملائكة ، بل أضافهم إلى ذاته العلية ، بقوله : « وملائكته » ، إشارة إلى عظيم قدرهم ، ومزيد شرفهم ، وهذا يستلزم تعظيم الرسول بما يصل إليه منهم من الدعاء ، وأمر الله عباده أن يصَلوا عليه دون سائر أنبيائه تشريفاً له ، وقد سئل رسول الله : كيف نُصلى عليك ؟ فقال : «قولوا : اللهم صلّ على محمد عَبْدك ورسولك وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » ، كما أمر الله عباده أن يسلّموا على نبيه فى الصلاة عند أداء التشهد ، وعند اللقاء فى حياته ، وعند زيارتهم قبره بعد وفاته ، بأن يقولوا : السلام عليك أيها النبى ، وأن ينقادوا لأوامره انقياداً ، مذعنين له ولشريعته .

(١٠)

من الآية ٥٧ إلى الآية ٥٨

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا —١— . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يؤذون الله ورسوله	يفعلون ما يكرهه الله ورسوله من الكفر والمعاصى .
لعنهم الله	طردهم الله من رحمته .
عذاباً مهيناً	عذاباً مؤلماً ذا إهانة .
بغير ما اكتسبوا	بغير جناية استحقوا من أجلها الإيذاء .
بهتاناً	كذباً .
وإثماً مبيناً	وذنباً واضحاً بيّناً .

مجمل المعنى

١ — إن الذين يرتكبون ما يكرهه الله ورسوله من الكفر والمعاصى ، كنسبة الولد والشريك إلى الله تعالى ، وتكذيب رسوله ، وادعائهم أنه شاعر مجنون ،

أو كاهن أو ساحر ، أبعدهم الله من رحمته ، فلا يوفقهم إلى الهدى والرشاد فى الدنيا ، وأعدلهم فى الآخرة عذاباً يُهينهم بالخلود فيه ويؤلمهم .

٢ — والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالأقوال والأفعال القبيحة ، من غير جريرة ارتكبوها ، فقد تحملوا كذباً عظيماً ، وذنباً بيناً ؛ وقد نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين كانوا يؤذون علياًّ كرم الله وجهه ، ويُسْمِعونه ما لا خير فيه .

(١١)

الآية ٥٩ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ، قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يُدنين عليهن من جلابيبهن	يغطين وجوههن وأبدانهن بمُلاءاتهن .
أدنى أن يعرفن	أقرب إلى أن يميَّزن من الإماء ، ويعرفن أنهن حرائر .
فلا يؤذَين	فلا يؤذين بتعرض الفُسّاق لهن .
وكان الله غفوراً رحيما	وكان الله غفوراً لما سلف من ترك سترهن ، رحيما بعباده .

سبب الحجاب

لم يكن العرب يتخذون فى منازلهم مراحيض ، وكانت النساء الحرائر والإماء يخرجن ليلا ، لقضاء حاجتهن فى الفضاء خارج المنازل ، فى الحقول وبين أشجار النخيل ، فيتعرض للإماء الرقيقات الفساقُ من الزناة .

مجمل المعنى

يأيها النبى ، قل لزوجاتك وبناتك ، ونساء المؤمنين الحرائر ، يرْخين ويغطّين ويسدلن على وجوههن مُلاءاتهن ، إذا برزن إلى الفضاء لقضاء حاجتهن ، إلا عيناً واحدة ليرين بها الطريق ، فإن ذلك التستر أقرب إلى أن يميَّزن عن الإماء الرقيقات ، اللاتى يكشفن وجوههن ، وأن يُعرفن أنهن حرائر ، فلا يؤذَين بالتعرض لهن من الفساق الزناة ، الذين يعاكسون الإماء الرقيقات ، وتنقطع الأطماع فيهن ، وكان الله غفوراً لما سلف منهن من كشف وجوههن ، رحيماً بعباده ، حيث يرعى مصالحهم ، حتى فى أدق الأمور منها ، ويثيب من امتثل أمره ؛ وكان عمر رضى الله عنه فى خلافته إذا رأى أمة تقنعت ضربها بالدِّرَّة ؛ والجلابيب : جمع جلباب ، وهو ثوب واسع سابغ ، أوسع من الخمار ، ودون الرداء ، يشمل جميع اليدين ، ويطلق على الملاءة .

(١٢)

من الآية ٦٠ إلى الآية ٦٢ من سورة الأحزاب

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا –١–. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ، أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا –٢–. سُنَّةَ اللّٰهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلًا –٣–.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
والذين فى قلوبهم مرض	والذين فى قلوبهم ضعف إيمان ، كالفساق الزُّناة .
والمرجفون فى المدينة	والذين يُذيعون الأراجيف الملفقة عن سرايا المسلمين .
لنغرينك بهم	لنسلطنك عليهم .
لا يجاورونك فيها إلا قليلاً	لا يساكنونك فى المدينة إلا بمقدار الزمن القليل الذى يجلون فيه .
ملعونين	مطرودين من رحمة الله ، مبعدين عن عطفه .
أينما ثُقفوا	أينما وُجدوا .
أخذوا وقتلوا تقتيلا	أخذوا أسرى ، واستحر بهم القتل .
سنة الله فى الذين خلوا من قبل	سَن الله ذلك فى الأمم الماضية .

مجمل المعنى

١ — لئن لم يرجع المنافقون عن كيدهم وعدوانهم ، والذين فى قلوبهم ضعف إيمان، من الفساق والزناة الذين يتبعون الإماء ، واليهود المذيعون للأخبار السيئة ، والأراجيف الملفقة فى المدينة ، عن السرايا التى كان يرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لمحالفة بعض القبائل التى فى طريق تجارة قريش ، بالتشكيك فى مصير هذه السرايا ، وبقولهم : إن سرايا المسلمين هزموا وقتلوا ، لإضعاف القوة المعنوية فى نفوس المسلمين — لئن لم يرجع هؤلاء عن أراجيفهم ، لنسلطنك ولنحرضنك عليهم ، ولنأمرنك بقتالهم لتستأصلهم ، حتى يُضطروا إلى الجلاء عن المدينة ، ثم لا يساكنونك فيها إلا زمناً يسيراً ، بمقدار ما يحتاجون إليه من الوقت .

٢ — وهم فى هذا الوقت القصير الذى يستعدون فيه للرحيل ، ويتأهبون فيه للخروج من المدينة ، يكونون مطرودين من رحمة الله ، مبعدين عن عطفه ، مقهورين مغلوبين على أمرهم ، وإذا خرجوا يكونون أذلاء ضعافاً لا يجدون ملجأ ، فأينما يكونوا يتعرضوا للظفر بهم ، فيؤخذوا أسرى ، ويقتلوا أشنع تقتيل .

٣ — لقد سن الله ذلك سنة جارية فى الأمم الماضية ، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء ، بالسعى فى توهين دعوتهم ، والمفسدون الذين يُذيعون مقالة السوء بين الناس ، ولا يقدر أحد أن يبدّل ما جرت عليه سنة الله فى خلقه ، لابتنائها على أساس الحكمة ، التى يدور عليها ذلك التشريع .

(١٣)

الآية ٦٣ من سورة الأحزاب

يَسْأَلُكَ النَّـاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ ؟ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يسألك الناس عن الساعة وما يدريك	يسألك المشركون : متى تقوم القيامة ؟ وأى شىء يعلمك وقتها ؟

مجمل المعنى

١ — كان الكفار يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة ، استعجالا لما هددهم بالعذاب ، بطريق الاستهزاء ؛ وكان المنافقون يسألونه عن وقتها تعنتاً ، وكان اليهود يسألونه عنها امتحاناً ، لما يعلمون من أن الله أخفى وقتها فى التوراة ، فيقول هؤلاء : متى تقوم الساعة ، فقل لهم : إنى لا أعلم وقت قيامها ، لأن الله قد استأثر بعلمه إياه ، ولم يطلع عليه أحداً ، لا ملكاً مقرَّباً ، ولا نبيًّا مرسلا ، فهو وحده الذى عنده علم الساعة ، وأى

شيء يُعلمك وقت قيام الساعة يا محمد ، ما دمنا لم نبلغك إياه ؟ لعل وقت الساعة يكون قريباً ، فلا تستبطئوه أيها السائلون ؛ وفي الرد تهديد ووعيد لهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت والساعة كهاتين » ، وأشار إلى السبابة والوسطى ، وإنما أخفى الله وقت الساعة ، ليكون المرء مستعداً لها في كل وقت ولكيلا يفتر نشاطه في الدنيا ، فيما يزاوله من أعمال .

(١٤)

من الآية ٦٤ إلى الآية ٦٨ من سورة الأحزاب

إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا —١— . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا —٢— . وَقَالُوا : رَبَّنَا ، إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا ، آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ، وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لعن الكافرين	أبعدهم من رحمته .
سعيراً	ناراً شديدة الاتقاد .
وليًّا ولا نصيراً	حافظاً يحفظهم ، ولا ناصراً يمنعهم من عذاب الله .
تقلب وجوههم فى النار	تصرف وتحول من جهة إلى أخرى ، كاللحم الذى يشوى .
وقالوا	وقال الأتباع منهم ، الذين اقتدوا بهم .
فأضلونا السبيلا	فحملونا على الانحراف عن طريق الهدى .

الألفاظ	شرحها
آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً	عذبهم مثلىْ عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا . وأبعدهم عن رحمتك بعداً شاسعاً .

مجمل المعنى

١ ـ إن الله أبعد الكافرين عن رحمته ، وحرمهم عطفه عاجلاً وآجلا ، وأعد لهم فى الآخرة ناراً متقدة يخلدون فيها دائماً ، ولا يجدون لهم حافظاً يقيهم أوارها ، ولا ناصراً يدفعها عنهم ، ويخلصهم منها ؛ وعاد الضمير على « سعيراً » مؤنثاً ، لأنه بمعنى النار .

٢ ـ يوم تقلب وجوههم فى النار من جهة إلى جهة ، كاللحم الذى يُشوى ، وتتغير من حال إلى حال ، وتتوارد عليها الهيئات القبيحة من شدة الأهوال ، يقول الرؤساء نادمين متحسرين : يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، فنتخلص من هذا العذاب ؛ وخصت الوجوه بالذكر مع أن العذاب يعم جميع البدن ، لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده .

٣ ـ وقال أتباعهم تشفياً منهم ، لأنهم هم الذين أوردوهم هذا المورد الوخيم : يا ربنا ، إنا أطعنا ملوكنا وولاتنا ورؤساءنا الذين اتخذناهم قدوة لنا ، فانحرفوا بنا عن سبيل الهدى والرشاد ، بما زينوه لنا من الكفر ورفض دعوة الرسل ، فعذِّبهم يا ربنا مثلىْ عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا ، والعنهم لعناً شديداً عظيماً .

(١٥)

الآية ٦٩ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ، فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آذوا موسى	ادّعوا عليه أن به عيباً فى بدنه .
وجيهاً	ذا جاه ، عظيم القدر ، رفيع المنزلة .

إيذاء موسى وبراءته

كان بنو إسرائيل يغتسلون عرايا ، وكان موسى حَيِيًّا ، يغتسل وحده ، ويتستر عند اغتساله ، فادعى قوم منهم أنه آدر : (منتفخ الخصية ، له قِلِّيط : « قليطة ») ، وقالوا : ما يستتر إلا لعيب فى بدنه ، فانطلق يوماً يغتسل ، وجعل ثيابه على حجر ، فطارت ثيابه ، وانطلق وراءها عُرياناً ، حتى انتهى إلى ملإ من بنى إسرائيل ، فنظروا إليه ، فإذا به لم يكن كما ظنوا ، وبرأه الله مما قالوا .

مجمل المعنى

ينهى الله تعالى المسلمين أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول يكرهه منهم ، أو فعل لا يحبّه منهم ، كما آذى بنو إسرائيل موسى ، وذلك أن رسول الله قسم بينهم غنيمة ، فقال رجل منهم : هذه قسمةٌ ما أريد بها وجهُ الله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يرحم الله موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر ؛ وقد برّأ الله موسى مما قاله بنو إسرائيل ، حين طار ثوبه كما تقدم ، فرأوه على غير ما ظنوا ، وكان موسى عند الله رفيع القدر ، عظيم المنزلة ، ومن وجاهته أنه كلم المولى جل وعلا ، ولقّبَ بكليم الله .

(١٦)

من الآية ٧٠ إلى الآية ٧١ من سورة الأحزاب

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللّٰهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ؛ وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سديداً	تستهدفون فيه الصواب والحق .
يصلح لكم أعمالكم	يوفقكم إلى الأعمال الصالحة .

مجمل المعنى

يأيها المؤمنون ، حصنوا أنفسكم بتقوى الله فى كل ما تأتون وتذرون ، وراقبوا الله فى حفظ ألسنتكم ، وقولوا صواباً تستهدفون فيه الحق ، ولا تفتروا على الرسول الكذب فى أمر زينب ؛ فإن فعلتم ذلك يوفقكم الله إلى الأعمال الصالحة ، ويتقبلها منكم ، ويثبكم عليها ، ويمح عنكم ذنوبكم ؛ ومن يطع الله ورسوله فى كل ما يأمران به وينهيان عنه، فقد فاز فوزاً عظماً ، فيعش فى الدنيا حميداً ، ويكون فى الآخرة سعيداً .

(١٧)

الآية ٧٢ من سورة الأحزاب إلى آخر السورة

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا. لِيُعَذِّبَ اللّٰهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، وَيَتُوبَ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيماً .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الأمانة	الطاعات والتكاليف الشرعية .
فأبين أن يحملنها	اعتذرن عن قبول حملها .
وأشفقن منها	خفن من هول أمرها .
إنه كان ظلوماً جهولا	إنه كان مفرطاً فى الظلم ، عريقاً فى الجهل .
ليعذب الله	لتكون عاقبة أمر العاصى العذاب .

مجمل المعنى

لما بيَّن الله فيما سبق مآل الخارجين على طاعته ، واستحقاقهم لعنته ، وإعداده السعير لهم يوم القيامة ، وبيَّن فى الآية السابقة عظم شأن طاعة

الله ورسوله ، عقب ذلك بعظم شأن ما توجبه هذه الطاعات من التكاليف الشرعية ، وصعوبة أمرها ، بطريق التصوير والتمثيل ، مع الإشعار بأن ما صدر عن خلقه من الطاعات أو تركها ، صدر عنهم بعد القبول لها ، ولالتزام بأدائها ، وقد عبَّر الله عن هذه الطاعات ؛ بالأمانة ، للتنبيه على أنها حقوق مرعية ، أودعها الله المكلفين ، وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها ، والمحافظة عليها ، وأدائها من غير إخلال بشىء من حقوقها ؛ وعبَّر الله عن عظم قدرها — لإظهار مزيد العناية بأمرها — بأنه عرضها على الأجرام العظيمة ، من سموات وأرض وجبال ، فأظهرن عدم الاستعداد لقبولها ، بالإباء والخوف من حملها ، لتهويل أمرها ، وفخامة شأنها ؛ وعبَّر الله عن قبول الإنسان إياها بالحمل ، لتحقيق معنى الصعوبة فيها ، وجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة ، التى تستعمل فيها القوى الجسمانية ؛ والغرض من هذا : بيان أن هذه الأمانة فى عظم الشأن ، بحيث لو كلفت هذه الأجرام العظيمة التى تمتاز بالقوة والشدة ، أن ترعى الأمانة حق رعايتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لأبَيْنَ قبولها ، وخفن أن يقصرن عن حملها ، ولكن حملها الإنسان عند عرضها عليه ، وقبِل تكليفه أداءها يوم الميثاق ، يوم أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ؛ مع ما فى الإنسان من ضعف البنية ، ورخاوة القوة ؛ إنه — بحسب غالب أفراده — كان مفرطاً فى الظلم ، لعدم وفائه بما تعهد به ، مبالغاً فى الجهل ، لأنه لم يعمل بموجب فطرته السليمة ؛ لقد حملها الإنسانُ المغرور الكنود ، لتكون عاقبته أن يعذِّب بعضُ أفراده الذين لم يراعوا حقوق الأمانة ، ولم يقابلوها بالطاعة ، وكانت عاقبة حمل الإنسان

الطاغية العاصى لها ، أن يعاقب بعض أفراده من المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، بالعذاب الأليم لخيانتهم الأمانة ، ونكثهم العهد والميثاق ، أما الذين لم يبدلوا فطرة الله السليمة التى فطر الناس عليها ، من المؤمنين والمؤمنات ، فإنهم لحملهم الأمانة ، ومحافظتهم عليها ، جديرون بأن يقبل الله توبتهم على ما فرط من زلات ، قلما يخلو منها إنسان بحكم جِبِلَّته ، لعدم خلعهم ربقة الطاعة ، وتداركهم ما يصدر منهم من زلات بالتوبة والإنابة ، وكان الله عظيم المغفرة والرحمة ، حيث تاب عليهم ، وغفر لهم فرَطاتهم ، وأثابهم بالفوز بالنعيم المقيم على طاعتهم .

سورة سَبَأ

نزلت بمكة ، ماعدا الآية السادسة ، فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٥٤ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثانية

الْحَمْدُ للهِ الَّذى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ -١- . يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وله الحمد فى الآخرة	ويختص بالثناء فى يوم القيامة من أهل الجنة
ما يلج فى الأرض	ما يدخل فى الأرض من بذور ومياه أمطار
وما يخرج منها	وما يخرج من الأرض من النبات ومياه العيون
وما ينزل من السماء	وما ينزل من السماء من مطر وثلج وصواعق
وما يعرج فيها	وما يصعد إليها من بخار ودخان

مجمل المعنى

١ — الشكر والثناء للمولى جل وعلا ، الذى يملك كل ما فى السموات والأرض من عوالم ، فهو خالقهم ومالكهم ورازقهم ، وهم تحت تصرفه ، ويختص بالثناء الخالص فى يوم القيامة من أهل الجنة ، الذين يقولون : « الحمد لله الذى صَدَقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » ، وهو الحكيم فى صنعه ، الخبير بخلقه ، يعلم ظاهرهم وباطنهم .

٢ — يعلم ما يدخل فى مسامّ الأرض من ماء المطر ، الذى ينبع فى مكان آخر ، وما يوضع فيها من بذور النبات ، ويعلم ما تشتمل عليه الأرض من كنوز ودفائن وأموات ، وما يخرج منها من نبات وعيون ، ومعادن وجواهر وأحجار ، ويعلم ما ينزل من السماء من ندى وأمطار ، وبَرَد وثلوج وصواعق ، وما يصعد إلى السماء من أبخرة وأدخنة ، وهو — مع ترادف نعمه — الرحيم بعباده ، ينزل عليهم من السماء رزقاً ، ويتجاوز عمن فرط فى أداء موجب الشكر ، الغفور لما يصدر منهم من زلات .

(٢)

من الآية الثالثة إلى الآية السادسة من سورة سبأ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ : بَلَى ، وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ، عَالِمِ الْغَيْبِ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ –١– . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ، أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ –٢– . وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الساعة	القيامة .
لا يعزب	لا يغيب .
مثقال ذرة	وزن ذرة .

الألفاظ	شرحها
فى كتاب مبين	فى لوح محفوظ بيِّن .
معاجزين	مقدرين عجزنا عن إدراكهم .
عذاب من رجز	سيئ العذاب .

مجمل المعنى

١ — وقال كفار مكة استهزاء برسول الله ، كأبى سفيان ومن لفَّ لفَّه ممن جحدوا قدرة الله على إعادة خلقه بعد فنائهم : نحن لا نعترف بقيام القيامة التى تدعيها يامحمد ، وتزعم أننا نعذب فيها لعدم إيماننا بك وبإلهك ، فقل لهم : بلى ، لتأتينكم الساعة ، ولكن لا يعلم وقت مجيئها أحد سوى علام الغيوب ، الذى لا يغيب عن علمه وزن ذرّة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من الذرة بعد تحطيمها ولا أكبر منها ، وقد أثبت الله ذلك فى اللوح ، المحفوظ الذى أبان كل شىء ، قل لهم وهم يعرفون أمانتك ، ونزاهتك عن وصمة الكذب ، وإذا كذبوك فإنما ذلك لمجرد المكابرة والعناد — قل لهم : لتأتينكم الساعة التى تلقون فيها الذل والهوان ، ومن كان عالماً بجميع الأشياء جليلها ودقيقها ، جليها وخفيها ، كان قادراً على بعثكم يوم القيامة ؛ وذكر السموات والأرض هنا له مناسبة لطيفة ، لأن أجزاء الأجسام فى الأرض ، وأن الأرواح فى السماء ؛ ونظير هذا قوله : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا فى كتاب مبين » .

٢ — لتأتينكم الساعة ، لينال كل من المؤمن والكافر جزاءه ، فالذين آمنوا

وعملوا الصالحات لهم مغفرة لما فرط منهم من زلات لا يخلو البشر منها ، ورزق حسن لا تعب منه ولا منّ ولا انقطاع ؛ والذين كفروا ، وجاهدوا فى إبطال أدلتنا ، وتكذيب القرآن الذى أنزلناه على رسولنا ، وتزهيد الناس فيه ، وتثبيطهم عن الإيمان ، وصدّهم عنه ، مقدّرين عجزنا عن إدراكهم لمحاسبتهم على أعمالهم ، لظنهم أن لا بعث ولا عقاب ، أولئك يعاقبون بعذاب سيئ مؤلم شديد .

٣ — ويعلم أولو العلم من الصحابة ومن شايعهم ، ومؤمنو أهل الكتاب الذين قرءوا التوراة الصحيحة ، أن القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا مراء فيه ، ومع كونه حقًّا وصدقاً ، فإنه هو الذى يوصل إلى طريق دين الله ذى العزة ، الذى ينتقم ممن خالف رسوله ، والذى يستحق كل حمد وثناء على جزيل آلائه ؛ وهذه الآية وحدها فى هذه السورة نزلت بالمدينة .

(٣)

من الآية السابعة إلى الآية التاسعة من سورة سبأ

وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ : إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ -١- . أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ -٢- . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إذا مزقتم	إذا مزقت أجسادكم ، وتفرقت أجزاؤها ، وصرتم تراباً .
أفترى على الله كذباً	أهو قد اختلق هذا الكذب الذى يدّعيه على الله؟
أم به جنة	أم به جنون جعله يتخيل ذلك ؟
فى الضلال البعيد	فى الضلال البعيد عن الحق والصواب .

الألفاظ	شرحها
إلى ما بين أيديهم وما خلفهم	إلى ما أحاط بهم .
نخْسف بهم الأرض	نجعل الأرض تغور بهم .
كِسَفاً	قطعاً .
عبد منيب	عبد راجع إلى ربه .

مجمل المعنى

١ — وقال كفار قريش بعضهم لبعض، استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم : هل ندلكم على رجل يحدثكم بأعجب الأعاجيب ؟ إنه يزعم أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً ، بعد أن تموتوا وتبلى أجسادكم فى القبور ، وتتمزّق كل تمزق ، وتتفرق أوصالكم شَذر مَذر ، وتذهب السنون برفاتكم ، وتصيروا تراباً تذروه الرياح

٢ — أهو بزعمه هذا قد اختلق هذا الكذب على الله ، وادعى نسبته إليه ؟ أم هو مجنون يهذى، ويتكلم بما لايدرى، وبما لا معنى له ؟ يوهمه جنونه هذا، فينطق به لسانه ؛ كلا أيها الكافرون المعاندون المكابرون ، ليس محمد مفترياً ولا مجنوناً ، بل أنتم الذين لا تصدقون بالآخرة المشتملة على البعث ، فى تمام اختلال العقل ، والضلال البعيد عن الحق والصواب ، وما يؤدى إليه من العذاب الأليم الدائم فى جهنم ، الذى تستحقونه بكفركم وعنادكم .

٣ — أعمى هؤلاء المكابرون الجاحدون للبعث بعد الممات ، فلم يروا ما أحاط بهم من آثار قدرة الله فى السماء والأرض ، فيرتدعوا وينزجروا ؟ أهمْ أشد خلقاً أم السماء والأرض ؟ ونظير هذا قوله تعالى : « أوليس الذى خلق

السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » إن نشأ نحن — جرياً على سنتنا — جعلنا الأرض تغور بهم ، كما فعلنا بقارون ، أو نسقط عليهم قطعاً من السماء تبيدهم ، كما فعلنا بقوم شعيب ؛ إن فى ذلك التفكير ، والنظر فى آثار قدرة الله ، لدلالة قاطعة ، وآية واضحة ، على كمال قدرته ، لكل عبد راجع إلى ربه ، مطيع له ، يستدل به على أنه لا يعجزه شىء ، وينزجر إذا ظهر له الحق .

(٤)

من الآية ١٠ إلى الآية ١١ من سورة سبأ

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا : يَا جِبَالُ ، أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ : أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فضلا	نبوّة ، وكتاباً ، وملكاً ، وصوتاً حسناً .
أوّبى معه	رجّعى معه صوت تسبيحه .
والطير	ودعونا الطير .
سابغات	دُروعاً واسعات ضافيات .
وقدر فى السرد	وقدر فى نسج الدروع ، بحيث تتناسب حلقاتها .
واعملوا صالحاً	واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً .

قصة سيدنا داود

١ — ذكرنا فى الصفحة ١٤٩ من تفسير الجزء الثانى ، كيف قتل داود جالوت ؛ وقد صار داود بعد قتل جالوت ملكاً على بنى إسرائيل ، فاستطاع أن

يجمع شملهم بعد أن كانوا شيعاً ، ولم يجتمعوا قبله تحت لواء ملك واحد ، وكانت سنه إذ ذاك ثلاثين سنة .

ب — وكان داود فطناً ذكيًّا ، حكيماً عادلاً ، وكانت مملكته شديدة البأس ، قوية السلطان ، بل كانت فى عهده أقوى مملكة فى العالم ، وأعظمها سلطاناً ، استولت على بلاد كثيرة من الشام وعمان ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله : « وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .

ج — اختاره الله نبيًّا ، وأنزل عليه الزبور ، وفيه مزامير داود ، وهى مائة وخمسون مزماراً ، تشتمل على قصائد وأناشيد ، تتضمن تسبيح الله وحده ، والثناء عليه ، والتضرع له ، وبعض الحوادث ، وكان داود حسن الصوت ، إذا تغنى بمزاميره طرب لسماعها كل كائن حى ، حتى قيل : إن الطيور والوحوش كانت إذا سمعت غناء داود تؤخذ من أعناقها فلا تحسّ ، وكانت الجبال تردد غناءه برجع الصدى ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة ، كل له أوّاب » .

د — وقد ألان الله له الحديد، فصنع منه دروعاً سابغات، ترُد طعنات الحراب، وضربات السيوف ، عمن يرتديها ، وكانت هذه الدروع محكمة النسج ، متصلة الحلقات ، فى دقة وحسن سرد .

هـ — وكان داود شديد الورع والتقوى ، بلغ من ورعه أنه تورع أن يأخذ من بيت المال ما يعيش به ، فلما ألان الله له الحديد ، ونجح فى صناعة الدروع ، ربح من بيعها ربحاً أغناه عن بيت المال ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » ، وفى هذا حث على تعلم الصناعات ، واتخاذها أداة للكسب الحلال .

و — وكان يقسم أوقاته أقساما : قسماً ينقطع فيه للعبادة ، وقسماً يجلس فيه للقضاء بين الناس ، وقسماً يخص به أهله ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وسنذكر فى تفسير الجزء الثالث والعشرين قصة الملكين اللذين تسوّرا عليه محرابه يوم عبادته ، واختصما إليه ، عند شرح قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » ، وقد ذكرنا كثيرا عنه فيما تقدم من تفسير أجزاء القرآن الكريم

ز — ويستنبط من تاريخ أبى الفداء ، أنه ولد حوالى سنة ١٢٣٩ قبل الميلاد ، وأنه عاش ٧٠ سنة ، وهو من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام .

مجمل المعنى

ولقد أعطينا داود من لدنّا فضلا ، منّة منا وكرماً ، فكان نبيا ، وأنزلنا عليه الزبور ، ومنحناه الصوت الحسن ، ودعونا الجبال أن تردد معه تسبيحه حينما يشدو بمزاميره برجع الصوت ، فيسمع منها ما يسمع من المسبِّح ، وسخرنا الطير أن تُصغى إليه ، وآتيناه قوة خارقة للعادة ، فألنا له الحديد يصرّفه كيف يشاء ، وأوحينا إليه : أن اعمل دروعاً كاملات واسعات ضافيات ، تحمى لابسها من شفرات السيوف وأسنة الرماح ، واستعمل دقة التقدير فى نسجها ، بحيث تتناسب حلقاتها المصنوعة من الحديد ، فلا تكون دقيقة تتكسر ، أو غليظة تثقل على لابسها ، وكلفنا آل داود أن يعملوا عملاً صالحاً يستحق أن يثابوا عليه ، إنى بصير بما يعملون فأجازيهم عليه . (تراجع الفقرة الثالثة من الصفحة ٤٠ من تفسير الجزء السابع عشر من سورة الأنبياء ، عند شرح قوله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم » .

(٥)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٤ من سورة سبأ

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ، غُدُوُّهَا شَهْرٌ ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ، وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ -١- . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ، وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ، وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ -٢- . فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولسليمان الريح	وسخرنا لسليمان الريح .
غدوها شهر	مسيرها من الصباح إلى الزوال يقطعه الراكب المجد فى شهر .

الألفاظ	شرحها
ورواحها شهر	ومسيرها من الزوال إلى الغروب يقطعه الراكب المجد فى شهر .
عين القطر	عين النحاس المذاب .
بإذن ربه	بأمر ربه .
ومن يزغ منهم	ومن يعدل منهم عن العمل .
محاريب	قصور حصينة مرتفعة .
وتماثيل	صور من نحاس أو زجاج أو رخام .
وجفان كالجواب	وصحاف كالجوابى ، جمع الجابية : وهو الحوض الكبير .
وقدور راسيات	وقدور لطبخ الطعام ثابتة ، لا تتحرك لعظمها .
اعملوا آل داود شكرا	وقلنا : اعملوا يا آل داود بطاعة الله ، شكراً له على نعمه .
إلا دابة الأرض	إلا الأرَضة التى تأكل الخشب .
منسأته	عصاه .
خرّ	سقط .

قصة سيدنا سليمان

١ – قدمنا فيما تقدم ، فى الصفحة ٣٨ من تفسير الجزء السابع عشر ، عند تفسير قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ... » ، ما كان عليه سليمان من الفطنة والذكاء ورجاحة العقل ، منذ نعومة أظفاره ،

٢ – وقد تولى سيدنا سليمان الملك بعد وفاة أبيه داود ، فدعا الله أن يمنحه ملكاً

لا ينبغى لأحد من بعده ، فأجاب الله دعاءه ، وسخر له الريح تحمل بساطه حيث أراد ، وكان يجلس عليه وحوله حاشيته من العلماء والأحبار ، وسخر له الجن يستخدمهم فى بناء القصور ، وصنع التماثيل ، وقصاع الطعام ، والقدور التى يطبخ فيها ، ويستخدمهم فى الغوص فى فى البحار ، يستخرجون منها له اللآلىء ، وسخر له الطير تظلله فى مسيره ، وتنفذ إرادته ، وعلمه منطقها ، فكان يسمع منها وتسمع له ، وعلمه لغة الحيوانات حتى الحشرات منها ، وقد سبق أن ذكرنا قصته مع النملة ، وحديثها معه فى وادى النمل بين جيرون وعسقلان فى سورة النمل ، فى الصفحة ١١٠ وما يليها من تفسير الجزء التاسع عشر .

مجمل المعنى

١ — وسخرنا لسليمان الريح تحمل بساطه ، فكانت تقطع فيما بين الصباح والظهر ، ما يقطعه الراكب المجد فى شهر ، وتقطع فيما بين الظهر والغروب ، ما يقطعه الراكب المجد فى شهر ، قيل : كان يغدو من دمشق ، فيقيل بإصْطَخر — بلدة بفارس — ، وبينهما مسيرة شهر ، ويروح من إصطخر فيبيت بكابُل — حاضرة الأفغان الآن — ، وبينهما مسيرة شهر ، وأسلنا لسليمان عيناً يخرج منها النحاس المذاب ، فكان يجرى كجرى الماء على الأرض ، ليصنع منها ما يشاء ، كما ألنا لأبيه داود الحديد من قبل ، وسخرنا له من الجنّ من كان يعمل بين يدى سليمان بأمر ربه ، ومن يعدل منهم عن تنفيذ أمرنا الذى أمرناه به من طاعة سليمان ، نذقه فى الآخرة من عذاب النار المستعرة الملتهبة المتقدة .

٢ — كان الجن يعملون لسليمان ما يشاء من : —

(ا) قصور مرتفعة حصينة .

(ب) وصور من نحاس أو زجاج أو رخام لسباع أو طيور ، ولم تكن التصاوير محرّمة فى شريعته ، فصنعوا لقائمتى كرسيه الأماميتين أسدين ، وصنعوا فوق كرسيه نسرين باسطين أجنحتهما .

(حـ) وقصاع كالحياض الكبار ، يجتمع عليها ألف رجل يأكلون منها .

(د) وقدور لطهو الطعام ، ثابتات لا تتحرك لعظمها ، يصعد إلى أعلاها بالسلالم .

وقلنا لآل داود : إننا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم ، فاعملوا بطاعة الله، واعبدوه شكراً له على جزيل نعمه التى خصكم الله بها ، وقليل من عبادى من يتوفر على الشكر بلسانه وقلبه وجوارحه ، على ما أسديته إليه من النعم ، ويبذل جهده فيه ، ويخلص فى أدائه .

٣ — فلما حكمنا على سليمان بالموت ، وأنفذناه فيه ، استمر قائماً متكئاً على عصاه ، والجنّ مستمرون على القيام بالأعمال الشاقة التى كلفهم إياها على عادتهم ، لا يشعرون بموته ، وما دلّ الجن على موته إلا الأرضة التى أخذت تأكل عصاه التى كان متكئاً عليها — وهى دُوَيبَّة تأكل الخشب ، وتسمى سوسة الخشب — فلما سقط سليمان بعد أن أوهنت الأرَضة عصاه ، انكشف للجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ، لعلموا موته حين حدوثه ، ولما استمروا فى العمل الشاق المهين بعد موته .

وكان عمر سليمان حين مات ثلاثا وخمسين سنة ، بعد أن ملك أربعين سنة ، بنى خلالها هيكله العظيم وبيت المقدس .

(٦)

من الآية ١٥ إلى الآية ٢١ من سورة سبأ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ -١- . فَأَعْرَضُوا ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ، وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ -٢- . ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ؟ -٣- . وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ -٤- . فَقَالُوا : رَبَّنَا ، بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ -٥- . وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ، إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ -٦- . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
آية	علامة دالة على قدرة الله القاهر الجبار .
فأعرضوا	فأعرضوا عن شكر الله على نعمه ، وطغوا وبغوا وكفروا .
العرِم	جمع عَرِمة ، وهى سدّ يعترض الوادى ، ويمسك الماء إلى وقت الحاجة .
أكُل خمط	مأكول مرّ بشع ، وهو نوع من الأراك الذى يتخذ منه السواك .
وأثل	وشجر يشبه شجر الطرفاء ، ولا ثمر له .
من سدر قليل	من قليل من شجر نبق برّى لا ينتفع بثمره ، ولا يصلح ورقة للغسول .
قرى ظاهرة	قرى متتابعة ، يظهر بعضها لبعض
وقدرنا فيها السير	جعلنا السير مقدرا بينها ، على قدر معلوم من المسافة .
باعد بين أسفارنا	اجعل السفر المقدر بعيداً .
مزقناهم كل ممزق	فرقناهم فى جزيرة العرب كل تفريق .
لكل صبار شكور	لكل صبار عن المعاصى ، شكور على النعمة .
صدق عليهم إبليس ظنه	حقق إبليس ظنه فيهم حين أغواهم .

سيل العَرِم — أو سد مأرِب

أ — بلغت بلاد اليمن أيام الدولة السبَئية، التى تنسب إلى سبأ بن يشجُب ، شأواً عظيماً فى التمدين والحضارة، فبنوا القصور الفخمة مثل مأرِب وغُمدان وناعط ، وأقاموا سدوداً كثيرة لحجز السيول ، وهى جدران ضخمة كانوا يقيمونها فى عرض الأودية ، فترفع المياه لرى الأراضى المرتفعة ، كما تفعل الأمم المتمدينة فى إقامة الخزانات .

ب — وأشهر سدود اليمن سدّ مأرب ، وكان مبنياً بالصَّخر والقار ، فكان يحبس سيول العيون والأمطار التى تتجمع من مواضع جمة ، ثم تصرف المياه منه من فتحات بعضها فوق بعض ، على نحو ما هو معروف فى سد أسوان ، بمقدار الحاجة إليها ، ثم تقفل الفتحات بعوارض ضخمة من الخشب ، يتألف منها باب متين ، إذ لم يكن باليمن أنهار ، وإنما يستقى أهلها من مياه الأمطار التى تحفظها السدود ؛ وقد اختار السبئيون مضيقاً بين جبلين ، وبنوا فيه السد الذى عرف بسدّ مأرب .

حـ — ثم أهمل تعهد سد مأرب ، وعمارة ما تخرب منه ، فتصدّع نحو ثلثه وتهدم ، وسالت مياهه فأغرقت البلاد ، ودمرت القرى ، وأتلفت كل ما كان فى طريقها ، فتفرقت القبائل التى كانت تقيم فى اليمن فى أنحاء جزيرة العرب ، حتى ضرب العرب بهم المثل فى التفرق ، فقالوا عند تبديد الشمل ، وضعف القوة : تفرّقوا أيدى سبا ، وكان سيلُ العرم إبّان مُلك ذى الأزعار بن حسان ، فى الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد ، عليهما الصلاة والسلام .

مجمل المعنى

١ — لقد كان للقبيلة التى تنسب إلى سبأ بن يشجب فى مساكنهم باليمن ، علامة دالة على وجود الإله القادر القهار ، الذى يُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته ، « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » ، فكان لهم مجموعتان من البساتين : مجموعة عن يمين مأرب ، ومجموعة عن شمالها ، كل مجموعة منها فى تقارب بساتينها وتضامِّها ، كأنها بستان واحد ، كما فى المدن العامرة المتحضرة المزدهرة ، بل البيوت نفسها كانت تحيط بها البساتين ، فكانوا جديرين بأن يقال لهم لتمكنهم من تلك النعم : كلوا من ثمار هذه الحدائق ، التى رزقكم الله بها ، واشكروه على ما منحكم من أرض طيبة الهواء ، جيدة التربة ؛ والله الذى رزقكم هذه النعم ، وطلب منكم أن تشكروه عليها ، ربٌّ غفور لما يفرط من زلات من يشكره .

٢ — لكن هؤلاء القوم أعرضوا عن شكره ، وغمطوا حقه ، وجحدوا فضله ، فأرسلنا عليهم سيلا من السدّ الذى أقاموه لحجز المياه إلى حين الحاجة إليها ، فأغرقنا جنتيهم ، وبدلناهم بهما جنتين ذواتى مأكول من ثمر مُرّ بشع — هو ثمر شجر الأراك الذى يؤخذ منه السواك — ، وذواتى أثل — وهو شجر الطرفاء ، أو شجر شبيه به ولا ثمر له يسمى السمُر — والطرفاء : شجر برّى لا ثمر له — وشىء من شجر النبق البرى الذى لا ينتفع بثمره ، ولا يصلح ورقه للغَسُول ، يسمى الضّال .

٣ — ذلك التبديل جزيناهم به بسبب كفرهم النعمة التى أغدقناها عليهم ، وهل

نجازى بمثل هذا الجزاء إلا الكفور الجحود ، الذى لا يشكر النعمة ، ويكفر بما نحها ؟

٤ — وجعلنا بينهم — وهم باليمن — وبين القرى التى باركنا فيها بكثرة مياهها وأشجارها وثمارها — وهى الشام وفلسطين والأردن — حين يسيرون إليها للتجارة وغيرها ، قرى ظاهرة للعِيان ، متصلة من اليمن إلى الشام ، يظهر بعضها لبعض لعيون الناظرين ، لقرب المسافة التى بين كل قريتين ، وجعلنا هذه القرى على قدر معلوم من المسافة ، فكانت نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين ، بحيث يَقيل السائر الذى يخرج غدوة فى القرية التى تليها ، وإذا خرج من هذه يستطيع أن يبيت فى القرية التى بعدها ، إلى أن يبلغ الشام ، فلا يحتاج إلى حمل زاد أو ماء ، وقلنا لهم : سيروا فى هذه القرى إن شئتم بالليل أو بالنهار ، آمنين من كل مكروه ، فإن الأمن مستتب ليلا ونهاراً ، لا تخافون عدواً ، ولا تخشون جوعاً ولا عطشاً ، مهما طالت مدة سفركم .

٥ — فطلب ذوو الثراء من ربهم ، وهم الذين أبطرتهم النعمة ، ووجدوا أن لا فرق بينهم وبين الفقراء فى الاستمتاع بهذا الأمن — أن يباعد بين أسفارهم ، ويجعل الطريق بين اليمن والشام صحارى مقفرة ، ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل ، وحمل الزاد والماء فى جمع حاشد من الحرّاس والعبيد ، ليتفاخروا بمظاهرهم هذه على الفقراء ، وظلموا أنفسهم بالبَطَر وكفران النعمة ، فكان مثلهم كمثل اليهود الذين طلبوا من الله العدسَ والثُّوم والبصل ، بدل المنّ والسلوى ، فجعلناهم أحاديث لمن بعدهم ، يتحدث بها الناس ويتعجبون من فعلهم ، وفرّقناهم فى جزيرة العرب بانهيار سدّ مأرب كل تفريق لا اتصال بعده ، بعد اجتماع شملهم ، وصاروا مثلا مضروباً

للتبديد وتمزيق القوى ، ومنهم الأوْس والخزرج بالمدينة ، وغسان بالشام ؛ إن فى ذلك التفريق لعبرةً لكل صبار عن المعاصى ، شكور على النعم .

٦ — ولقد حقق فيهم إبليس ظنه ، باستعدادهم لإغوائه ، حين قال مخاطباً المولى جل وعلا : « لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » ، فاتبعوه وركبوا رءوسهم ، وانغمسوا فى الشهوات والآثام ، إلا فريقاً قليلا من المؤمنين لم يتبعوه ، لكن البلاء إذا عمّ ، لا يصيب الذين ظلموا خاصة .

٧ — وما كان لإبليس تسلّط واستيلاء عليهم ، فلم يقهرهم على الكفر ، وإنما كان منه الوسوسة والإغواء ، وقد ابتليناهم بهما ، ليتعلق علمنا بتمييز من يؤمن بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، ممن هو منها فى شكّ ، فنجازى كلاّ منهما : المؤمن على إيمانه ، والشاكّ على قدر ضلاله ، وربك يا محمد على كل شىء رقيب .

(٧)

من الآية ٢٢ إلى الآية ٢٧ من سورة سبأ

قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَمَالَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ —١— . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ —٢— . قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلِ : اللهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ —٣— . قُلْ : لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ، وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ —٤— . قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ —٥— . قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلَّا ! بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
زعمتم من دون الله	زعمتموهم آلهة من دون الله .
مثقال ذرة	وزن ذرة ، وهى الجزء الذى لا يتجزأ .
ما لهم فيهما من شرك	ليس لهم فى السموات والأرض شركة .
ظهير	مُعين .
فُزِّع عن قلوبهم	كشف الفزع عن قلوبهم .
قالوا	سأل المشفوع لهم من المؤمنين .
ماذا قال ربكم	ماذا قال ربكم فى طلب الشفاعة .
قالوا : الحق	قالوا : قال الله القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن يستحقها .
وإنا أو إياكم	وإن أحد الفريقين : الموحدين أو المشركين .
أجرمنا	اكتسبنا من الذنوب .
يفتح بيننا بالحق	يحكم ويفصل بالعدل .
وهو الفتاح	وهو الحكم العدل .

مجمل المعنى

١ — هذا الذى سبق ذكره من أمر داود وسليمان ، وقصة سبأ ، من آثار قدرتى ، فقل يا محمد لمشركى مكة : هل عند شركائكم قدرة على شىء من ذلك ؟ ادعوا الذين زعمتموهم آلهة من غير الله وعبدتموهم ، والتجِئوا إليهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضرر ، لعلهم يستجيبون لكم ، إن صحت

دعواكم فى أنهم يستحقون الألوهية ، ثم أجاب الله عنهم الإجابة التى لا تقبل المكابرة ، بأن هؤلاء الآلهة لا يملكون وزن ذرة من خير أو شر ، ونفع أو ضرر ، لا فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهؤلاء الآلهة أية شركة فى السموات والأرض ، لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ، وما للمولى جل شأنه مُعين من هذه الآلهة فى إيجادهما ، وتدبير أمرهما ، وإذا كانت آلهتكم على هذا العجز البيّن ، فكيف تعبدونها ؟

٢ — ولا تنفع شفاعة هذه الآلهة عند الله ، كما يزعم هؤلاء المشركون ، فلا جدوى لهم من عبادتهم إياها ، إذ لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن له فيها : « من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه » ، وهذه الآلهة أحقر من أن تشفع ؛ والشافعون من الملائكة والنبيين ونحوهم من المتأهلين لمقام الشفاعة ، ينتظرون الإذن بالشفاعة من الله ، ويترقبون كلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن بالشفاعة لهم ، « وهم من خشيته مشفقون » ، حتى إذا كشف الله الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم من المؤمنين ، وسُرى عنهم الخوف ، وأذن الله بالشفاعة للشفعاء ، سأل المشفوع لهم ، المحتاجون إلى الشفاعة ، المهتمون بأمرها ، المتشبثون بأذيال الرجاء : ماذا قال ربكم فى الشفاعة ؟ قال الشفعاء المباشرون للاستئذان : قال الله القول الحقّ ، وهو الإذن بالشفاعة للمستحقين لها ، وهو ذو العلو والكبرياء ، الذى لا يتكلم أحد من ملك ولا نبى يوم القيامة إلا بإذنه .

٣ — قل يا محمد للمشركين — ليتحققوا أن آلهتهم لا تملك مثقال ذرة مما يملكه الإله القادر : — من يرزقكم من السموات بالمطر والشمس والقمر ، ومن الأرض بالماء والنبات وغيرهما ؟ فإن لم يجيبوا — لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا : هذا فعلُ آلهتنا — فقل لهم الجواب الذى لا جوابَ غيره : الرازق هو الله

وحده ، وإن الفريقين منا : الموحدين للإله القادر الرازق ، أو المشركين به أصناماً لا تضر ولا تنفع ، لَعلى أحد الأمرين : الهدى أو الضلال ؛ وفى هذا الأسلوب دلالة خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو على الضلال ؛ ونظيره قول القائل — وهو يعلم أنه صادق ، وأن صاحبه كاذب — : أحدنا كاذب ، ولو جابهه بأنه كاذب لغضب ، والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، فأحد الفريقين مهتد ، وهو نحن ، والآخر ضال ، وهو أنتم ، إذ أشركتم مع الذى خلق السموات والأرض غيره ، فسجل اللهم عليهم ضلالهم بأحسن من التصريح به ، إظهاراً لبطلان عبادتهم ، وتوبيخاً لهم .

٤ — قل لهؤلاء الكفار يا محمد : أنتم لا تسألون عما اكتسبنا من الذنوب أيها المشركون ، ولا نسأل عما تعملون ، فلا أقصد بما أدعوكم إليه إلا الخير لكم ، لا أنه ينالنى ضرر كفركم ، فلكم دينكم ولى دينى ، والله يجازى كلاًّ بعمله ، وفى التعبير بالإجرام عن المؤمنين ، وبالعمل عن المشركين ، من أدب الخطاب ما لا يخفى .

٥ — قل لهم : يجمع بيننا ربنا يوم القيامة ، ثم يحكم ويفصل بيننا بالعدل والإنصاف ، بلا جور ولا ميل ، بعد ظهور حال كل منا ، فيدخل المحق الجنة ، ويدخل المبطل النار ، وهو الحكم العدل الفيصل ، العليم بما ينبغى القضاء به .

٦ — قل لهم : أعلمونى الذين ألحقتموهم بالله فى استحقاق العبادة ، وجعلتموهم شركاء له ، لأرى بأية حجة استحقوا أن تضعوهم فى هذه المرتبة ، فهل شاركوا فى خلق السموات والأرض ؟ كلا ! ارتدعوا عن إشراك هذه الآلهة لله فى العبادة ، وتنبهوا من غفلتكم ، فالجدير بأن يعبد هو الله الغالب القاهر فى تدبيره لخلقه ، الذى لا شريك له فى ملكه .

(٨)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٠ من سورة سبأ

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَيَقُولُونَ : مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ —١— . قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ ، لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إلا كافة للناس	إلا للناس جميعاً .
بشيراً	مبشرا المؤمنين بالجنة .
ونذيراً	ومنذراً الكافرين النار .
أكثر الناس	أكثر الكفار الذين كانوا كثرة فى ذلك الوقت .

مجمل المعنى

١ — وما أرسلناك يا محمد إلى قومك خاصة ، ولكنا أرسلناك إلى الناس جميعاً : عربيهم وعجميهم ، أسودهم وأحمرهم ، مبشرا المؤمنين المطيعين بالجنة يوم القيامة ، ومنذرا الكافرين العاصين عذاب جهنم ، ونظير هذا قوله تعالى :

« قل : يأيها الناس، إنى رسول الله إليكم جميعاً » ، ولكن أكثر من يكفرون بك لا يعتقدون صحة ما تبلغهم إياه ، فيحملهم عنادهم على مخالفتك ، وإصرارهم على الغى والضلال — وكانوا فى وقت إنزال هذه الآية أكثر من المؤمنين عدداً — ويقولون من فرط جهلهم على سبيل الاستهزاء ، حين سمعوا وعيدَ الله للكفار ، وما أعد لهم من العذاب يوم القيامة : متى هذا الوعد من التبشير والإنذار ، إن كنتم أيها الرسول والمؤمنون صادقين فيما تزعمون ؟

٢ — قل لهم يا محمد : لكم ميعاد يوم تحاسبون فيه على أعمالكم ، إذا فاجأكم لا تتأخرون عنه ساعة ، ولا تتقدمون ، فلا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ، ولا التقدم بالاستعجال .

(٩)

من الآية ٣١ إلى الآية ٣٣ من سورة سبأ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ : يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ –١– . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ –٢– . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا –٣– . وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا بالذى بين يديه	ولا بما تقدم القرآن ، كالتوراة والإنجيل .
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم	إذ الكافرون محبوسون للحساب عند ربهم .

الألفاظ	شرحها
يرجع بعضهم إلى بعض القول	يتحاورون ويتجادلون ، ويرد بعضهم على بعض .
الذين استضعفوا	الأتباع الضعفاء .
للذين استكبروا	للقادة الرؤساء المستكبرين .
مجرمين	مصرين على الكفر ، لإيثاركم الضلال على الهدى .
مكر الليل والنهار	مكركم بنا الدائم فى الليل والنهار ، واحتيالكم وخداعكم .
أنداداً	شركاء .
أسروا الندامة	أظهروا الندامة ، وهذا الفعل يدل على الإخفاء والإظهار .
الأغلال	جمع غُل ، وهو قيد يضم الأيدى إلى الأعناق .

عناد كفار مكة

بعث كفار مكة وفداً منهم إلى أهل الكتاب ، يسألونهم عن محمد ، فأخبرهم أهل الكتاب أنهم يجدون نعته فى كتابهم ، فغضب كفار مكة ، وقالوا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه .

مجمل المعنى

١ - وقال كفار مكة كأبى جهل وأضرابه : لن نؤمن بهذا القرآن الذى يزعم محمد أنه من عند الله ، ولا بما تقدمه من الكتب السماوية ، كالتوراة والإنجيل ، التى تدل على البعث والحساب ، ما دام فيهما نعت محمد ، بل نكفر بها ، ولو ترى يا محمد إذ الكفار محبوسون بين يدى ربهم للحساب فى ذلة واستكانة ، يرد بعضهم على بعض فى محاورة ومراجعة ، ويتجاذبون أطراف المحاورة ، ويحاول كل من القادة والرؤساء المستكبرين ، والأتباع المستضعفين ، أن يلقى اللوم على الآخر ، ويتنصّل من التَّبعة ، بعد أن كانوا أخلاء متناصرين فى الدنيا - لرأيت أمراً عجباً ، وحواراً طريفاً ، يقول الأتباع للرؤساء : لولا أنتم صَددتمونا عن الإيمان ، وأغويتمونا وأضللتمونا ، لكنا مؤمنين باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ - فيقول لهم القادة الرؤساء المستكبرون : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم به رسول الله ، ورددناكم عن الإيمان ، ومنعناكم من قبول الحق؟ بل إنكم أنتم الذين صددتم أنفسكم عن الهدى ، وأعرضتم عن اتباع الحق ، وأجرمتم بتقليد آبائكم فى عبادة الأصنام ، وإيثاركم الضلال على الهدى ، وإصراركم على الكفر ، ولم نَحُل بينكم وبين ما تريدون من الإيمان برسول الله .

٣ - فيقول الأتباع المستضعفون : لم يكن إجرامنا هو الذى صدّنا عن الهدى ، بل الذى صدنا عنه ، مكركم بنا الدائم ليلا ونهاراً ، واحتيالكم علينا ،

وخداعكم لنا ، حتى ظننا أنكم على الحق حين تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له شركاء فى عبادته .

٤ — وأظهر الفريقان الندامة على تفريطهم فى طاعة الله ، وترك الإيمان به وبرسوله ، حين عاينوا العذاب الذى أُعِدَّ لهم ، وغُلت أيدى الكفار فى جهنم إلى أعناقهم عقاباً لهم ؛ هل يفعل الله بهم هذا العقاب إلا جزاء وفاقاً على أعمالهم فى الدنيا ؟

(١٠)

من الآية ٣٤ إلى الآية ٣٩ من سورة سبأ

وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ -١- . وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ -٢- . قُلْ : إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ -٣- . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا، وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ -٤- . وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ، أُولَٰئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ -٥- . قُلْ : إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مترفوها	رؤساؤها المتنعمون ، وأغنياؤها وجبابرتها .
يبسط الرزق	يوسع الرزق .
ويقدر	ويضيق .
زلفى	قُربى
جزاء الضعف	جزاء حسن مضاعَف .
وهم فى الغرفات	وهم فى غرفات الجنة
يسعون فى آياتنا	يسعون فى إبطال أدلتنا ، وآيات كتابنا
معاجزين	مقدرين عجزنا عن إدراكهم ، لمحاسبتهم حين البعث .
يخلُفه	يعوّضه

مجمل المعنى

١ — أراد الله جل شأنه تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم ، على ما يلقاه من أذى قريش وتعنتهم ، وإصرارهم على الكفر ، فذكر له أنه ما أرسل رسولا منذراً قومه النار لمن عصاه ، إلا قال رؤساؤها المتنعمون بزخارف الدنيا ، المنهمكون فى شهواتهم ، المستهينون بمن لم يَحْظَ منها بنصيب ، المفاخرون بثَرَائهم : إنا كافرون بما أرسلتم به ؛ وخُصَّ المترفون بالذكر ، لأنهم فى الغالب

أسبق إلى مخالفة الدعاة إلى الحق ، لما سيؤدى إليه قبولهم لها من قيود لا يَودّون أن يقيدوا أنفسهم بها .

٢ — وقالوا للرسل — كما قالت لك يا محمد قريش — : لقد فَضلنا الله بكثرة الأموال والأولاد عن الضعفاء الذين آمنوا بكم ، ولو لم يكن كلّ منا أثيراً عند الله ، لما آثرنا بهذا الخير الوفير ، وما نحن بمعذَّبين ، لأن من أكرمنا فى الدنيا لا يعرضنا للهوان فى الآخرة ، إن كانت ثمة حياة أخرى ، فلو لم يكن الله راضياً عنا ، ولنا عنده كرامة ، ما منحنا الأموال والأولاد التى نستمتع ونعتزّ بها ، ولولا أن المؤمنين هانوا على الله ما َحرَمَهُمُوها ، ونظير هذا قولهم : « أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديًّا » .

٣ — قل لهم يا محمد ، رداً على ظنهم الفاسد : إن ربى يوسع الرزق لمن يشاء امتحاناً ، ويضيقه ابتلاء ، وليس لتوسيع الرزق أو تضييقه علاقة بالكرامة أو الهوان ، فربما يوسع الرزق على العاصى ، ويضيقه على المطيع ، أو يعكس الأمر ، فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب فى اليوم الآخر ، اللذين مناطهما الطاعة والعصيان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، فيظنون أن مدار البسط الشرف والكرامة ، ومدار التضييق الحقارة والمهانة .

٤ — وما أموالكم ولا أولادكم أيها المكابرون المعاندون بالتى تقربكم قربى عندنا ، لكن القربى من عند الله لمن آمن وعمل صالحاً ، بإنفاق بعض ماله فى سبيل الله ، وتعليم أبنائه وبناته ، وتنشئتهم على حب الخير ، وتربيتهم على الصلاح والتقوى ، فأولئك يقربهم إيمانهم وعملهم الصالح من الله ، ولهم جزاء َحسن مضاعف عنده ، فالحسنة بعشر أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء ، وهم فى غُرُفات الجنة ومنازلها الرفيعة ، آمنون من كل مكروه ، كسْقم أو حزن أو عذاب أو موت .

٥ — والذين يسعون فى إبطال أدلتنا وحججنا ، يبتغون إدحاضها ، ويسعون فى التنقص من آيات كتابنا، يحاولون تكذيبه بشتى الوسائل ، مقدرين عجزنا عن إدراكهم يوم القيامة، ظانين أنهم يفوتوننا بعد أن صاروا رفاتاً، أولئك يحضرهم زبانية جهنم إليها لعذابهم ، « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » ، ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً .

٦ — قل يا محمد : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وما أنفقتم من شىء فى طاعة الله يعوّضه عليكم ، إما عاجلا فى الدنيا ، وأما آجلا فى الأخرى، فنعيم الآخرة لا ينافى نعيم الدنيا ، بل الصالحون قد يوسّع الله لهم فى الرزق فى الدنيا ، فينعمون دنيا وأخرى ، وهو خير الرازقين الواهبين من غير حساب ، ولا رازق سواه ، يعطى المنفق خلَفاً ، ويعطى الممسك تلَفاً ؛ وقد ذكر الله بسط الرزق وتضييقه فى هذه المجموعة من الآيات مرتين ، أريد بالأولى توجيه الكلام إلى الكفار ، وأريد بالثانية توجيه الكلام إلى المؤمنين ، بدليل قوله فيها : « من عباده » ، والعبادُ : يراد بهم المؤمنون، ثم وعد الله المؤمنين بأن يُخلف عليهم ما أنفقوه ، ولم يذكر شيئاً من ذلك فى الآية الأولى .

(١١)

من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٢ من سورة سبأ

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ: أَهٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: سُبْحَانَكَ! أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ -١-. فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا: ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ -٢-.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يحشرهم جميعاً	يجمع كلاًّ من المستكبرين والمستضعفين .
سبحانك	تنزيهاً لك عن الشريك .
أنت ولينا من دونهم	أنت الذى نواليه من دونهم ، ولا موالاة بيننا وبينهم .
يعبدون الجن	يطيعون الشياطين فى عبادتهم .

مجمل المعنى

١ — اذكر يا محمد يوم يحشر الله المستكبرين والمستضعفين جميعاً للحساب يوم القيامة ، ثم يقول للملائكة — تقريعاً للمشركين ، وإقناطاً لهم من شفاعة الملائكة لهم كما كانوا يظنون — : أهؤلاء الكفار كانوا يخصُّونكم بالعبادة دونى ؟فيجيب الملائكة : تنزيهاً لك ربَّنا عن الشريك ! أنت يا ربنا الذى نطيعه ، ونعبُده ونُخْلِص ُ له فى العبادة ، وأنت الذى نواليه دونهم ، ولا موالاة بيننا وبينهم ،ونحن نبرأ من الرضا بعبادتهم ، بل كان هؤلاء المشركون يطيعون الشياطين ، وينقادون لهم فى عبادة غيرك ، ويخيِّلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم ، وأكثرهم كانوا يصدِّقون بما يوسوسه الشياطين لهم ؛ وخُصت الملائكة بالذكر ، مع أن الكفار عبدوا غيرهم ، لأنهم أشرف معبوديهم ، واقتصرت الملائكةُ فى ردها على المولى على ذكر الكثرة من الشياطين ، لأن من الكفار من كان يعبد الكواكب أو النار أو غيرهما .

٢ — فاليوم — وهو يوم الجزاء ، حيث الأمر كله لله ، وهو المجازى وحده — لا يملك بعض المعبودين على اختلافهم لبعض العابدين نفعاً ولا ضرا ، لأن النافع والضار فيه هو الله وحده ، ونقول للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وتعريضهم لعذاب الله : ذوقوا عذاب النار التى كنتم تكذبون بها .

(١٢)

من الآية ٤٣ إلى الآية ٤٥ من سورة سبأ

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ، قَالُوا : مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ، وَقَالُوا : مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ –١– . وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ، وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ –٢– . وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بينات	واضحات .
يصدكم	يمنعكم .
ما هذا إلا إفك مفترى	ما القرآن إلا كذب مختلق .
إن هذا إلا سحر مبين	ما القرآن الذى نعجز عن الإتيان بمثله إلا سحر بيِّن .
وما بلغوا معشار ما آتيناهم	وما بلغ كفار مكة عُشر ما آتينا مَن قبلهم من القوة .
نكير	عاقبة إنكارى عليهم ، فقد ذاقوا وبال أمرهم .

مجمل المعنى

١ — وإذا تتلى على كفار مكة بلسانك آيات القرآن الواضحات التى أنزلناها عليك ، الناطقة بالتوحيد وبطلان الشرك ، قالوا عناداً واستكباراً : ما محمد إلا رجل يريد أن يمنعكم من عبادة ما كان يعبده آباؤكم ، ويغيّر دينكم ودينَ أسلافكم ، لتكونوا أتباعاً له ، فيعارضون البرهان العقلىّ بالتقليد الأعمى ، وقالوا : ما هذا القرآن الذى يتلوه علينا محمد إلا كذب مختلق على الله ، وقال هؤلاء الكفار لما جاءهم القرآن ، وعجزوا عن الإتيان بمثله : ما هذا القرآن إلا سحر بيّن .

٢ — يقولون هذا بلا حجة ولا برهان ، فما آتيناهم كتباً يقرءونها وفيها دليل على صحة عبادة الأصنام ، وبطلان ما جئت به يا محمد ، ولا سمعوا هذا من رسول بعثناه إليهم ، أبلَغَهم أنهم على حقّ فى عبادتهم ؛ فمن أين أتوا بهذه المذهب الزائف ؟ ليُلْتَمَس لهم عذر فى عبادتهم الباطلة ؟ ونظير هذا قوله تعالى فى سورة « الزُّخْرُف » : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » .

٣ — ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم الماضية فى العصور الخالية ، وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا هذه الأمم من القوة والسلطان ، وطول العمر وكثرة الأموال والأولاد ، كعاد وثمود ، فكذبوا رسلى ، فانظر كيف كانت عاقبة إنكارى عليهم ، وعقابى لهم ؟ فقد دمّرنا قُراهم ، واستأصلنا أهلها ، ولم تُغْنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ؛ فليحذر كفار مكة أن أعاقبهم بمثل ما عاقبت غيرهم ، فإن بَطْشِى لشديد .

(١٣)

من الآية ٤٦ إلى الآية ٥٠ من سورة سبأ

قُلْ : إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا : مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ —١— . قُلْ : مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ —٢— . قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ —٣— قُلْ : جَاءَ الْحَقُّ ، وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ —٤— . قُلْ : إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أعظكم بواحدة	أنصح لكم بخصلة واحدة ، وأرشدكم إليها .
أن تقوموا لله	هى أن تقوموا قياماً خالصاً لوجه الله ، بعيداً عن التقليد

الألفاظ	شرحها
مثنى وفرادى	جماعات ووُحداناً .
ما بصاحبكم من جِنة	فتعلموا : ما محمد صاحبكم مجنوناً .
بين عذاب شديد	أمام عذاب شديد ، ينتظر العصاة يوم القيامة .
ما سألتكم من أجر	ما سألتكم أجراً على نصيحتى ورسالتى .
شهيد	مطلع .
يقذف بالحق	يلقى بالحق فى قلوب من يصطفيهم من أنبيائه .
جاء الحق	جاء الإسلام وظهر القرآن ، وبانت المعجزات .
وما يُبدئ الباطل وما يعيد	وذهب الباطل الذى لا يستطيع أن ينشئ خلقاً ، أو يُعيدهم بعد فنائهم .

مجمل المعنى

١ — قل لهم يا محمد : إننى أنصح لكم بخَصلة واحدة ، إن أنفذتموها سَعِدتم ، وفُتِحتْ لكم أبواب الخير : هى أن تقوموا زَرَافات ووُحداناً قياماً خالصاً لوجه الله ، بعيداً عن التقليد والتعصب والعِناد ، فإن قمتم جماعات عَرَض كل منكم على صاحبه رأيه ، فينظران فيه نظرة صدق وإنصاف ، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق ، وإن قمتم فُرادى فكَّرتم وعرضتم فكركم على عقولكم ، وبعد أن تروَّوا فكِّروا تفكيراً عميقاً ، فتعلموا وتتأكدوا أن صاحبكم محمداً ليس به جنون ، وأنه راجح العقل ، صادق القول ، لا يختلف إلى أحد ممن يدعى العلم بالسحر ، أو يُلِمُّ بأقاصيص وأخبار الأوائل ، وما هو إلا منذر إياكم ، قبل أن يأتيكم عذاب شديد تصلَونه

فى نار جهنم يوم القيامة ؛ وإذا علمتم هذا وجب عليكم أن تصدقوه فى دعوته — فكيف إذا انضم إلى هذه الصفات ، المعجزات التى أيده الله بها ؟.

٢ — قل لهم يا محمد : أى شىء سألتكم إياه من أجر على تبليغ رسالتى لكم — إن كنت سألتكموه — فهو لكم ، وما أجرى للقيام بأعباء الرسالة إلا على الله ، وهو مطلع على كل شىء ، يعلم صدقى وأمانتى ، وخلوص نيتى فى تبليغى رسالته إلى خلقه .

٣ — قل لهم يا محمد : إن ربى علام الغيوب ، المطلع على السرائر ، يلقى بالحق فى قلوب الأنبياء الذين يصطفيهم من خلقه ، فالأمر بيده يفعل ما يريد ، فهو يعطى ما يشاء من يشاء .

٤ — قل لهم يا محمد : جاء الحق وزهق الباطل بظهور الإسلام وإنزال القرآن ، وظهرت قدرة الله القادرة ، والمعجزات الباهرة ، فمحقت الباطل الذى يعجز أن ينشئ خلقاً ، أو يعيدهم أحياء بعد فنائهم .

٥ — يقولون لك يا محمد : لقد ضَلَلت بتركك دين آبائك ، فقل لهم : إن ضللت فإن وبال ضلالى عائد على نفسى ، وإن اهتديت إلى الحق فبما يوحى إلىّ ربى من القرآن ، وبما يوفقنى إلى الهداية ، إنه سميع الدعاء ، قريب الإجابة ، يسمعنى إذا ناديته ، وهو أقرب إلىّ من حبل الوريد ، وهو الذى أستعدى به عليكم إن بقيتم على شرككم .

(١٤)

من الآية ٥١ من سورة سبأ ، إلى آخر السورة

وَلَوْ تَرَى إذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ —١— وَقَالُوا : آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ؟ —٢— . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ —٣— وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فَزِعوا	ذُعِرُوا وخافوا .
فلا فوت	فلا مهرب .
وأخذوا من مكان قريب	وأخذوا إلى النار من مكان قريب من الموقف .
آمنا به	آمنا بمحمد .
التناوش	تناول الإيمان والظفر بمطلوبهم بيسر وسهولة .
من مكان بعيد	من مكان بعيد عن محله الذى فى الدنيا ، لأنهم الآن فى الآخرة .

الألفاظ	شرحها
ويقذفون بالغيب	ويُرمَوْن بما غاب عنهم لنسيانهم إياه ، من مطاعنهم فى الرسول ، وكفرهم بدعوته ، وتكذيبهم إياه.
من مكان بعيد	من مكان بعيد عنهم الآن ، لأنه كان فى الدنيا ، وهم الآن فى الآخرة .
وحيل بينهم وبين ما يشتهون	وحيل بينهم وبين قبول الإيمان منهم ، والنجاة من النار .
بأشياعهم من قبل	بأشباههم من كفار الأمم الماضية .
إنهم كانوا	إنهم كانوا من أمر البعث والحساب والجنة والنار .
فى شك مريب	فى شك موقع فى الريبة .

مجمل المعنى

١ — ولو ترى يا محمد الكفار الذين كانوا يقولون عنك : « ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويقولون عن القرآن : « ما هذا إلا سحر مفترى » ، وما أصابهم من الذعر والخوف عند البعث والحساب ، إذ لا يستطيع أحد منهم الإفلات والهرب ، وأخذوا إلى النار من مكان قريب من الموقف — لو ترى هذا لهالك أمرهم ، ولرثيت لحالهم ، لما هم فيه من الذل والاستكانة .

٢ — وقال الكفار حين عاينوا العذاب : آمنا بمحمد ، ولكن كيف يتناولون الإيمان فى الآخرة فى يسر وسهولة ، من مكان بعيد عن محله فى الدنيا ، وكانوا يستطيعونه حين بلغهم محمد دعوته ، فأوان الإيمان قد فات .

٣ — وقد كفروا بمحمد من قبل فى الدنيا ، ويُرْمَوْن بما غاب عن علمهم غيبة

بعيدة لنسيانهم إياه لطول العهد به ، حيث قالوا : لابعث لا حساب ، ولا جنة ولا نار ، وقالوا : ما نحن بمعذّبين ، لأننا أكرم على الله من أن يعذبنا ، وقالوا فى النبى : إنه ساحر وشاعر وكاهن ، وقالوا فى القرآن : إنه سحر وشعر وكهانة .

٤ — وحيل بينهم وبين ما يرومونه من قبول الإيمان ،والنجاة من النار ، كما فُعِلَ بأشباههم من كفار الأمم الأخرى ، إنهم كانوا من أمر الرسل ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فى شك موقع فى الريبة ، وقد استبان لهم صدق ما كانوا يشكّون فيه .

سورة فاطر

نزلت بمكة ، وآياتها خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثانية

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ : مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ —١— . مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فاطر السموات والأرض	خالقهما ومنشئهما ، ومبدعهما على غير مثال سبق .
رسلاً	وسائط بينه وبين رسله .

الألفاظ	شرحها
أولى أجنحة : مثنى وثلاث ورباع	ذوى أجنحة متعددة ، تتفاوت بتفاوت مراتبهم .
يزيد فى الخلق ما يشاء	يزيد فى مراتب الخلق على حسب مشيئته .
ما يفتح الله للناس من رحمة	إن يُطلق الله للناس رحمة ، كنعمة وأمن وصحة .
فلا ممسك لها	فلا يستطيع أحد أن يحبسها عنهم .
وما يُمسك	وإن يحبس .
فلا مرسل له من بعده	فلا يستطيع أحد أن يطلقه بعد إمساكه .

مجمل المعنى

١ — الشكر الخالص ، والثناء التام لله المعبود بحق ، خالق السموات والأرض ومنشئهما ، ومُبدعهما على غير مثال سبق ، جاعل بعض الملائكة ، وسائط بينه وبين أنبيائه ، يبلغون إليهم رسالاته بالوحى ، وهؤلاء الملائكة رسل ذوو أجنحة ثنائية أو ثلاثية أو رباعية ، فهى تتفاوت بتفاوت مراتبهم عند الله ، ينزلون بها ويعرجون ، ويتصرفون على حسب ما أمرهم الله به — والبحث عن هذه الأجنحة لا طائل تحته ، فعلينا أن نؤمن به — يزيد الله فى الأجنحة ما يشاء بمقتضى إرادته ، فقد تكون أكثر من أربعة ؛ روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل ليلة المعراج ، وله ستمائة جناح ؛ وكما تتناول الآية الزيادة فى الأجنحة ، تتناول الناس من حيث زيادة إسباغ نعمه عليهم ، بمنحهم ملاحة الوجه ، أو حسن

الصوت ، أو رجاحة العقل ، أو سماحة النفس ، أو شدة البطش ، أو ذلاقة اللسان ، أو ضخامة الأجسام ، إن الله على كل شيء قدير .

٢ — إن يطلق الله للناس خزائن رحمته ، من نعمة وأمن ، وصحة ونبوة وعلم ، فلا يستطيع أحد أن يحبسها عنهم ، وأى شيء يمسكه ويمنعه ، فلا يستطيع أحد إطلاقه بعد إمساكه ، لأن مفاتيح الخير ومغاليقها كلها بيد الله ، وهو الغالب على ما يشاء ، فليس لأحد أن ينازعه على ما يريده ، فهو وحده القادر على الإمساك والإطلاق ، الحكيم الذى لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وإتقان .

(٢)

من الآية ٣ إلى الآية ٧ من سورة فاطر

يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ –١– . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ –٢– . يٰأَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ –٣–. إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ –٤–. الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فأنى تؤفكون	فكيف تُصرفون عن توحيده إلى الشرك به ؟
ترجع الأمور	تصير أمور الخلق إليه فى الآخرة .

الألفاظ	شرحها
فلا تغرنكم الحياة الدنيا	فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها ، فتشغلكم عن النظر فى أمر الآخرة .
الغَرور	الشيطان المبالغ فى الغُرور والخداع .
حزبه	أتباعه وشيعته من الناس .
السعير	جهنم الملتهبة النار .

مجمل المعنى

١ — يأهل مكة ، اذكروا بألسنتكم وقلوبكم نعمة الله عليكم ، بإسكانكم حرماً آمناً ، والناس يُتَخطَّفون من حولكم ، وبما بسطه الله من الرزق لكم ، وقابلوها بالشكر ، وحافظوا عليها بمعرفة حقها ، وطاعة مُسديها ، وعدم الإشراك به ، هل ثمة خالق وموجد للنعم غير الله الواحد الأحد ، فهو الذى يرزقكم من السماء بالمطر ، ومن الأرض بأنواع النبات ، فلا تعبدوا إلا إياه ، وأقروا أنه لا إله إلا هو ، فكيف تُصْرَفون عن توحيد خالقكم ورازقكم ، الذى بيده نفعكم وضركم ؟ وكيف تسوون بين الصنم المنحوت ، ومن بيده الملكوت ؟

٢ — وإن يكذبك كفار قريش يا محمد فيما أرسلت به من التوحيد والبعث والحساب والعقاب ، فقد كُذِّبت رسل كثيرون من قبلك فيما أرسلوا به ، فلا يعظم عليك تكذيب قومك لك ، فإن ذلك سنة كفار الأمم الذين خلوا من قبلهم ، فتأسَّ بمن قبلك من الرسل فى الصبر ، فقد كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ومرجع الأمور إلى الله وحده يوم القيامة ، فيجازى المكذبين على تكذيبهم .

٣ — يأهل مكة المكذبين لمحمد ، إن وعد الله بالبعث والحشر والجزاء حق لا لا مراء فيه ، ومصير أموركم إلى الله ، فلا يخدعنكم ما أنتم فيه من بسطة العيش فى الدنيا ، وكثرة الأموال والأولاد ، والانغماس فى اللذات ، والانهماك فى الشهوات ، عن طلب الآخرة بالإيمان بالله مصدر هذه النعم ، فيقول كل منكم حين يعاين العذاب : « ياليتنى قدمت لحياتى » ، ولا يغُرنّكم الشيطان المبالغ فى غروركم ، بأن يمنّيكم المغفرة ، مع الإصرار على المعصية .

٤ — إنه لا يمنعكم من خداع الشيطان إلا أن تعتقدوا أن الشيطان لكم عدو من عهد أبيكم آدم — وقد فعل معه ما تعلمون — فاتخذوه عدوا ولا تطيعوه ، فقد تعهّد بإضلالكم بقوله : « ولأضلّنهم ولأمنينّهم » ، واحْذَروا وسوسته فى جميع أعمالكم ، لئلا يوردكم موارد الردى ، فهو إنما يدعو حزبه وشيعته من الناس إلى اتباع الهوى ، والركون إلى ملاذ الدنيا وشهواتها ، ليكون مصيرهم إلى جهنم المتأججة نارها ، فهل ثمّة عداوة أشد من هذه العداوة ؟

٥ — الذين كفروا ، واتبعوا نزغات الشيطان ، وأصاخوا إلى وسوسته ، فأطاعوا هواهم ، لهم عذاب شديد يوم القيامة ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات بمخالفة الشيطان ومعاداته ، لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم ، وأجر كبير لا غاية له ، وهو الجنة ونعيمها .

(٣)

من الآية ٨ إلى الآية ٩ من سورة فاطر

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ؟ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ –١–. وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ، فَتُثِيرُ سَحَابًا ، فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فلا تذهب نفسك عليهم حسرات	فلا تهلك نفسك لحسراتك على إصرار قومك على الكفر ؛ والحسرة : الغم على ما فات .
بلد ميت	قطعة أرض مجدبة .

مجمل المعنى

١ – أفمن حسَّن له الشيطان عمله السيئ ، فغلب عليه هواه ، وركب رأسه من كفار قريش – وبخاصة أبو جهل – فانتكس رأيه ، فرأى الباطل

حقًا ، والقبيح حسناً، تغتم من أجله وتتحسر ؟ ليس هذا كمن وُفِّق إلى الإيمان فعرف الحق ، وميّز بين الحسن والقبيح ، ونظير هذا قوله تعالى : أفمن كان على بيِّنة من ربه ، كمن زُيِّن له سوء عمله ؟ ؛ إن الله يُضِلُّ من يشاء لفساد فطرتهم ، وسوء استعدادهم للإيمان ، ويهدى إلى الإيمان من عباده من يشاء لفطرتهم السليمة ، وحسن استعدادهم لقبول الإيمان ، فلا تغتم ولا تحزن ، ولا تهلك نفسك لحسراتك على تكذيبهم إياك ، ولا يشتد أسفك على عدم قبولهم دعوتك ، فإن أسفك على إقامتهم على كفرهم لا يُجْدى نفعاً ؛ وقد سبقت كلمتنا بضلالهم ، وما عليك إلا البلاغ ، إن الله عليم بما يصنعون فيجازيهم عليه ، ونظير هذا فى سورة آل عمران : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » (تراجع الصفحة ٧٤ من تفسير الجزء الرابع) ، وقوله فى سورة الكهف : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ، (تراجع الفقرة الثانية من الصفحة ٨٠ من تفسير الجزء الخامس عشر) .

٢ — والله وحده هو الذى أرسل الرياح بكمال قدرته ، وبالغ حكمته . فأثارت سحاباً ، فَسُقْناه إلى قطعة من الأرض مُجدبة لا نبات فيها ، فأحيينا بالمطر بعد نزوله من السحاب الأرض بعد جدبها ، وأخصبناها ، وأنبتنا فيها الزرع والكلأ ؛ ومثل قدرتنا على إحياء موات الأرض فى سهولة من غير عناء ، تكون قدرتنا على إحياء الأموات يوم القيامة .

(٤)

من الآية ١٠ إلى الآية ١١ من سورة فاطر

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً —١— . إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ —٢— . وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ —٣— . وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
العزة	الشرف والكرامة .
فلله العزة جميعاً	فليطلبها من الله لأنه لا يملكها غيره .
يصعد الكلم الطيب	يرتفع الكلم الطيب إلى محل القبول والرضا .
والعمل الصالح يرفعه	والعمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب إلى المولى جل وعلا .
يمكرون السيئات	يدبرون التدبيرات السيئات بالنبى فى دار الندوة .

الألفاظ	شرحها
ومكر أولئك هو يبور	ومكر أولئك الكفار بمحمد ، هو الذى يبطل ، لا مكرُنا بهم .
خلقكم من تراب	خلق أباكم آدم من تراب .
ثم من نطفة	ثم خلق ذريته من مَنِىّ .
ثم جعلكم أزواجاً	ثم جعلكم مزدوجين : ذكوراً وإناثاً .
وما يعمَّر من معمَّر	وما يُمدُّ فى عمر طاعن فى السن .
ولا يُنقَص من عمره	وما يقدر من أجلِ قصيرِ العمر .
إلا فى كتاب	إلا وهو مثبت فى اللوح المحفوظ .

مجمل المعنى

١ — من كان يريد الشرف والمَنَعَة ، والعزة والكرامة فى الدنيا والآخرة ، فلله العزة كلها ، فليطلبها منه ، فهو وحده الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وقد منحها رسوله والمؤمنين ، وهى لا تنال إلا بطاعته ، بل الطاعة نفسها لا يعتد بها ما لم تقبل ، وفى هذا ازدراء للكفار الذين كانوا يعتزُّون بعبادة الأصنام ، ويعتقدون أنها تدفع عنهم كل شر ، وقد أخبر الله عنهم بقوله : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا » ، (تراجع الفقرة ٥ من الصفحة ٧٠ من تفسير الجزء السادس عشر) ، وازدراء بالمنافقين الذين يعتزون بالمشركين ، وقد أخبر الله عنهم بقوله : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزَّة ؟ فإن العزة لله جميعاً » ، (تراجع الفقرة الثالثة من الصفحة ١٠٢ من تفسير الجزء الخامس) ؛ ولا يستحق

العزة إلا من آمن بالله وتواضع ، فمن تواضع لله رفعه ، ولا يعتز إلا من أعزه الله .

٢ — إلى الله وحده يصل الكلم الطيب من ذِكْر ودعاء ، وتوحيد صادر عن عقيدة ، ونصيحة ناصح مخلص ، ورد إشاعة مفتر ؛ والعملُ الصالحُ — من عبادة خالصة ، وجهاد فى سبيل الله والوطن — يَرْفَعُ الكلمَ الطيب إلى الله ، فإذا لم يقترن الكلم الطيب بالعمل الصالح فلا فائدة فيه ، فإن العمل الصالح شرط فى قبول الكلام الطيب ، فمن خالف قولُه عملَه باء بالخسران ، ولا يقتضى الصعود إلى الله أن للمولى مكاناً فوقنا ، وإنما المراد أن الكلم الطيب المقترن بالعمل الصالح ، يصل إلى محل القبول والرضا ، كما يقال : ارتفع الأمر إلى الحاكم : أى وصل إليه وعلِمَه .

٣ — وكفار قريش الذين يدبِّرون التدبيرات السيئات بالنبى فى دار الندوة : بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة ، التى فصّلناها فى الصفحة ١٤٠ من تفسير الجزء التاسع — لهم عذاب شديد يوم القيامة ، ومكر أولئك الماكرين المفسدين هو الذى يبطل ويفسد ، ولا يستطيع أحد منهم إنفاذه ، لا مكرنا بهم ، إذ لا يَحيق المكر السيئ إلا بأهله ؛ ويرى بعضهم أن المراد بالذين يمكرون بالسيئات هم المراءُون ، وهو عندنا أصوب ، وألصق بالمقام .

٤ — والله جل شأنه خلق أباكم آدم أيها الناس من تراب ، ثم أنشأ ذريته من مَنِىٍّ حين يباشر الذكر الأنثى ، ثم جعلكم أصنافاً مزدوجين : ذكوراً وإناثاً ، يتزوج بعضكم بعضاً لتتناسلوا ، وما تحمل أنثى ، ولا تضع مولودها إلا بعلمه ، وما يمد فى عمر أحد فيبلغ حد الشيخوخة ، ولا يُنْقَص من عمره بأن يكون قصير العمر ، يُقدّر له عمر أنقص من عمر غيره ، إلا كان ذلك بعلم الله ، مثبَتاً فى اللوح المحفوظ أزَلا ؛ إن طول العمر وقصره ، وتقدير الآجال ، هيِّن على الله جل شأنه .

(٥)

الآية ١٢ من سورة فاطر

وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ : هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
عذب فرات	حلو شديد الحلاوة ، يكسر حدة العطش .
سائغ شرابه	يسهل انحداره من المرىء .
ملح أجاج	ملح شديد الملوحة ، يحرق بملوحته فى أثناء انحداره .
لحماً طريًّا	لحم السمك الطرىّ .
حلية تلبسونها	تستخرجون اللؤلؤ والمرجان للتحلى بهما .
وترى الفلك فيه مواخر	وترى السفن فى كل منهما تشق مياهه بجريها فيه .

مجمل المعنى

وما يستوى البحران : أحدهما ماؤه عذب شديد الحلاوة ، يسهل انحداره من المرىء إلى المعدة لحلاوته ، ويكسر حدة العطش ويزيله ، والآخر ماؤه ملح ، غير مستساغ شربه ، لحرقته فى أثناء انحداره من المرىء إلى المعدة ، ومن كل البحار : الحلوة والملحة ، تأكلون لحم السمك الطرىّ اللذيذ ، وتستخرجون من البحر الملح خاصة اللؤلؤ والمرجان للتحلى بهما ، وترى السفن فى كل منهما تشق مياهه ، وتجري فيه مقبلة ومدبرة ، لتطلبوا الرزق من فضل الله بالتجارة ، وإصدار ما يزيد على حاجة البلاد من منتجاتها ، واستيراد ما تحتاج إليه من مصادره فى الجهات الأخرى ، ولعلكم تعرفون حقوق النعم ، فتقوموا بتوحيده وطاعته ، شكراً له على نعمائه ، وترادف آلائه .

وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فهما وإن اشتركا فى الصورة ، لا يتساويان ، فمثلهما كمثل البحرين ، يشتركان فى صورة الماء ، ويستخرج من كل منهما السمك الطرىّ ، ومن أحدهما اللؤلؤ والمرجان ، ولكنهما يختلفان فيما هو المقصود بالذات من الماء ، فأحدهما عذب سائغ شرابه ، والآخر ملح أجاج لما خالطه من الملح المذاب فيه ، الذى أفسده وغيّره عن صفاء فطرته ، فكذلك المؤمن والكافر لا يستويان ، وإن اشتركا فى الإنسانية وفى بعض الفوائد ، كالشجاعة والسخاء ، فقد بقى المؤمن على فطرته التى فُطر الناس عليها ، وفسدت فطرة الكافر فضلّ عن سبيل الهدى

(٦)

من الآية ١٣ إلى الآية ١٤ من سورة فاطر

يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى —١— . ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل	يدخل وقت أحدهما فى وقت الآخر ، بأن يكون ظلام فى جهة ، وضياء فى جهة أخرى ، وبالعكس .
لأجل مسمى	لمدة دورته فى فلكه التى قدرها له .
ذلكم الله ربكم	الفاعل كل هذه الأعاجيب هو الله ربكم .
تدعون من دونه	تعبدون من غيره .

الألفاظ	شرحها
قطمير	لُفافة النواة الرقيقة البيضاء .
يكفرون بشرككم	يتبرءون من إشراككم إياهم فى عبادة الله .
ولا ينبئك مثل خبير	ولا يخبرك بالأمر مثل خبير به ، وهو الله سبحانه وتعالى .

مجمل المعنى

١ — من آثار قدرة الله أنه يدخل وقت الليل فى وقت النهار ، فتكون بعض الجهات فى ظلام دامس ، وبعضها فى ضياء ساطع فى نفس الوقت ، كما يبدو هذا فى مصر وأمريكا مثلا ، فحين يكون الوقت ليلا فى مصر ، يكون نهاراً فى أمريكا ، وبالعكس ، وذلك بسبب كُرِيَّة الأرض ، ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، تراجع الفقرة الثانية من الصفحة ٨٨ من تفسير الجزء الثالث ، والفقرة الثالثة من الصفحة ١٠٥ من تفسير الجزء السابع عشر ؛ وهذا دليل واضح على أن القرآن صرح بما لم يكشفه العلم الحديث إلا منذ عهد قريب ، وهو كرّية الأرض ، ودورانها حول نفسها أمام الشمس ؛ ويستأنس لهذا بقوله تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً » ، وسخر الشمس والقمر ، وذللهما لمصلحة عباده ، كل منهما يجرى فى فلكه مدة دورته ، حسب حركته الخاصة ، جرياناً مستمرًّا إلى أجل قدره الله ، ثم إلى حين فناء العالم ، فينقطع جريانهما .

٢ — ذلكم الفاعل أيها الناس لهذه الأعاجيب ، هو الله ربكم العظيم الشأن ، الذى له وحده النفوذ والسلطان فى الكون ، ولا معبود سواه ؛ والذين تعبدونهم من غيره وهم الأصنام أو غيرها ، ما يملكون شيئاً مهما كان تافهاً حقيراً ، كالقشرة الرقيقة البيضاء الملتفة حول النواة ؛ إن تدعوهم ، وتستعينوا بهم عند النوائب ، لا يسمعوا دعاءكم ، لأنهم جماد ، ولو سمعوا — على سبيل الفرض — دعاءكم ما أجابوكم ، لعجزهم عن الإجابة ، ويوم القيامة يكفرون بإشراككم إياهم فى عبادة الله ، ويُقرُّون ببطلانها ، ويتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ، بأن يُقدِر الله الأصنام على الكلام ، فتقول : « ما كنتم إيانا تعبدون » ، وإذا كان المعبودون الملائكة ، فإنهم يقولون : « سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن» ؛ ولا يخبرك مخبر عن حال المشركين وأصنامهم يومَ القيامة مثل خبير عالم بخفايا الأمور ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فإنه الخبير بكنه الأمور ، الذى لا يخفى عليه شىء ، فإذا أعلمكم أيها الناس بحالكم وحال الأصنام معكم يوم القيامة ، فهو حقٌّ لا مراء فيه .

(٧)

من الآية ١٥ إلى الآية ١٨ من سورة فاطر

يا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ –١– . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ؛ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ؛ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يذهبكم	يُفنكم .
بخلق جديد	بأناس آخرين بدلكم .
بعزيز	بأمر شاق .
ولا تزر وازرة وزر أخرى	ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .
مُثقلة	نفس أثقلتها الآثام .
إلى حملها	إلى حمل بعض آثامها .
إنما تنذر	إنما يقبل إنذارك .
ومن تزكى	ومن تطهر من دنس المعاصى .

مجمل المعنى

١ — يأيها الناس ، أنتم المفتقرون إلى الله فى كل حال من أحوالكم ، فتقربوا إليه بعبادته ، ولا تشركوا به شيئاً ، وهو لا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم ، بل أنتم المحتاجون إليه ليمنحكم الصحة فى حالة المرض ، والفرج فى فى حالة الشدة ، والصبر فى حالة النوائب ، والله هو المستغنى عن خلقه ، المستحق للحمد ، لكثرة إنعامه عليكم ، فإن يشأ يـُفـْنـِكم ويأت بآخرين أطوع منكم يأتمرون بأمره ؛ وليس ذلك الإنشاء والإفناء شاقـّاً عليه ، بل هو عليه هيـّن ، فإنما أمره إذا أراد أمراً أن يقول له : كن ، فيكون .

٢ — والعدالة الإلهية تقتضى ألا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى يوم القيامة ، وإنما تحمل وزرها التى اقترفته ، وتؤخذ بجريرتها ، فلا تؤاخذ نفس بذنب نفس أخرى ، وقد بيـّنا هذا فى الفقرة الثالثة من الصفحة ٥٥ من تفسير الجزء الثامن ، وأما قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « ولـَيـَحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » ، فقد نزلت فى الضالـّين المضلين ، الذين قالوا لمن أضلوهم : « اتبعوا سبيلنا ، ولنحمل خطاياكم » ، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم ، مع أثقال ضلالهم ؛ وإن تـَدْعُ نفس مثقلة بالأوزار نفساً أخرى إلى حمل بعض أوزارها ، لا يـُحـْمـَل منه شىء ، ولو كان المدعوُّ من ذوى قرابة الداعى ، كالابن والأخ مثلا .

٣ — إنما يـَقـْبل إنذارك ويتعظ به ، الذين يخافون ربهم من غير أن يعاينوا عذابه ، المؤمنون إيماناً صادقاً بما أتيتهم به من عند الله ، البعيدون عن النفاق والمداهنة ، الذين أدوا صلاتهم حق الأداء ، وداوموا عليها ؛ ومن تطهـَّر من دنس الشرك والمعاصى ، فإنما نفع تطهيره لنفسه ، وصلاحه يعود عليه نفعه ، وإلى الله وحده المرجع يوم القيامة ، فيجازى كلاًّ على عمله .

(٨)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٦ من سورة فاطر

وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ -١- . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ -٢- . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ ، وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ -٣- . ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الأعمى والبصير	الأعمى عن دين الله ، والبصير الذى أبصر الرشد فاهتدى
ولا الظلمات ولا النور	ولا الباطل والحق
ولا الظل ولا الحرور	ولا الجنة والنار

الألفاظ	شرحها
وما يستوى الأحياء ولا الأموات	وما يستوى المؤمنون والكافرون .
إن الله يسمع من يشاء	إن الله يسمع من أراد هدايته صوت الحق فيهتدى.
وما أنت بمسمع من فى القبور	ما أنت بمسمع المصرين على الكفر ، الذين يشبهون الموتى فى القبور .
إن أنت إلا نذير	وما أنت إلا منذر .
وإنْ من أمة	وما أهل عصر من العصور الماضية .
إلا خلا فيها نذير	إلا كان فيها من ينذرها .
وإن يكذبوك	وإن يكذبك مشركو مكة .
بالبينات	بالمعجزات الدالة على نبوتهم .
وبالزبُر	وبالصحف المكتوبة كصحف إبراهيم .
وبالكتاب المنير	وبالكتب الواضحة ، كالتوراة والإنجيل .
أخذت الذين كفروا	عاقبت الذين كفروا .
فكيف كان نكير	فكيف كانت عاقبة إنكارى عليهم ؟

مجمل المعنى

١ — وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى بعثك الله به ، والبصير الذى أبصر الرشد فاتبعك وصدقك ، ولا يستوى الضلال والهدى ؛ وذكرت الظلمات جمعاً ، والنور مفرداً ، لأن الباطل طرقه متعددة ، والحق واحد لا تعدد فيه . ولا تستوى الجنة ذات الظل الدائم ، والنار ذات الحرارة اللاذعة ، وما يستوى المؤمنون الذين اهتدوا وآمنوا بالله ورسوله ، والكافرون الذين أصروا

على الكفر استكباراً ؛ إن الله يوفق من يشاء إلى الاستماع إلى الداعى إلى الإيمان فيؤمن ، وما أنت يا محمد بمسمع المصرّين على الكفر ، الذين أمات الله قلوبهم ، وختم على سمعهم ، فصاروا يُشبهون الموتى فى قبورهم ، فكما أنك لا تُسمع من مات ، كذلك لا تُسمع من أصمه الله عن سماع صوت الحق ، وما عليك إلا الإنذار ، أما إسماع هؤلاء فليس من وظائفك ، ولا سبيل لك إليه ، ولا حيلة لك فيه ، فقبولهم منك ماجئتهم به ، بيد الله لا بيدك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

٢ — إنا أرسلناك بالدين الحق ، مبشراً المؤمنين بالجنة ، ومنذراً الكافرين النار ، ولست مبشراً أو منذراً من تلقاء نفسك ، وإنما بأمر من الله جلّ شأنه ، وليس ثمة أهل عصر قبل عصرك ، إلا مضى فيهم نذير من نبى أو عالم ، فلم تخل أمة من أحدهما يخوفهم عاقبة كفرهم ، وعذاب الله الذى يقع بهم ، إن تمادوا فى عصيانهم .

٣ — وإن يكذبك قومك — فقد كذب الذين من قبلهم ، جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة ، والشرائع الواضحة ، الدالة على نبوتهم ، والصحف المنزلة عليهم ، كصحف إبراهيم ، والكتب المنيرة الواضحة ، كالتوراة والإنجيل ، فكذبوهم ، فاصبر كما صبروا .

٤ — ثم عاقبت الذين كفروا بتكذيبهم ، فانظر كيف كانت عاقبة إنكارى عليهم ، وحلول عقابى بهم ، وإهلاكهم وتدمير منازلهم ؟

(٩)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٣١ من سورة فاطر

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ؟ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ؟ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ —١— . إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ —٢— . إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن الجبال جُدَد	ومن الجبال ما هو ذو طرائق وطبقات .
مختلف ألوانها	مختلف ألوانها قوة وضعفاً .
وغرابيب سود	ومن الجبال ما هو صخور شديدة السواد .
يخشى	يخاف ويعظم .
يرجون تجارة لن تبور	يرجون بطاعة الله تجارة لن تكسد .

مجمل المعنى

١ — انظر إلى آثار قدرتنا يا محمد ، تر أننا أنزلنا من السماء ماء ، فسقينا به أشجاراً ، وأخرجنا من هذه الأشجار ثمرات مختلفاً ألوانها وأجناسها ، وأصنافها وهيئاتها ، وخلقنا من الجبال ما هو ذو طرائق وطبقات مختلفة الألوان ، من أبيض وأحمر ، والألوان نفسها تختلف قوة وضعفاً ، فقد يكون اللون الأبيض ناصع البياض ، أو ضارباً إلى البياض ، وكذلك اللون الأحمر ؛ وبعض الجبال أسود حالك السواد ؛ ولم يُذكر فى الأسود من الجبال أنها مختلفة الألوان، لأن الأسود الغربيب بلغ غاية السواد، فهو لا يختلف قوة وضعفاً — وخلقنا من الناس والدوابّ والأنعام من هو مختلف ألوانه كاختلاف ألوان الثمار والجبال ، فمنهم الأبيض والأحمر والأسود وغير ذلك ، مع اختلاف هذه الألوان قوة وضعفاً أيضاً .

٢ — إنما يخشى الله من عباده العلماء العارفون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الحميدة ، فمن كان أعلم به ، كان أشد خوفاً منه ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « إنى أخشاكم لله وأتقاكم » ، وقال أيضاً : « أعلمكم بالله أشدكم له خشية » ، بخلاف الجهال من أهل مكة، فإنهم إن كانوا لا يخشون الله فلجهلهم مقداره ، إن الله عزيز فى ملكه ، يعاقب المصر على طغيانه ، غفور لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

٣ — ان الذين يقرءون القرآن ، ويداومون على قراءته ، ويعملون بما فيه ، وأدوا الصلاة حق أدائها ، وداوموا على أدائها ، وأنفقوا مما رزقناهم فى السرّ

والعلن ، لا ليشتهروا بالكرم والسخاء ، ولكنهم يطلبون بإنفاقهم طاعة الله ،
هؤلاء لن تكسد ولن تبور معاملتهم مع الله أبداً ، ولكنها تروج عنده
رواجاً عظيماً ، وهي ليست كغيرها من التجارات عُرضة للكساد والخسارة ،
فهو الذى يوفيهم ثواب أعمالهم ، ويزيدهم من فضله ورحمته ، ويغفر لهم
ما فرط منهم من زلات ، ويشكر لهم طاعتهم ، بإجزال الثواب عليها .

(١٠)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٣٥ من سورة فاطر

وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ -١- . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ -٢- . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ، وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من الكتاب	من القرآن .
مصدقاً لما بين يديه	مصدقاً لما تقدمه من الكتب .

الألفاظ	شرحها
أورثنا الكتاب	قضينا بأن يرث القرآن .
الذين اصطفينا من عبادنا	أمة محمد الذين فضلناهم على سائر الأمم .
فمنهم ظالم لنفسه	فمنهم مقصر فى العمل بما فى القرآن .
ومنهم مقتصد	ومنهم من يقرن العمل الصالح بالسيئ .
ومنهم سابق بالخيرات	ومنهم من رجحت حسناته بعمل الخيرات ، فكفرت سيئاته .
ذلك هو الفضل الكبير	ذلك التوريث هو الفضل الكبير على أمة محمد .
جنات عدن يدخلونها	هم جميعاً لهم جنات إقامة يدخلونها .
من أساور من ذهب	بعض أساور ذهبية ، وهى جمع أسورة ، وهذه جمع سوار .
ولؤلؤاً	ويحلَّون لؤلؤاً .
دار المقامة	الإقامة الدائمة .
نَصَب	تعب ومشقة .
لغوب	إعياء وكلال .

مجمل المعنى

١ — والذى أوحينا إليك من القرآن هو الحق الذى لا مراء فيه ، مصدّقاً لما تقدمه من الكتب السماوية ؛ إن الله لعالم ببواطن عباده وظواهرهم ، وقد وجدك أهلا لأن يوحى إليك هذا القرآن المعجز فاصطفاك .

٢ — ثم قضينا بأن يرث القرآنَ بعدك أمتك التى فضلناها على سائر الأمم ، وأن

يعلموا أحكامه وعقائده من غير كد ولا تعب فى طلبه ، فمن عبادنا من أمتك :

(ا) مَن هو ظالم مقصر فى العمل بما فى القرآن ، قد ظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله يوم القيامة ، وهو ممن يحبسون طوال يوم المحشر ، ويقرَّعون ويوبخون ، حتى يظنوا أنهم سَيلقون العذاب الأليم ، ثم يشملهم الله برحمته فيدخلون الجنة .

(ب) ومَن يعمل فى غالب الأوقات ، ويقصر فى بعضها ، فيخلط العمل الصالح بالعمل السيئ ، وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً ، ثم يدخلون الجنة ؛

(ح) ومَن هو سابق فى عمل الخيرات ، مجتهد فيها بعون الله وتوفيقه ، ترجح حسناتهم على سيئاتهم فتكفرها ، ويُخلصون فى العمل لوجه الله ، وهؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب .

وهذا المعنى يطابق ما تقدم فى سورة التوبة ، فى قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . » ، إلى قوله : « ذلك الفوز العظيم » ، وقوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » ، وقوله : « وآخرون مُرجون لأمر الله . . . » ، (تراجع الصفحات من ٤ — ١٤ من تفسير الجزء الحادى عشر) ؛ ذلك التوريث للقرآن الذى اختصصنا به أمتك يا محمد ، هو الفضل الكبير من المولى جل وعلا ؛ روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال على المنبر بعد أن قرأ هذه الآية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » .

٣ — هؤلاء جميعاً ، لهم جنات إقامة يدخلونها ، يحلَّوْن فيها بعض أساور من ذهب ،

ويحلَّون فيها لؤلؤاً، ولباسهم فيها حرير ، فيستمتعون بما حُرموه فى الدنيا ؛ يقولون فى فرح وابتهاج : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن مما كنا نخشاه من خوف سوء العاقبة ، إن ربنا لغفور للذنوب وإن كثرت ، شكور للمطيعين ، وهو الذى أحلنا دار الإقامة من إنعامه وفضله ، وعطائه وكرمه ، لا نبرحها ولا نفارقها ، ولا يمسنا فيها تعب ، ولا يمسنا فيها كلال ولا إعياء .

(١١)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٩ من سورة فاطر

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ، لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ -١- . وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا : رَبَّنَا ، أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا ، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ -٢- . إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ -٣- . هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يصطرخون فيها	يصرخون بصوت عال .
أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر	أو لم نمنحكم عمراً كافياً يتفكر فيه من له مسكة من العقل .

الألفاظ	شرحها
النذير	الرسول مؤيَّداً بالقرآن .
عالم غيب السموات والأرض	لا تخفى عليه خافية فى السموات والأرض .
عليم بذات الصدور	عليم بما تكنه الصدور .
خلائف فى الأرض	يخلف بعضكم بعضاً فى الأرض .
مقتاً	بُغضاً وغضباً .
خساراً	خسارة الآخرة .

مجمل المعنى

١ — بعد أن ذكر الله الأصناف الثلاثة من المؤمنين وأحوالهم ، عقبه بذكر أحوال الكفار يوم القيامة ، فبيَّن أن الذين كفروا لهم نار جهنم يصلونها أبداً ، لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا ، ولا يخفف عنهم عذابها طرفة عين ، فكلما خبت النار ازدادت سعيراً ، وكلما نضجت جلودُ الكفار بدلنا هم جلوداً غيرها ؛ بمثل هذا الجزاء الفظيع نجزى كل كفور بالله ورسوله .

٢ — وهم يستغيثون فى النار ، ويصرخون بصوت عال ، قائلين : ربنا ، أخرجنا من النار ، ورُدنا إلى الدنيا ، نعمل عملا صالحاً غير الذى كنا نعمله ؛ فنؤمن ولا نكفر ، ونطيع ولا نعصى ، ونمتثل أمر الرسل ، فيقال لهم : أو لم نمهلكم ، ونمنحكم من العمر وقتاً كافياً ، تتمكنون فيه من التفكير فى أمر مصيركم ، وفى المعجزات الدالة على صدق من أرسلوا إليكم ،

وجاءكم الرسل فأنذروكم فما أجبتم دعوتهم ، وأصررتم على الكفر ، فذوقوا عذاب جهنم ، فما للكافرين من نصير يدفع العذاب عنهم .

٣ — إن الله جل شأنه لا تخفى عليه خافية ، فهو يعلم كل ما غاب عنكم علمه فى السموات والأرض ، ولا تخفى عليه أحوال الكفار ، ويعلم أنه لو ردهم إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ؛ إنه عليم بما تكنه القلوب ، فعلمه بغيره أوْلى .

٤ — هو الذى جعلكم أيها الكفار خلفاء فى الأرض ، َخلفتم فيها من قبلكم ، وعرفتم مصير من سبقوكم ، وأباح لكم الاستمتاع بمنافعها ، فطغيتم واستكبرتم ، وجحدتم نعمه ، وغمطتم حق مُسديها ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً وَغضباً واحتقاراً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارة الآخرة ، فأية خسارة تعدل هذه الخسارة ؟

(١٢)

من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٣ من سورة فاطر

قُلْ : أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، أَرُونِي : مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ ، إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً –١– . إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً –٢– . وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ، اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أرأيتم	أخبرونى .
تدعون	تعبدون .
شرك فى السموات	مشاركة فى خلق السموات .
أم آتيناهم كتاباً	أم أنزلنا على المشركين كتاباً نوافق فيه على إشراك عبادة الأوثان لنا .
فهم على بينة منه	فهم على برهان وحجة مما أمرتهم به من الإشراك .
غروراً	خداعاً .
يمسك السموات والأرض أن تزولا	يحفظ السموات والأرض من الزوال والاختلال .
إن أمسكهما من أحد من بعده	ما أمسكهما وما حفظهما أحد سوى الله .
وأقسموا بالله جهد أيمانهم	أقسم أهل مكة بالله ما وسعهم غاية جهدهم .
من إحدى الأمم	من اليهود أو النصارى .
فلما جاءهم نذير	فلما جاءهم رسول منهم .
ومكر السيئ	ومكروا المكر السيئ .
يحيق	ينزل ويحل .
ينظرون	ينتظرون .
إلاسنة الأولين	إلاسنة مَن سبقوهم ممن كذبوا رسلهم .
تبديلا	أن يستبدل بمن يستحق العذاب غيره .
تحويلا	تحويل العذاب إلى غير من يستحقه .

مجمل المعنى

١ — أخبرونى يأهل مكة عن هؤلاء الأصنام الذين تزعمون أنهم شركاء لله فى العبادة ، بأى حق استحقوا أن تعبدوهم ؟ أرونى أي جزء من الأرض انفردوا بخلقه ، وبرهِنوا على أن لهم مشاركة فى خلق السموات ، فإذا ثبت عجزهم ، فكيف تعبدونهم ؟ فهل تعبدونهم لأننا أنزلنا كتاباً من عندنا أمرناكم فيه بأن تشركوهم فى عبادتنا ، فأنتم على حجة وبرهان من عبادتها ؟ لا شىء من ذلك ألبتة ، بل الحقيقة أنه ما حملكم على عبادتها ، واتخاذها أنداداً لله ، إلا وعد الرؤساء للأتباع أنهم يشفعون لهم عند اللهِ ، وتغريرهم بهم ، وهو وعد باطل ، وخداع ماكر .

٢ — إن آلهتكم أعجز من أن تخلق شيئاً من السموات والأرض ، وإن خالقهما وممسكهما من الزوال والانهيار هو الله وحده بقدرته وحكمته ؛ ولئن زالتا وانهارتا — على سبيل الفرض — ما أمسكهما أحد سواه ، إنه كان حليما فى تأخير عقاب الكفار ، ولولا حلمه لهوت السماء فصعقتهم ، وانشقت الأرض فابتلعتهم ، وخرت الجبال هدًّا فدمرتهم ، وكان الله غفوراً لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

٣ — وبلغ كفارَ مكة — وكانوا أهل رحلة وتجارة — أن طوائف من اليهود والنصارى يكذبُ بعضهم بعضاً ، فقالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء ، فقالوا — قبل مبعث محمد — لعن الله اليهود والنصارى ، وأقسموا بالله ما وسعهم الجهد فى أيمانهم : لئن أتانا رسول كما أتاهم ، لنكونن أهدى من أى واحدة منهما ، فنؤمن جميعاً ، ولا يكذب بعضنا بعضاً ، فلما جاءهم رسول الله منهم ، وهو محمد

صلى الله عليه وسلم ما زادهم مجيئه إلا تباعدا عنه ، ونفوراً منه ، استكباراً عن الإيمان فى الأرض ، ومكروا المكر السيئ بالرسول الذى دعاهم إلى الإيمان ، وكادوا له ، ولا تنزل عاقبة المكر السيئ إلا بأهله ، فمن حفر حفرة لأخيه وقع فيها ، ونظير هذا قوله تعالى : « يأيها الناس ، إنما بغيكم على أنفسكم » ، وقد حاق بالكفار مكرهم يوم بدر — فهل ينتظرون بتكذيبك يا محمد إلا سنة الأولين السابقين فيهم ، بأن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن قبلهم ؟ سننتقم لك منهم ؛ فلن تجد لسنة الله تبديلا بأن يستبدل الله بالعذاب غيره ، ولن تجد لسنة الله تحريلا ، بأن يحوّل العذاب إلى غير مستحقه .

(١٣)

من الآية ٤٤ من سورة فاطر ، إلى آخر السورة

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا —١— .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
دابّة	حيّ يدب على الأرض
إلى أجل مسمى	إلى وقت محدد قدّره الله فى اللوح المحفوظ ، وهو يوم القيامة

مجمل المعنى

١ — أوَ لم يسر كفار مكة إلى الشام واليمن والعراق ، فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ، ويطلعوا على ما حلّ بمن كذبوا رسلهم ، ويسرحوا فيه أبصارهم ، ويعرفوا كيف أنّا أهلكناهم ودمرنا مساكنهم ، « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » — وقد كانوا أشد منهم قوة وبطشاً ، فما نفعتهم قوتهم ولا بطشهم — فيتعظوا وينزجروا ، وما كان الله ليعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، إذا أراد عذاب قوم ، فتهن قوتهم أمام بطشه وجبروته ، إنه كان عليماً لا يخفى عليه شيء ، قديراً على كل شيء .

٢ — ولو يؤاخذ الله الناس بما اقترفوا من المعاصى ، ما ترك على ظهر الأرض حيًّا يدب عليها ، ولكنه يؤخر حسابهم إلى وقت مضروب معلوم ، مُثبت فى اللوح المحفوظ ، وهو يوم القيامة ، فإذا جاء وقت حسابهم ، فإن الله كان بعباده بصيراً ، فيجازيهم على أعمالهم ؛ بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين .

سُورَةُ يس

زلت بمكة ، إلا الآية ٤٥ فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٨٢ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثانية عشرة

يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ —١— . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ، فَهُمْ غَافِلُونَ —٢— . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ —٣— . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ ، فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ —٤— . وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ، لَا يُؤْمِنُونَ ، إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ —٥— . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يس	اسم من أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم .
صراط مستقيم	طريق لا اعوجاج فيه ، وهو طريق التوحيد والاستقامة والهدى .
تنزيل العزيز الرحيم	نزّله الغالب فى ملكه ، الرحيم بخلقه ، تنزيلا على محمد .
ما أنذر آباؤهم	لم ينذر آباؤهم مدة الفترة بين عيسى ومحمد .
فهم غافلون	فالقوم غافلون عن الإيمان والتوحيد .
حقّ القول على أكثرهم	حق قولى ووجب على أكثرهم بالعذاب الأليم .
أغلالا	جمع غُل ؛ وهو ما أحاط بالعنق ، ويسمى جامعة .
فهى إلى الأذقان	فالأيدى منضمّة إلى الأذقان .
مقمحون	رافعون رءوسهم ، لا يستطيعون خفضها .
من بين أيديهم	من أمامهم .
فأغشيناهم	فغطينا أبصارهم حتى صاروا كالعميان .
إنما تنذر	إنما ينفع إنذارك .
من اتبع الذكر	من اتبع القرآن .
وخشى الرحمن بالغيب	وخشى الله مع أنه لا يراه .
وآثارهم	وأعمالهم من حسنة وسيئة .
فى إمام مبين	فى كتاب مبين ، وهو اللوح المحفوظ .

مجمل المعنى

١ — يا يس ، يأيها الرسول الكريم ، يا سيد البشر أجمعين ؛ والقرآن المحكم ، ذى الحكمة البالغة ، المشتمل على عجيب النظم وبلاغة الأسلوب ، إنك

لمن المرسلين إلى من أرسلت إليهم ، على طريقة مستقيمة لا اعوجاج فيها ، وهى التوحيد والهدى والرشاد ، فلا تعبأ بقول الكفار : « لست مرسلا » .

٢ — أنزَل القرآن عليك العزيز فى ملكه ، الرحيم بخلقه ، تنزيلا من عنده ، لتنذر به قوماً ، ما أتى آباءهم الأقربين قبلك نذير ، فى مدة الفترة التى بين عيسى ومحمد ، وهى زهاء ستمائة سنة ، فبقوا غافلين عن الإيمان والهدى ، لعدم إرسال رسول إليهم .

٣ — لقد حق ووجب قولى : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » على أكثر قومك ، فهم لا يؤمنون ، لأنى قدرت عليهم — لفساد فطرتهم ، وسوء استعدادهم — أنهم يَموتون على الكفر ، فليس ثمة سبيل إلى ارعوائهم .

٤ — وحدث أن أبا جهل حلف : لئن رأى محمدا يُصلى ، ليرضخنّ : (يكسرن) رأسه بحجر ، فلما رآه يصلى ، ذهب فرفع حجراً ليرميه به ، فلما رفع يده بالحجر انثنت إلى عنقه ، ولزقَ الحجر بيده ، حتى فكّه منها أصحابه بجهد ، فقال رجل ثان من الكفار : أنا أقتله بهذا الحجر ، فأتى رسول الله وهو على حالته يصلى ليرميه بالحجر ، فأعمى الله بصره عنه ، فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه ، فلم يرهم حتى نادَوه ، فقال : والله ما رأيته ، ولقد سمعت صوته ، فقال ثالث : والله لأشدخن : (اكسرن) أنا رأسه ، ثم أخذ الحجر ، وانطلق به نحو رسول الله ، فإذا به يرجع القهقرى ، ينكص على عقبيه ، حتى خرّ على قفاه مغشيًّا عليه ، فقيل له : ما شأنك ؟ فقال : شأنى عظيم ، دَنوت من محمد ، فإذا فَحل يخطر بذنبه ، ما رأيت فحلاً قط أعظم منه ، حال بينى وبينه ، فواللات والعزّى ، لو دنوت من محمد لأكلنى ، فنزل قوله تعالى : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً . . . . » ، إلى قوله : « فهم لا يبصرون » ، والمعنى : أن مثل هؤلاء الكفار فى امتناعهم عن قبول

الإيمان ، ومحاولتهم إيذاء الرسول ، كمثل من وضعنا فى أعناقهم أغلالاً ، ضمت أيديهم إلى أذقانهم ، لأن الأغلال إذا كانت فى الأعناق تكون أيدى المغلولين منضمة إليها ، ولذا تسمى : الجامعة ، فهم يظلون رافعين رءوسهم ، لا يستطيعون خفضها — فإن من غُلت يده إلى ذقنه ، ارتفع رأسه — غاضين أبصارهم لا يستطيعون فتحها ، لأنهم كانوا لا يعطفون أعناقهم نحو الحق ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يطأطئون له رءوسهم ، ويشمخون بها تكبراً — ومثل من أحاط بهم سدان فغطيا أبصارهم ، بحيث لا يبصرون شيئاً أمامهم ولا خلفهم ، لتكبرهم وعنادهم ، فلم يروا الآيات والدلائل التى تنير لهم طريق الهدى والرشاد ، وعموا عن النظر فى آثار قدرة الله ، لإصرارهم على الكفر وتماديهم فى الضلال .

٥ — ومن أضلهم الله هذا الإضلال ، لا ينفعهم الإنذار ولا الوعيد ، فإنذارك يا محمد إياهم وعدم إنذارك سواء ، فهم لا يؤمنون ، لأن الله قضى أن يظلوا على ضلالهم حتى يموتوا ، والإنذار إنما ينفع من اتبع القرآن ، وتأمل فيه ، وعمل به ، وخاف الرحمن وهو لم يره ، قبل أن يحل به عقاب الآخرة ، ويعاين أهوالها ، أو خشى الرحمن وهو غائب عن أعين الناس لا يراه أحد ؛ فمن كان كذلك ، فبشره بمغفرة واسعة لذنوبه ، وأجر كريم فى الآخرة ، وهو الجنة ، وذكر الرحمن هنا للإشعار بأن الله مع كونه ذا رحمة ، لا يؤمَن عذابه .

٦ — إنا نحن نحيي الموتى للبعث والحساب من المصرين على الكفر ، والمنتفعين بالإنذار ، ونكتب ما قدمه جميع الخلق فى صحائف أعمالهم من خير أو شر ، ليجازوا عليه ، وآثارهم إن كانت حسنة أو سيئة ، وكل شىء من أعمالهم أحصيناه فى كتاب بَيّن ، وهو اللوح المحفوظ .

(٢)

من الآية ١٣ إلى الآية ١٩ من سورة يس

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ، إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ، قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ، قَالُوا : رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ –١– ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ، قَالُوا: إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
القرية	أنطاكية .
المرسلون	رسل عيسى عليه السلام من الحواريين .
فعززنا بثالث	فقويناهم برسول ثالث .
إن أنتم إلا تكذبون	ما أنتم إلا كاذبون فى دعوى الرسالة .

الألفاظ	شرحها
البلاغ المبين	التبليغ المبين للحق ، المؤيد بالأدلة الواضحة .
تطيرنا بكم	تشاءمنا بكم ، لانحباس المطر عنا .
لنرجمنكم	لنقتلكم رجماً بالحجارة .
طائركم معكم	شؤمكم لاصق بكم بسبب كفركم .
أئن ذُكرتم	أئن وُعظتم تشاءمتم ؟
مسرفون	متجاوزون الحد فى العصيان .

قصة أهل أنطاكِيَة

ا — أنطاكية مدينة عظيمة فى الشمال الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ، وكانت تابعة للروم ، وبها قبر حبيب النجار الذى سيأتى ذكرُه ، وهى الآن حاضرة اسكندرونة ، التابعة لتركيا ، وكانت تابعة لسوريا .

ب — كان أهلها أيام عيسى عليه السلام يعبدون الأصنام ، فأرسل إليهم اثنين من الحواريين يبلغانهم شريعته ، فطلب الرسولان من أهلها عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، فلما قرب الرسولان من أنطاكية ، رأيا حبيباً النجار يرعى غُنيمات ، فسألهما عن حالهما ، فأخبراه أنهما مرسلان إلى قومه ، فقال لهما : أمعكما آية ؟ قالا : نعم نشفى المريض ، ونبرئ الأكمه : (مَن ولد أعمى) ، والأبرص ، وكان له ولد مريض مَضى على مرضه سنتان ، فمرا بأيديهما عليه ، فُشفى من مرضه ، فآمن حبيب بهما ، وذاع فى المدينة خبرهما ، وشفى على أيديهما خلق كثير — وليس

عجيباً أن ينزلهما الله منزلة من أرسلهما وهو عيسى عليه السلام — وبلغ الملك خبرهما ، فأحضرهما ، وسألهما : ألنا إله غير آلهتنا ؟ قالا : نعم ، هو من أوجدك وآلهتك ، فأمر الملك بجلدهما وحبسهما ، ثم بعث عيسى شمعون رأس الحواريين — وكان فَطناً ذكيًّا — فدخل المدينة متنكراً ، واختلط بحاشية الملك حتى استأنسوا به ، وأوصلوه إلى الملك ، فأنس به ، وصار من خاصته ، فقال له شمعون يوماً : بلغنى أنك حبست رجلين ، فهل سمعت ما يقولانه ؟ قال : حال غضبى عليهما دون مناقشتهما ، فطلب من الملك استدعاءهما ، وقال لهما بحضرة الملك : إلى مَن تدعوان ؟ قالا : إلى الله الواحد الأحد ، الذى خلق كل شىء ، ولا شريك له فى ملكه ؛ قال شمعون : صِفاهُ وأوجزا ، قالا : إنه يفعل ما يشاء ، وما يريد ، قال : وما آيتكما ؟ قالا : ما يتمنى الملك ، فدعا بغلام أكمه ، فمسحا على عينيه ، فانشق له بصره ، فقال شمعون للملك : أرأيت لو سألت آلهتك تصنع مثل هذا ؟ فقال الملك : ليس لى عنك سرّ ، آلهتنا لا تبصر ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، ثم قال للرسولين : إن قدرتما على إحياء ميت آمنت بكما ، فدعا بغلام مات منذ سبعة أيام ، فدعوا الله فقام ، فآمن الملك وحاشيته ، ويظهر أن إيمانهم كان سراً — كما فى تفسير أبى السعود — على خوف من قومه الذين حدثت بينهم وبين الرسل المحاورة التى سيأتى ذكرها .

مجمل المعنى

اضرب يا محمد للكفار مثلا بأهل أنطاكية ، لعلهم يتعظون ، إذ جاءهم رسل عيسى عليه السلام من الحواريين بأمر من الله ، وبمعجزات ، عيسى ، ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام ، وبدأنا بإرسال اثنين فبلغاهم رسالتهما ، فكذبوهما ، فقويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ، وهو شمعون رئيس الحواريين ، فدارت بينهم وبين أهل أنطاكية المحاورة الآتية :

قال الرسل لهم : إنا إليكم مرسلون لتعبدوا الله وحده ، وتتركوا عبادة الأصنام .

أهل أنطاكية : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، تأكلون الطعام وتمشون فى الأسواق ، ولا مزية لكم علينا ، تقتضى اختصاصكم بالرسالة دوننا ، وما أنزل الرحمن عليكم وحياً ، ولا أمركم فى شأننا بشىء ، إن أنتم إلا كاذبون فى ادعاء الرسالة إلينا .

الرسل : لم يسأموا ولم يملوا ، بل كرروا قولهم مؤكَّدا ، فقالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون — وهو كلام يجرى مجرى القسم ، كقولك : يشهد الله أنى فعلت ، ويعلم الله أنى قلت — وما علينا إلا التبليغ المبين للحق ، المؤيد بالأدلة الباهرة ، كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الميت ، وقد بلَّغنا ، فأى شىء تطلبون منا أكثر من هذا لتصدقونا ؟

أهل أنطاكية : إنا تشاءمنا بكم ، لانقطاع المطر عنا بسببكم ، لئن لم ترجعوا عن ادعائكم لنقتلنكم رجماً بالحجارة ، وليصيبنكم منا عذاب مؤلم إذا لم نقتلكم .

الرسل : سبب شؤمكم معكم ، ملازم لكم لا من قبَلنا ، لسوء عقيدتكم

وإصراركم على الكفر ، فنحن ندعو إلى التوحيد ، وفيه غاية اليمن والخير والبركة ، أئن وعظتم ودعيتم إلى الإيمان بالله وحده ، تتوعدونا بالرجم والتعذيب ؟ بل أنتم قوم متجاوزون الحدّ فى الآثام ، بشرككم وعصيانكم ، فمن ثَـم أتاكم الشؤم من قبَلكم لا من قبلنا .

والغرض من هذا المثل تسلية محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد تمرد الكفار على ثلاثة من الرسل ، وهو واحد أمام قوم عتاة مستكبرين ، ليكون له ، بهم أسوة .

(٣)

من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٧ من سورة يس

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ : اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ —١— . وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ . أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ؟ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ، وَلَا يُنْقِذُونِ . إِنِّي إِذَنْ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ —٢— . قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وجاء رجل من أقصى المدينة	وجاء حبيب النجار من أبعد مكان فى المدينة
يسعى	يشتد عدوه
فطرنى	أنشأنى وخلقنى
فاسمعون	فاشهدوا أنى آمنت بكم

مجمل المعنى

١ — وجاء حبيب النجار — وكان قد آمن كما تقدم ، بعد أن شفى الرسولان ابنه من مرضه — جاء يعدو من منزله الذى بأقصى المدينة ، ويسرع فى مشيه ، لما سمع بتكذيب قومه للرسل ، قال : يا قومى ، اتبعوا المرسلين إليكم ، الداعين إلى عبادة الله وحده ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً على رسالته ، ويمحضكم النصح ، وهؤلاء الرسل مهتدون إلى خير الدارين ، عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فاتبعوهم واهتدوا بهديهم .

٢ — فقال له أهل أنطاكية : أوَ أنت على دين هؤلاء ؟ فأجابهم : وأى مانع عندى من عبادة الله الذى خلقنى ، وإليه تُرجعون بعد الموت يوم القيامة للحساب ، فيجازيكم على أعمالكم ؟ فكيف لا تشاركوننى فى عبادته ؟ وكيف أتخذ غيره من الأصنام إلٰهها ؟ إن ربى وخالقى ذا الرحمة الواسعة ، إن مسنى بضرأو شدة ، لاتغن عنى شفاعة هذه الأصنام شيئاً ، ولاينقذوننى فى دفع الضر عنى ، ولا يخلصوننى مما أتعرض له من مكروه ؛ إنى إن عبدت غير الله ، وآثرت ما لاينفع ولا يدفع ضرراً ، على الخالق القادر على النفع والضر ، أكن فى ضلال بيّن ، ثم أسرع إلى الرسل ، فقال لهم : إنى آمنت بربكم ، فاسمعوا إيمانى ، لتشهدوا لى به .

٣ — لكن قومه أصروا على كفرهم ، ورجموه بالحجارة فقتلوه وهو يقول : اللهم اهد قومى ، فقيل له عند موته : قد وجبت لك الجنة فادخلها ، فقال : ليت قومى يعلمون بغفران ربى لى ، وإكرامى بدخول الجنة ، فيقلعوا عن كفرهم ، تمنى لو يعلمون بحاله ، ليعلموا حسن مآله ، فيصلوا إلى ما وصل إليه بالإيمان ، ونبذ الشرك والعصيان .

فهرس الجزء الثانى والعشرون من تفسير القرآن الكريم

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
٧	سبأ	من ٢٢ — ٢٧	من ٧١ — ٧٤
٨	»	» ٢٨ — ٣٠	» ٧٥ — ٧٦
٩	»	» ٣١ — ٣٣	» ٧٧ — ٨٠
١٠	»	» ٣٤ — ٣٩	» ٨١ — ٨٤
١١	»	» ٤٠ — ٤٢	» ٨٥ — ٨٦
١٢	»	» ٤٣ — ٤٥	» ٨٧ — ٨٨
١٣	»	» ٤٦ — ٥٠	» ٨٩ — ٩١
١٤	»	» ٥١ إلى آخر السورة	» ٩٢ — ٩٤
١	فاطر	» ١ — ٢	» ٩٥ — ٩٧
٢	»	» ٣ — ٧	» ٩٨ — ١٠٠
٣	»	» ٨ — ٩	» ١٠١ — ١٠٢
٤	»	» ١٠ — ١١	» ١٠٣ — ١٠٥
٥	»	١٢	» ١٠٦ — ١٠٧
٦	»	» ١٣ — ١٤	» ١٠٨ — ١١٠
٧	»	» ١٥ — ١٨	» ١١١ — ١١٢
٨	»	» ١٩ — ٢٦	» ١١٣ — ١١٥
٩	»	» ٢٧ — ٣١	» ١١٦ — ١١٨
١٠	»	» ٣٢ — ٣٥	» ١١٩ — ١٢٢
١١	»	» ٣٦ — ٣٩	» ١٢٣ — ١٢٥
١٢	»	» ٤٠ — ٤٣	» ١٢٦ — ١٢٩
١٣	»	» ٤٤ إلى آخر السورة	» ١٣٠ — ١٣١
١	يس	» ١ — ١٢	» ١٣٢ — ١٣٥
٢	»	» ١٣ — ١٩	» ١٣٦ — ١٤٠
٣	»	» ٢٠ — ٢٧	» ١٤١ — ١٤٢

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث والعشرون

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥ من سورة يس

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ –١– . يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ –٢– أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ؟ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ –٣– . وَآيَةٌ لَهُمُ : الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ، أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قومه	قوم حبيب النجار ، الذى جاء من أقصى المدينة
من جند من السماء	ملائكة لإهلاكهم .
وما كنا منزلين	وما كانوا يستحقون أن ننزل عليهم ملائكة .
إن كانت إلا صيحة واحدة	ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة .
خامدون	هامدون ميتون ساكنون .
يا حسرة على العباد	وا أسفاه على هؤلاء الناس ، وما أشد ندامتهم !
ألم يَروْا	ألم يعلم أهل مكة .
من القرون	من الأمم السابقة .
أنهم إليهم لا يرجعون	أن المكذبين المهلكين قد قُطع دابرهم .
وإن كلٌّ	ما كلّ هؤلاء المكذبين المهلكين .
لما جميع لدينا محضرون	إلا مجموعون محضرون لدينا يوم القيامة للحساب والجزاء .
وآية لهم	ودليل لهم على البعث .
الأرض الميتة	الأرض المجدبة التى لا نبات بها .
أحييناها	جعلناها صالحة للإنبات .
فجّرنا	شققنا وفتحنا .
وما عملته أيديهم	ويأكلوا مما عملته أيديهم ، كالعصير والمربّيات .

مجمل المعنى

١ — وما أنزلنا على قوم حبيب النجار الذى تقدم ذكره فى الصفحتين ١٣٧ ، ١٤٢ من تفسير الجزء الثانى والعشرين بعد موته ، ملائكة لإهلاك قومه ، كما أرسلنا الملائكة يوم وقعة بدر ، ويوم وقعة الأحزاب ، بل أبدناهم على أسهل وجه ، أبدناهم بصيحة ، لأنهم لا يستحقون أن ننزل إليهم ملائكة ، استهانة بأمرهم ، وتحقيراً لشأنهم ؛ ونزول الملائكة إنما يكون لعظائم الأمور ، كالانتصار لك من قومك ، فلم تكن عقوبة قوم حبيب النجار إلا صيحة واحدة ، فإذا هم ميتون ساكنون لا يتحركون ؛ والمراد بالصيحة : الصاعقة ، كما حدث لثمود قوم صالح عليه السلام ، قال تعالى فى سورة هود : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » ، (تراجع الصفحة ٤٨ ، والفقرة السابعة من الصفحة ٥٢ ، من تفسير الجزء الثانى عشر) ، وقال فى سورة فصلت : « وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب » ، وسيأتى هذا فى تفسير الجزء الرابع والعشرين .

٢ — وا أسفاه على العباد المعاندين الذين يكذبون الرسل ! وما أشد ندامتهم حين يلقون جزاء كفرهم وعنادهم ! إنهم هم الذين ركبوا رءوسهم ، وأمعنوا فى عنادهم ؛ والمراد أنهم أحقاء أن يتحسروا ، ويتحسر عليهم المتحسرون ، فما يأتيهم رسول إلا سخروا منه ، واستهزءوا به .

٣ — ألم يعلم أهل مكة أننا استأصلنا قبلهم أمماً كثيرة لتكذيبهم رسلهم ؟ ألا يرون أن هؤلاء المكذبين قد قُطع دابرهم ، واستؤصلت شأفتهم ، وانقطع نسلهم ، على أن موتهم لم يكن راحة لهم ، بل إنهم جميعاً سيحشرون لدينا فى الموقف بعد البعث ، ويُحضَرون للحساب والجزاء .

٤ — فإن أرادوا الدليل على إمكان البعث ، والحياة بعد الموت ، فها هى ذى الأرض المجدبة الجرداء ، ينبثق فيها الماء ، فتحيا بعد موتها ، فتنبت النبات الذى يُخرج الحبّ فنأكل منه ؛ فكما فعلنا فى مَوات الأرض نفعل فى أموات الخلق ، وقد أوجدنا فى هذه الأرض بعد أن دبت فيها الحياة بساتين ، فيها أنواع النخيل والأعناب ، وشققنا فيها العيون ، فسال ماؤها الذى أروى الأشجار ، فأينعت ثمارها ، وَجناها الناس ، وتمتعوا بأكلها ، كما تمتعوا بما يتخذ منها من أنواع الحلوى التى يصنعونها بأيديهم ، كالعصير والشراب والمربيات والعسل والخل ؛ أفلا يشكرُون الله على هذه النعم التى أسبغها عليهم ، فيعترفوا بربوبيته ووحدانيته ؟ ونظير هذا قوله تعالى : فى سورة السجدة : « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منهم أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون ؟» (تراجع الصفحة ١٠٥ من تفسير الجزء الحادى والعشرين) ، وقوله : فى سورة الروم « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شىء قدير » . (تراجع الصفحة ٥٢ من تفسير الجزء الحادى والعشرين أيضاً) .

(٢)

الآية ٣٦ من سورة يس

سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا : مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سبحان الذى خلق	نزهوا المولى عن كل ما لا يليق به ، وهو مصدر ناب عن فعل الأمر .
الأزواج	الأصناف يقترن بعضها ببعض .

مجمل المعنى

١ — نَزّهوا الخالق عن كل ما لا يليق به ، كنسبة الولد والشريك إليه ، فإنكم ترون عجائب صنعه ، وبدائع حكمته ، وآثار قدرته ، وروائع نعمائه الموجبة لشكره ، فهو وحده الذى خلق من النبات والإنسان ، ومما لم يكن الناس يعلمونه عند الرسالة ، أزواجاً يقترن بعضها ببعض ، ليحصل من تزاوجها إنبات الثمر ، وبقاءُ النسل ، ورقىّ العالم فى مدارج الحضارة .

(ا) فالازدواج فيما تنبت الأرض ينشأ من التلقيح ، إما بتأبير النخل : (تلقيحه) ، وإما بالرياح التى تنقل لقاح المذكر إلى المؤنث — قال تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » ، (تراجع الفقرة (ه) من الصفحة ١٢ من تفسير الجزء الثانى عشر) ، وإما ببعض الحشرات كالنحل والفراش ، وإما بمياه الأنهار والسيول ، وإما بغير أولئك مما هو معروف فى علم النبات .

(ب) والازدواج فى الأنفس ، باتصال الذكر بالأنثى اتصالاً جنسيًّا .

(ح) والازدواج فيما لم يكن يعلمه الناس عندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن ارتقاء العقل البشرى أظهره ، كالتيار الكهربى ، الحادث من اجتماع قوتين : إحداهما موجبة ، والأخرى سالبة .

(٣)

من الآية ٣٧ إلى الآية ٤٠ من سورة يس

وَآيَةٌ لَهُمُ : اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ، فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ —١— .
وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لهَا ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ —٢— .
وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ —٣— .
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،
وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نسلخ منه النهار	نكشف ، ونزيل ضوءه ، ونميزه منه .
فإذا هم مظلمون	فإذا الناس داخلون فى الظلمة .
لمستقر لها	إلى مستقر مقدر لها فى كل يوم ، فى مشرقها ومغربها .
ذلك	جرى الشمس ، وتعاقب الليل والنهار .
منازل	جمع منزل ، والمراد به : المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة .

الألفاظ	شرحها
عاد كالعرجون القديم	صار كالعِـذْق : (السُّـباطة) ، إذا قدم ويبس واعوج .
ينبغى لها	يصح لها .
تدرك القمر	تجتمع معه ليلاً .
سابق النهار	يسبقه ويحل محله قبل انقضائه .
فلك	مدار ومجرى .
يسبحون	يجرون جرياناً بحركة ذاتية ، فى نظام دقيق .

مجمل المعنى

١ — وعلامة للكافرين المعاندين دالّة على قدرة الله ووحدانيته ، إذ خلق الكائنات على نظام عجيب بديع ، فالليل يُقبل بعد أن ينكشف ويزول عنه ضوء النهار ، فإذا الناس فى ظلام دامس ، بعد أن كانوا فى ضوء ساطع — وعبّر الله عن هذه الإزالة بالسلخ ، لأنها تشبه إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال بعد سلخه .

٢ — والشمس تجرى وتنتقل إلى مستقر مقدّر لها فى كل يوم ، فى مشارقها ومغاربها ، فلها فى كل يوم مشرق تطلع منه ، ومغرب تغيب فيه ، ثم لا تعود إليه إلا فى نظير ذلك اليوم من العام القابل ، ذلك تقدير العزيز الغالب بقدرته على كل شىء ، المحيط علمه بكل شىء .

٣ — وقدرنا لمسير القمر منازل مقدارها ثمانية وعشرون منزلاً ، لا يتخطاها ولا يحيد عنها — والمراد بالمنزل : المسافة التى يقطعها القمر فى كل يوم وليلة ،

فإذا كان فى آخر منازله ، صار دقيقاً مقوّساً ، كعذق النخلة الذى عليه الشماريخ ، إذا تقادم عليه الزمان فيبس واعوج ، ثم يستتر القمر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً ، وليلة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوماً .

٤ — والشمس والقمر يسيران على نظام دقيق ثابت ، فلا الشمس يجوز لها أو يسهل عليها أن تسبق القمر ، فتجتمع معه فى الوقت المقدر للقمر فى الليل ، ولا الليل يسبق النهار قبل إنقضاء زمانه ، بل كل يسبحُ فى فلكه ، ويجرى فى مداره ؛ وعاد الضمير فى « يسبحون » جمعاً ، مراعاة للفظ « كل » ، وكأن هذه الدقة لا تصدر إلا من عاقل ، ولذا عاد على « كل » ضمير العقلاء .

(٤)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٤ من سورة يس

وَآيَةٌ لَهُمْ : أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ –١– . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ، وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ –٢– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وآية لهم	وعلامة لكفار مكة ، دالة على عظيم قدرتنا .
ذريتهم	الذرية : تطلق على الآباء والأبناء ، والمراد هنا : الأول ، كما فى لسان العرب .
الفلك المشحون	سفينة نوح المملوءة ، المفرد والجمع بلفظ واحد ، والمراد هنا : الأول .
من مثله	من مثل فُلك نوح ، كالإبل وغيرها .
صريخ	مُغيث .

مجمل المعنى

١ — ودليل آخر لأهل مكة على قدرتنا على ما نشاء ، وعلى وحدانيتنا ، وعلى رحمتنا بهم ، وعطفنا عليهم ، أنا حملنا آباءهم عند ما عمّ الطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، فى السفينة المملوءة الموقرة المثقلة بركابها ، لنجاتهم من الموت غرقاً ، ولولا ذلك لانقرض نسل بنى آدم ، وخلقنا لهم من مثل فُلك نوح مراكب أخرى كالإبل ، وألهمناهم صنع مراكب بحرية وبرية وجوية ، وأقدرناهم على اختراعها ، كالبواخر والسيارات والطائرات .

٢ — وإن اقتضت مشيئتنا إغراق هؤلاء المشركين ، مع ما حملوا من متاع إذا ركبوا فى الفلك ، نفذت إرادتنا ، فلا مُغيث لهم يحميهم من الغرق ، ولا هم ينقذون وينجون من الموت إلا من أجل رحمتنا بهم ، وتمتعهم بالحياة إلى أجل هم بالغوه ، والمراد : أنهم فى حال استمتاعهم ، ينبغى ألا يأمنوا عذاب الله .

(٥)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٥٠ من سورة يس

وَإذا قِيلَ لَهُمُ : اتقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ —١— . وَإذَا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؟ إنْ أَنْتُمْ إلاَّ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ —٢— وَيَقُولُونَ : مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ مَا يَنْظُرُونَ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ، فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ، وَلاَ إلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اتقوا ما بين أيديكم	اخشوا عذاب الدنيا كما حدث لغيركم .
وما خلفكم	واخشوا عذاب الآخرة .
لعلكم ترحمون	لتكونوا ممن يرجون رحمة الله .
آية	آية من آيات القرآن .
إن أنتم إلا فى ضلال مبين	ما أنتم فى قولكم هذا أيها الكفار إلا فى ضلال مبين .

الألفاظ	شرحها
متى هذا الوعد	متى الوعد بالبعث ؟
ما ينظرون	ما ينتظرون .
إلا صيحة واحدة	إلا صيحة إسرافيل الأولى ، للإعلام بانقضاء العالم.
يَخصمون	يختصمون ويتجادلون فى المساومة ونحوها فى الدنيا .
توصية	توصية الإنسان لأهله وهو فيهم .

مجمل المعنى

١ — إذا قامت الأدلة الواضحة لأهل مكة أعرضوا عنها ، وإذا قيل لهم : اخشوا عذاباً يحل بكم فى الدنيا إن أصررتم على كفركم وعنادكم ، كما حدث لغيركم من الأمم الماضية لشركهم وتكذيبهم الرسل ، واخشوا عذاب الآخرة فى جهنم ، وآمنوا بى وبرسولى ، لتكونوا ممن يرجون رحمة الله وعفوه وصفحه ، فإن مناط النجاة ليس إلا رحمة الله ، واتقاء عذابه ، بالإيمان والطاعة — إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ، ونأوا بجانبهم ، وأصروا على كفرهم ، واستكبروا استكباراً ، وما تأتيهم آية من آيات القرآن ، التى منها الآيات الناطقة ببدائع صنع الله فى الكون ، وسوابغ آلائه عليهم ، الشاهدة بوحدانيته وكمال قدرته ، مما يوجب عليهم الإقبال عليها ، والإيمان بها ، إلا كذبوها ، وأعرضوا عن التصديق بها ، ولم يلتفتوا إليها ؛ ونظير هذا قوله تعالى فى سورة القمر : « وإن يَرَوا آية يُعرضوا ويقولوا : سحر مستمر » ، وسيأتى الكلام عليها فى تفسير الجزء السابع والعشرين .

٢ — وإذا قيل لهم : تصدقوا على فقراء المسلمين من أقربائكم الذين كنتم تمدونهم ببعض المال ، وأنفقوا على هؤلاء المحتاجين من بعض ما تفضل الله به

عليكم ، قال الذين كفروا للذين آمنوا استهزاء بهم : لمَّا كان الله قادراً على إطعام الفقير ولم يطعمه ، فنحن أحق ألا نطعمه ، ولو شاء أن يُطعمه لأطعمه ، فلمَ يلتمس الرزق منا ؟ وإذا كان الله أفقره ، فكيف نرزقه ؟ فما أنتم أيها المشركون فى قولكم هذا إلا فى ضلال بيّن لا يخفى على أحد ، فإن الله يُجرى رزق الفقراء على أيدى الأغنياء ، فإن مَلك الغنى مالاً ، فقد أوجب الله عليه فيه حقًّا .

٣ — ويقول المشركون : متى يقع هذا الوعد الذى تزعمونه بالبعث ، إن كنتم صادقين فيه ؟ فردّ الله عليهم ، بأن الوعد محقق الوقوع ، ولا ريب فيه ، وسيفجؤهم من حيث لا يعلمون ، فلا يلبثون إلا وقد صاح فيهم إسرافيل صيحة واحدة ، فيصعقُ من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله من الملائكة بغتة ، وهم يتجادلون فى أمور دنياهم : فى متاجرهم ، وفى أثناء معاملاتهم ، لا يخطر ببالهم أمرها ، فترجُف أفئدتهم ، ويقعون صَرْعى ، لا يستطيعون النطق بأية كلمة ، ولو بالتوصية التى يكونون فى أمسّ الحاجة إليها إن كانوا بين أهليهم ، ولا يستطيعون أن يَرْجِعوا من أسواقهم وأشغالهم إلى أهاليهم ، بل يموتون حيث كانوا .

(٦)

من الآية ٥١ إلى الآية ٥٤ من سورة يس

وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ، فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ –١–. قَالُوا : يَا وَيْلَنَا ! مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ ، وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ –٢– . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ –٣– . فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نفخ فى الصور	أعلم الناس بيوم البعث ، والصور : البوق .
الأجداث	القبور .
ينسلون	يخرجون ويسيرون مسرعين .
يا ويلنا	الويل : حلول الشر ، والبلية والفضيحة .
هذا	هذا البعث .
إن كانت إلا صيحة واحدة	لم تكن النفخة إلا صيحة واحدة .

مجمل المعنى

١ — وأُعلم الناس بيوم البعث ، والتعبير بالماضى : للدلالة على تحقق الوقوع ؛ والنفخ فى الصور : تمثيل وتصوير لبعث الأموات من قبورهم ، وعرضهم للحساب ، واستجابتهم للدعوة بسرعة ، وقد صاح فيهم بوق عظيم ، كما يستجيب الجنود ، فيهبون من رقادهم حين ينفخ أحد الجنود فى بوقه نفخة تسمى : نفخة الاستيقاظ ، أو أن إسرافيل ينفخ فى البوق النفخة الثانية ، وهى نفخة البعث ، فالأولى يُميت الله بها كل حىّ ، والثانية يُحيى بها كل ميت — فإذا الناس جميعاً يخرجون من قبورهم ، ويسيرون مسرعين « كأنهم جراد منتشر » ، أو « كأنهم إلى نُصُب يوفضون » ، للوقوف بين يدى المولى جل وعلا ، ربهم ومالك أمرهم.

٢ — فإذا بُعثوا ، تذكر الكفار بعد أن رُدت أرواحهم إلى أجسادهم ، ما كانوا يسمعونه من الرسل عن البعث ، فقالوا : وافضيحتاه ! ما أشد ما سنلاقيه من العذاب الذى ينتظرنا ! مَنْ أيقظنا من رُقادنا ؟ هذا هو البعث الذى وعد به الرحمن على لسان رسله ، كنا نكذبه ، ولقد صدق الرسل فيما أخبروا به ، وأبلغوه إيانا .

٣ — لم تكن النفخة الأخيرة إلا صيحة واحدة ، فإذا الخلائق جميعاً بمجرد سماعها مجموعون ، أُحضروا إلى موقف الحساب بين يدى الله تعالى .

٤ — فاليوم — يوم القيامة — تقام موازين العدل والقسطاس ، فلا تُظلم نفس شيئاً ، سواء أكانت بَرة أم فاجرة ، وإن كان عملها فى الدنيا وزن ذرة من حسنة أو سيئة ، أتى الله بها ، ولا تُجزى كل نفس إلا بما عملت ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر .

(٧)

من الآية ٥٥ إلى الآية ٥٨ من سورة يس

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ -١- . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ ، عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ، وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ -٢- . سَلَامٌ : قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
شُغُل	شأن يَشغلهم عما سواهم .
فاكهون	ناعمون بطيب العيش ، مسرورون .
وأزواجهم	زوجاتهم اللاتى كنَّ لهم فى الدنيا ، أو أمثالهم فى الإيمان .
فى ظلال	فى ظلال دائمة ، لا يُحسون حرًّا ولا برداً .
الأرائك	جمع أريكة : وهى السرير المزين بالستور والفُرُش.
ما يدّعون	ما يتمنون وما يشتهون .
سلام قولا	يقول لهم الملائكة قولا هو سلام يبلغونه إياهم عن ربهم .

مجمل المعنى

١ — إن أصحاب الجنة — وهم المؤمنون الصادقو الإيمان — يوم القيامة فى شغل بما هم فيه من البهجة والمسرة ، واللذات والنعيم ، عما فيه أصحاب النار من العذاب الأليم ، ناعمون بطيب العيش ، متلذون بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

٢ — ومما يزيدهم بهجة وسروراً ، ويُلهيهم عما عداهم ، أنهم هم وزوجاتهم المؤمنات اللاتى كنّ لهم فى الدنيا ، فى ظلال دائمة ممدودة فى الجنة ، لا يَرَون فيها شمساً ولا زمهريراً ، متكئون على السرر المنجدة المزينة بالستور والفرُش ، متمعتون فى كنف الله وظله بأنواع الفاكهة الشهية ، ولهم فيها ما يتمنون وما يشتهون ، ونظير هذا قوله تعالى فى سورة المرسلات : « إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون » ، تراجع الصفحة١٦٣ من الطبعة الأولى من تفسيرنا لجزء « تبارك » ؛ ويجوز أن يكون المراد من « أزواجهم » : أمثالهم فى الإيمان ، كما قال تعالى فى سورة« ص » : « وآخر من شكله أزواج » ، وسنشرحه فى هذا الجزء ، عند تفسير هذه السورة .

٣ — يقول الله لهم قولا هو سلام يبلغه إياهم عنه ملائكته ، أو بغير وساطة ، تكريماً لهم وتعظيماً ، فيقول لهم : : السلام على عبادى الذين أطاعونى ، وحفظوا عهدى بالغيب ، لا خوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون ، وهذا السلام من مالك الملك ، ذى العطف والرحمة .

(٨)

من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٤ من سورة يس

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ —١— . أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ : أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنِ اعْبُدُونِي ، هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ —٢— . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ —٣— هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
امتازوا	انفردوا وانفصلوا من المؤمنين .
ألم أعهد إليكم	ألم آمركم ، وأوصكم بما أقمت لكم من الدلائل والحجج ؟
ألا تعبدوا الشيطان	ألا تطيعوا الشيطان .
هذا صراط مستقيم	هذا الانقياد إلى طاعة الله وحده ، هو الطريق المستقيم .
جبلاً كثيراً	خلقاً كثيراً .
اصلوها	ذوقوا حرها وعذابها .

مجمل المعنى

١ — حين يسار بالمؤمنين إلى الجنة ، يقال للمجرمين من العصاة : انفردوا وانفصلوا عنهم ، واذهبوا إلى مصيركم فى النار ، ونظير هذا قوله تعالى فى سورة الروم : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون : فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فهم فى رَوْضة يُحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون ، (راجع الصفحة ٢٨ من تفسير الجزء الحادى والعشرين) .

٢ — ويقال للكفار من جملة ما يقال تقريعاً لهم وتبكيتاً ، وإقامة للحجة عليهم : ألم آمركم يا بنى آدم ألا تطيعوا الشيطان فى معصيتى ، بما أقمت لكم من الأدلة الدالة على وحدانيتى ، كما عهدت إلى أبيكم من قبل ؟ فقلت فى سورة الأعراف : « يا بنى آدم ، لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ، وقلت فى سورة النور : « لا تتبعوا خطوات الشيطان » ؟ ألم أُوصكم على ألسنة رسلى ألا تنقادوا إلى وسوسته ، فإنه لكم عدو بيّن العداوة من عهد أبيكم آدم ، بما يزينه لكم من المعاصى ؟ ألم أكلفكم أن تعبدونى وحدى ، فإن تخصيصى بالعبادة هو الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ، والدين القويم الذى يهدى إلى الحق ؟

٣ — إن من له مُسكة من العقل ، يستطيع أن يُدرك أن الشيطان مضل مبين ، فلقد أضل منكم خلقاً كثيراً ، أكنتم تشاهدون آثار عقوبتهم ، فلم تكونوا تعقلون أنها بسبب ضلالهم ؟

٤ — هذه جهنم التى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل لمن أطاع الشيطان ونَبذَ طاعتى ؛ ذوقوا فى هذا اليوم الذى لم تستعدوا له بطاعتى حرَّها ، بسبب كفركم فى الدنيا .

(٩)

من الآية ٦٥ إلى الآية ٦٨ من سورة يس

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ –١– وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ –٢– . وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
نختم على أفواههم	نمنعها من الكلام .
لطمسنا على أعينهم	لمحونا أعينهم بمسحها .
فاستبقوا الصراط	فبادروا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه .
فأنى يبصرون	فكيف يبصرون بعد أن أصابهم العمى ؟
لمسخناهم	لغيّرنا صورهم ، وأبطلنا قواهم .
على مكانتهم	فى مكانهم ، فلا يستطيعون حراكاً .
مُضيًّا	ذهاباً إلى مقاصدهم .
ولا يرجعون	ولم يقدروا على العودة .

الألفاظ	شرحها
نعمِّرْه	نُطل حياته حتى يبلغ أرذل العمر .
ننكِّسه فى الخلق	نقلب خلقته ، ونردّه إلى حالة الصبا .

مجمل المعنى

١ — حين يقال للكفار : « اصلوْها اليوم بما كنتم تكفرون » ، ينكرون كفرهم ، ويقولون : « والله ربَنا ما كنا مشركين » ، (كما تقدم فى سورة الأنعام ، فى الصفحة ٥٨ من تفسير الجزء السابع) ، حينئذ يعقد الله ألسنتهم ، ويمنعها من النطق ، فتنطق جوارحهم : تتكلم أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما اجترحوا من السيئات ، يؤيد هذا قوله تعالى فى سورة فصلت ، التى سيأتى تفسيرها فى الجزء الرابع والعشرين : « وقالوا لجلودهم : لمَ شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » ، رُوى أن كلاً من الكافرين والمنافقين يُدعى للحساب ، فيعرض الله عليه عمله ، فيجحد ويقول : لقد كتبَ علىّ هذا الملك ما لم أعمله ، فيقول الملك : أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فينكر ، فيختم الله على فيه ، وتنطق جوارحه بما عمل ، فيقول لجوارحه : سحقاً لكن ! فعنكن كنتُ أناضل ، ورأى بعضهم أن الختم والكلام والشهادة أمور معنوية ، المراد بها : أن الله ويظهر آثار المعاصى على الأيدى الأرجل ، ودلالتها على أفعالها .

٢ — ولو نشاء لمحونا أعين الكفار فى الدنيا بمسحها وأعميناها ، فإن أرادوا أن يبادروا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه كعادتهم ، فكيف يبصرونه بعد أن أصابهم العمىَ ؟ وكيف يهتدون إليه ؟ ولو نشاء لبدلنا صورهم ، وأبطلنا

قواهم فى مكانهم ، فجمدوا فيه بحيث لا يستطيعون ذهاباً ولا رجوعاً ، ولا يقدرون أن يبرحوا مكانهم ، ولا أن يتحركوا يمنة أو يسرة ، والمراد : أن الكفار بكفرهم ، ونقض ما عهد إليهم ، يستحقون أن يُفعل بهم ذلك ، لكنا لم نفعل رحمة منا ، وإمهالاً لهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويُذعنون إلى الحق .

٣ ــ ومن نطل حياته ، ونبلغه أرذل العمر ، نبدّل خلقته ، فلا يزال يتزايد ضعفه وتنتقص قواه ، حتى يصير كما بدأ ، فلا يَعلم من بعد علم شيئاً ، ويعود إلى حالة شبيهة بحالة الصبىّ فى ضعف الجسد ، وقلة العقل ، والخلو عن الفهم والإدراك ، ويكون بعد قوّته وشبابه ضعيفاً هَرماً ، وشيخاً فانياً ؛ أيرى هؤلاء الكفار هذا فلا يعقلون قدرة الله على ما يشاء ؟ وأن من قَدر على أن يخلق من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، قادر على الطمس والمسخ ، وقادر على البعث ، وأن عدم إيقاعهما إنما هو لعدم تعلق مشيئة الله بهما ؟ قال تعالى فى سورة الروم : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم خلق من بعد ضعف قوة ، ثم خلق من بعد قوة ضعفاً وشيبة » ، تراجع الصفحتان ٥٢ ، ٥٣ من تفسير الجزء الحادى والعشرين ، وقال الشاعر :

من عاش أخلقت الأيام جِدّته   وخانه ثقتاه : السمع والبصر

(١٠)

من الآية ٦٩ إلى الآية ٧٠ من سورة يس

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ما ينبغى	ما يصح له ، وما يسهل عليه ، وما يليق بجلال منصبه .
إن هو إلا ذكر	ليس الذى أتى به الرسول إلا وعظاً وإرشاداً من عند الله .
وقرآن مبين	وقرآن مظهر للشرائع والعقائد والأحكام .
ويحق القول	ويحق العذاب .

مجمل المعنى

كان الكفار عند ما يتلو رسول الله عليه وسلم عليهم شيئاً من القرآن ، يقولون : إن محمداً شاعر ، وإن ما يأتى به من القرآن شعر ، فرد الله عليهم بأنه لم يعلمه الشعر ، وأن القرآن لا يماثل الشعر ، لأنه غير موزون ولا

مُقفًّى ، وما يصح لمحمد ، ولا يسهل عليه ، ولا يليق بجلال منصبه أن يكون شاعراً ، حتى لو أراد نظمه ، فقد مكث أربعين سنة قبل النبوة ، لم يسمع عنه أنه نظم شعراً ، وأما قوله يوم حُنين :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله حين أصاب إحدى أصابعه حجر فى إحدى غزَواته فدَميت :

هل أنت إلا إصبع دَميتِ وفى سبيل الله ما لقيتِ

الأول من منهوك الرجز ، والآخر من السريع ، فقد اتفقَ أنهما يطابقان أوزان الشعر ، ولمَ يقصد رسول الله بقولهما أن يكون شعراً ؛ والأوزان الشعرية قد تأتى عفواً فى القرآن ، غير مقصودة ، كما فى قوله فى سورة آل عمران : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تُحبون » ، وقوله فى سورة سبأ : « وجفان كالجواب ، وقدور راسيات » ؛ بل كان رجل مريض من عامة الناس ينادى :

اذهبوا بى إلى الطبيـ ـب ، وقولوا : قد اكتوى

وقد كان رسول الله إذا أراد أن يتمثل ببيت من الشعر كسر وزنه ، فمن ذلك أنه أراد أن يتمثل ببيت لطرَفة وهو :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزوده بالأخبار

ويندر أن ينشد لأحد الشعراء بيتاً مستقيماً ، وليس فيما قاله رسول الله ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ، أو الألفاظ المزخرفة المنمقة ؛ على أن الشعر كثيراً ما ينزل بالشاعر إلى درك التكسب به ، أو يغريه بالكذب رغبة فى نيل جائزة الممدوح ، ولذلك قيل : الشعر أعذبه أكذبه ،

والنبى صلى الله عليه وسلم برىء من كل هذا ، والقرآن أحكام وشرائع وعقائد ، وأين الشعر من كلام الله المملوء بالحكم والأحكام الباهرة ، الموصلة إلى سعادتى الدنيا والآخرة ؟ وما القرآن إلا وعظ وإرشاد ، وكتاب سماوى مظهر لأحكام الدين ، لا زخرف فيه ولا وزن ولا قافية ، وليس من كلام البشر ، أنزله الله لينذر من كان متأملا عاملاً حىّ القلب ، لا الغافلين الذين هم بمنزلة الأموات ، لأنهم لا يَعقلون ما يخاطبون به ، أو يعقلونه ويستكبرون عن اتباعه ، وليحقّ العذاب على المصرّين على الكفر تحقيقاً لقوله تعالى فى سورة السجدة : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (تراجع الصفحة ٩٧ من تفسير الجزء الحادى والعشرين) .

(١١)

من الآية ٧١ إلى الآية ٧٥ من سورة يس

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً ، فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ، فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ –١– وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً ، لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ، وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ –٢– . فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مما عملت أيدينا	مما انفردنا بخلقه من غير شريك ولا معين .
أنعاماً	إبلاً وبقراً وغنماً .
مالكون	متملكون ، يتصرفون فيها كما يشاءون .
وذللناها لهم	وسخرناها وروضناها لهم .
فمنها ركوبهم	فمنها ما يركبون .
منافع	كالأصواف والأوبار والأشعار واللحوم .
ومشارب	والألبان .

الألفاظ	شرحها
لعلهم يُنصرون وهم لهم جند محضرون	لعلهم يمنعون من عذاب الله بشفاعة الأصنام لهم . والمشركون مجندون لآلهتهم ، يحرسونها ويخدمونها . مُعدون .

مجمل المعنى

١ — أو لم ير الكفار رؤية اعتبار وتبصر ، أننا تفضلنا عليهم ، فخلقنا لهم من جملة ما خلقناه ، ولا يقدر على إحداثه غيرنا ، إبلا وبقراً وغنماً ، فهم مالكون قاهرون لها ، يتصرفون فيها كما يشاءون ؟ وسخرناها وروضناها لهم ، فلا تستعصى عليهم فى شىء مما يريدون منها ، حتى ليقود الصبىّ الجمل الكبير ويضربه ؛ ولو كانت نافرة متمردة ، لما تم الانتفاع بها — فبعضها يركبونه ، وبعضها يأكلونه ، ولهم فيها منافع فى أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ولحومها وجلودها ، وحرثها الأرض ، ومشارب من ألبانها ، أفلا يشكرون المنعم عليهم بهذه النعم ، فيؤمنوا به ويخصوه بالعبادة ؟ إذ لولا خلقه هذه الأنعام ، ما أمكن الاستمتاع بهذه المزايا .

٢ — لكنهم لم يؤمنوا ولم يشكروا ، بل وضعوا مكان الشكر الشرك ، وأقبلوا على عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع ، ولا تقدر على شىء ، واتخذوا منها آلهة ، وأشركوها فى عبادة الله ، لعلها تمنع عنهم عذابه بشفاعتها عنده فى الآخرة ، أو لعلها تنصرهم إن استنصروها فى دفع عذاب الله عنهم فى الدنيا ، لكن هذه الأصنام لعجزهم لا يستطيعون نصرهم ، بل المشركون أنفسهم هم المجندون لحراستها وخدمتها ، والذبّ عنها إن اعتدى عليها أحد .

٣ - فإذا كان حال الكفار مع الله المنعم عليهم هكذا ، فلا يحزنك يا محمد قولهم : إنك شاعر أو ساحر ، أو كاهن أو مجنون ، أو غير ذلك مما ينسبونه إليك ، إنا نعلم ما يُسرون وما يعلنون ، لا يعزب عن علمنا أى شىء ، وسنجازيهم عليه ، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

(١٢)

من الآية ٧٦ إلى الآية ٨٠ من سورة يس

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ؟ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ؟ —١— . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ —٢— قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ —٣— . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ، فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من نطفة	من ماء مَهين حقير قذر ، وهو المنىّ .
خصيم مبين	شديد الخصومة لنا ، معرب عما فى نفسه من الحقد والبغضاء .
وضرب لنا مثلا	وأورد لنا قصة .
ونسى خلقه	ونسى أنا خلقناه من هذا الماء المهين الحقير .
رميم	بالية أشد البلى .
خلق	مخلوق .
الشجر الأخضر	كل شجر أخضر تظهر منه النار بالإحراق ، أو المَرْخ والعَفار اللذين سيأتى ذكرهما .
توقدون	توقدون النار .

مجمل المعنى

١ — أو لم ير الإنسان الكافر الجاحد الذى ينكر البعث ، وهو أبىّ بن خلف الجُمَحى ، الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحربة فى غزوة أحُد، أنا خلقناه فى بدء أمره من أخسّ شىء وأحقره ، وهو ماء مَهين قذر ، استقر فى رحم أمه ؟ فإذا هو مفرط فى خصومته ، قادر على المحاجة والجدل ، منطيق ، فصيح ، معرب عما نفسه ، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ فلينظر : مم خُلق ؟ « أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ؟ » .

٢ — اجتمع جماعة من قريش ، منهم أبىّ بن خلف الجمحى ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، فتكلموا فى شأن رسول الله ، فقال أبىّ بن خلف : ألا تَرَون ما يقوله محمد ؟ إنه يقول : إن الله يبعث الأموات ؛ واللاتِ والعزّى لأصيرنّ إليه ، ولأخاصمنه ، وأخذ عظماً بالياً أخذ يفتته بيده ، وقال لرسول الله : أترى أن ربك يُحيي هذا بعد أن رَمّ ؟ أرأيت إن سحقت هذا العظم ، وأذريته فى الريح ، أيُعيده الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم ، ويبعثك ، ويُدْخلك نار جهنم » ؛ والمعنى : لقد أورَد هذا الكافر فى شأننا قصة عجيبة فى نفى القدرة على إحياء الموتى بعد البِلى ، وجعل لنا نظيراً من الخلق ، وقاس قدرتنا بقدرتهم ، ونَسىَ خلقنا إياه من نطفة ، وخلقنا أباه آدم من تراب ، وأودعنا مَنْ خلقنا الحياة والعقل والإدراك ، قال : مَن يُحيي العظام بعد أن بَليت أشد البِلى ؟ مستبعداً إعادة الحياة إليها .

٣ — قل لهؤلاء المعاندين يا محمد تبكيتاً لهم : الذى خلقكم من العدم هو الذى

يحيي العظام التى أنشأها أول مرة ، بل إن ذلك أهون عليه ، لأن الإحياء أسهل من الإنشاء ، وهو عليم بكل مخلوق ، فيعلم أجزاءه مهما تبددت وتفتتت ، ويعلم مواقعها ، ويميز بعضها من بعض ، ويعيد الأعراض والقوى إلى ما كانت عليه ، وينفخ الروح فى خلقه .

٤ — وكيف تنكرون قدرة الله؟ وهو الذى خلق لكم من المرْخ والعَفار الأخضر ناراً — والمرْخُ والعفار شجرتان يُقدَح منهما النار ، بأن يسوى من أغصانهما الزناد فيقتدحُ بهما ، وزنادهما أسرع الزناد ورْيا ، أما المرْخ فهو شجر يتفرع ويطول ، ويُستظلّ بظله ، وأما العفار فهو شجر خوّار جيد للزناد ، وللعفار الزّند الأعلى ، وللمرخ الزند الأسفل ، والزندان : غُصنان مثل السِّواكيْن ، يؤخذان وهما يقطران ماء ، فيحك أحدهما بالآخر ، فيخرج منهما النار — ومن قدر على إخراج النار من الشجر الأخضر ، مع وجود الماء المضاد للنار ، قادر بلا شك على إعادة الغضاضة فيما كان غَضًّا فيبس وَبَلِىَ .

(١٣)

من الآية ٨١ إلى آخر السورة

أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى ! وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ —١— . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ —٢— . فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ! وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مثلهم	مثل الناس المعاندين ، ويعيدهم إلى الحياة بعد الموت .
أراد شيئاً	أراد خلق شیء .
فسبحان	فنزهوا الخالق عن كل ما لا يليق به .
ملكوت	ملك .

مجمل المعنى

١ — أو ليس خالق السموات والأرض مع كبر جرمهما ، ودقة صنعهما ، وعظم شأنهما ، بقادر على أن يخلق مثل هؤلاء المعاندين الجاحدين ، ويعيدهم

إلى الحياة بعد الموت ، مع حقارة شأنهم بالنسبة لخلق السموات والأرض ؟ قال تعالى فى سورة غافر : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » ، بلى ، هو قادر على كل شىء ، وهو الكثير المخلوقات ، العليم بكل شىء ، والذى لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٢ — إنما شأن الله أنه إذا تعلقت إرادته بخلق شىء ، نفذت إرادته فوراً ؛ وفى هذا ردّ على من ضربوا لله مثلا ؛ وقوله : « كن فيكون » تمثيل لتأثير قدرة الله فى مُراده ، وحدوث ما يأمر به فوراً ، من غير تريث أو علاج أو توقف ، أو افتقار إلى مزاولة ، أو احتياج إلى استعمال آلة .

٣ — وإذا كان الأمر كذلك ، فنزهوا الله يا كفار قريش عن كل ما لا يليق به ، فهو مالك الملك ، وهو القاهر فوق عباده ، وإليه وحده مصيركم يوم القيامة .

سُورة الصَّافَّات

نزلت بمكة ، وآياتها ١٨٢ آية

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ٢١

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ، إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ –١– . إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ : الْكَوَاكِبِ ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، دُحُورًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ –٢– . فَاسْتَفْتِهِمْ : أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ –٣– . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ، وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ –٤– . وَقَالُوا : إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟

قُلْ : نَعَمْ ، وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ —٥— . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ، وَقَالُوا : يَا وَيْلَنَا ! هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ، هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
والصَّافات صفًّا	أقسم الله بطوائف الجنود حينما تقف منتظمة صفًّا صفًّا .
فالزَّاجرات زَجْرًا	وأقسم بها أيضاً وهى تزجر الخيل للهجوم على الأعداء .
فالتاليات ذِكراً	وأقسم بها وهى لا تنى عن تلاوة ذكر الله ، واستمداد العون والنصر من قوته .
ربُّ المشارق	مالك مطالع الشمس .
زيَّنَّا السماءَ الدُّنيا	أضأنا السماء القريبة منكم بضوء الكواكب .
مارد	متمرد ، خارج عن الطاعة .
لا يسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى	لا يتسمعون ولا يحاولون السماع إلى الملائكة ، وهم الملأ الأعلى .
ويُقذفون من كلِّ جانب دُحوراً	ويُرْمون فى الدنيا بالشهب ، من كل جهة يحاولون استراق السمع منها ، ليطردوا .
ولهم عذابٌ واصبٌ	ولهم فى الآخرة عذاب دائم غير منقطع ، بعد تعذيبهم فى الدنيا بالرجم بالشهب .

الألفاظ	شرحها
إلا من خَطِفَ الخطفة	إلا من حاول من الشياطين أن يسترق من الملائكة كلمة .
فأتبعه شهاب ثاقب	فلحقته شعلة مضيئة منقضة من السماء ، فتحرقه قبل أن ينزل إلى الأرض .
فاستفتهم	فاستخبر كفار قريش الذين كذبوا بيوم الدين .
أهمْ أشدُّ خَلقاً	أهؤلاء المشركون المكذبون أقوى خلقاً ، وأمتن بِنْية ، وأصعب إنشاء ، وأشق إيجاداً .
إنا خلقناهم من طين لازب	إنا خلقناهم وهم أضعف مَنْ خلقنا ، وأهون مَنْ أنشأنا ، من طين لزج لاصق .
بَل عجبتَ ويسخرون	بل أنت عجبت من إنكارهم للبعث وهم يسخرون .
وإذا رأوا آية يستسخرون	وإذا رأوا معجزة من معجزاتك تبادلوا فيما بينهم السخرية منها .
إن هذا إلا سحر مبين	ما هذا إلا سحر ظاهر بيِّن
أو آباؤنا الأولون	أوَ يبعث آباؤنا الأقدمون ، بعد أن أتى على موتهم حين من الدهر ، وصاروا تراباً .
قل : نعم وأنتم داخرون	قل لهم يا محمد : نعم ستبعثون جميعاً للحساب وأنتم صاغرون .
فإنما هى زجرة واحدة	وليس أمر البعث إلا صيحة واحدة يَسمعونها .
فإذ هم يَنظرون	فإذا هم أحياء قيام ، ينظر بعضهم إلى بعض فى ذعر ودهشة .
وقالوا : يَا وَيلنا	وقالوا : ما أشد حسابنا ! وما أطول عذابنا !

الألفاظ	شرحها
هذا يومُ الدِّين	هذا هو اليوم الذى نُدان فيه ، ونجازى على أعمالنا .
هذا يوم الفصل	هذا هو يوم القضاء الذى يفصَل فيه بين الحق والباطل .

مجمل المعنى

١ — ذكر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة وهى آخر سورة يس ، ما يدل على المعاد ، وعلى قدرته على إحياء الموتى ، لأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ولأن إرادته إذا تعلقت بشىء كان ، وذكر هنا فى أول سورة الصافات ما يدل على وحدانيته ، لأن الإله القادر لا يتم له أن ينفذ ما تتعلق به إرادته ، إلا إذا كان واحداً لا شريك له ، ولتأكيد هذه الوحدانيه ، أقسم — جل وعلا — بطوائف الجنود الغازية المجاهدة فى سبيل الله ، وقد اصطفت صفوفاً متحدة منتظمة ، متآزرة كالبناء المرصوص ، وعزمت أن تبيع فى سبيل الله نفوسها على أن لها الجنة ، فتقتُل أو تُقتَل ، ثم امتطت صهوات الخيل تزجرها زجْراً ، وتدفعها فى ميدان القتال دفعاً ، لا تبالى إذا استُشهدت فى سبيل الله كيف قتلت ، وإذا فاضت أرواحها لإعلاء كلمة الله كيف أزهقت ، فلا تتلو إلا كلام الله ، ولا تذكر إلا اسم الله ، ولا تعتمد إلا على الله ، ولا تستمد الغلب إلا من قوته ، ولا تتوقع النصر إلا بإرادته ، وما النصر إلا من عند الله ؛ وهذا قَسم تشريف للمقسَم به ، نوَّه فيه سبحانه وتعالى بثلاثة أمور ، هى دعائم النصر والفوز :

(ا) الجندية القوية المنظمة المتحدة .

(ب) والاستعداد الكامل للغزو ، والجهاد الذى يحفظ كيان الدولة ، ويحمى حوزتها .

(ج) والإيمان بالله ، والاعتماد عليه ، واستمداد النصر والتأييد من قوته . والمقسم عليه ، هو وحدانية الله ، وتفرُّده بالألوهية ، والرد على من يقولون : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ هو رب السموات والأرض ، ورب المشارق ، لأن إبداع هذا الكون ، وإنشاءه على هذا النظام ، لا يمكن أن يكون من قوى متعددة ، يتفاوت إبداعها ، ويتغاير خَلقها ، أو ليس من القدرة التى تتضاءل أمامها أى قدرة ، والقوة التى تخر لها أى قوة ، أن يخلق الله الشمس ، ويجعل الأرض تدور حولها ، ويجعل لها ثلثمائة وخمسة وستين مشرقاً ومغرباً ، بعدد أيام السنة الشمسية ؟ لأن مشرق الشمس ، يتغير كل يوم ، على حسب وضع الأرض منها فى حركتها الدائمة ، فتشرق كل يوم من مشرق ، وتغرب فى مغرب ، ذلك تقدير العزيز العليم .

٢ — وأى إبداع فى الخلق ، وروعة فى الإنشاء ، بعد أن جعلنا هذه الكواكب التى تبدو لكم فى السماء الدُّنيا منكم ، وهى أجرام هائلة مضيئة ، لامعة متلألئة ، تزدان بها السماء ، كما يزدان بعقود الجواهر صدر حسناء ؟ فما ظنكم بكواكب فى سماء غير سمائكم ، لا تقع تحت حصر ، ولا يَراها البصر ، وهى أعظم جِرماً ، وأكبر حجماً ، من الكواكب التى تبدو لكم ، وتظهر فى سمائكم ؟ أى قدرة أقدر من أنكم ترون هذه الكواكب صغيرة ثابتة ، وهى كبيرة متحركة حركة دائبة منتظمة ؟ وقد جعلنا هذه الكواكب حرساً لملكوتنا ، وحفظناها حفظاً من كل شيطان عاتٍ من الجن ، متمرد علينا ، خارج عن طاعتنا ، وحجبناهم عن السماء ، فلا يعرفون

شيئاً عن أنبائها ، ولا يصل إليهم علم أخبارها ، فهم لا يستطيعون أن يسمعوا شيئا من أحاديث الملأ الأعلى، وهم الملائكة الأبرار ، وإذا حاولوا أن يسترقوا السمع منهم ، قُذفوا من كل ناحية بشُهُب مُحرقة ، فيرتدون مدحورين مطرودين — والدحور : الطرد ، فكأن الله تعالى يقول : ويُطردون طرداً من كل جانب — هذا جزاؤهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد أعددنا لهم عذاباً شديداً دائماً غير منقطع ، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة ، ويسترق مما يسمعه شيئاً ، فيتبعه قبل أن يصل به إلى الأرض شِهاب شديد الاشتعال ، قوى الضوء ، فيحرقه قبل أن يُفضَى به إلى المتكهنين ، الذين يضيفون إليه المفتريات والأكاذيب ، ويضللون بها أهل الأرض تضليلاً ، (تراجع الصفحة ٨٣ من الطبعة الأولى من تفسير جزء « تبارك ») .

٣ — فسل أهل مكة الذين ينكرون وحدانية الإله ، ويقولون : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ وقد عَموا عن هذه الأدلة الناطقة بوحدانيته ، واستخبرهم : أهم أشد خلقاً ، وأصعب تكويناً ، أم مَن خلقنا من الملائكة والأرض والكواكب والجبال والبحار ؟ قل لهم : أأنتم أشد خلقاً أم السماء ؟ قل لهم : لَخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، فكيف ينكرون قدرتنا على خلقهم ، وقدرتنا على إحيائهم بعد موتهم ، وهم أضعف مَن خلقنا ، وأهون من أنشأنا ؟ إنا خلقناهم من طين لزج لاصق لا قِوام له بنفسه ، ولا يصلح لقيام كِيانه بذاته ، كيف يستنكرون وقد خلقنا هم من طين وتراب ، فيقولون : أئذا كنا تراباً وآباؤنا ، أئنا لمخرجون؟ وقد خلقنا هذه العوالم ، وخلقها أشق ، وتكوينها أبدع وأدق ؟

٤ — لَشدّ ما بينك وبينهم ، وما بين قوة إيمانك وشديد إنكارهم ؛ بل لقد عجبتَ من قدرة الله القادرة ، على هذه الخلائق العظيمة ، وعجبت من إنكارهم

لخالقها ، ومن إنكارهم لقدرته على بعثهم وإحيائهم بعد الموت ، وهم ساخرون مستهزئون منك ومن عجبك ، ومن البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، وقد طبع الله على قلوبهم ، فإذا ذكَّرتهم بآيات الله ، ووعظتهم بالقرآن ، لا يتذكرون ولا يتعظون ، ولا ينتفعون بما ذكروا ؛ وإذا رأوا معجزة من المعجزات ، وآية من الآيات ، فإن بعضهم يستدعى بعضاً للسخرية منها ، والاستهزاء بها ، وقالوا : ما هذا الذى جاء به محمد إلا سحر ظاهر ، يريد أن يُضلنا به عما كان يعبد آباؤنا من قبل .

٥ — وقالوا منكرين للبعث : أئذا متنا ، وتحللت أجسامنا ، وصارت تراباً ، وذهبت ذراتها فى الأرض هنا وهناك ، أتجمع من هذه الذرات عظامنا ، وتتكون أجزاؤنا ، وتعود إليها الحياة ، وتبعث للحساب ؟ وهل يمكن أن نصدق ذلك لآبائنا الأقدمين ، الذين ماتوا من آلاف السنين ، كيف تعود أجسامهم ، وترد إليهم حياتهم؟ قل لهم يا محمد : نعم ستنشرون من قبوركم ، وتحيَون بعد موتكم أنتم وآباؤكم ، وتساقون إلى الحساب وأنتم أذلاء صاغرون .

٦ — ولا يستدعى هذا الأمر الذى أنكرتموه واستبعدتموه غير صيحة واحدة نأمر بها ، فإذا القبور تنشق عنكم ، وإذا أنتم أحياء كما كنتم ، وإذا بكم قيام ينظر بعضكم إلى بعض ، وقد أخذه الفزع من هول المباغتة ، ومن رهبة الموقف ، ومن قدرة الله الذى يقول للشىء : كن ، فيكون . وإذا الحقيقة قد وضحت ، وقدرة الله قد ظهرت ، ووقف بعضهم يقول لبعض : يا ويلنا ! ما أسوأ حالنا ! وما أشد عذابنا ! هذا يوم الجزاء ، هذا يوم الحساب ؛ فيقال لهم : نعم هذا يوم الفصل بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، هذا يوم الحكم بين الناس ، هذا هو اليوم الذى يظهر فيه المحقّ من المبطل ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ، هذا هو اليوم الذى كنتم به تكذبون ، فذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

شيئاً عن أنبائها ، ولا يصل إليهم علم أخبارها ، فهم لا يستطيعون أن يسمعوا شيئا من أحاديث الملأ الأعلى، وهم الملائكة الأبرار ، وإذا حاولوا أن يسترقوا السمع منهم ، قُذفوا من كل ناحية بشُهُب مُحرقة ، فيرتدون مدحورين مطرودين — والدحور : الطرد ، فكأن الله تعالى يقول : وُيطردون طرداً من كل جانب — هذا جزاؤهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد أعددنا لهم عذاباً شديداً دائماً غير منقطع ، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة ، ويسترق مما يسمعه شيئاً ، فيتبعه قبل أن يصل به إلى الأرض شِهاب شديد الاشتعال ، قوى الضوء ، فيحرقه قبل أن يُفضَى به إلى المتكهنين ، الذين يضيفون إليه المفتريات والأكاذيب ، ويضللون بها أهل الأرض تضليلاً ، (تراجع الصفحة ٨٣ من الطبعة الأولى من تفسير جزء « تبارك ») .

٣ — فسل أهل مكة الذين ينكرون وحدانية الإله ، ويقولون : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ وقد عَموا عن هذه الأدلة الناطقة بوحدانيته ، واستخبرهم : أهم أشد خلقاً ، وأصعب تكويناً ، أم مَنْ خلقنا من الملائكة والأرض والكواكب والجبال والبحار ؟ قل لهم : أ أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟ قل لهم : لَخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، فكيف ينكرون قدرتنا على خلقهم ، وقدرتنا على إحيائهم بعد موتهم ، وهم أضعف مَن خلقنا ، وأهون مَنْ أنشأنا ؟ إنا خلقناهم من طين لزج لاصق لا قِوام له بنفسه ، ولا يصلح لقيام كِيانه بذاته ، كيف يستنكرون وقد خلقنا هم من طين وتراب ، فيقولون : أئذا كنا تراباً وآباؤنا ، أئنا لمخرجون؟ وقد خلقنا هذه العوالم ، وخلقها أشق ، وتكوينها أبدع وأدق ؟

٤ — لَشدّ ما بينك وبينهم ، وما بين قوة إيمانك وشديد إنكارهم ؛ بل لقد عجبتَ من قدرة الله القادرة ، على هذه الخلائق العظيمة ، وعجبت من إنكارهم

لخالقها ، ومن إنكارهم لقدرته على بعثهم وإحيائهم بعد الموت ، وهم ساخرون مستهزئون منك ومن عجبك ، ومن البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، وقد طبع الله على قلوبهم ، فإذا ذكّرتهم بآيات الله ، ووعظتهم بالقرآن ، لا يتذكرون ولا يتعظون ، ولا ينتفعون بما ذكروا ؛ وإذا رأوا معجزة من المعجزات ، وآية من الآيات ، فإن بعضهم يستدعى بعضاً للسخرية منها ، والاستهزاء بها ، وقالوا : ما هذا الذى جاء به محمد إلا سحر ظاهر ، يريد أن يُضلنا به عما كان يعبد آباؤنا من قبل .

٥ — وقالوا منكرين للبعث : أئذا متنا ، وتحللت أجسامنا ، وصارت تراباً ، وذهبت ذراتها فى الأرض هنا وهناك ، أتجمع من هذه الذرات عظامنا ، وتتكون أجزاؤنا ، وتعود إليها الحياة ، وتبعث للحساب ؟ وهل يمكن أن نصدق ذلك لآبائنا الأقدمين ، الذين ماتوا من آلاف السنين ، كيف تعود أجسامهم ، وترد إليهم حياتهم ؟ قل لهم يا محمد : نعم ستنشرون من قبوركم ، وتحيَون بعد موتكم أنتم وآباؤكم ، وتساقون إلى الحساب وأنتم أذلاء صاغرون .

٦ — ولا يستدعى هذا الأمر الذى أنكرتموه واستبعدتموه غير صيحة واحدة نأمر بها ، فإذا القبور تنشق عنكم ، وإذا أنتم أحياء كما كنتم ، وإذا بكم قيام ينظر بعضكم إلى بعض ، وقد أخذه الفزع من هول المباغتة ، ومن رهبة الموقف ، ومن قدرة الله الذى يقول للشىء : كن ، فيكون . وإذا الحقيقة قد وضحت ، وقدرة الله قد ظهرت ، ووقف بعضهم يقول لبعض : يا ويلنا ! ما أسوأ حالنا ! وما أشد عذابنا ! هذا يوم الجزاء ، هذا يوم الحساب ؛ فيقال لهم : نعم هذا يوم الفصل بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، هذا يوم الحكم بين الناس ، هذا هو اليوم الذى يظهر فيه المحقّ من المبطل ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ، هذا هو اليوم الذى كنتم به تكذبون ، فذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

(٢)

من الآية ٢٢ إلى الآية ٣٤ من سورة الصافات

اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ، وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ —١—. مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ؟ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ —٢—. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ؛ قَالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؛ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ —٣—. فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا : إِنَّا لَذَائِقُونَ —٤—. فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ، فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ، إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
احشُرُوا الذين ظلمُوا وأزواجهم	اجمعوا المشركين والكفار والعصاة في الموقف . مع أشياعهم وأشباههم في الشرك والعصيان .

الألفاظ	شرحها
وما كانُوا يعبدُون من دون الله	واحشروا معهم آلهتهم من الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله .
فاهْدُوهم إلى صراط الجحيم	فسوقُوهم إلى طريق جهنم .
وقِفُوهُم إنهم مسئولون	واحبسوهم ، إنهم مسئولون عن أعمالهم ، محاسبون على كفرهم .
ما لكم لا تَنَاصرون	يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً ، كما كنتم تفعلون فى الدنيا؟
مستسلمون	منقادون خاضعون .
وأقبلَ بعضهم على بعض	وأقبل الأتباعُ على الرؤساء .
يتساءلون	يتجادلون .
كنتم تأتوننا عن اليمين	كنتم تمنعوننا من الإيمان ، باليمين التى كنتم تحلفونها لنا أنكم لنا ناصحون ، فنصدقكم .
لم تكونوا مؤمنين	لم تكونوا مؤمنين فحوّلناكم كفاراً ، لكنكم كنتم على الكفر فأقمتم عليه .
وما كان لنا عليكم من سلطان	وما كان لنا عليكم من حجة أو قهر أو تسلط يسلبكم الاختيار فى اتباع الحق .
طاغين	ضالين متجاوزين الحد .
فحق علينا قولُ ربنا	فوَجبَ علينا جميعاً ما كتبه الله علينا من العذاب جزاء كفرنا .
فأغويناكم	فزيّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر .

الألفاظ	شرحها
غاوين	ضالّين .
مشتركون	ضالّون ومضلون .
كذلك	مثل هذا الفعل .
بالمجرمين	بالكفار .

مجمل المعنى

١ — يقول الله تعالى لملائكته ، بعد أن يبعث الناس من قبورهم يوم الجزاء الذى كان يكذب به المشركون : احشروا الظالمين ، واجمعوا المكذبين ، والطغاة والمشركين ، واجمعوا معهم أزواجهم وأشياعهم وأشباههم ، ومن كان على شاكلتهم ، المشرك مع المشرك ، والقاتل مع القاتل ، والزانى مع الزانى ، وهاتوا معهم آلهتهم من الأصنام والشياطين التى كانوا يعبدونها من دون الله ، ليعلموا أنها لا تنفع ولا تشفع ، ودُلوهم على طريق الجحيم ، وسوقوهم إلى عذاب النار ، بعد أن تقفوهم لنسألهم عن كفرهم وأعمالهم وأقوالهم ، ونحاسبهم على سوء ما فعلوا .

٢ — وقولوا لهم يا ملائكتى موبخين لهم ، ومستهزئين بهم : — لقد كنتم فى الدنيا تقولون : نحن جميع منتصر ، وسيمنع بعضنا بعضاً من عذاب الله ، فما لنا لا نراكم اليوم ينصر بعضكم بعضاً ؟ بل نراكم مستسلمين منقادين خاضعين .

٣ — وعند ذلك يقع الخصام ويحتدم الجدال بين الضالين والمضلين ، والأتباع والمتبوعين ، والكبراء والمستضعفين ، ويُقبل هؤلاء على هؤلاء ، يسأل

بعضهم بعضاً فى لَدَد وخصام ، فيقول الضعفاء : إنكم غرَّرتم بنا وخدعتمونا ، وأوقعتمونا فى الضلال والكفر ، باليمين التى كنتم تقسمون لنا بها على أنكم ناصحون مخلصون ، فخُدعنا بكم ، وبقينا على ضلالكم ؛ فيرد عليهم الكبراء قولهم ، ويسقطون حجتهم ، ويقولون لهم : إنا لم نوقعكم فى الكفر كما زعمتم ، ولم نحُل بينكم وبين الإيمان كما ادعيتم ، لأنكم لم تكونوا من قبل مؤمنين فأوقعناكم فى الكفر ، ولم تكونوا متجهين نحو الإيمان فحولنا اتجاهكم ، ولم يكن لنا عليكم تسلط أو قهر كما قلتم ، حتى نسلبكم اختياركم كما افتريتم ، ولم يكن لنا عليكم حجة قوية ، أو برهان قوى يمنعكم اتباع الحق ، بل كنتم كما كنا قوماً ضالين ، طاغين ، متجاوزين الحد فى الكفر والضلال والعصيان .

٤ — لهذا وجب علينا وعليكم ما توعدنا به ربنا فى الدنيا فكذبناه ، فكلنا ذائقو العذاب الأليم ، كما أخبر الله على لسان الرسل ، ولقد تحقق ما أكده : « لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين » .

٥ — ولئن كنا دعوناكم إلى الغى ، وزينّا الكفر إليكم ، إنا كنا ضالين مثلكم ، ومع ذلك فإننا نلقى جميعاً جزاءنا ؛ إنهم جميعاً — ضالين ومضلين — مشتركون فى العذاب ، كما اشتركوا فى الغىّ والضلال ، وإن الله يفعل بكل الكفار والمشركين ، ومن ارتكب الضلال أو حرّض عليه ، وعمل الجريمة أو أعان عليها ، مثل ما فعل بهؤلاء المشركين .

(٣)

من الآية ٣٥ إلى الآية ٦١ من سورة الصافات

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ ، يَسْتَكْبِرُونَ ، وَيَقُولُونَ : أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ؟ —١— . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ، وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ —٢— . إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٣— . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ : فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لَا فِيهَا غَوْلٌ ، وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ، وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ : أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ، أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ؟ قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ : تَاللهِ ، إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ —٥— . أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ،

إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ؟ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ -٦- . لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إذا قيل لهم : لا إله إلا الله	إذا قيل لهم : آمنوا ، واعتقدوا بوحدانية الله .
أئنا لتاركو آلهتنا	أينبغى أن نترك عبادة آلهتنا ؟
لشاعرٍ مجنون	لنتبع قول شاعر يستلهم الخيال ، مجنون يخلط فى الكلام .
وصَدَّق المرسَلين	وآمن بما جاء به الأنبياء المرسلون من توحيد الله .
المخلَصين	الموحدين الذين أخلصهم الله لطاعته .
لهم رزق معلوم	لهم فى الجنة عطاء معلوم لا ينقطع .
على سرر متقابلين	يجلسون على أسرة ووجوههم متقابلة ، ليكتمل الأنس ، ويتم السرور .
يُطاف عليهم	يطوف عليهم بالشراب وِلدان يبعث منظرهم سرور النفس .
من مَعين	من شراب جار ماؤه ، لا متغير ولا آسن
لا فيها غَولٌ	ليس فيه كحول يغتال عقولهم وأجسامهم ، كما كانت تغتالها خمر الدنيا .
يُنزَفون	يسكرون ، فتذهب بسببها عقولهم .

الألفاظ	شرحها
قاصراتُ الطرْف عينٌ	نظرهن مقصور عن التحديق فى الرجال ، وذلك من سمات الجمال ، والعِين جمع عيناء ، وهى واسعة العين .
كأنهن بيْضٌ مَكنون	هن عذارى مصونات من العبث بهن ، كالبيض النقى الصافى المصون من الكسر .
قائل منهم	قائل من أهل الجنة .
كان لى قَرينٌ	كان لى جليس ملازم لى فى الدنيا .
أئنك لَمِنَ المصَدِّقين	أ أنت من المؤمنين المصدقين بيوم الدين ؟
أئنا لمدينون	أئنا لَنُدان ونحاسب على أعمالنا بعد الموت ؟
هل أنتم مطلعون	هل تنظرون لأريكم هذا القرين الذى كان يجادلنى فى الدنيا فى أمر البعث ؟
فى سواء الجحيم	فى وسط جهنم .
تالله	قسماً بالله .
إن كدت لتُرْدين	إنك قاربت أن تهلكنى بإغوائك .
ولولا نعمة ربى	ولولا أن الله تفضل علىّ بنعمته ، فعصمنى من الكفر ، ووفقنى إلى الاستمساك بالإيمان .
لكنت من المُحْضَرين	لكنت من الذين أُحضروا معك فى النار .
أفما نحنُ بميتين	هل نحن مخلدون فى نعيم الجنة فلا نذوق الموت ؟
إلا موتتنا الأولى	غير موتتنا الأولى فى الدنيا .

مجمل المعنى

١ — إن هؤلاء المشركين الذين وقفوا للحساب أذلاء صاغرين ، يُلقى بعضهم على بعض تَبِـعة الكفر والضلال ، كانوا فى الدنيا إذا عُرض عليهم أن يقولوا : لا إله إلا الله ، ودعاهم الرسول إلى الإيمان بالله ، والاعتقاد بوحدانيته ، أعرضوا عنه ، واستكبروا استكباراً ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فأصروا على الكفر ، وقالوا : لا ينبغى أن نترك آلهتنا ، وندَع الأصنام التى نعبدها ، ونصبأ عن دين آبائنا وأجدادنا ، لنتبع قول شاعر يستوحى خياله ، ويستلهم شيطانه ، مجنون يخلط فى الكلام ، ويأتينا بما لم نسمعه من قبل .

٢ — إن محمداً ليس شاعراً كما زعمتم ، وليس مجنوناً كما افتريتم ، بل إن ما جاء به من الإيمان بالله وتوحيده ، لهو الحق الذى قام عليه البرهان ، وأجمعت عليه كافة الرسل ، وإنه مصدق لما جاء به من قبل أنبياء الله ورسله ، فأين الشعر والجنون من رجل يقول : ربى الله .

٣ — إنكم لتذوقون العذاب الأليم ، وتعاقبون العقاب الشديد ، وليس هذا إلا جزاء أعمالكم السيئة جزاء وفاقاً ، لا زيادة فيه ولا نقص .

٤ — إلا عباد الله الذين آمنوا به ، وصدّقوا رسله ، واتبعوا ما جاءوا به ، فلهم أضعاف مضاعفة من الجزاء الحسن ، يمتعهم الله بكل أنواع النعيم فى الجنة ، فيجعل لهم رزقاً معلوماً بصفاته الطيبة : من لون وطعم ورائحة ومنفعة ، يأتيهم رَغداً ، لا يعانون فى الحصول عليه مشقة ، وهو من فواكه طيبة جنية ، يقدم إليهم وهم مُكرمون معظمون فى مقامهم من جنات النعيم ، حيث يجمع الله لهم إلى الرزق الحسن كل ألوان السرور ،

فيعد لهم أسرّة يتكئون عليها متقابلة وجوههم ، وقد علاها البشر والبهجة ، فيأتنس كل منهم بأخيه ، وينعم بمحادثته ومجالسته ؛ ويطوف عليهم وهم جالسون ناعمون مغتبطون ولِدانٌ صِباح الوجوه ، أنيقو المنظر ، يقدمون لهم كئوس خمر لذيذة ، بيضاء صافية ، من معين جار ، فيها مع حسن مذاقها لذة للشاربين ، وليست هذه الخمر مما يغتال العقل ، أو ينهك الجسم ، أو تذهب بعقل شاربها وتسكره ، لما فيها من الكحول ، ولكنها تبعث النشاط والبهجة ؛ وعندهم للإيناس ، ومضاعفة السرور ، حُور الجنة ، خافضات النظر ، مقصورات الطرف ، نُجْل العيون ، فيهن استحياء وخفر ، يزيدهن جمالا على جمال ، صافية أجسامهن ، مصونات لم يمسسهن قبلهم أحد ، فبقيت فيهن النضارة والبضاضة والصفاء ، كأنهن البيض النقى الصافى المكنون ، الذى لم تمسسه يد ، ولم يغيره زمن ، فى ضيافة الله الكريمة ، وفى ساحة جناته الفسيحة — وقد خيم السرور على أهل الجنة ، واكتنفهم النعيم — جلسوا يتحادثون ويتساءلون ، ويتذاكرون أمور الدنيا ، وما كانوا يسمعون من المشركين الكافرين بالله ، فقال أحدهم فيما قال : إنى لأذكر أنه كان لى فى الدنيا قرين ملازم لى فى كل الأوقات ، حاول أن يُضلنى ويغوينى ، ويوقعنى فى الشرك والضلال ويَثنينى عن التوحيد بالإيمان ، فكان يقول لى : أأنت من المصدقين بوحدانية الله ، ومن المؤمنين برسالة محمد ، ومن المعتقدين بالبعث والحساب ، والثواب والعقاب ؟ أوَ تصدق أنا بعد أن نموت ، ونصير تراباً وحطاماً ، وعظاماً نخرة متفرقة هنا وهناك ، نحيا بعد الموت ، ونبعث للحساب ، لندان على أعمالنا ، وأقوالنا ، ونحاسب على ما قدمت أيدينا ؟

٥ — قال المتحدث : هل لكم أن تطلعوا معى على أهل النار ، لتروا كيف

يَلقون جزاءهم ؟ ثم وجه نظره وأشرف عليهم ، فرأى هذا القرين الذى كان يغويه ويضله فى وسط النار ، يَصْلى حرها ، ويقاسى عذابها . فقال له متشفياً موبخاً : أقسم بالله ، أنك قاربت أن تخدعنى وتضلنى ، وتوقعنى مثلك فى الردى والهلاك ، ولولا أن الله مَنّ علىّ بنعمته ، وحفظنى من شرِّك ، ووفقنى إلى الاستمساك بعروة الدين ، والبقاء على الإيمان ، لكنت مثلك ممن أُحضروا معك إلى هذه النار ، فقاسوا حرها ، وذاقوا عذابها .

٦ — قال المتحدث مغتبطاً بنعمة الله : أنحن مخلدون فى هذا النعيم ، لا ينقطع عنا ولا نحرمه ، ولا نموت مرة أخرى بعد الموتة الأولى التى كانت فى الدنيا ، ولا يحل بنا عذاب ، أو يقع علينا عقاب ؟ إن ما نحن فيه من نعيم مقيم ، وحياة لاموت بعدها ، واطمئنان لثواب الله ، وأمن من عذابه ، لهو الفوز العظيم ، الذى ليس وراءه فوز .

٧ — لنيل هذا المرام ، ولاستحقاق هذا المقام . يجب أن يعمل العاملون ، ويتنافس المتنافسون ؛ من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

(٤)

من الآية ٦٢ إلى الآية ٧٤ من سورة الصافات

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا ، أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ؟ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا ، فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ -١- . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ -٢- . وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ -٣- . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أذلك خير نزلاً	أذلك الرزق المعلوم خير نُزُلا ؟ والنزل : هو ما هُيئ لأهل الجنة من رزق حسن ، يستتبع اللذة والسرور .

الألفاظ	شرحها
أم شجرة الزقوم	أم ثمرة الزقوم خير نزلا ؟ والزقوم : شجرة مرّة ، كريهة الرائحة ، وثمرها غذاء أهل النار .
إنا جعلناها فتنة للظالمين	إنا جعلناها محنة وعذاباً للمشركين فى الآخرة .
تخرج فى أصل الجحيم	منبتها فى قرار جهنم .
طلعها كأنه رءوس الشياطين	ثمرها شكله متناهى القبح ، مزعج كأنه رءوس الشياطين .
فمالئون منها البطون	يأكلون منها على سوء حالها ، فيملئون بطونهم لشدة الجوع ، فيزيد ألمهم ، ويشتد عذابهم .
ثم إنّ لهم عليها	ثم إن لهم بعد أن يملئوا بطونهم منها .
لَشَوباً من حميم	لشراباً مخلوطاً من صديد وماء حار يقطع أمعاءهم .
ثم إن مَرْجعهم لإلى الجحيم	بعد أن يقدم لهم هذا الطعام وهذا الشراب ، يصيرون إلى الجحيم ليقيموا بها .
إنهم ألفوا آباءهم ضالين	إنهم وجدوا آباءهم على الشرك والضلال فقلدوهم ، دون أن يستشيروا عقولهم .
فهم على آثارهم يُهرعون	فهم يتبعون دين آبائهم ، ويسيرون على آثارهم مسرعين ، من غير توقف للبحث والنظر .
ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين	ولقد وقع قبلهم فى الضلال الذى وقع فيه قومك أكثر الأمم السابقة .
منذرين	مخوفين لهم عواقب كفرهم وضلالهم .
إلا عباد الله المخلصين	إلا الذين تنبهوا بالإنذار ، فأخلصوا دينهم لله .

مجمل المعنى

١ — ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة نُزُل أهل الجنة ، وما أعدّ لهم ربهم فيها من رزق معلوم ، وما هيأ لهم بها من حياة دائمة طيبة ؛ وفى هذه الآيات ذكر نزل أهل النار ، وما أعدّ لهم فيها من طعام ، وهو ثمر شجرة الزقوم، المرير مذاقه ، الكريهة رائحته ، القبيح شكله قبحاً شديداً ؛ إن الله قد جعل هذه الشجرة فتنة وبلاء يعذب بها المشركين فى الآخرة ، إنها شجرة لا تقوى نار جهنم على إحراقها ، وقد نبتت فى قرار جهنم ، وبسقت فروعها خلال اللهب المشتعل ، وبدا ثمرها قبيح الشكل ، بشع المنظر ، مخيفاً كأنه رءوس الشياطين ؛ وقد جرى فى مألوف أساليب العرب أن يصوروا الشىء المتناهى فى القبح بوجه الشيطان أو رأسه ، والشىء المتناهى فى الحسن بصورة الملك ، وكلاهما لا يرى ؛ فهذا طعامهم ، وهذا نزلهم الذى أعد لهم من شجرة الزقوم وثمرها كما وصفنا ، (تراجع الفقرة الثامنة من الصفحة ٤٤ من تفسير الجزء الرابع عشر عند شرح قوله : « والشجرة الملعونة فى القرآن ») ؛ يتركون حتى يشتد بهم الجوع ، ويكاد يقطع أمعاءهم ، ثم يؤتى بهم إليها فيأكلون منها بشرَه حتى يملئوا منها بطونهم ، فيشتد بهم العطش ، فيعرضوا على شراب ، وما هو شراب ، ولكنه من أغلظ ألوان العذاب ، إنه مزيج من صديد وقيح وماء حار ، وبعد أن يأكلوا هذا الطعام ، ويشربوا هذا الشراب ، يردّون إلى سواء الجحيم ، وينقلبون إلى عذاب السعير .

٢ — هذا هو الجزاء الحق لهؤلاء المشركين ، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلال والشرك فاقتدوا بهم ، ومضَوْا على آثارهم مسرعين ، دون أن ينظروا

ويفكروا فيما جاءهم به الأنبياء من الآيات التى توضح طريق الحق ، وتقطع بوحدانية الله ؛ وفى هذه الآيات دلالة ظاهرة على أن الإنسان يجب أن يتحمل تبعة ما يقول وما يعمل ، وأنه لا يعفيه من التبعة أن يُخدع أو يضلل ، فينبغى أن يحكِّم عقله ، ويقدر عاقبة ما يعمل من عمل .

٣ — وليس مشركو مكة أول من ضل وغوى باتباعهم دين آبائهم الأولين ، أو بوقوعهم فى حبائل الرؤساء والكبراء المضللين ، فلقد ضل قبلهم أكثر الأمم السابقة ، فساروا على دين آبائهم ، وخدعوا بتضليل رؤسائهم ، وعصَوْا أنبياءهم .

٤ — ولقد أرسلنا فى الأمم السالفة أنبياء ذوى شأن خطير ، بينوا لهم بطلان ما هم عليه من الشرك والضلال ، وأنذروهم عاقبته الوخيمة ، فعصَوْا وعَمُوا وصَمّوا عن اتباع الحق ، ولم يلتفتوا إلى الإنذار ، فانظر كيف كانت عاقبتهم من الهول والفظاعة وسوء المصير ؛ ولم يسلم من الضلال والكفر الذى استتبع هذا العذاب ، إلا من وفقهم الله وهداهم إلى اتباع الحق ، وعصمهم من الشرك ، من عباده المؤمنين الذين أخلصهم الله للإيمان ، فأخلصوا دينهم لله .

(٥)

من الآية ٧٥ إلى الآية ٨٢ من سورة الصافات

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ، فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ! وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ –١– . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ –٢– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولقد نادانا نوح	ولقد دعا نوح واستغاث بنا .
فلنعم المجيبون	فكنا نحن نعم المغيثون له ، فأجبناه أحسن إجابة .
وأهله	ومن آمن به واتبعه .
من الكرب العظيم	من الغرق وهوله .
ذريته	هم أولاد سام وحام ويافث .
وتركنا عليه فى الآخرين	وجعلنا له ثناء حسناً ، وذكراً طيباً ، فى الأجيال الآتية بعده .
سلام على نوح	وهذه الأجيال تسلم على نوح ، وتدعو له على الدوام ، جزاء له على صبره الطويل على أقوال الكفرة وأذاهم .
أغرقنا الآخرين	أغرقنا المكذبين له من قومه .

قصة سيدنا نوح

اقرأ ما جاء عن نوح وقصته مع قومه ، فى تفسير الجزء الثامن من سورة الأعراف ، فى الصفحة ١٠٢ وما بعدها ، وفى تفسير الجزء الثانى عشر من سورة هود ، فى الصفحة ٢٣ وما بعدها ، وفى تفسير الجزء التاسع عشر فى الصفحة ٦٦ وما بعدها .

مجمل المعنى

١ — ولما ذكر الله ضلال الأولين ، واتباعهم آباءهم ، وتكذيبهم المرسلين لهدايتهم ، ذكر أسبقهم شهرة فى التكذيب والضلال ، وهم الذين كذبوا نوحاً من قومه ، كما كذبت قريش محمداً ، فبيّن أن نوحاً عصاه كثير من قومه ، وأعرضوا عن دعوته ، واستكبروا استكباراً ، وآذوه أشد الأذى ، فنادى ربه ودعاه ، واستغاث به أن ينجيه من شرهم ، وأن يحفظه من العذاب الذى سيحل بهم ، فاستجاب الله دعاءه ، وأرسل عليهم الطوفان ، ونجى نوحاً هو ومن آمن به واتبعه من هول الطوفان ، وخلصه من الغرق ، وجعل ذريته من أبنائه : سام ويافث وحام هى الباقية المستعمرة للأرض ، وأهلك من عصَوْه فانقطعت ذريتهم ، وجعلنا له ثناء حسناً ، وذكراً باقياً طيباً فى الأجيال التى جاءت بعده ، وفى الأمم الباقين من الأجيال المتعاقبة .

٢ — لنوح — جزاء ما صبر طويلا على أذى قومه ، وعلى عصيانهم له — سلام الله وتحياته وبركاته ، ودعاء له من الأمم التى تعاقبت بعده ، إنه كان من عبادنا المؤمنين الصادقين فى إيمانهم ، فصبر طويلاً على دعوة قومه ، واحتمل كثيراً من شرهم ، وكان محسناً إليهم ، متجاوزاً عن إساءتهم ، راغباً فى هدايتهم ، فجزاه الله خير الجزاء ، وكذلك نجزى كل محسن ، كما نجزى كل مُسىء ، فأغرقنا الآخرين المكذبين له من قومه بالطوفان .

(٦)

من الآية ٨٣ إلى الآية ١١٣ من سورة الصافات

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَاذَا تَعْبُدُونَ ؟ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ؟ —١—. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ —٢—. فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ، فَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ —٣—. فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ ، فَقَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ؟ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ —٤—. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ، قَالَ : أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ؟ —٥—. قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ، فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ —٦— . وَقَالَ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ، رَبِّ ، هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ —٧— . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ، قَالَ : يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ : يَا أَبَتِ ، افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ —٨— . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ : أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ،

إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ —٩— . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ، كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ —١٠—. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ —١١—. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ —١٢—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإن من شيعته لإبراهيم	وإن ممن شايع نوحاً فى التوحيد ، وجرى على منهاجه وسنته إبراهيم .
إذ جاء ربه بقلب سليم	اذكر يا محمد إبراهيم ، حين جاء ربه بقلب سليم من الشرك والشك ، مخلص لدين الله .
أئفكا آلهة دون الله تريدون	أأنتم تعبدون من دون الله آلهة ، لا عن إيمان وصحة اعتقاد ، ولكن للإفك والكذب والضلال ؟
فما ظنكم برب العالمين	أى شىء ظننتم برب العالمين المستحق للعبادة ، حتى تركتم عبادته وعبدتم الأصنام ؟
فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم	فأوهمهم أنه نظر فى علم الكواكب الذى كانوا يعانونه ، وأخبرهم أنه استدل بأمارة فى علم النجوم، على أنه مُشرف على السُّقم والمرض .

الألفاظ	شرحها
فتولوا عنه مدبرين	فخافوا من العدوى ، وانصرفوا عنه هاربين ، وذهبوا إلى الاحتفال بعيدهم .
فراغ إلى آلهتهم	فأقبل فى خفية وحيلة على آلهتهم .
فراغ عليهم ضربا باليمين	فانهال عليهم ضرباً قوياً بيمينه .
فأقبلوا إليه يزفون	فأتوا إلى إبراهيم مسرعين مستنكرين تحطيم آلهتهم .
أتعبدون ما تنحتون	أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم ، وتنجرونها وتبرونها من الحجر والخشب .
ابنوا له بنياناً	أقيموا له مبنى ، واملئوه حطباً ، وأضرموا فيه النار ، وألقوا فيها إبراهيم .
فأرادوا به كيداً	فأرادوا أن يمكروا به ، واحتالوا لهلاكه .
فجعلناهم الأسفلين	فجعلناهم المقهورين المغلوبين .
هبْ لى من الصالحين	أعطنى ولداً من عبادك المؤمنين الصالحين .
فلما بلغ معه السّعى	فلما شب وكبر ، وبلغ المبلغ الذى جعله يسعى مع أبيه .
فانظر ماذا ترى ؟	ففكرْ فى هذا الأمر ، وأشرْ برأيك فيه .
قال : يا أبت افعل ما تؤمر	قال على سبيل الطاعة والتعظيم ، يا أبت ، افعل ما أمرت به .
فلما أسلما وتلّه للجبين	فلما استسلما وخضعا لأمر الله وطاعته ، وصرعه على شقه ، فوقع جبينه وهو أحد جانبى جبهته على الأرض .
قد صدّقت الرؤيا	قد حققت ما نبهناك عليه من ذبح ولدك.
البلاء المبين	الابتلاء والامتحان الظاهر .

الألفاظ	شرحها
وفديناه بذبح عظيم	وفديناه بكبش كبير سمين .
وباركنا عليه وعلى إسحاق	وأفضنا على إسماعيل وإسحاق بركة الدين والدنيا .
ومن ذريتهما محسن	ومن ذريتهما محسن لنفسه بالطاعة والإيمان .
وظالم لنفسه مبين	وظالم لنفسه ظلماً مُبيناً ظاهراً ، بالمعصية والكفر .

قصة إبراهيم

اقرأ ما جاء عن قصة إبراهيم فى تفسير :

الجزء الأول من سورة البقرة ، فى الصفحة ٩٣ وما بعدها ، والجزء الرابع من سورة آل عمران ، فى الصفحة الثالثة وما بعدها ، والجزء السابع من سورة الأنعام ، فى الصفحة ١٠٢ وما بعدها ، والجزء الثانى عشر من سورة هود ، فى الصفحة ٥٤ وما بعدها ، والجزء السادس عشر من سورة مريم ، فى الصفحة ٤٤ وما بعدها ، والجزء السابع عشر من سورة الأنبياء ، فى الصفحة ٢٧ وما بعدها .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله أن ممن شايعوا نوحاً فى الدعوة إلى التوحيد ، واحتمال الصبر على أذى قومه ، إبراهيم . اذكره يا محمد حين أعلن الدعوة إلى الإيمان ونبذ الشرك ، وجاء ربه بقلب سليم ، مخلص دينه لله ، برىء من النقائص كالغل والحسد ، والكيد والضلال والكفر ؛ وقال لأبيه وقومه ممن يصنعون الأصنام ، وينجرونها من الخشب ، وينحتونها من الحجر بأيديهم ، ثم

يتخذونها آلهة يعبدونها من دون الله : أىّ شىء هذا الذى تعبدونه ، وأعينكم تقول لكم : إنه قِطع من حجر ، أو أغصان من شجر ، وأيديكم تقول لكم : إنما هى التى صنعتها على مرأى منكم ؟ أتريدون أن تجعلوها آلهة تعبدونها من دون الله للإفك ، والإمعان فى الكذب والضلال !؟ .

٢ — ما ظنكم بالله المستحق وحده للعبادة والتوحيد ، رب العالمين وخالقهم ورازقهم ، إذا لقيتموه وقد كفرتم به ، وعبدتم غيره ، وأشركتم معه سواه ؟

٣ — لقد دعاه قومه أن يذهب معهم للاحتفال بعيدهم ، وأن يشاركهم فى لهوهم وضلالهم ، لعله يترك الطعن فى آلهتهم ، ويندمج فى حياتهم ، وقد اعتزم هو أن يقيم لهم الدليل ظاهراً على أن آلهتهم لا تدفع عن نفسها ضرًّا ، ولا تجلب لها نفعاً ، فتعلل لعدم الخروج معهم ، بأن نظر نظرة فى النجوم ، وتأمل فى طوالع الكواكب ، وكانت عند أهل بابل فى عهد إبراهيم مرجعَ القوم ، يستشيرونها فيما يفعلون ويتركون ، فجاءهم من حيث يصدقون ، وقال لهم : إنى عرفت منها أنى مشرف على مرض الطاعون ، وكان متفشياً بينهم ، وكانوا يفرون منه ، فخافوا من العدوى ، وتركوا إبراهيم ، وانصرفوا عنه مدبرين هاربين خوفاً من العدوى ، وذهبوا إلى الاحتفال بالعيد .

٤ — فأقبل إبراهيم فى حيلة وخفية ، وتسلل إلى المعبد ، فوجده خالياً إلا من الأصنام التى لا تنطق ، ولا تأكل ولا تشرب ، رأى أمامها ما تركه القوم قرباناً لها من الطعام لتأكله فى زعمهم ، فخاطبها ساخراً بعقول من عبدوها ، منددًا بكذب سدنتها على الناس ، وزعمهم أن الأصنام الآلهة تأكل الطعام ، والحقيقة أنهم هم الذين يملئون به بطونهم ؛ خاطبها قائلاً :

ألا تأكلون هذا الطعام الذى تركه القوم أمامكم ؟ ما لكم لا تنطقون ولا تجيبون عن سؤالى ؟ ثم أنحى عليهم ضربا بيمينه ، وكامل قوته ، فخرت محطمة ، ووقعت مهشمة ، ثم ذهب ولم يشعر به أحد .

٥ — رجع القوم من عيدهم ، وجاءوا إلى معبدهم ، ووجدوا الأصنام على هذه الحال ، فبحثوا عن إبراهيم ، وأقبلوا إليه مسرعين ، وأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، وقالوا له : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ فسألهم موبخاً منكراً لهم : أتعبدون الأصنام التى تنحتونها بأيديكم ، وتتخذون آلهة من تماثيل ، أنتم الذين صورّتموها وشكلتموها كما شئتم ، ثم تتركون عبادة الله الذى خلقكم ، وخلق لكم أيديكم التى عملتها وصورتها ، كما خلق الأصنام التى تعبدونها ، لأنه هو الذى خلق فيكم الاستعداد والقدرة للعمل ، كما أنه خلق المادة التى منها عُملت ، فكيف تكونون أنتم الذين عملتم هذه التماثيل ، ثم تجعلونها معبودات لكم ! ؟

٦ — ولما أفحمهم إبراهيم بالحجة ، وغلبهم بقوة الدليل ، لجئوا إلى الاستبداد والجبروت ، فقالوا : ابنوا له بنياناً ، واملئوه حطباً وخشباً ، وأوقدوا فيه النار ، وألقوه فيها ، فوالله لنحرقنه ثم لننسفنه نسفاً ، حرِّقوه وانصروا آلهتكم ؛ ثم فعلوا ما أرادوا من الكيد لإبراهيم ، وألقوه فى النار التى صنعوها ، ولكن الله أبطل كيدهم ، وأذهب عنه شرهم ، فجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وجعلهم الأسفلين المقهورين بقوة حجة إبراهيم عليهم ، وبمعجزته التى ظهرت أمامهم .

إسماعيل وإسحاق

٧ — فلما نجاه الله من كيدهم ، وخلصه من النار التى ألقوه فيها ، عزم أن يرحل عنهم ، ويهاجر إلى بلد هادئ يستطيع أن يعبد فيه ربه ، فتركهم وقال : إنى ذاهب إلى ربى ، سيهدينى ، ويوفقنى إلى ما فيه صلاحى ، وهاجر من بابل مملكة النمروذ إلى الشام ، ودعا ربه أن يرزقه بولد ذكر ، ويجعله من عباده الصالحين ، ليعينه فى شيخوخته ، ويؤنسه فى وحدته ، ويتقوى به فى غربته . فاستجاب الله دعاءه ، وبشره بأنه سيولد له غلام ذكر ، متصف بالحلم ، ووهب له ولده إسماعيل ، ثم رحل به إلى واد غير ذى زرع ، عند بيت الله المحرم .

٨ — فلما شب وكبِر ، وأصبح قادراً على السعى مع أبيه فى أمور الدنيا ، وأن يعينه على أعماله ، رأى إبراهيمُ فى المنام فى الليلة التى تسبق ليلة عرفة ، من يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح رَوّى فى هذه الرؤيا : أى فكّر : أهذه الرؤيا من الله أم من الشيطان ؟ فسُمى اليوم الذى يسبق عرفة يوم التروية ؛ فلما أمسى رأى نفس المنام ، فعرف أنه أمر من الله ، وسُمّى اليوم عرَفة لذلك ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فهمّ بنحره ، وسُمّى اليوم يوم النحر ؛ وجاء بابنه ، وقال له فى شفقة وحنان : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، وأراد أن يقوى قلبه على تحمل تلك البلية العظيمة ، فشاوره بقوله : فانظر ماذا ترى ، وإن كان يعلم أن أمر الله لا بد من نفاذه ، ليعلم ما عند الفتى من الصبر عند تلقى هذا الامتحان العظيم ، وليشجعه على ملاقاة هذا البلاء ، فقال إسماعيل فى تعظيم وتوقير لأبيه ، وفى طاعة واستسلام لأمر الله : يا أبت ، افعل ما أمرك الله به ، وستجدنى إن شاء الله من الصابرين على قضائه ، الممتثلين لأمره .

٩ — فلما استسلما لأمر الله ، وأذعنا لحكمه ، وهمَّ الأب أن يذبح ابنه ، وأسلم الابن نفسه لأبيه ، فأوقعه على أحد جنبيه إلى الأرض ، وشرع يذبحه فى صبر وَجلد ، أمره الله أن يكف ، وأخبره أنه قبل منه شروعه فى تنفيذ أمر الله برضا وصبر ، وسمع نداء يقول له : يا إبراهيم قد حققت ما أمرناك به فى المنام من التسليم بذبح ابنك ، وقد مننا عليك بالفرج بعد الشدة ، وأنقذناك من الكرب العظيم ؛ وبمثل ذلك الجزاء نجزى المحسنين أمثالك ، وإن ما اختبرنا به إخلاصك وإيمانك ، لهو الابتلاء البين الذى يتميز به المخلصون ؛ روى أن إسماعيل قال لأبيه عند ما أراد ذبحه : يا أبت : اشدد رباطى حتى لا اضطرب ، واكفف ثيابك لئلا ينتضح شىء من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع َمرّ السكين على حلقى ليكون الموت أهون علىّ ، وكبَّنى على وجهى لئلا تنظر إليه فترحمنى .

١٠ — وقد قبل الله من إبراهيم أن يخلص ابنه من هذا البلاء ، بأن يذبح بدله كبشاً سميناً كبيراً ، وجعل له فى الأمم التى تجىء بعده ثناء حسناً ، وذكراً طيباً ؛ وله سلام من الله ، وتحية مباركة ، فقد كان من المحسنين الذين يستحقون خير الجزاء ، وأحسن الثناء ، لأنه كان من المؤمنين المخلصين .

١١ — وقد أراد الله أن يتم نعمته على إبراهيم ، بعد أن وهب له ولده إسماعيل ، وافتداه بذبح عظيم ، فبشره بأنه سيهب له من ابنة عمه سارة ولده إسحاق ، وأنه سيصطفيه ويجعله من أنبيائه الصالحين .

١٢ — وبارك الله فى إسماعيل وإسحاق ، فأجزل النعمة عليهما ، وكثر نسلهما ؛ وقد بيَّن الله أن بنوّة الأنبياء لا تنفع إلا إذا صحبها العمل الطيب ، فقال : ومن ذريتهما فريق محسن يعمل الأعمال الصالحة ، فيستحق رضا الله ومثوبته ، وفريق ضالّ لا يعمل عملاً صالحاً ، فهو ظالم لنفسه ، بما يجر عليها من عذاب شديد ، وعقاب بيِّن ظاهر يوم القيامة ، ولا ينفعه أنه ابن إسماعيل أو ابن إسحاق .

(٧)

من الآية ١١٤ إلى الآية ١٢٢ من سورة الصافات

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ، وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ –١–. وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ –٢– . سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولقد مننا على موسى وهارون	ولقد أنعمنا بالنبوة عليهما .
ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم	وأنقذناهما وبنى إسرائيل قومهما من ظلم فرعون وقومه ، ومن الغرق فى بحر القلزم .
الكتاب المستبين	التوراة الواضحة البينة .
وهديناهما الصراط المستقيم	وأرشدناهما إلى الطريق الحق ، والدين الصحيح .
وتركنا عليهما فى الآخرين	وجعلنا لهما ذكراً حسناً فى الأمم التى جاءت بعدهما .

قصة موسى وهارون

ارجع إلى ما كتب عن قصة موسى وهارون وفرعون، فى تفسير الجزء التاسع بسورة الأعراف ، فى الصفحة ١٢ وما بعدها ، وفى تفسير الجزء السادس عشر بسورة طه ، فى الصفحة ٧٦ وما بعدها، وفى تفسير الجزء التاسع عشر، بسورة الشعراء ، فى الصفحة ٣٨ وما بعدها ، وفى الصفحة ١٠٣ وما بعدها، وفى تفسير الجزء العشرين بسورة القصص ، فى الصفحة ٢٧ وما بعدها .

مجمل المعنى

١ — ونؤكد أننا قد أنعمنا على موسى وأخيه هارون بنعمة النبوة ، واصطفيناهما للرسالة ، وخلصناهما وقومهما بنى إسرائيل من ظلم فرعون وقومه ، الذين كانوا يسومونهم العذاب، وأنقذناهم من الغرق الذى أدرك فرعون وجنوده، ونصرناهم — على استكانتهم وجبروت فرعون وقومه — فجعلناهم الغالبين الظافرين ، وليس بعد ذلك منّة ، أو وراء ذلك نعمة ، يمتن بها الله على موسى وهارون ، وقومهما من بنى إسرائيل : تشريف بالنبوة ، ونجاة من الذل والأسر والاستعباد ، ونصر على عدو يسومهم سوء العذاب ، وتغلب على جبار جعل نفسه عليهم الرب الأعلى ، وقال لهم : أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟

٢ — ثم آتاهما بعد ذلك كله التوراة البينة الواضحة ، التى تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وجعلنا لهما فى الأمم المتعاقبة ، والأجيال المتتالية ، ذكراً حسناً .

٣ — ولهما تحية من الله مباركة طيبة، وعليهما سلام منه ورضاً تام ، فلقد استحقا هذه النعم وهذا السلام ، لأنهما كانا من المحسنين ، ومن عباد الله المؤمنين ؛ ومثل هذا الجزاء الطيب نجزى المحسنين المؤمنين .

(٨)

من الآية ١٢٣ إلى الآية ١٣٢ من سورة الصافات

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ، وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ : اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ —١— . فَكَذَّبُوهُ ، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ، إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ —٢— . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ ، سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإن إلياس لمن المرسلين	إلياس : نبىّ من أنبياء الله ، من ذرّية هارون أخى موسى .
أتدعونَ بعلاً	أتعبدون الصنم الذى سميتموه بعلاً ؟
وتذرون أحسنَ الخالقين	وتتركون عبادة الله الذى خلق أحسن خلق ، وقدّر أبدع تقدير .
الله ربكم	وتتركون عبادة الله ربّكم ، الذى خلقكم ورعاكم ورزقكم .

الألفاظ	شرحها
لَمُحْضَرُونَ	لمسوقون ومُحضرون إلى النار ، ليلقوا جزاءهم فيها .
إلياسينَ	جمع إلياس ، والمقصود به : إلياس وقومه الذين اتبعوه .

إليـاس

كان إلياس سبط هارون أخى موسى ، وكان من الأنبياء المرسلين ، أرسل إلى قومه ، وكانوا يعبدون صنماً يدعى « بعلاً » ، فى بلد بالشام تسمى : (بَك) ، وهى التى تسمى الآن : (بعلبك) .

مجمل المعنى

١ — وإن إلياس لنبى من أنبياء الله المرسلين إلى قومه ، حينما دعاهم إلى عبادة الله ، وقال لهم : ألا تخشون الله وتتقون عذابه ؟ كيف تعبدون (بعلاً) ، وتطلبون منه الخير لكم ؟ وهو صنم لا يسمع ولا يعقل ، ولا يضر ولا ينفع ، وتتركون عبادة الله ، وهو الذى خلق هذا العالم فأبدع خلقه ، وكونه فأحسن تكوينه ، هو الله خالقكم وخالق آبائكم الأقدمين ، منذ نشأتكم الأولى .

٢ — ظل قوم إلياس على عبادة الصنم ، وكذبوه فلم يؤمنوا بالله ، وسيحضرهم للعذاب الشديد على الكفر والتكذيب ، ولا ينجو من عذابه إلا من آمن به وصدقه من عباده المؤمنين المخلصين .

٣ — وقد جعلنا لإلياس ذكراً وثناء باقياً فى الأمم المتعاقبة ، والأجيال المتتالية ، وعليه تحية من الله مباركة ، وسلام ورضاً ، لأنه ممن كانوا يؤثرون الإحسان ، وكان من عباد الله المؤمنين ؛ ومثل هذا الجزاء الحسن ، يجزى الله المحسنين المؤمنين .

(٩)

من الآية ١٣٣ إلى الآية ١٣٨ من سورة الصافات

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ، وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إلا عجوزاً فى الغابرين	إلا امرأته العجوز ، فإنها باقية مع الباقين فى العذاب .
دمّرنا الآخرين	أهلكنا الآخرين الذين لم يؤمنوا .
تمرون عليهم مُصبحين	تمرون على آثار منازلهم فى النهار ، وأنتم فى طريقكم بتجارتكم إلى الشام .
وبالليل	وتمرون عليها بالليل .
أفلا تعقلون	أليس لكم عقول تفكرون وتعتبرون بها ؟

قصة لوط

اقرأ ما كتب عن قصة لوط فى تفسير الجزء الثامن بسورة الأعراف ، فى الصفحة ١١٩ وما بعدها ، والجزء الثانى عشر بسورة هود ، فى الصفحة ٥٩ وما بعدها ، والجزء الرابع عشر بسورة الحجر ، فى الصفحة ٢١ وما بعدها ،

والجزء السابع عشر بسورة الأنبياء ، فى الصفحة ٣٤ وما بعدها ، والجزء التاسع عشر بسورة الشعراء ، فى الصفحة ٨٠ وما بعدها ، والجزء العشرين بسورة العنكبوت ، فى الصفحة ١١٨ وما بعدها .

مجمل المعنى

وإن لوطاً لمن أنبياء الله المرسلين ، واذكر يا محمد إذ نجيناه وأهله الذين آمنوا به ، فخرجوا معه ليلاً من قرية سَدوم ، ونجوا من الخسف والهلاك أجمعين ، إلا امرأته العجوز ، فقد قضى عليها أن تظل فى الغابرين الباقين فى القرية ، مع الظالمين المعذبين ، لأن هواها كان معهم ؛ ثم أوقع الله الخسف والهلاك والتدمير بالعصاة الآخرين ، وأبقى آثارهم شواهد جلية ، تذكر الناس بما فعل بأولئك الذين ارتكبوا أفحش الجرائم جهرة ، دون أدب أو حياء ؛ وإنكم يا معشر قريش لتمرون بقرية سدوم ، وأنتم فى طريقكم بالتجارة إلى الشام ، فى كل وقت من النهار أو الليل ، فى الصباح أو المساء ، فترونها ماثلة أمامكم ، وعبرة وموعظة لكم ، أفلا تعقلون وتتدبرون يا كفار قريش ، حينما تشاهدون هذه الآثار ، فتتخذوا منها العبرة ، وتحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم من الخسف والعذاب ؟

(١٠)

من الآية ١٣٩ إلى الآية ١٤٨ من سورة الصافات

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ —١— . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ —٢—. فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ —٣— . فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أبَق	هرب من قومه بغير إذن ربه .
إلى الفلك المشحون	إلى السفينة المملوءة .
فساهمَ	فألقى السهام معهم ، مشاركاً لهم فى القرعة .
فكانَ منَ المدحضين	فكان من المغلوبين فى القرعة .
فالتقمهُ الحوتُ	فابتلعه الحوت .
وَهوَ مُليمٌ	وهو مؤاخذ ، واقع عليه اللوم .
كانَ منَ المسبِّحين	من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح .

الألفاظ	شرحها
للبثَ فى بَطنه	لبقى فى بطن الحوت .
إلى يوم يُبعثونَ	إلى يوم القيامة ، فيبعث مع جميع الخلق .
فنبذناهُ بالعراء وهو سقيم	فألقيناه بالمكان الخالى من الشجر والناس ، وهو مريض عليل من الضيق الذى عاناه فى بطن الحوت .
من يَقطين	من شجرة القرع الكثيرة الظلال والامتداد ، ولا يغشاها الذباب .
فمتعناهم إلى حين	فأنعمنا عليهم بالإيمان والهناءة طول حياتهم .

قصة يونس

اقرأها فى تفسير الجزء الحادى عشر ، فى الصفحة ١٢٠ وما بعدها من سورة يونس ، وفى تفسير الجزء السابع عشر ، فى الصفحة ٤٥ وما بعدها من سورة الأنبياء مبسوطة مفصلة ، وفى تفسير جزء « تبارك » ، فى الصفحة ٣٧ وما بعدها من سورة القلم ، الطبعة الأولى .

مجمل المعنى

١ — وإن يونس بن متّى عليه السلام ، لمن أنبياء الله المرسلين ، اذكر قصته حينما هرب دون إذن من ربه ، يائساً من أن يصدقه أهل نِينوَى الذين أرسله الله إليهم ، وجاء إلى بحر الروم ، فوجد سفينة مملوءة بالسلع والمسافرين ، فلما سارت فى البحر ثارت عليها العواصف والزعازع ، وجاءتها الأمواج

من كل مكان ، فتوقفت عن السير ، وكادت تغرق ، فألقىَ ما فيها من السلع ، تخفيفاً لحمولتها ، فلم يسلس قيادها ، وبقيت فى اضطرابها ، فاقترح أهل السفينة أن يجروا قرعة على الركاب ، ليقذف من تقع عليه القرعة بنفسه فى البحر ، تخفيفاً من حمولة السفينة ، لعلها أن تسير ، فألقوا سهامهم ، وساهم يونس معهم ، فكان من المدحضين المغلوبين فى القرعة ، وألقى بنفسه فى البحر .

٢ — فابتلعه حوت كبير ، فشعر بالضيق والظلمة والخوف فى بطن الحوت ، وظن أنه سيموت ، ودعا الله أن يخفف عنه الكرب ، ويفرج عنه الضيق ، وينقذ حياته ، ويعيده إلى الشاطئ سالماً ، وعرف أنه كان قد فعل ما يلام عليه ، وأنه مؤاخذ مستحق للعقاب ، لهربه دون أن يأذن الله له ، وتركه قومه مغاضباً لهم .

٣ — ولكن الله تولاه برحمته ، وأدركه بلطفه ، لأنه كان من المؤمنين المسبحين ، الذاكرين الله كثيراً ، فقذفه الحوت على الشاطىء ، ولولا ذلك لما تفتحت عينه على نور الدنيا ، ولظل فى بطن الحوت ، وذهب مع الذاهبين إلى يوم القيامة ، حتى يبعث مع جميع الخلق .

٤ — فألقِيَ فى الخلاء وهو سقيم مريض ، متعب مجهد ، خائف وحيد ، فأنبت الله عليه شجرة وَريقة من أشجار اليقطين — وهو القرع — فظللته من حرارة الشمس ، وحمته من الريح ، حتى سكنت نفسه ، وذهب خوفه ، وشعر بلطف الله ورحمته ، فأذعن لأمر ربه ، وقام بأداء رسالته ، وذهب إلى أهل نينوى وكانوا نحو مائة ألف ، فهداهم الله جميعاً ، ولم يقع منهم ما كان يخشاه من التكذيب والعصيان والعناد والأذى ، مثل ما وقع لغيره من الأنبياء ، وآمنوا به ، وأنعم الله عليهم بنعمة الهدى والإيمان ، والسعادة والهناءة طول حياتهم .

(١١)

من الآية ١٤٩ إلى الآية ١٦٣ من سورة الصافات

فَاسْتَفْتِهِمْ : أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ؟ —١— . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ —٢— . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ —٣— . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ مَا لَكُمْ ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ —٤— . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ —٥— . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ؟ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ —٦— . وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ : إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ، إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ —٧— . فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فاستفتهم	فسل يا محمد أهل مكة ، مستنكراً عليهم ما يقولون
ألربّك البناتُ	هل البنات منسوبات إلى الله ، والبنون منسوبون إليكم ؟!

الألفاظ	شرحها
وهم شاهدون	وهم حاضرون مشاهدون حين خلقنا الملائكة إناثاً .
إفكهم	أسوأ كذبهم ، وأقبح افترائهم .
كيف تحكمون ؟	كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد ، الذى لا يقبله العقل ؟
أفلا تذكرون	أفلا تفكرون وتتذكرون بأنه لا ينبغى أن يكون لله ولد .
وَجعلوُا بينه وبين الجنة نَسباً	قال اليهود : إن الله صاهر الجن ، فولدوا له الملائكة فهم بناته ، وجعلوا الجنة أنسباء الله وأصهاره .
إنهم لمُحْضَرُون	إن الذين قالوا ذلك محضرون إلى النار ، ليلقوا فيها جزاءهم .
سبحان الله عما يصفون	تنزه الله تنزيها ، وتبرأ مما ينسبون إليه من الولد أو الصهر أو الشريك .
ما أنتم عليه بفاتنين	ما أنتم بمضلين أحداً عن عبادة الله ، فاتنين له عن الاعتراف بوحدانيته .
إلا من هو صَال الجحيم	إلا من كتب الله عليه أنه لا يهتدى ، ويصلى نار جهنم .

مجمل المعنى

١ ــ فاسأل يا محمد أولئك السفهاء من قريش ، من قبائل جُهينة وبنى سَلمة وخُزاعة وغيرهم ، مبكتاً لهم ، مبيناً فساد اعتقادهم ، وخطل رأيهم ، ومنكرا قولهم الذى لا يسوغه تفكير صحيح ، ولا يقبله رأى سديد ، وهو قولهم :

الملائكة بنات الله ، وقل لهم : ألربى البنات ، ولكم أنتم البنون ؟ وما الذى سوّغ لكم هذا القول حتى تقولوه ؟

٢ — وأى دليل عندهم جعلهم يؤنثون الملائكة ، ثم يقولون : إنهم بنات الله ؟ هل حينما خلقهم الله ، كان قد أحضرهم ليشاهدوا خلقهم ، حتى يعرفوا إن كانوا إناثاً أم كانوا ذكوراً ؟ وهل رأوا الملائكة حتى يحكموا على طبيعة خَلقهم ، ويعرفوا حقيقة أمرهم ؟

٣ — ألا إن من قبح افترائهم على الله ، أن ينسبوا له الولد ، وهم يعلمون أنه يستحيل على الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، أن يكون له والد أو ولد ، وإنهم لكاذبون فى قولهم ذلك كذباً بيناً صريحاً ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

٤ — ما الذى سوّل لهم أن يزعموا ذلك وهو واضح البطلان ؟ فإذا كان من المستحيل أن يكون له ولد أو بنت ، فلماذا — كما زعمتم — اختار أن يكون له البنات ، وأن يكون لكم البنون ؟ ما الذى جرى لكم ، وحصل لعقولكم ؟ كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد ، الذى لا يقبله عقل ولا منطق ؟

٥ — أفلا تتفكرون فى خلق الله ، وتتذكرون عظيم قدرته ، وبراهين وحدانيته ، وتنزهه عن الوالد والولد ، فتلاحظوا بطلان ما قلتم ، وتصححوا ما فسد من اعتقادكم ؟

٦ — بل ألكم سلطان مبين ، وحجة بالغة نزلت عليكم من السماء ، فأخبرتكم بسوء ما قلتم ؟ لأن ما قلتم ليس له سند حسى أو عقلىّ ، يسوّغ لكم هذا الافتراء ، فإن كان عندكم هذا البرهان ، ولكم هذا الدليل ، الذى يثبت دعواكم ، فهاتوه إن كنتم صادقين ؛ وفى هذه الاستفهامات الساخرة المتكررة ، بيان لاستبعاد أباطيلهم ، وتسفيه أحلامهم ، والاستهزاء بهم .

٧ — وزعم هؤلاء القوم الأفاكون أن الجن أصهار الله وأنسباؤه ، ومن هذه المصاهرة ولدت الملائكة ، فالجنة أمهاتهم ، والله أبوهم ، وأقسم لقد علمت هذه الجنة التى جعلوا بينها وبين الله نسباً ، أن الكفرة الذين قالوا ذلك وافتروه ، لمحضرون إلى النار ، معذبون بها لكذبهم وافترائهم ، وأن الجنة التى ادعى هؤلاء لهم هذا النسب يكذبونهم فى ذلك ، ويحكمون بأنهم معذبون لأجل ما قالوه عذاباً مؤكداً ، وقالت الملائكة : تنزه الله عما وصفوه به من الشريك والولد والصهر ، وإن عباد الله المخلصين ، المؤمنين بوحدانية الله ، الذين نحن من جملتهم ، بُرَآء من أن يصفوا الله بما وصفه به المشركون ، ولن يحضروا معهم النار ، ويعذبوا فيها كما يعذبون .

٨ — فإنكم وما عبدتم من دون الله أيها المشركون ، لستم بفاتنين ومفسدين عليه عباده المخلصين ، ولستم مُضلين لهم عن سبيل الله ، لكن الذين يظلون على الكفر بسوء اختيارهم ، وفساد اعتقادهم ، سيصيرون من أهل النار ، يصلون حرها ، ويقاسون عذابها .

(١٢)

من الآية ١٦٤ من سورة الصافات ، إلى آخر السورة

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ —١— . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ —٢— . وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ : لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، فَكَفَرُوا بِهِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ —٣—. وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ : إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ —٤—. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ —٥— . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ؟ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ! —٦—. وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ —٧— . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مَقام مَعلوم	مكان معلوم فى العبادة .
الصّافّون	المصطفون لعبادة الله .
لو أن عندنا ذِكراً من الأولين	لو أن عندنا كتاباً من الكتب التى نزلت على الأقدمين .
سَبقتْ كلمتنا	سبق وعدنا بالنصر والغلبة .
لعبادنا المرسلين	لأنبيائنا الذين أرسلناهم لهداية البشر .
جُندنا	المؤمنين بنا من أتباع الأنبياء .
فتولّ عنهم	فأعرض عنهم .
حتى حين	إلى حين يأتى موعد نصرك .
وأبصِرْهم فسوف يبصرون	وأبصرهم لترى العذاب الذى يقع بهم لا محالة ، فسوف يبصرون ما قضينا لك من النصر والتأييد .
أفبعذابنا يستعجلون	أيستعجلون عذابنا قبل حينه ؟
فإذا نزل بساحتهم	فإذا نزل العذاب بفِنائهم ، وحلّ بهم .
فساء صباحُ المنذرين	فبئس صباح المنذرين صَباحهم .
سبحان ربك	تنزيهاً لربك .
رب العزة	ذى العزة والقوة والغلبة .
عما يصفون	عما ينسبون إليه من الولد والصاحبة والشريك .
وسلام على المرسلين	للمرسلين الأمن من الله يوم الفزع الأكبر .

مجمل المعنى

١ — وما منا معشر الملائكة إلا له مقام معلوم ، وموضع محدد فى العبادة ، والخضوع لأمر الله ، مقصور عليه لا يتجاوزه ، ولا يستطيع أن يحيد عنه ، إذعاناً لعظمته ، وخشوعاً لهيبته ، وتواضعاً لجلاله ، وإقراراً بمعبوديته ووحدانيته .

٢ — وإنا لنحن المصطفون المتفرغون لعبادته ، المنقطعون لطاعته ، ونحن المسبحون له ، المقدسون لذاته عن كل ما لا يليق به .

٣ — وإن هؤلاء المكذبين من قريش ، كانوا يقولون : لو أنزل إلينا من السماء كتاب من كتب الأولين ، كالتوراة والإنجيل ، لاتبعناه وآمنا به وصدقناه ، وأخلصنا العبادة لله وحده . ولقد جاءهم كتاب أى كتاب ، وذكرٌ خيرُ ذكر ، كما تمنوْا وكما أرادوا ، فكفروا به وكذبوه ، وسيعرفون غاية تكذيبهم ، وسوف يعلمون عاقبة كفرهم .

٤ — ولقد سبق وعدنا لأنبيائنا الصادقين ، وعبادنا المرسلين ، بأنهم الغالبون المنصورون ، وأنهم سيعلون على أعدائهم فى مقام الحجة ، وملاحم القتال فى الدنيا ، وبالظفر بنعيم الجنة فى الآخرة ، وإن جندنا — وهم أتباع الرسل — هم دائماً الغالبون على أعدائهم فى الدنيا والآخرة .

٥ — فأعرض عن المشركين يا محمد ، ولا تلق بالك لتكذيبهم ، ولا تأبه لعنادهم ، فسينصرك الله عليهم ، وأبصرهم لترى ما يقع بهم من القتل والأسر على أسوأ حال ، وأفظع نكال ، فسيبصرون ما قضينا لك من النصر والتأييد ، حين لا ينفعهم الإبصار ، والمراد بإبصارهم : الإيذان بقرب وقوع العذاب بهم .

٦ — ولما نزل قوله تعالى : « وأبصرهم فسوف يبصرون » ، قالوا مستعجلين لعذاب الله ، متحدين لقدرته : متى يكون هذا ؟ فنزل قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون ؟ » ، وغضبنا يستنجزون؟ ؛ فإذا تحقق وعدنا ، ودهمهم العذاب ، ونزل بفِنائهم ، وحل بدارهم ، وأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، فبئس العذاب عذاب المشركين ، وبئس الصباح صباح المنذرين ؛ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما أتى خَيبر ، وكان اليهود خارجين إلى مزارعهم ، قالوا : محمد والخميس — أى الجيش — ، ورجعوا إلى حصنهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .

٧ — لا تشغل بالك بهم يا محمد ، وأعرض عن هؤلاء المشركين ، إلى أن يحين موعد انتصارك عليهم ، فستبصر ما يحل بهم من كل فنون الهزيمة والنكال ، وسيبصرون ما تنال من كل أنواع النصر ، مما لا يحيط به وصف .

٨ — تنزه الله سبحانه وتعالى عن كل ما يصفه به المشركون مما لايليق بربوبيته ، وهو مربيك ومكملك ، وله وحده العزة والغلبة ، والقهر والسلطان ؛ وعلى الأنبياء المرسلين تحية من الله ، ولهم سلام وأمن من كل مكروه ، وفوز بجميع مآرب الدنيا والآخرة ، والحمد لله رب العالمين على هلاك الأعداء ، ونصرة الأنبياء .

سورة ص

نزلت بمكة ، وآياتها ثمان وثمانون آية

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١١

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ ، وَالْقُرْآنِ الذِّكْرِ —١— . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ —٢— . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ، فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ —٣— . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ : هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ —٤— . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ —٥— . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ، مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ —٦— . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ؟ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ —٧— . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ —٨— . أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ؟ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ —٩— . جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ص	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
والقرآن ذى الذكر	أقسم بالقرآن ذى الشرف والقيمة والذكر .
فى عزة وشقاق	فى استكبار عن الحق ، وخلاف لله ورسوله .
كم أهلكنا من قبلهم من قرن	لقد أهلكنا قبلهم كثيراً من الأمم بسبب كفرهم .
فنادوا	فجهروا بالاستغاثة والتوبة والاستغفار ، بعد أن رأوا العذاب .
ولات حين مناص	وليس الوقت وقت تخلص ونجاة .
منذر منهم	نبى من جنسهم .
هذا ساحر كذاب	هذا رجل يعمل عمل السحرة ، فما يسميه معجزة ليس إلا سحراً يفتريه على الله .
أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟	ينكرون عليه أن يدعو إلى أن هذا الكون ليس له إلا إله واحد
عجاب	فيه غاية العجب ونهايته .
وانطلق الملأ منهم	وخرج أشرافهم مندفعين .
واصبروا على آلهتكم	واثبتوا على دينكم ، لا تتزحزحوا عنه .

الألفاظ	شرحها
إن هذا لشىء يراد	إن هذا شىء يريده محمد لننقاد له ، فنكون له أتباعاً يتحكم فينا .
ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة	ما سمعنا بما يدعو إليه محمد من التوحيد فى الملة التى وجدنا عليه آباءنا ، ولا فى ملة النصارى الذين يؤمنون بالتثليث .
إن هذا إلا اختلاق	ليس هذا الذى أتى به محمد إلا كذباً .
أؤنزل عليه الذكر من بيننا ؟	أؤنزل عليه القرآن من بيننا دون غيره ، مع أنه ليس خيراً منا ؟
من ذكرى	من القرآن ، والوحى الذى نزل عليك به .
لما يذوقوا عذاب	لم يذوقوا عذابى إلى الآن ، واغتروا بطول الإمهال ، فإذا ذاقوه زال شكهم .
أم عندهم خزائن رحمة ربك	بل هم لا يملكون خزائن رحمة الله ، حتى يتصرفوا فيها على ما يريدون .
العزيز الوهاب	القاهر القادر ، الكثير العطاء ، الذى يمنح من يشاء.
فليرتقوا فى الأسباب	فليصعدوا فى المصاعد التى توصلهم إلى السماء .
جند ما هنالك مهزوم	ما هم إلا جند كأى جند ، مغلوب عما قليل ، فلا تعبأ بهم .
من الأحزاب .	من أحزاب إبليس .

مجمل المعنى

١ ــ هذا الحرف الذى بدأنا به هذه السورة ، وما يماثله من حروف الهجاء ، قد تركبت منه ألفاظ القرآن ، وأنتم أيها الكفار المعاندون قادرون على أن تصوغوا من هذه الحروف ما شئتم من الأساليب ، ولكنكم عاجزون عن مجاراة أساليب القرآن فى فصاحتها وبلاغتها ؛ أقسم بالقرآن ذى الشرف العظيم ، والقدر الرفيع ، إنه لكلام معجز ، فإن كنتم فى ريب من هذا فأتوا بسورة من مثله ، واستعينوا بمن شئتم ، إن كنتم صادقين فيما زعمتم أن القرآن صنعه محمد .

٢ ــ لكن هؤلاء الكافرين الذين ينفرون من النبى ، ولا يؤمنون به ، أخذتهم العزة بالإثم ، فهم يستكبرون عن الحق ، ولا يؤمنون بما يجىء به الدين الصحيح ، ويختلفون مع النبى ويعادونه .

٣ ــ ولو أنهم تدبروا ، ونظروا إلى الوراء قليلا ، لعرفوا أن الله سبحانه وتعالى أهلك كثيراً من الأمم التى سبقتهم ، بسبب عنادهم وكفرهم ، ونفورهم من أنبيائهم ؛ فلما رأوا العذاب بأعينهم ، وأيقنوا أنه نازل بهم ، ثابوا إلى رشدهم ، وعرفوا أن الحق ما جاءتهم به رسلهم ، فاستغاثوا ، ولجئوا إلى الله أن يدفع العذاب عنهم ، وتابوا إليه ، وندموا على ما فرط منهم ، واستغفروا ربهم ، ولكن لم يقبل الله منهم ، ولا خلاص لهم ولامنجى ، لأنهم لم يؤمنوا إلا حينما رأوا العذاب نازلا عليهم .

٤ ــ استعجب كفار قريش من أن الله أرسل إليهم نبيًّا عربيًّا قرشيًّا منهم ، يحذرهم وينذرهم ، فليس من دهاقين الفرس ، وليس من أشراف الروم ، وليس من صناديد قريش ، وليس ملكاً من الملائكة ، وليس جنيًّا من

الجن ؛ فكان مُثارَ عجبهم حسدٌ وحقد يأكل قلوبهم ، ويُحرق صدورهم ، فلم يكادوا يرون ما يجرى على يديه من معجزات ، حتى وصفوه بأنه ساحر ، ونعتوه بأنه كذاب يفترى على الله .

٥ — وأنكرو عليه أنه يدعو إلى التوحيد ، وأنه ينكر تعدد الآلهة ، وعجبوا من ذلك أشد العجب ، لأنه يدعوهم إلى شىء لم يعرفوه عن آبائهم .

فى دار أبى طالب

اجتمع نفر من مشيخة قريش ، منهم : أبو جهل ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وغيرهم ، وقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب نكلمه فى ابن أخيه ، لينصفنا منه ، فيأمره أن يكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه الذى يعبده ، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون منا شىء لمحمد ، فتعيرنا العرب ، فيقولون : تركوه ، حتى إذا مات عمه تناولوه ؛ وبعثوا رجلاً منهم إلى أبى طالب يستأذن عليه ، فأذن لهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه ، فبعث أبو طالب إلى محمد واستدعاه ، فجاء إليه ، ودخل عليه ، فقال له : يابن أخى ، هؤلاء مشيخة قومك وَسراتهم ، وقد سألوك : أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدَعوك وإلهك ، فقال له محمد : « أى عم ، أوَلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها ؟ ! » قال : وإلام تدعوهم ؟ ! قال : « أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » ؛ فقال أبو جهل من بين القوم : ما هى وأبيك ؟ لنعطينكها وعشر أمثالها ، قال : « تقولون : لا إله إلا الله » ، فنفروا وقالوا : سلنا غير هذه ، قال : « او جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها » ، فغضبوا ، وقاموا من عند أبى طالب غضاباً ،

وقالوا : والله لنشتمنك والذى يأمرك بهذا ، وانطلق الملأ منهم ؛ وأقبل محمد على عمه ، فقال له عمه : يابن أخى ، ما شططت عليهم ، فقال لعمه : « أى عم ، قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة ، تقول : لا إله إلا الله » ، فقال : لولا أن تعيبنى بها العرب ، يقولون : جزع من الموت ، لأعطيتكها ، ولكن أموت على ملة الأشياخ ، فنزل : إنك لا تهدى من أحببت . . . » ، ورويت هذه القصة بصيغة أخرى .

٦ — وخرج أشراف قريش من دار أبى طالب غضاباً مسرعين ، يقول بعضهم لبعض : اثبتوا على دينكم ، وتمسكوا به ، فإنه لايراد بكم إلا أن تتزحزحوا عن هذا الدين ، وتتبعوا محمداً ، ونحن ما سمعنا من أصحاب آخر ملة — وهم النصارى — أن الإله واحد ، ولكنهم يقولون : الأب والابن والروح القدس ؛ وما سمعنا من آبائنا أن الإله واحد ، فنحن ندين بدينهم ، ونقيم عليه ، والذى جاء به محمد من دعوى الرسالة والمناداة بالتوحيد ، ليس إلا كذباً وافتراء ، يختلقه محمد ، وينشره فى الناس .

٧ — يستمر هؤلاء الكفار فى إنكارهم ، ويقولون : لماذا ينزل القرآن على محمد ، ويختص بالرسالة من دون الناس ؟ إنه ليس أعلى منا قدراً ، ولا أعظم جاهاً ، ولا أكثر مالا ، ولا أعز نفراً ؛ وهؤلاء الكافرون فى شك من نزول القرآن على محمد ، واختصاصه دونهم بالوحى والرسالة ، لأنهم لا يفكرون فيما يقدمه لهم من حجج وبراهين على صدقه ، فهم سيظلون سادرين فى عنادهم ، حتى إذا نزل العذاب بهم ، وصَحَوْا من غفلتهم وتنبهوا — علموا أن محمداً صادق ، وأن قرآنه من عند الله .

٨ — هؤلاء الكافرون لا يملكون خزائن رحمة الله ، فيتصرفون فيها على ما يشاءون ، فيعطون ويمنعون ، ويمنحون ويحرمون ، ويختارون للنبوة من لهم رغبة فى

نبوته ، ويصرفونها عمن لا رغبة لهم فى نبوته ؛ ولكن هذا كله بيد الله القوى العزيز القاهر ، الواهب ما يشاء لمن يشاء .

٩ — وإذا كان هؤلاء المشركون لا يملكون خزائن رحمة الله ، ولا يستطيعون أن يتصرفوا على هواهم فيما خلق الله ، فهم لا يملكون سماء ولا أرضاً ، ولا يسيطرون على شيء بين السماء والأرض ، جليلا كان ذلك الشيء أو حقيراً ، وإن لم يقنعهم ذلك ، فليصعدوا إلى حيث يريدون أن يصعدوا إن كانوا مستطيعين ، وليدبروا هذا الملكوت على ما يشاءون ، وليتفضلوا بالنبوة على من يريدون .

١٠ — إنهم لن يستطيعوا ذلك كله ، وهم أعجز من أن يتحدَّوْا ، وأضعف من أن يؤبه لهم ، ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين ، مهزومون مخذولون عما قريب ، كما خذل من سبقوهم ممن كذبوا أنبياءهم ، فلاتبال يا محمد بما يقولون ، ولا تكترث بما يهذون ، وقد أنجز الله وعده بهزيمتهم فى وقعة بدر .

(٢)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٦ من سورة ص

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ، أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ، إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ، فَحَقَّ عِقَابِ —١— . وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ، مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ —٢— . وَقَالُوا : رَبَّنَا ، عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قبلهم	قبل أهل مكة .
ذو الأوتاد	ذو الملك الثابت .
وأصحاب الأيكة	وقوم شعيب ، والأيكة : الشجر الكثير الملتف .
أولئك الأحزاب	هؤلاء هم المتحزبون على رسلهم .
فحق عقاب	فوجب عقابى لهم ، وحل عذابى بهم .
وما ينظر هؤلاء	وما ينتظر أهل مكة وأمثالهم من السابقين الذين كذبوا رسلهم .
إلا صيحة واحدة	المراد بالصيحة : النفخة الأولى .

الألفاظ	شرحها
ما لها من فواق	ما لها تردد ولا رجوع .
عجّل لنا قطنا	عجل لنا نصيبنا وحظنا الذى يعدنا محمد به .
قبل يوم الحساب	قبل يوم القيامة .

مجمل المعنى

١ — يواسى الله نبيه ، وينصحه ألا يحزن لتكذيب قومه إياه ، ويوجه نظره إلى ما حدث للسابقين من زملائه الأنبياء ، فإنهم جميعاً لقوا من أقوامهم مثل الذى يلاقيه هو من قريش ، فقد كذب نوحاً قومُه ، وكذبت عاد هوداً ، وكذب فرعون موسى ، وكذبت ثمود صالحاً ، وكذب لوطاً قومه ، وكذب أصحاب الأيكة شعيباً ؛ هؤلاء جميعاً أحزاب الشيطان ، تحزبوا على رسلهم وكذبوهم ، فاستوجبوا غضب الله عليهم ، واستحقوا مقته وعذابه .

٢ — والذين يكذبون محمداً الآن ، وكذلك الأقوام المتقدمون الذين كذبوا أنبياءهم ، لا ينتظرون إلا النفخة الأولى التى تكون يوم الفزع الأكبر ، ولا يكون هناك تلبث ولا توقف — ولو كان وقت التلبث والتوقف قصيراً — فإنه إذا أراد الله أن تقع الواقعة ، وقعت بمجرد الإرادة فى اللحظة التى يحددها الله ، فلا إمهال ولا تردد ولا رجوع .

٣ — وعد الله المؤمنين أن مصيرهم يوم القيامة إلى الجنة ، ليثابوا على ما قدموا من صالح الأعمال ، وتوعد الكافرين بأن مصيرهم إلى النار ، ليعاقبوا على

ما قدموا من مخالفة أنبيائهم وإشراكهم ، فسخر الكافرون مما وعد الله به المؤمنين الطائعين ، وتوعد به الكافرين العاصين ، وطلبوا على سبيل السخرية والاستهزاء ، أن يعجل الله ثوابهم فى الدنيا قبل أن يكون فى الآخرة ، وإن لم يكن لهم نصيب من الجنة فى الدنيا ، فليعجل الله عذابهم الذى هددوا به فيها .

(٣)

من الآية ١٧ إلى الآية ٢٦ من سورة ص

اِصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ –١– . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ –٢– . وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ، وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ –٣– . وَهَلَ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ، وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ –٤– . إِنَّ هٰذَا أَخِي ، لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ –٥– . قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا

لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ —٦— . يَا دَاوُدُ ، إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اصبر على ما يقولون	اصبر يا محمد على ما يرميك الكفار به ، ويتقولونه عليك .
واذكر عبدنا داود	واذكر لهم ما حدث لداود عليه السلام حين زلّ ، فلم يعفه الله من العقاب .
ذا الأيد	صاحب القوة والتشدد فى أمور دينه .
إنه أواب	إنه كثير الرجوع إلى الله طلباً لرضاه .
سخرنا الجبال معه	ذللنا له الجبال .
يسبّحن	تكون سبباً فى ترداد تسبيحه ، لأن فى وجودها دلالة على قدرة خالقها وعظمته .
بالعشى والإشراق	فى طرفى النهار ، وفيما بين طرفى النهار .
والطير محشورة	وذللنا له الطير مجتمعة من كل نوع ومن كل ناحية .
كل له أواب	كل من الجبال والطير مطيع لله ، خاضع لإرادته .

الألفاظ	شرحها
وشددنا ملكه	وقوينا ملكه بماله من عظم المنزلة ، وجلال الهيبة .
وآتيناه الحكمة	وعلمناه العلم ، ومنحناه النبوة .
وفصل الخطاب	والقول الفصل الذى لا يقبل شكًّا ولا مناقشة ، لما يكتنفه دائماً من الصواب .
نبأ الخصم	قصة الخصماء ، والخصم : يطلق على المفرد والجمع ، مثل ضيف .
تسوروا المحراب	تسلقوا سور الغرفة التى كان فيها .
ففزع منهم	فخافهم .
خصمان بغى بعضنا على بعض	نحن متخاصمان ، تعدى بعضنا على بعض .
ولا تشطط	ولا تَجُر فى حكمك ، ولا تعدل عن الحق .
إلى سواء الصراط	إلى الطريق الواضح المستقيم ، الذى يظهر الحق فيه واضحاً .
إن هذا أخى	إن هذا الذى أخاصمه أمامك ، وأشكوه إليك ، أخى فى الدين والصداقة .
أكفلنيها	ملّكنيها ، وضمها إلى ما أملك .
وعزنى فى الخطاب	وغلبنى فى المناقشة والمحاجة ، لأنه أقوى منى لساناً وبياناً .
بسؤال نعجتك إلى نعاجه	بطلبه إضافة نعجتك إلى نعاجه ، وإذا كان مجرد السؤال ظلماً ، فما بالك بالإضافة الفعلية ؟ وفى هذا أشد الإنكار ، وأبلغ الاستهجان .
من الخلطاء	من الشركاء والأصدقاء .

الألفاظ	شرحها
ليبغى بعضهم على بعض	ليعتدى بعضهم على بعض .
وقليل ما هم	وهم قليلون .
وظن داود أنما فتناه	واستيقن داود أن الله أراد بهذا ابتلاءه ، وتنبيهه على الخطر الذى أقدم عليه .
فاستغفر ربه	فطلب من الله أن يغفر له ما أخطأ فيه .
وخر راكعاً	وسقط على وجهه ساجداً لله ، مستغفراً عما فرط منه .
وأناب	ورجع إلى الله تائباً .
فغفرنا له ذلك	فعفا الله عنه ، وتجاوز عن زلته .
لزلفى	لقربى ومنزلة خاصة بعد الغفران .
وحسن مآب	وحسن مرجع يوم القيامة ، بدخول الجنة .
جعلناك خليفة فى الأرض	جعلناك ملكاً مستخلفاً فى الأرض ، وقد خلفت من سبقك من الأنبياء .
فاحكم بين الناس بالحق	فاقض بين قومك قضاء عادلاً تقضى به الشريعة .
ولا تتبع الهوى	ولا تجرْ فى قضائك على حسب ما تمليه نفسك وهواك .
عن سبيل الله	عن الطريق الحق الذى يدل عليه دين الله .
بما نسوا يوم الحساب	بسبب نسيانهم اليوم الذى يحاسبون فيه ، وهو يوم القيامة .

قصة داود

سبق فى مواضع مختلفة من تفسير الأجزاء السابقة ، الحديث عن داود عليه السلام ، فتناولنا فيها الموضوعات الآتية :

١ — تسخير الجبال وتسبيحها : سورة الأنبياء ج ١٧ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

٢ — ومعرفته لغة الطير وتسبيحها معه : سورة الأنبياء ج ١٧ ، ص٣٩، ٤٠.

٣ — وإلانة الحديد له : سورة سبأ ج ٢٢ ص ٥٨.

٤ — وعمله الدروع المركبة من حلَق الحديد : سورة الأنبياء ج ١٧ ، ص٤٠.

ونكتفى هنا بالحديث عن « فتنة داود » :

يقول الأولون : إن داود عليه السلام قسم أيامه أربعة أقسام : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للوعظ ، ويوماً لخاصة نفسه ، وفى اليوم الخاص بنفسه ، كان جالساً فى بيته ، والناس ممنوعون من الدخول عليه ، والحراس ملازمون بابه ، فهو مطمئن ألا يدخل عليه أحد فى خلوته ، ولكن حدث أن ملائكة فى صورة آدميين تسلقوا عليه سور داره ، ودخلوا عليه فى خلوته ، فلما رآهم فزع منهم ، فقالوا له : لا تخف ، نحن فريقان متخاصمان ، احتكمنا إليك ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تكن جائراً لنصرة ظالم على مظلوم ؛ ثم أخذ المعتدى عليه يقص قصته ، قال : إن هذا — وأشار إلى زميله — أخى فى الدين والنصيحة ، يملك تسعاً وتسعين نعجة ، وأنا أملك نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى ، وأراد أن يأخذها منى ، ويضمها إلى نعاجه ، فيكون له بذلك مائة نعجة ، ولا يكون لى أنا شىء ، ودارت بينى وبينه مناقشة فى هذا الشأن فغلبنى ، ولم أستطع أن أحاجَّه .

سمع داود القضية ، فأنكر على صاحب النعاج الكثيرة أن يأخذ من صاحب النعجة الواحدة نعجته ، وحكم عليه بأنه ظالم فى طلبه هذا ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الأصدقاء الأقوياء ، الذين يحاولون أن يظلموا أصدقاءهم الضعفاء ، وهنا تنبه داود إلى أن هذا ابتلاء من الله ، وأنه أريد تنبيهه على شىء ، فأدرك ذلك وتنبه ، واستغفر فغفر الله له ؛ أما الشىء الذى أريد تنبيهه عليه ، فإن للمتقدمين فيه كلاماً كثيراً ، وغاية ما نفهم نحن من الآيات ، أنه كان يرى ما عند غيره فيستحسنه ، ويقع من نفسه موقعاً حسناً ، ويتمنى لو أنه كان صاحبه ، فنبهه الله — سبحانه وتعالى — على أن الرجل الصالح — بَلْهَ النبى — لا يجوز له بحال من الأحوال أن يمد عينيه إلى ما يملكه غيره ، سواء أكان هذا الشىء زوجة أم خطيبة أم مالا أم عيالاً ، أم أى شىء آخر .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله نبيه محمداً أن يصبر على ما يتقوله عليه الكافرون : إذ يرمونه بالجنون ، ويتهمونه بأنه يريد جاهاً أو مالا ، ويصفونه بأنه ساحر ، وينفرون منه ويكذبونه ، ويؤذونه ويبالغون فى إيذائه هو ومن آمن به ؛ ويطلب الله إلى محمد أن يتذكر ما كان من شأن داود ، ويذكِّر قومه بما حدث لداود عند ما زلّ ، فإن الله لم يُعفه لمجرد أنه نبى ، ولكنه عتب عليه ؛ وقد زل داود مع أنه قوىّ فى دينه ، قوى فى عقيدته ، قوىّ فى دعوته ، قوى فى قضائه ؛ ومع أنه قوى فى كل هذا ، فإنه كثير الرجوع إلى الله طلباً لرضاه .

٢ — والله — سبحانه وتعالى — سخر لداود الجبال والطير : أما الجبال فإن قيامها شامخة راسية على وجه الأرض ، تحفظها أن تميل أو تميد — فيه دليل على

قدرة الله وعظمته ؛ ودلالتها على عظمته تسبيح فى كل وقت ، فالمتأمل فيها يعتبر بها ، ويرجع إلى الله ، ويسبحه وينزهه ، وقد نشأ تسبيحه وتنزيهه من النظر فى الجبال نظر المتأمل المعتبر ، فكأن الجبال هى التى تسبح ، لأنها هى التى بعثت على التسبيح ، وأما الطير مجتمعة فإنها هى مسبحة على اختلاف ألوانها وأنواعها : فطيرانها تسبيح ، وأصواتها تسبيح ، وإلهاماتها تسبيح ، وكل حركة وسكنة فى حياتها تسبيح ، لأن فيها دلالات على قدرة الله .

٣ — وقوّى الله لداود ملكه ، بما وهب له من قوة الشخصية ، والمنزلة الدينية والأدبية والاجتماعية والعلمية ، وبما أقدره الله عليه من إشاعة العدل بين قومه ، والتلطف فى المعاملة ، وحسن التأنى للأمور ، ومكنه من التوفيق إلى الصواب فى أحكامه ؛ اجتمع هذا وغيره لداود ، فكان مَهيباً فى قومه ، عالى القدر ، مرموق المنزلة .

٤ — ولقد تسلق سور الغرفة على داود جماعة متخاصمون ، فلما رآهم أمامه — وما كان يظن أن أحداً يتسور عليه محرابه — داخله الخوف والفزع ، فلما رأوا منه ذلك ، قالوا له : لا تخف ، إننا نعرض عليك قضية اثنين متخاصمين ، ظلم أحدهما الآخر ، فقصدناك لتحكم بيننا حكماً عادلاً ، لا حيف فيه ولا ميل ، وعليك أن ترشدنا إلى الطريق الحق ، بما تصدر من حكم عادل سليم .

٥ — بدأ أحد الخصمين يقص قضيته ، فقال : خصمى هذا يملك تسعاً وتسعين نعجة ، وأنا أملك نعجة واحدة ، أراد أن يأخذ نعجتى ويضمها إلى نعاجه ، فيكون مالكا مائة نعجة ، ولا أملك أنا شيئاً ، فعارضته ، فقسا علىّ ،

وغلبنى فى المناقشة والمحاجة ، لأنه أقوى منى سلطاناً ، وأكثر بياناً ، وأقدر على إقامة الحجة .

٦ — سمع داود قضية المتخاصمين ، ورأى وضوحها ، فلم يلبث أن أصدر حكمه فيها ، وهو يقضى بأن صاحب النعاج التسعة والتسعين ظالم لصاحب النعجة الواحدة ، وعقّب على ذلك الحكم ، بأن أكد أن كثيراً من الشركاء والأصدقاء يبغى بعضهم على بعض ، فيأخذ القوى حق الضعيف ، ويغتصب الغنى مال الفقير ، ولا يتورع عن ذلك إلا المؤمنون الذين عمر قلبهم بتقوى الله ، وامتلأت نفوسهم خوفاً منه ، وأقبلوا على الطيبات يعملونها تقرباً إليه ، وهؤلاء قليلون فى الناس ؛ ولم يكد داود يصدر حكمه فى هذه القضية ، حتى تنبه على أن لها ملابسات عجيبة : فهؤلاء المتخاصمون وصلوا إليه بطريق غير عادى ، فتسوروا عليه محرابه على الرغم من أن جنوده وحراسه على بابه ، فلم يفطنوا لهم ، واختصموا إليه فى يوم غير اليوم الذى يجلس فيه للقضاء ، لذلك أيقن أنهم إنما يعرّضون به فى مسألة المرأة التى تزوجها ، بعد أن خطبها على خطيبها الأول ، ولا سيما أنهم بعد أن حكم بينهم اختفوا ، فاعتبر هذا عتاباً من الله على زلة زلها ، وهفوة هفاها ، فاستغفر الله منها ، وتاب إليه ، وسجد لله سجوداً طويلاً ، ورجع إليه ، فقبل الله توبته ، وغفر له ذنبه ، وطمأنه بأن أكد له أنه قريب إليه ، مرضى عنه ، مغفور له ، ومصيره إلى الجنة .

٧ — يؤكد الله لداود أنه جعله يخلف من تقدمه من الأنبياء : كآدم ونوح وهود وصالح ، وجعله كذلك خليفة له فى أرضه ، يحكم فيها بين عباده ، ويقضى بين المتخاصمين ، وأمره لذلك أن يحكم بين الناس حكماً عادلا ، يتبع فيه أوامر الله ، ولا يحيد عن طريق الحق ، وألا يتبع ما يسوله له هواه

من أمور قد تجانب الصواب ، وأن يصون نفسه عن وسوسة الشيطان ، حتى لا يضل عن الطريق الصحيح الذى يهدى إليه الدين السليم ، والشرع القويم ؛ والله سبحانه وتعالى يؤكد أن الذين يضلون عن طريق الدين الصحيح يعذبهم الله يوم القيامة عذاباً شديداً ، لأنهم نسوا فى حياتهم الدنيا أنهم سيحاسبون يوم القيامة ، ولو أنهم ذكروا ذلك فى دنياهم ، لما ضلوا سواء السبيل .

(٤)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٢٩ من سورة ص

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ! -١- . أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ -٢- . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
باطلاً	لعباً وعبثاً .
ذلك ظن الذين كفروا	الذين كفروا هم الذين يظنون أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما لعباً ولهواً .
فويل للذين كفروا من النار	فهلاك للذين كفروا من نار جهنم .
كالمفسدين فى الأرض	كالمشركين بالله .
الفجار	الذين لا يتقون الله ولا يخشونه .
كتاب أنزلناه إليك	هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن .

الألفاظ	شرحها
ليدبروا آياته	ليتفكروا فى حججه وتعاليمه .
أولو الألباب	أصحاب العقول الراجحة .

مجمل المعنى

١ — ينفى الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما للعبث واللهو ، ولكنه خلقها لحكمة أرادها ، وغاية قصد إليها ، تلك هى عبادته وحده ، والعمل على طاعته بتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ؛ والذين يظنون أن الله خلقهم لعباً وعبثاً ، إنما هم الكافرون ، وهؤلاء الكافرون مصيرهم إلى عذاب شديد فى نار جهنم يوم القيامه .

٢ — وإن فى يوم القيامة تمييزاً واضحاً بين بعض الناس وبعض ، فليسوا سواء ، لأن المؤمنين الصالحين المطيعين ليسوا كالكافرين المفسدين العاصين ، ولأن المتقين الذين يخافون الله ويخشونه ، ليسوا كالفجار الذين لا يخافون الله ولا يخشونه ، فإن هؤلاء فى الجنة يتمتعون بنعيمها ، وأولئك فى النار يتقلبون فى جحيمها .

٣ — يخبر الله نبيه محمداً أنه أنزل عليه قرآناً ، هو مصدر نور وهداية ، ومنبع بركة وإرشاد ، أريد به أن يفكر الناس فيما أتى به من حجج وبراهين ، وما تضمن من دعوة إلى الدين الصحيح ، وما حوى من مسائل التقنين والتشريع ، وما اشتمل عليه من الحكم والسير، ولا يستفيد من هذا كله إلا من رزقه الله عقلا راجحاً ، يتقبل المسائل على وجهها الصحيح ، فيتعظ ويعتبر .

(٥)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٤٠ من سورة ص

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ ! إِنَّهُ أَوَّابٌ –١– . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ؛ رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ –٢– . وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ، ثُمَّ أَنَابَ : قَالَ : رَبِّ ، اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ –٣– فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ؛ هٰذَا عَطَاؤُنَا ، فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؛ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ووهبنا لداود سليمان	ورزق الله داود سليمان .
نعم العبد	نعم ما وهب الله لداود ، وهو سليمان .
إنه أواب	إنه كثير الرجوع إلى الخير .
بالعشيّ	فى وقت المساء .
الصافنات	الخيول القائمة على ثلاث قوائم ، والرابعة ترفعها بحيث لايمس الأرض إلا طرف حافرها ، وهذه الوقفة من علامات الأصالة فى الخيل .
الجياد	الأصيلة الجيدة، التى تسرع فى الجرى .
أحببت حب الخير عن ذكر ربى	آثرت حب الخيل على أداء الصلاة لربى ، والخيل خير ، لتعلق كثير من الخير بها .
حتى توارت بالحجاب	حتى انتهى مرور الخيل جميعها ، وحجبها الظلام عن عينىّ .
ردوها علىّ	ردوا علىّ الخيل .
فطفق مسحاً بالسوق والأعناق	فجعل يمسح سُوقها وأعناقها، حبًّا لها ، وبرًّا بها .
فتنّا سليمان	اختبرنا سليمان .
على كرسيه	على عرشه الذى اعتاد أن يجلس عليه .
جسداً	جثة ميتة .
ثم أناب	ثم رجع إلى الله .

الألفاظ	شرحها
لا ينبغى لأحد من بعدى	لا يتيسر ولا يتهيأ لأحد غيرى .
فسخرنا له الريح	فذللنا له الريح ، وطوّعناها له .
رخاء حيث أصاب	لينة هادئة سهلة إلى أى جهة يريد .
والشياطين كل بناء وغواص	وسخرنا له من الشياطين كل ماهر فى البناء ، وكل ماهر فى الغوص .
وآخرين مقرّنين فى الأصفاد	وسخرنا له من الشياطين نوعاً ثالثاً ، هو مردة مقرون بعضهم إلى بعض فى سلاسل من الحديد ، وكان يقيد فى سلاسل الحديد الكفار منهم .
هذا عطاؤنا	هذا الملك الذى ملكناه إياك هو عطاؤنا إياك ، تتصرف فيه ، فتعطى وتحرم ، وتمنح وتمنع .
فامنن أو أمسك	فتفضل بما تشاء على من تشاء ، أو احرم من تشاء ، فلك مطلق التصرف .
وإنه له عندنا لزلفى	وإن لسليمان عند الله قربى ومنزلة عظيمة ، بدليل ما منحه من سلطان فى الدنيا ، وما يكون عليه فى الآخرة .
وحسن مآب	ومرجعاً حسناً طيباً يوم القيامة .

سليمان

سبق الحديث عن سليمان بالنسبة للمسائل الآتية فى الأجزاء السابقة :

١ — سليمان والهدهد وملكة سبأ : سورة النمل ، ج ١٩ ص ١١٥ .

٢ — وتسخير الجن : سورة النمل ، ج ١٩ ص ١١١ .

٣ — وإسالة عين القطر : سورة سبأ ، ج ٢٢ ص ٦١ .

٤ — ومنطق الطير : سورة النمل ، ج ١٩ ص ١١١ .

٥ — وتسخير الرياح : سورة الأنبياء ، ج ١٧ ص ٤٠ .

٦ — ودابة الأرض : سورة سبأ ، ج ٢٢ ص ٦١ .

٧ — وعين القطر : سورة سبأ ، ج ٢٢ ص ٦١ .

ونكتفى هنا بالحديث عن : الصافنات الجياد ، والفتنة .

الصافنات الجياد

كان سليمان عليه السلام معنيًّا بتربية الخيل ، لحاجته إليها فى الحروب التى كان يحاربها ، لا لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، وإنما كان يحارب من أجل الدين ؛ وكان يستعرض خيله بين حين وحين ، ليقف على حالها ، وليأمر بتدبير شأنها ، والعناية بها ، إذا كانت فى حاجة إلى مزيد من العناية والتدبير ؛ أمر سليمان بإحضار الخيل من إصطبلاتها ، وأخذ يستعرضها ، والخيالون يمرون بها أمامه ، حتى انتهى الاستعراض ، ودخلت الإصطبلات ، وتوارت بالحجاب ، وغابت عن عين سليمان ، ولأمر من الأمور أمر سليمان الخيالين أن يعيدوا إخراج الخيل ، وإحضارها أمامه ، فلما جىء بها أخذ يلاطفها بالمسح بيديه على سيقانها وأعناقها ؛ وعمله هذا يدل على مبلغ عنايته بالخيل ، وفيه إغراء لرجاله أن يُعنَوا بالخيل عنايته بها ، ولعله كان يعرف أحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فأراد بذلك المسح على سوقها وأعناقها أن يتعرف حالها من هذه النواحى .

الفتنة

طال اشتغال سليمان برياضة الخيل ، وأنفق فيها وقتاً طويلاً ، كاد يفوّت عليه عبادته ، ويصرفه عما يجب عليه نحو ربه ؛ فابتلاه الله ، وأصابه مرض

أهزله ، وحال بينه وبين تصريف ملكه، وقد بلغ به الضعف والهزال حداً جعله إذا جلس على كرسيه كان جسداً كأنه لا حياة فيه ، وبعد أن مر عليه بعض الوقت وهو مريض ، رضى الله عنه ، وأبرأه من مرضه ، فعادت إليه صحته ، وجلس على كرسيه سليما معافى ، يصرف ملكه الذى ازداد اتساعاً وعمراناً .

مجمل المعنى

١ — وهب الله لداود سليمان ، وسليمانُ : عبد الله التقى المستحق ثناء الله عليه، لأنه كان صالحاً ، كثير الرجوع إلى الله فى كل أوقاته .

٢ — وكان سليمان يوماً يتعبد ، وجىء له بخيل لتعرض عليه ، وكانت خيلاً كريمة أصيلة يعدها للحرب ، فكادت تشغله رؤيتها واستعراضها عن صلاته ، ولكنه لم يلبث أن تنبه إلى أن صلاته وتعبده أولى من اشتغاله بخيله ، فأشار إلى من جاءوا بالخيل أن يُنَحوها عنه ، حتى يفرغ للعبادة ؛ فساقوها إلى إصطبلاتها ، وستروها فيها ؛ فلما انتهى من عبادته أمرهم أن يردوا عليه الخيل ، فردوها عليه ، وقام إليها يمسح سُوقها وأعناقها بيديه ، إكراماً لها ، وتلطفاً بها ، ويمتع نظره بجمال خيله .

٣ — اختبر الله سليمان بنوع من الاختبار ، فلقد كادت الخيل الكريمة تشغله عن الاستمرار فى التعبد ، فابتلاه الله بمرض أصابه ، وألح عليه المرض حتى صار هيكلاً جسداً، كأنه لا روح فيه، ففطن سليمان لما أراد الله به ، ولما أراد له ؛ فتنبه لما حدث منه ، فرجع إلى ربه تائباً ، وسأله أن يغفر له ما فرط منه ، ودعاه أن يقدره على أداء حقه عليه فى هذه الدنيا : بأن يحسن سياسة ملكه ، وتدبير شأنه ، ويواظب على العبادة ، ويشيع العدل بين من يتولى عليهم ، ويجتهد فى دعوتهم إلى خيرى الدنيا والآخرة ،

ويرعى شئونهم رعاية طيبة ، ويقوم على جميع ما يتحقق به نفعهم ماديًّا وروحيًّا ، فيستقيم ملكه استقامة لا تتهيأ لأحد غيره ، وأكد فى دعائه أن الله وحده هو الذى يملك الإعطاء والحرمان ، والمنح والمنع ، وأنه كثير الإعطاء .

٤ - استجاب الله لسليمان دعاءه ، ومكن له فى الأرض تمكيناً لم يتهيأ لأحد ، فسخر له :

(ا) الريح : فكان يتحكم فيها ، ويجريها هينة لينة سهلة إلى الجهة التى يريدها .

(ب) والشياطين : فكان يستخدمها فى بناء ما يشاء من الأبنية على الوضع الذى يريده ، ويستخدمها كذلك فى الغوص فى البحار لاستجلاب ما يشاء .

(ح) والتسلط على مردة الشياطين الذين خرجوا عليه ، ولم يؤمنوا به : فقد أقدره الله عليهم ، وقيدهم فى سلاسل من الحديد ، إذلالا لهم ، ومبالغة فى السيطرة عليهم ، والاستمكان منهم .

وهذه الأمور الثلاثة التى يسرها الله لسليمان ، لم تتيسر لأحد من عباد الله قبل سليمان ولا بعد سليمان ؛ وهذا الملك العريض ، والسلطان الواسع المبسوط على الإنس والجن والطير والريح ، هيأه الله لسليمان ، وأباح له أن يتصرف فيه على الوجه الذى يريده من غير حسيب ولا رقيب ، ثم أكد الله لسليمان أن له عنده منزلة عظيمة فى الدنيا ، وحسن مرجع فى الآخرة .

(٦)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٤ من سورة ص

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ -١- . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ -٢- . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا ، وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ -٣- . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ، فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِعْمَ الْعَبْدُ ! إِنَّهُ أَوَّابٌ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واذكر عبدنا أيوب	واذكر يا محمد ما جرى لأيوب عبدنا ونبينا .
أنى مسنى الشيطان بنُصب وعذاب	أنى أصابنى الشيطان بتعب شديد ، ومشقة كبيرة ، يريد بذلك محاولة إغوائه ، وزعزعة عقيدته بمختلف الوسائل ، بما أصابه من المرض الشديد الموجع ، وما نكب به من فقدان المال والأهل والولد .
اركض برجلك	اضرب برجلك الأرض .

الألفاظ	شرحها
هذا مغتسل بارد وشراب	هذا ماء تغتسل به فيبرأ ظاهرك ، وتشرب منه فيبرأ باطنك .
ووهبنا له أهله ومثلهم معهم	ورد الله عليه من تركه من أهله ، ومعهم مثلهم .
وذكرى لأولى الألباب	وتذكيراً لأصحاب العقول الرشيدة .
ضغثاً	حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان .
ولا تحنث	ولا تقع فى يمينك .
إنا وجدناه صابراً	إنا علمناه صابراً على ما يصيبه ، مهما بلغ من شدته .
إنه أواب	إنه كثير الرجوع إلى الله ، واللجوء إليه .

قصة أيوب عليه السلام

ذكرنا قصة أيوب مجملة فى الصفحة ٤٣ من تفسير الجزء السابع عشر ، وها نحن أولاء نذكرها هنا مفصلة :

ا — أيوب رجل غنى مؤمن ، محسن صبور ، من ذرية عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان يملك البثنية من أعمال دمشق ، وهى قرية تقع بين دمشق وأذرعات .

ب — وكانت رحمة زوجة أيوب من ذرية يوسف بن يعقوب : (إسرائيل) بن إسحاق ، وكانت مثل زوجها إيماناً وصلاحاً وتقوى .

ج — ووسع الله لأيوب فى الرزق ، ومد له فى الجاه ، ورزقه الكثير من البنين والبنات ، فكملت له زينة الحياة .

(د) ولكن أيوب ما كان له من زينة الحياة إلا ما يمسك رمقه ، ويكسو عريه ؛ فما كان يأكل لقمة وهو يعرف أن وراءه جائعاً ، وما كان يكتسى ثوباً وهو يعلم أن بجانبه عارياً .

(هـ) وكان أيوب لا يكف لسانه عن شكر الله ، ولا يسكت عن ذكره ، والتسبيح باسمه ؛ وكان يصل أقاربه وجيرانه ، ويرعى غلمانه وأعوانه الذين يرعون له مزارعه الواسعة ، ومواشيه الكثيرة ، ويعاونونه فى مهامه إن كثرت أو قلت .

(و) أما قوم أيوب فكانوا قوماً غارقين فى ظلمات الضلال ، لا يعبدون ربهم ، ولا يسجدون له ، إلا أنهم كانوا جميعاً يتفانون فى حب أيوب ، لما كان يغمرهم به من عطف ، ويأسرهم به من معروف وإخلاص .

(ز) ولم يكن يتبع أيوب فى إيمانه بالله ، وعبادته له ، إلا ثلاثة رجال أصدقاء لأيوب ، وكان أيوب يميل إلى مجلسهم الذى يجلسونه ، يذكرون فيه الله ، ويفكرون فى أمر قومهم ، ويتدبرون فى أنجع السبل التى يتخذونها لهدايتهم ، والخروج بهم من الظلمات إلى النور .

(ح) ورأى إبليس ما يتمتع به أيوب من احترام الناس له فى الأرض ، وإبليس هو عدو الإنسان منذ خلق الله آدم ، فنقم من أيوب ما هو فيه من منزلة طيبة عند الله ، وآلى على نفسه أن يغويه ، وأن يقف فى طريقه بالمرصاد .

(ط) ولكن أيوب كان بإيمانه وتقواه فى مناعة شديدة ضد غواية إبليس ووسوسة الشيطان ، فما استطاع إبليس أن يوسوس فى صدره بما يصرفه عن الله ، ولا أن ينفذ إلى عقله وقلبه .

(ى) وحدث ذات يوم ما جعل مكانة أيوب تتزعزع فى نفوس بعض قومه ، فأتيحت الفرصة الطيبة لإبليس ليوسوس لهم فى صدورهم بما يحقره لديهم ، ويضعف من منزلته عندهم .

(ك) وذلك أنه كان لنفر من قومه حاجة لدى حاكم المدينة ، فصحبوا أيوب معهم ، ليكون عوناً لهم ، وناصراً لدى الحاكم ، ولكن أيوب ظل ساكناً ساكناً لا يبدى رأياً ، ورفض الحاكم ملتمسهم ، ولم يسمع لظلامتهم ، رغم عدالة مطلبهم ، فخرجوا من لدنه وقد نقموا من أيوب سكوته ، واتهموه بمجاملة الحاكم .

(ل) ووسوس الشيطان لهم أن أيوب مراء متكلف ، يظهر غير ما يبطن ، ويعمل لصالحه قبل أن يعمل لصالح غيره ، يصانع الحاكم فى أمور غيره ، حتى يكون متساهلاً فى أموره !

(م) ونجح الشيطان فى الوسوسة فى صدور الناس ضد أيوب ، ولكنه لم ينجح فى أن يخرج بأيوب عن إيمانه وتقواه ، أو أن يحيد به عن الصراط المستقيم .

(ن) وربض إبليس لأيوب متحيناً الفرص التى يستطيع أن ينفذ منها إليه .

(س) وجاءت المصائب تترى إلى أيوب : فضاع ماله ، بأن جفت مزارعه ، ونفقت مواشيه ، ومات أولاده ، بأن انقضت جدران داره عليه فأهلكتهم ، وأصيب جسده بمرض فى جسده طال أمده .

(ف) وصبر أيوب على ضياع ماله فلم يتأفف ، ولم ينته عن شكر الله ، وصبر على هلاك أولاده فلم يجزع ، ولم يكفّ لسانه عن ذكر ربه ، وصبر على ابتلاء جسده : فلم يَشْكُ ، ولم يتألم ، ولم يتوان لحظة عن تسبيحه ، وزاد المرض بأيوب ، ولم يفد معه علاج ولا دواء .

(ص) واستمر أيوب السنين ، لا يسمع منه إلا تسبيحه وشكره لله ، وظلت زوجته تجاهد وتكافح من أجله ، بعد أن نسيهما الأصدقاء والأهل والناس ؛ وضاقت بزوجة أيوب السبل ، وسدت فى وجهها منافذ الرزق ، ولم تجد من يقبل خدمتها ، ولم يبق لديها ما تبيعه لتأخذ من ثمنه ما يقوم بأودها وأود زوجها ، فجزت شعرها الجميل ، وباعته لطالبات الجمال ، وحفظت بذلك ماء وجهها عن ذل السؤال .

(ق) وحانت الفرصة التى يتحينها إبليس ، لينفذ منها إلى صدور أعدائه ، فوسوس فى صدر من اعترض طريق الزوجة ليقول لها : إن ما بزوجك ليس من فعل الله ، فما يفعل الله مع المؤمنين المتقين ذلك ، إن ما به ليس إلا مساً من الشيطان ، فدعيه يترضاه بكلمة ، أو يقدم له قرباناً لعله يُشفى ، ويذهب ما به من علة ، فذهبت الزوجة إلى زوجها المبتلى تدعوه لذلك ، وغضب أيوب المؤمن التقى الصبور من دعوة زوجته له إلى التماس رضا إبليس ، والتقرب من الشيطان ، وقال لها بصوته الواهن الضعيف : قسماً بالله ، لئن شفانى الله يوماً لأضربنك مائة ضربة ، جزاء حقاً لما تفوهت به .

(ر) وانصرفت عنه المرأة ، ليأتى إليه الثلاثة الذين كانوا يوماً له أصدقاء أوفياء ، جاءوا ليُسمعوه ما سمعه كثيرا من غيرهم ، ويقولون له : ما كانت عاقبة أمثالك مثل عاقبتك هذه ! ماذا فعلت يا أيوب حتى انتهيت إلى هذه النهاية ، وصرت إلى ذاك المصير ؟ .

(ش) وانصرف الصحاب وتركوا أيوب ، وقد حز فى نفسه ما سمع منهم ، وما جاءته به امرأته من قبلهم ، فابتهل إلى الله قائلاً : رب ، إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ؛ رب ، إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، أبعد بقدرتك التى وسعت كل شىء الداء عن لسانى حتى أستطيع ذكرك ، وأقدر على التسبيح باسمك .

(ت) ونزل وحى الله على أيوب أن : اضرب برجلك الأرض ينبع منها ماء ، تغتسل به فيبرأ ظاهرك ، وتشرب منه فيبرأ باطنك ، فضرب أيوب الأرض برجله كما أمره الله ، فانفجرت عيون من ماء عذب صاف ، واغتسل أيوب ، وشرب من الماء الذى فجره الله من أجله ، فإذا بجسمه وقد غدا سليماً معافى .

(ث) وأتت الزوجة تبحث عن زوجها العليل المبتلى ، فوجدت مكانه رجلا سليما ، فأنكرته ولم تعرفه ، فناداها فعرفته ، وعرفت أن الله الذى كادت تيئس من رحمته ، قد شمل أيوب بها ، فأقبلت على زوجها تستسمحه ، وتطلب منه أن يطلب لها غفران الله .

(خ) فقال لها أيوب : لقد أقسمت إن شفانى الله يوماً أن أضربك مائة ضربة ، فأوحى الله إلى أيوب أن : خذ بيدك ضغثاً ، فاضرب به ولا تحنث .

(ذ) فجمع أيوب مائة عود من القش ، وضرب بها زوجته ضربة واحدة ، فتحلل من قسمه ، ورحم الله زوجة أيوب ، وغفر لها بما قدمت .

(ض) وآتى الله أيوب ماله وأولاده جميعاً ، ومثلهم معهم ، رحمة منه ، وذكرى لأولى الألباب .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يذكر ما حدث لعبد الله ونبيه أيوب ، فقد أصابه ما أصابه من مرض شديد موجع ، طال أمده ، وجعل الشيطان يوسوس لزوجته أن تنفر منه ، وتضيق به ؛ ومن ذهاب للأهل والولد ، ومن إفناء للمال ، وحاول الشيطان أن يفتنه عن الله ، ويجعله يجزع لهول ما أصابه فى جسمه وماله وولده ، ولكنه لم يفتتن ولم يجزع ؛ وكل ما كان منه أنه لجأ إلى ربه ، يدعوه أن يكشف عنه ما به من ضر وبلاء .

٢ — حينما أراد الله له الشفاء ، أمره أن يضرب الأرض برجله ، فضربها ، فنبع منها ماء ، فأمره الله كذلك أن يغتسل بالماء ، فاغتسل ، فبرئ من علته الظاهرة ؛ وأمره أن يشرب من الماء ، فشرب فبرئ من علته الباطنة .

٣ — وأراد الله أن يتم على أيوب نعمته ، فرد عليه أهله الذين ذهبوا عنه ، ورد معهم من يساويهم عدداً وقوة وجاهاً ؛ وكان ذلك من رحمة الله به ، وفضله عليه ، وجعله الله عبرة وذكرى للعقلاء من الناس ، الذين ينظرون ويتدبرون ويتعظون .

٤ — كان أيوب قد غضب على زوجته غضبة ، فحلف ليضربنها مائة ضربة ، إذا برئ من علته ، على نحو ما قدمنا — فأمره الله أن يأخذ حزمة من حشيش أو ريحان ، أو غيرهما ، بحيث تكون أعوادها مائة ، ثم يضربها بهذه المائة ضربة ، حتى لا يحنث فى يمينه ، وحتى لا يقسو على امرأة خدمته فى مرضه ، وأخلصت له ، ولا سيما أنه هو لا ينكر معروفها عليه ؛ وقد علم الله صبر أيوب ، ومدحه ، وأثنى عليه ، لأنه كثير الرجوع إلى الله ، عند ما ينوبه مكروه .

(٧)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٦٤ من سورة ص

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا : إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ؛ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ : ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ —١— . وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ —٢— . هَـٰذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ : جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا ، يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ —٣— ، وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ، هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ —٤— إِنَّ هٰذَا لَرِزْقُنَا ، مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ —٥— . هٰذَا ، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ : جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ الْمِهَادُ ! —٦— . هٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ ، حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ —٧— . هٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ؛ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ، قَالُوا : بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ الْقَرَارُ ! —٨— . قَالُوا : رَبَّنَا ، مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ —٩— . وَقَالُوا : مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ

مِنَ الْأَشْرَارِ ؟ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ؟ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ؟ –١٠–
إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ –١١– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أولى الأيدى والأبصار	أصحاب الأعمال الطيبة : الظاهرة والباطنة ، الحسية والمعنوية .
إنا أخلصناهم بخالصة	إنا استخلصناهم واصطفيناهم بصفة طيبة لا عيب فيها .
ذكرى الدار	بأنهم يذكرون الدار الآخرة دائماً ، ويعملون لها ، ويدعون الناس إليها ، فتطيب ذكراهم فى الدنيا ، ويزيد ثوابهم فى الآخرة .
لمن المصطفين الأخيار	لمن المختارين الطيبين من بين الناس جميعاً .
هذا ذكر	هذا شرف عظيم ، وذكر حسن جاء به القرآن .
لحسن مآب	لحسن مرجع .
جنات عدن	جنات إقامة دائمة .
متكئين فيها	جالسين فيها جلسة المترفين المنعمين .
قاصرات الطرف	نساء عيونهن مقصورة على أزواجهن لا تتعداهم .
أتراب	هن وأمثالهن من سن واحدة .
ليوم الحساب	ليوم المحاسبة والمجازاة .
ما له من نفاد	لا ينقطع ولا يزول ، وإنما هو دائم خالد .

الألفاظ	شرحها
وإن للطاغين لشر مآب	وإن للذين يتجاوزون حدهم ، ولا يطيعون أنبياءهم ، ولا يوحدون ربهم – مرجعاً هو شر مرجع ، ومصيراً هو أسوأ مصير .
يصلونها	يدخلونها ، ويقاسون عذابها .
فبئس المهاد	فبئس ما يفترشونه من النار .
حميم وغساق	الحميم : الحارّ جدًّا ، والغساق : قيح وصديد يسيل من أهل جهنم .
وآخر من شكله أزواج	وعذاب آخر من نوع هذا العذاب شدة وفظاعة ، وهو أنواع وأشكال .
هذا فوج	هذا جمع كبير كثيف ، والمراد : الذين اتبعوهم فى الكفر والضلال .
مقتحم معكم	داخل معكم النار ، أو مسوق إليها مثلكم .
لا مرحباً بهم	يدعون على أتباعهم الذين ضلوا بضلالهم .
إنهم صالو النار	إنهم داخلو النار ، مقحمُون فيها .
أنتم قدمتموه لنا	أنتم قدمتم لنا العذاب ، بما دعوتمونا إليه من الكفر والضلال .
فبئس القرار	فبئس المصير الذى صرنا إليه ، واستقررنا فيه ، وهو جهنم .
فآتهم عذاباً ضعفاً	فعذبهم عذاباً مضاعفاً ، بسبب إضلالهم إيانا .
لا نرى رجالا	يقصدون الذين آمنوا بأنبيائهم ، فكان طريقهم إلى الجنة .

الألفاظ	شرحها
كنا نعدهم من الأشرار	كنا نحتقرهم فى الدنيا ، ونرميهم بالضعف وسوء التفكير ، والسخف .
أتخذناهم سخريًّا ؟	أكنا نسخر منهم فى الدنيا ، وكانوا على حق ، وكنا على ضلال ؟
أم زاغت عنهم الأبصار	أم هم معنا ، ولكن أبصارنا زائغة لا تراهم .
لحق	لواقع يوم القيامة .
تخاصم أهل النار	تجادل أهل النار ، والتلاحى الواقع بين الأشراف والسوقة ، يقول الأولون : لا مرحباً بكم ، ويقول الآخرون : بل أنتم لا مرحباً بكم .

قصص إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب

سبق الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ، فى غير موضع من تفسير الأجزاء السابقة

قصتا اليسع وذى الكفل

اليسع بن أخطوب ، هو نبىّ عاصر إلياس ، كان اليسع مريضاً حين أوَت أمه إلياس فى منزلها ، وأخفته فيه ، بعد أن دعا الله أن يحبس عن قومه المطر ، لإصرارهم على عبادة معبودهم : « بعل » ، فدعا إلياس ربه فبرئ اليسع من مرضه ، وآمن بإلياس وصدقه ، ولزمه أينما ذهب ، وكان إلياس قد أسن وكبر ، واليسع ما زال غلاماً شابًّا ، وبعد موت إلياس ، اختار الله اليسع نبيًّا .

ولما كبر اليسع ، وعجز عن قيام الليل وصيام النهار ، قال : من يتكفل لى بثلاث : قيام الليل ، وصيام النهار ، والقضاء بين الناس ، من غير أن يغضب ؟ فجاءه رجل ، وقال له : أنا ، فاستخلفه اليسع ، فوفّى بما تعهد به ، فسمى ذا الكفل ، لأنه تكفل بأداء ما وعد به ، والأكثرون على أنه كان نبيًّا ، لاقتران اسمه بأسماء الأنبياء ، ويقول الفخر الرازى : إن الله سماه ذا الكفل على سبيل التعظيم ، لأن عمله كان ضعف عمل غيره ، وثوابه كان ضعف ثواب غيره ، والكفل : النصيب ، فهيأه الله لأن يكون ذا نصيب وافر من الأجر والثواب .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله — سبحانه وتعالى — نبيه محمداً أن يذكر من سبق من أنبياء الله ، وما كان يجرى عليهم مع قومهم ، وما كانوا عليه من القوة فى الدعوة إلى الله ، والإيمان به ، والحض على عبادته ، والعمل على طاعته ، وما كانوا عليه من قوة العقل والرأى ، وحسن التأتى للأمور ، وجميل التدبير ، ونقاء السريرة ، وتوخى الحق والعدل والصواب فى كل ما يتصرفون فيه ؛ وعبر عن القوة بالأيدى ، لأن كل الأعمال المحسوسة التى يحتاج أداؤها إلى قوة ، يكون أداؤها باليد ؛ وعبر عن التعقل والتدبير بالأبصار ، لأن المعرفة تنال ببصر القلب ، وقالوا : العالم بالشىء بصير به ، وأكد الله لنبيه أن هؤلاء الأنبياء استخلصهم الله واصطفاهم ، ومنحهم صفات طيبة لا عيب فيها ، ولم يكن لهم شغل يشغلهم إلا ذكر الآخرة دائماً ، ويجعلونها نصب أعينهم ، فهم يعملون لها ، ويدعون إليها ، فخصهم الله بخير ما فيها ، ويؤكد الله أنهم عنده من عباده المختارين الطيبين ، الذين خصهم برسالته .

٢ – ويأمر الله – سبحانه وتعالى – نبيه محمداً أيضاً أن يذكر فيمن يذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل، وأن يذكر ما أبلوا فى طاعة الله ، وما لاقوا من معانديهم ، وأن يكون له فى ذلك عزاء وتسلية، وهؤلاء وغيرهم من الأنبياء من عباد الله الطيبين ، الذين لهم عند الله منزلة خاصة فى الدنيا والآخرة .

٣ – هذا القرآن الذى أنزلناه عليك – يا محمد – لتبلغه قومك ، وتبشرهم وتنذرهم بما جاء فيه، إنما هو ذكر لك ولمن أرسلت إليهم ، تتلونه ، وتتدبرونه ، وتتعظون بما جاء فيه ، ويؤكد الله أن الذين يخافونه ، لهم فى الآخرة منزلة كريمة ، وخلود فى النعيم ، ومصير طيب، وهذا المرجع الطيب الذى قدره الله لهؤلاء، يكون فى حدائق ذات بهجة ، يقيمون فيها إقامة دائمة، وهذه الحدائق أبوابها مفتحة لهم ، فلا يعالجون فتحها ، ولا يلقون فى ذلك عناء ؛ وهم يقيمون فى تلك الحدائق والبساتين على سرر وثيرة، يجلسون عليها جلسة المتكئ ، لأن الاتكاء دليل الأمن والراحة والاطمئنان ، وإذا أرادوا فاكهة من فواكهها الكثيرة الصنوف والأنواع ، أو أرادوا شراباً من أشربتها الكثيرة أيضاً ، دعوا ما أرادوا، وطلبوه باللسان أو بالإشارة ، فلا يلبثون أن يجابوا إلى ما يطلبون ، فيأكلون ما شاءوا أن يأكلوا ، ويشربون ما شاءوا أن يشربوا .

٤ – ولا يقتصر تنعمهم على الفاكهة والشراب ، بل عندهم نساء عفيفات ، أطرافهن لا تتعدى النظر إلى أزواجهن ، وعيونهن لا تمتد إلى غير من أحله الله لهن ؛ وهؤلاء النساء فى سن واحدة ، كل منهن ترب للأخريات ، صديقة لهن ، فلا تباغض ولا تحاسد ولا تباعد ، ولا تقاطع ولا تدابر ولا تعادى ، وإنما هو التحاب والتآخى، والتآلف والتواد ؛ وهذه الأشياء كلها هى التى وعد الله بها المؤمنين يوم القيامة .

٥ – هذا الذى أعطاه الله عباده المتقين من : الفاكهة والشراب وقاصرات الطرف ، هيأه لهم فى الجنة تهيئة دائمة ، لانقص فيها ، ولا نفاد لها .

٦ – وهذا الذى ذكره الله من قبل ، هو ما أعده للمتقين ، أما الكافرون الذين لم يسمعوا لأنبيائه ، ولم يطيعوهم ، وأصروا على إشراكهم بالله، فإن لهم شر مصير ، وأوخم عاقبة ، وذلك بدخولهم جهنم يوم القيامة ، وخلودهم فيها ، يفترشون نارها ، ويتقلبون فى جحيمها ، ونارها أسوأ فراش ، وجحيمها أشد جحيم .

٧ – هذا الذى يذوقونه – حميم أُغلى حتى وصل إلى أعلى درجة حرارة يمكن تصورها ، وقيح وصديد يسيل من أجسام المعذبين فى جهنم ؛ وكلاهما يؤذى أشد الإيذاء ، ويؤلم أوجع الإيلام ، وهم ذائقو هذا وذاك ، وليت أمرهم فى التعذيب ينتهى عند هذا ، بل إنهم يذوقون صنوفاً أخرى من العذاب ، تشبه هذين الصنفين ، ومن واديهما ، نعوذ بالله من ذلك .

٨ – يقال لرءوس الكفر وهم مسوقون إلى جهنم : هؤلاء جماعة كثيرة مسوقة معكم إلى جهنم ، تعذب فيها مثل تعذيبكم ، لأنهم انقادوا لكم فى الدنيا فضلوا كما ضللتم ، وأصروا على الكفر إصراركم ، فيرد هؤلاء الزعماء داعين عليهم ، متبرمين بهم : لا مرحباً بهم ، إنهم مثلنا فى العذاب ، يذوقونه كما نذوقه ، ويتقلبون فى نار جهنم كما نتقلب ؛ فيقول الأتباع : بل أنتم لا مرحباً بكم ؛ وكانوا لا يستطيعون أن يردوا عليهم فى الدنيا ، لمكانهم من الرياسة والسلطان ، فلما تساووا فى نار جهنم ، لم يجدوا تحرجاً فى الرد عليهم ، واتهامهم بأنهم هم الذين أضلوهم وأغووهم ، فكأنهم بسبب ذلك الإضلال والإغواء قدموهم لجهنم حطباً ، وهى أشنع مكان يصير إليه الإنسان .

٩ — ثم يستمر هؤلاء الأتباع فى كلامهم ، ويقولون داعين الله أن يزيد أولئك الرؤساء تعذيباً ، ويضاعف لهم ما هم فيه ، لأنهم هم الذين أضلوهم فى الدنيا ، ودعوهم إلى الكفر ، فلم يملكوا إلا أن يستجيبوا لما كان لهم عليهم من سلطان مبسوط ؛ ولكن هذا لا يعفيهم هم أيضاً من العذاب ، لأنهم كان عليهم ألا يطيعوا ، مهما عرضتهم الطاعة للعنت والإرهاق .

١٠ — ويقول الرؤساء والمتبوعون : عجباً ! ! كان معنا فى الدنيا ناس كنا نعتبرهم من شر الناس ، ومع ذلك لا نراهم معنا فى هذه النار التى نعذب فيها ؛ وقيل : إن الذين يقولون هذا هم رءوس الكفر من قريش : أبو جهل والوليد بن المغيرة ، وغيرهما ممن أصرّ على الكفر من زعماء قريش ؛ ويَعنون بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار : صُهيباً وبلالا وعماراً وخبّابا وسلمان ، هؤلاء الذين عذبوا فى الله ، وحاول الكفار أن يفتنوهم عن دينهم ، فلم يسمعوا لهم ، وتحملوا أذاهم ، وصبروا على تعذيبهم ، والاستهزاء بهم ، والإمعان فى تحقيرهم ؛ فإذا كان يومُ القيامة كان نصيبهم الجنة ، ولما لم يجدهم الكافرون معهم فى النار ، سألوا عنهم : لم لا يرونهم ؟ . هل اتخذناهم سخرية فى الدنيا فأخطأنا ، فهم من أجل ذلك ليسوا معنا فى النار ؟ أم هم معنا ، ولكن أبصارنا زائغة مائلة ، لهول ما نحن فيه ، فلا نميزهم ؟ ! !

١١ — يؤكد الله — جل شأنه — أن هذا الذى ذكره فى الآيات السابقة عن الملاحاة التى تكون بين بعض الكافرين وبعض ، والمشادة التى تقع بين الرؤساء والمرءوسين ، والتخاصم ودعاء بعضهم على بعض ، حق واقع حتما ، لا شك فيه .

(٨)

من الآية ٦٥ من سورة ص ، إلى آخر السورة

قُلْ : إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ —١— . قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ —٢— مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ، إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ —٣— إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ —٤— . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ —٥— . قَالَ : يَا إِبْلِيسُ ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ أَسْتَكْبَرْتَ ؟ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ؟ —٦— . قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ —٧— . قَالَ : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ —٨— قَالَ : رَبِّ ، فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ —٩— . قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ —١٠— . قَالَ : فَبِعِزَّتِكَ ، لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ —١١— . قَالَ : فَالْحَقُّ ، وَالْحَقَّ أَقُولُ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ

أَجْمَعِينَ -١٢- . قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ -١٣- . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ -١٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قل	قل يا محمد لمشركي مكة .
إنما أنا منذر	ما أنا إلا منذر لكم بما سيؤول إليه أمركم يوم القيامة ، إن أصررتم على كفركم .
وما من إله إلا الله	وما أنا إلا مبلغكم أنه لا دين إلا دين التوحيد ، الذى يقول أصحابه : لا إله إلا الله .
الواحد القهار	الفرد الذى لا شريك له ، القادر الذى لا يُغلَب .
العزيز الغفار	الذى إذا عاقب لا يَرُد عقابه رادّ ، ومع ذلك فهو كثير المغفرة لمن يتوب توبة نصوحاً .
قل : هو نبأ عظيم	هذا الذى أخبرتكم به من أنى منذر ، داع إلى التوحيد ، خبر عظيم يستحق الانتباه له ، والأخذ به ، لما يترتب على الأخذ أو الترك من نتائج خطيرة .
أنتم عنه معرضون	أنتم متغافلون عنه يا كفار مكة .
بالملأ الأعلى	بكلام الملأ الأعلى ، وهو التخاصم الذى وقع بين الملائكة وإبليس .

الألفاظ	شرحها
فإذا سويته	فإذا أتممت خلقه وعدّلته ، وجعلته مستوياً .
ونفخت فيه من روحى	وبعثت فيه الحياة ، فتحرك وتنفس وأحس .
فقعوا له ساجدين	فأدوا له علامة الخضوع والاحترام والتحية .
فسجد الملائكة كلهم أجمعون	فأدى الملائكة جميعاً له ما يدل على تحيتهم واحترامهم وخضوعهم ، وامتثالهم أمر ربهم .
استكبر	استعظم عن أن يفعل مثل ما فعل الملائكة .
وكان من الكافرين	عصيانه أمر الله ، وإباؤه السجود لآدم ، جعله فى عداد الكافرين .
لما خلقت بيدىّ	للذى خلقته بنفسى من غير واسطة ، وليس المرد أن لله يدين سوّى بهما خلق آدم ، ولكن لما كانت أكثر الأعمال تؤدى باليدين ، نُسب إليهما كل عمل ، ولو كان مؤدى بغيرهما .
أم كنت من العالين	أم كنت من الذين علت منزلتهم علوًّا يجعلهم فوق جميع خلق الله ، حتى الملائكة ؛ وفى هذا الأسلوب استنكار لما فعل إبليس .
فاخرج منها	فاخرج من الجنة .
فإنك رجيم	فإنك مرجوم مطرود من رحمة الله ، ملعون .
وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين	وإنك محكوم عليك بالإبعاد من رضاى ورحمتى إلى يوم القيامة ، فإذا جاء يوم القيامة وقع عليك العذاب .
فأنظرنى إلى يوم يبعثون	فأمهلنى إلى أن ينتهى أبناء آدم من الدنيا ، ويأتى يوم البعث .

الألفاظ	شرحها
فبعزتك	أقسم بسلطانك وجبروتك .
لأغوينهم	لأضلنهم .
لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم	لأملأن جهنم يوم القيامة منك ومن الشياطين والأبالسة ، ومن الذين يتبعونك من بنى آدم .
ما أسألكم عليه من أجر	ما أطلب منكم أجراً على القرآن الذى أتيتكم به .
من المتكلفين	من المتصنعين الذين يتصنعون ما يفعلون ، ويتكلفون ما يقولون ، ويدّعون ما ليس فيهم .
إن هو إلا ذكر للعالمين	ليس القرآن إلا تذكرة للخلق جميعاً .
نبأه	خبر ما جاء فى القرآن من وعد ووعيد ، وإنذار وتبشير .
بعد حين	بعد مضى وقت ، ويكون ذلك وقت الموت ، حيث تتكشف البصائر ، وتُدرك الحقائق .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله نبيه محمداً أن يؤكد للكافرين من قومه ، أنه ليس إلا رسولا من عند الله الذى حمله الرسالة فحملها ، وغايته أنه ينذر أولئك الكافرين الذين لا يؤمنون به ، ويخوفهم عذاب الله ، ويدعوهم إلى الاعتقاد بأنه إله واحد لا شريك له ، ولا معبود سواه ، فليس له ولد ولا بنت ولا زوجة ولا شريك ، وهو قهار لكل من يشاء بقدرته التى ليس فوقها قدرة ، مالك للسموات والأرض وما بينهما ، ومن كان كذلك فهو الإله المستحق

للعبادة وحده ، وهو العزيز فى نقمته من الكافرين ، الذى إذا عاقب لا يستطيع أحد أن يرد عقابه أو يدفعه ، ومع ذلك فهو واسع المغفرة ، يمنحها من يتوب من عباده توبة صادقة ، لا يشوبها رياء ، ولا يداخلها شك أو تردد .

٢ — ويأمر الله نبيه محمداً أيضاً أن يقول لهؤلاء الكافرين : إن هذا القرآن الذى أنزله الله علىّ لأبلغكم إياه ، خبر عظيم ، فيه خيركم إن سمعتموه وتدبرتموه ، وعملتم بما فيه ، ولكنكم أُغلقت قلوبكم ، فأعرضتم عنه ، وأصررتم على انحرافكم وتكذيبكم ، وبقائكم على كفركم .

٣ — ويأمر الله النبىّ أن يذكر لقومه ، أنه قبل أن يُوحَى إليه ما أوحِىَ بشأن ماحدث من الملائكة قبلى خلق آدم ، حين أخبرهم الله أنه سيخلق بشراً من طين ، وأنه سيجعله خليفة فى الأرض ، فقالوا : أتجعل من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ؟ ! ! — ما كان يعلم عن هذا الأمر شيئاً ، وروايته هذا الحديث لهم الآن ، فيه أكبر الدليل على أنه أُوحى به إليه ، وأنزله الله عليه ؛ وهذا دليل على أن القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وأن الله يوحى إلىّ لأنذركم ، وأقفكم على سوء عاقبتكم ، وأوضح لكم ذلك بما يأمرنى الله به .

٤ — ما كان لمحمد علم بالتخاصم الذى وقع فى الملأ الأعلى ، بشأن خلق آدم والسجود له ، وذلك أن الله أخبر ملائكته أنه خالق بشراً من الطين ، وطلب إليهم أن يسجدوا له بعد أن يسويه ، ويعدل صورته ، ويبعث فيه الروح ، ويصير حيًّا .

٥ — وحين أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ، أطاعوا أمره ، وسجدوا لآدم ، ولم

يعص ذلك إلا إبليس الذى استكبر أن يسجد لآدم ، وعصيانه هذا جعله فى عداد الكافرين .

٦ — بعد أن امتنع إبليس عن السجود لآدم ، قال الله له : يا إبليس ، أى شىء منعك من السجود لآدم ، وهو عبدى الذى خلقته وسوّيته وأحييته ؟ وقد انفردتَ بهذه المخالفة ، لأن الملائكة جميعاً سمعوا وأطاعوا ، فسجدوا ، أهذا استكبار وتعاظم ، أم تعال منك ؟

٧ — قال إبليس : لم أمتنع عن السجود استكباراً عليك يا ربى ، وما كنت قبل اليوم مستكبراً ولا متعالياً ، ولكنى امتنعت ، لأنى أشرف من آدم فى أصل الخلقة ، فهو مخلوق من طين ، وأنا مخلوق من نار ! والنار أشرف من الطين ، فكيف يسجد الشريف للمشروف ؟

٨ — أمر الله إبليس أن يخرج من الجنة ، لأنه مرجوم مشئوم ملعون ، والجنة لا تكون لمن هذه صفته ، وأكد الله له أنه مطرود من رحمته إلى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة .

٩ — لما رأى إبليس غضب الله عليه ، وإخراجه من الجنة بسبب آدم ، سأله أن يمهله فلا يهلكه ، وأن يؤخره إلى اليوم الذى يبعث فيه خلقه ، وهو يوم القيامة .

١٠ — استجاب الله لإبليس دعاءه ، وأخبره أنه أخر إهلاكه إلى اليوم الذى طلبه .

١١ — أقسم إبليس بعزة الله ، وقدرته وسلطانه ، أنه سيتسلط على عباده ويوسوس لهم ، ويغويهم ويضلهم ، ولن يُفلت منه إلا الذين استخلصهم الله واستصفاهم ، وحفظهم منه ، فإنه لا سبيل له عليهم ، ولا يستطيع أن ينفذ إلى قلوبهم .

١٢ — الله هو الحق ، وله الحق ، ولا يقول إلا الحق ، ويؤكد أنه سيملأ جهنم بإبليس وبمن اتبعوا إبليس ، من بدء خلق آدم إلى يوم القيامة .

١٣ — كان كفار مكة يعجبون من أن القرآن ينزل على محمد من دونهم جميعاً ؛ فأمره الله أن يقول لهم : إنى لا أطلب منكم أجراً على تبليغ ما يوحى إلىّ الله ، ولست أنا من المتكلِّفين الذين يفترون على الله الكذب ، ويصنعون قرآناً ، وينسبونه إلى الله .

١٤ — وأن هذا القرآن ليس إلا كتاباً منزلا من عند الله ، وأؤكد لكم — يا كفار مكة — أنكم ستتأكدون من أنه كتاب الله ، كل منكم فى الوقت الذى يناسبه ، فمن أسلم منكم بعد ذلك ، علم حين إسلامه أنه كتاب الله ، ومن قتل فى غزوة من غزوات النبىّ ، تأكد حين يرى الموت بعينه ، أنه نبىّ الله ، ومن أصر على كفره ، وعاش فى هذه الدنيا إلى أن يحين حيَنه ، تأكد حين خروجه منها أنه كتاب الله .

سُورَةُ الزُّمَر

نزلت بمكة ماعدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فإنها نزلت بالمدينة
وآياتها خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الرابعة

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ —١— . أَلَا لِلّٰهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ —٢— . لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ! هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تنزيل الكتاب	تنزيل القرآن .
العزيز الحكيم	القوى السلطان ، المحكم التدبير .
أنزلنا إليك الكتاب بالحق	أنزلنا القرآن عليك بحالة لا يتطرق إليها شك ولا لبس .
مخلصاً له الدين	مصفياً له الدين من كل شائبة ، كالشرك والرياء ونحوهما .
لله الدين الخالص	الله هو وحده هو الذى يستحق أن يكون الدين الخالص من جميع الشوائب له دون غيره .
أولياء	آلهة ونصراء .
ليقربونا إلى الله زلفى	ليقربونا إلى الله قربى .
يحكم بينهم	يحكم بين المسلمين والكافرين يوم القيامة .
لاصطفى	لاختار .
سبحانه	تنزيهاً لذاته عن اتخاذ الشريك والولد !
القهار	القادر على أن يقهر كل شىء مهما كان ، ولو كان آلهتهم التى يعبدونها .

مجمل المعنى

١ — نزّل الله القوى السلطان ، المحكم التدبير ، العزيز فى انتقامه من أعداء أنبيائه ، القرآن على نبيه محمد ، وأكد له أنه أنزله عليه ، لحاجة خلقه إليه ، ورسم

لهم فيه طريق الحق ، ومنهج العدل ، وأوضح طرق الحق ؛ وأقومُ مناهج العدل عبادة الله وحده ، وعدم إشراك أحد من خلقه معه فى أى نوع من أنواع العبادة ؛ وأمر الله نبيه محمداً أن يخضع له وحده ، ويخصه بطاعته ، ويفرده بعبادته ، ويخلص له العبادة ، ولا يعمل ما عمله عبدة الأوثان من الإشراك بالله .

٢ — الدين الخالص ، دين الطاعة القلبية ، والعبادة على أساس الوحدانية ، هو دين الله ؛ والذين يتخذون آلهة غير الله ، يطيعونها ويعبدونها ، إنما فعلوا ذلك لا لأنها تستحق العبادة لذاتها ، ولكنهم عبدوها ليلتمسوا بها القربى إلى الله ، واستشفع لهم فى قضاء حاجاتهم عنده ؛ والذى يقضى بين هؤلاء الناس جميعاً يوم القيامة هو الله ، فيدخل الذين يخلصون له الدين الجنة ، ويدخل عبدة الأصنام والكواكب وغيرها النار ؛ ويؤكد الله أنه لا يهدى إلى الطريق المستقيم ، ولا إلى الدين القويم ، أحداً من الذين يفترون عايه ، ويجعلون له شركاء ، أو ينسبون إليه الولد أو الزوجة ، أو غير ذلك من الأمور التى لا تجوز عليه سبحانه .

٣ — لو شاء الله أن يكون له ولد — كما يزعمون — لاختار من خلقه الكثير ما يشاء ، والله منزه تنزيهاً عن أن يتصف بأى صفة من الصفات التى ينسبها إليه المشركون : كاتخاذ الشريك والولد وغير ذلك ، فهو الله الذى له السلطان على جميع خلقه ، الواحد الذى ليس له شريك ، القهار الذى لا يغلبه شىء .

(٢)

من الآية ٥ إلى الآية ١٠ من سورة الزمر

خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ –١– . خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ –٢– . إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِىٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ –٣– . وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ –٤– أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ

وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ : هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ –٥– قُلْ : يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يكوّر الليل على النهار ، ويكوّر النهار على الليل	يدخل وقت كل منهما فى الآخر ، أو ينقص أحدهما من طول الآخر .
وسخر الشمس والقمر	جعهما فى وضع خاص وعلى نظام خاص ، ينتفع به الإنسان
كل يجرى لأجل مسمى	كل من والشمس والقمر يسير فى مداره إلى يوم القيامة .
العزيز الغفار	الغالب فى عزة ، الساتر لذنوب التائبين .
من نفس واحدة	من أصل واحد ، وهو آدم .
ثم جعل منها زوجها	ثم خلق من نوعها حواء .
وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج	خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام ، سيأتى بيانها .

الألفاظ	شرحها
خلقاً من بعد خلق	تتطورون فى الأرحام من حالة إلى حالة، حتى يتم الخلق .
فى ظلمات ثلاث	ظلمة صلب الرجل، حيث تكونت الحيوانات المنَوية ، وظلمة مِبْيض المرأة، حيث تكون البُيَيْضات المنَوية، وظلمة الرحم، حيث وقع اللقاح بين الذكر والأنثى ، وتكوّن الجنين ونما، حتى تمت أشهر الحمل
ذلكم الله ربكم	الذى فعل ذلك كله، هو الله المستحق للربوبية دون سواه .
فأنى تصرفون	عجباً !! كيف تنصرفون عن عبادته ، وتفكرون فى عبادة غيره ؟ !!
فإن الله غنى عنكم	فإن الله فى غير حاجة إلى عبادتكم .
ولا يرضى لعباده الكفر	ولا يرضى أن يكون بين عباده كافر ، وإن أراد ذلك لبعضهم وقدّره عليهم لسوء استعداده وفساد فطرته .
يرضه لكم	يرض لكم أن تشكروا ، ويثبكم على ما تشكرون .
ولا تزر وازرة وزر أخرى	ولا تتحمل مرتكبة إثماً إثم مرتكبة أخرى ، ولكن يؤاخذ كلاًّ بذنبه .
إلى ربكم مرجعكم	مصيركم إلى الله بعد وفاتكم .
فينبئكم بما كنتم تعلمون	فيخبركم بكل ما عملتم فى الدنيا من خير وشر ، عظم أو صغر .
إنه عليم بذات الصدور	إنه عالم علم إحاطة بكل ما يجرى ، حتى هاجسات النفس ، وواردات الخواطر .

الألفاظ	شرحها
ضر	شدة من أى نوع كانت .
منيباً إليه	راجعاً إليه تائباً خاضعاً ذليلاً .
خوّله نعمة منه	منحه نعمة منه ، وجعلها ملكاً له يتصرف فيها تصرف المالك .
وجعل لله أنداداً	وجعل لله نظراء يشركهم معه فى عبادته ، ويستعين بهم فى قضاء حاجته ، وهم لا يقدرون ولا يقضون .
ليضل عن سبيله	ليقتدى به الجهال فيضلوا .
تمتع بكفرك قليلا	تمتع بنعيم الدنيا مدة عمرك وهى قصيرة ؛ وفى هذا الأمر تهديد للكافر .
من أصحاب النار	من أهل النار
أم من هو قانت	أم المطيع المؤمن كالعاصى الكافر .
آناء الليل	ساعات الليل .
يحذر الآخرة	يخاف عذاب الآخرة .
ويرجو رحمة ربه	ويتمنى أن يرحمه الله بإدخاله الجنة .
إنما يتذكر أولو الألباب	إنما يتعظ بالأحداث والحوادث والشواهد أصحاب العقول السليمة .
اتقوا ربكم	خافوا الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه .
للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة	للذين أطاعوا ربهم فى هذه الدنيا حسنة فى الآخرة.
وأرض الله واسعة	إذا لم تتيسر لكم الطاعة فى أرض فاهجروها إلى أرض أخرى ، تأمنوا فيها على عقيدتكم ، وكلها أرض الله .

الألفاظ	شرحها
إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب	الذين يصبرون على ترك أوطانهم وأهلهم من أجل دينهم ، والذين يصبرون على ما يصيبهم من البلاء من أى نوع لأى سبب ، لهم عند الله أجر غير محدود .

مجمل المعنى

١ — الأدلة على قدرة الله ووحدانيته كثيرة ، منها أنه هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما من صنوف المخلوقات الكثيرة ، التى لا يمكن أن يصنعها غيره ؛ ومن المظاهر الواضحة الدالة على القدرة ، ذلك النظام البديع الذى خلق الله عليه هذا العالم ، والذى نشأ عنه ما يتعاقب على الأرض من ليل ونهار ، وما يجرى بين الليل والنهار من تدخل ، فيطول هذا ويقصر ذاك حيناً ، ثم يقصر الأول ويطول الثانى حيناً آخر ، ويحل أحدهما مكان الآخر ؛ ويترتب على هذا التدخل أن يكون نهار فى أحد نصفى الكرة الأرضية ، وليل فى النصف الآخر ، وتغير حرارى على سطح الأرض ، وينشأ عن ذلك التغير الحرارى تغير فى سقوط الأمطار ، وتكوّن الأنهار ، واختلاف المواسم الزراعية ، والإنتاج الحيوانى ، وغير ذلك من الأمور التى يطول الحديث عنها إذا أردنا أن نستقصيها ، وهى تحت سمعنا وبصرنا ، وهى كلها دالة على أن الله واحد لا شريك له ؛ ومن دلائل قدرته أيضاً تسخيره الشمس والقمر أيضاً ، بحيث يجرى كل منهما فى مداره ، ويدور كذلك حول نفسه ؛ ولكلتا الحالتين أثر كبير فى حياة الإنسان والحيوان

والنبات ؛ فكأن الله خلقهما على هذا النظام لينتفع بهما خلقه ؛ ومن أظهر أنواع المنافع التى تعود علينا من هذا النظام ، معرفة السنين والشهور والمواسم والفصول ؛ وسيظل هذا النظام الكونى قائماً إلى يوم القيامة ، حيث تبدل الأرض غير الأرض ، وتبدل السموات غير السموات ؛ والله هو العزيز فى انتقامه ممن لا يؤمنون به ، الكثير المغفرة لمن يتوب ، ولا يعود إلى خطئه .

٢ — ومن دلائل قدرة الله أيضاً أنه خلق الناس جميعاً من أصل واحد ، هو آدم ؛ وخلق على هيئة ذلك الأصل أنثاه ، وهى حواء ، وخلق أزواجاً ثمانية من الأنعام : اثنين من الإبل ذكراً وأنثى ، واثنين من البقر ذكراً وأنثى ، واثنين من الضأن ذكراً وأنثى ، واثنين من المعز ذكراً وأنثى ؛ وليس معنى ذلك أن الله لم يخلق من الحيوان غير هذه ، ولكنه خلق صنوفاً أخرى كثيرة ؛ وتلك التى ذكرها لها أثر فى حياة الناس عامة ، وفى حياة العربى خاصة ؛ والله القادر يخلقنا نحن الناس أطواراً فى أرحام الأنثيات ، فمن نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى غير ذلك ، وتتناوب هذه الأطوار على الجنين فى ظلمات ثلاث ، فلا يخرج الجنين من ظلمة صلب الرجل وظلمة مبيض المرأة إلا إلى ظلمة الرحم ، وصاحب القدرة على هذا كله هو الذى يختص بذلك الملك الواسع ، المستحق للربوبية دون سواه ، فما أعجب أمر هؤلاء الذين ينصرفون عن عبادته ، ويفكرون فى عبادة غيره !

٣ — إن تستمروا أيها المشركون على كفركم ، وتظلوا على عنادكم — فإن الله ليس فى حاجة إلى صلاتكم ، ولا إلى صيامكم ، ولا إلى أى نوع من أنواع التعبد الذى تؤدونه إذا آمنتم ؛ والله فى غنى عن عبادتكم وعبادة غيركم ، ومع ذلك فإنه لا يرضى لعباده المؤمنين إيماناً صحيحاً أن يكفروا ، ولا يرضى

كذلك لأىٍّ من عباده أن يكون كافراً ، ولذلك يرسل إليهم أنبياءه يعظونهم ويرشدونهم وينذرونهم ، ويدعونهم إلى التوحيد ؛ فإن استجابوا وآمنوا فذلك هو الذى يحبه الله لهم ، وإن لم يستجيبوا فإن الله لا يرضى لهم أن يكونوا كافرين ؛ والله بعد ذلك يرضى عن عباده أن يشكروه ويطيعوه ؛ وعدل المولى جل وعلا يقتضى ألا يحمل مذنب ذنب آخر ، ولكن يؤاخذ كل إنسان بعمله ، فمن أثم فعليه إثمه هو ، ولا يؤاخذ بإثم غيره ؛ وبعد أن تنتهى الحياة الدنيا يرجع الناس كلهم إلى الله ، فيجدون كل ما قدموا فى الدنيا من عمل : شرًّا كان أو خيراً — مُحصًى عليهم ، حاضراً أمامهم ، يطلعهم الله عليه ، مهما دق هذا العمل ، ولو كان هاجس النفس ، ووارد الخاطر .

٤ — وإذا أصيب الإنسان بشىء فى صحته أو ماله أو ولده أو زوجته ، أو أى شىء يهمه أمره ، إصابة حسية أو معنوية ، تذكر الله ربه ، ولجأ إليه ، ودعاه أن يكشف غمه ويفرِّج كَرْبه ، واعتذر إليه عما بدر منه قبل ذلك من اقتراف إثم ، أو ارتكاب خطيئة ، أو انحراف فى عقيدة ، أو غير ذلك ؛ فإذا منّ الله عليه ، ومنحه نعمة من عنده ، ففرَّج كربه ، وأزال شدته ، وبدل بؤسه نعيماً ، ومرضه صحة ، غره ما صار إليه من صحة وأمن ومال مثلا ، ونسى ما كان فيه من شدة وكرب ، وعاد إلى زندقته وإلحاده ، وأشرك مع الله الآلهة التى كان يشركها معه من قبل ، وكان بعمله هذا مثلاً سيّئاً لغيره من الناس الذين يتأثرون به ، ويتخذونه قدوة لهم ، فيضلون بضلاله ؛ ومثل هذا يأمر الله نبيه محمداً أن يقول له مهدداً إياه : تمتع بكفرك فى هذه الحياة الدنيا ، وهو تمتع قليل بعده الموت ، ثم يأتى الحساب العسير يوم القيامة ، وتدخل بعده النار وتخلد فيها ، لأنك فعلت ما يوجب أن تكون من أهلها .

٥ — الذى يطيع الله ، ويخضع له ، ويقضى ساعات ليله فى عبادة بين سجود وقيام ، ويخاف عذاب الآخرة ، ويرجو الله أن يرحمه ، ويقيه عذاب النار ، لا يستوى مع العصاة المتمردين الذين لا يوحدون ربهم ، ولا يفردونه بعبادتهم ؛ ويأمر الله نبيه أن يقول لقومه : لا يستوى العالمون الذين يعرفون ما أعده الله لهم من الثواب على ما يقدمون من طاعة وإيمان ، والجاهلون الذين لا يقدرون حقيقة موقفهم ، وما أعده الله للعصاة أمثالهم من عذاب ؛ ويؤكد الله أن الذين يعتبرون ويتعظون ، إنما هم ذوو العقول السليمة ، التى يستعينون بها على الفهم الصحيح ، فيهتدون إلى الصراط المستقيم .

٦ — يأمر الله نبيه أن يقول للمؤمنين من عباده : يا عباد الله الذين آمنوا به ، ووحدوه وعظموه ، وصدّقوا رسله ، اتقوا الله وخافوه ، واعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ؛ والذين يطيعون لهم على طاعتهم حسنة فى الدنيا بتيسير أمورهم ، وتوفيقهم إلى ما فيه خيرهم ، وحسنة فى الآخرة بإدخالهم الجنة ؛ ويحض الله عباده المؤمنين على الهجرة من بلاد الشرك والكفر ، إلى بلاد تسلم فيها عقائدهم ، ويطمئنون على دينهم ؛ والله يؤكد أن الذين يصبرون على مرارة الهجرة ، وما يصحبها من الحرمان من المال والولد والأهل — يعطيهم أجراً كبيراً لا حد له .

(٣)

من الآية ١١ إلى الآية ١٨ من سورة الزمر

قُلْ : إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ —١— . قُلْ : إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ —٢— قُلِ : اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ : إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ —٣— لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللّٰهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ —٤— . وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللّٰهِ ، لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّٰهُ ، وَأُولٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لأن أكون أول المسلمين	لأن أكون أول من أسلم من هذه الأمة ، وأشد المسلمين إخلاصاً لله .
عصيت ربى	نبذت طاعته بالعودة إلى عبادة ما تعبدونه من الأصنام .
عذاب يوم عظيم	عذاب يوم القيامة الشديد .
مخلصاً له دينى	مخلصاً له طاعتى وعبادتى .
فاعبدوا ما شئتم من دونه	فاعبدوا ما تريدون عبادته من غير الله ، وهذا تهديد و وعيد .
خسروا أنفسهم وأهليهم	خسروا أنفسهم بإلقائهم فى نار جهنم ، وخسروا أهليهم بإضلالهم ودخولهم النار .
الخسران المبين	الخسران الواضح ، الذى لا خسران فوقه .
ظلل من النار	طبقات من النار .
ذلك	الوصف الذى وصف الله به نار جهنم .
يا عباد فاتقون	يا عبادى ، خافونى ، ولا تتعرضوا لغضبى وسخطى وعذابى .
الطاغوت	الشيطان ، كلمة مأخوذة من الطغيان .
وأنابوا إلى الله	ورجعوا إلى الله .
لهم البشرى	لهم البشارة الطيبة من الملائكة بثواب الله .
وأولئك هم أولو الألباب	وأولئك هم أصحاب العقول الناضجة المنتفعة بالنصح ، المميزة بين الخير والشر .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله نبيه كذلك أن يقول لمشركى مكة : أؤكد لكم أن الله أمرنى أن أخصه وحده بالعبادة ، ولا أشرك معه غيره ، وأن أخلص له فى ذلك وأصفيه به ، وأمرنى أن أكون أول مسلم بينكم ، فلا يسبقنى إلى الإسلام واحد منكم .

٢ — يأمر الله نبيه أيضاً أن يقول لقومه : أؤكد لكم أنى أخاف عذاب يوم القيامة ، وما فيه من أهوال عظام ، إن أنا عصيته ولم أومن به ، وأشركت معه غيره فى العبادة ؛ وكان ذلك رداً على ما قاله له أشراف قريش ، وهو : ألا تنظر إلى أبيك وجدك وسادات قومك ، يعبدون اللات والعزى ؟ ! !

٣ — ويأمر الله نبيه أيضاً أن يخبر قومه أنه يخص الله بعبادته ، ويفرده بتوحيده ؛ وأن يتركهم يعبدون ما يشاءون من الآلهة غيره ، فإن جزاءهم سيلقاهم يوم القيامة ؛ وفى هذا تهديد لهم ووعيد ، ورد عليهم حين قالوا له : إن خالفت دين آبائك فقد خسرت — بأن الخاسرين خسراناً شديداً هم الذين خسروا أنفسهم ، بأنهم أوردوها النار بسوء فعلهم ، وقبيح شركهم ، وخسروا أهليهم ، بأن تسببوا فى إضلالهم ، فأوردوهم النار معهم ، وإن الخسران الذى وقع فيه هؤلاء المشركون ، هو أشد خسران وأبشعه وأشنعه ، لأنهم جعلوا لأنفسهم نهاية هى أسوأ النهايات ، ومصيراً هو أقبح المصاير ، وذلك هو نار جهنم ، والخلود فيها .

٤ — هؤلاء الذين أصروا على عنادهم وشركهم ، يدخلون جهنم يوم القيامة ، وتحيط بهم نارها من كل جانب ، فهى طبقات من فوقهم ، وطبقات من تحتهم ، فأينما نظروا لا يجدوا إلا ناراً شديدة تحرقهم ، وتلازمهم

ملازمة الظلال لمن يحملونها ؛ ونظير هذا قوله تعالى : « لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش » ، وقوله : « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم » ؛ وهذه النار التي يصفها الله لعباده ، يخوفهم إياها ليعدلوا عما هم فيه من ضلال ، حتى لا يكون مصيرهم إليها ، ثم يأمرهم بعد ذلك أن يخافوه ، ولا يعرضوا أنفسهم لغضبه وسخطه .

٥ — يخبر الله أن الذين ابتعدوا عن الشيطان ، ولم يصل إلى قلوبهم بوسوسته ، ولم يعبدوا الأصنام ، ورجعوا إلى الله ووحدوه ، وأفردوه بالعبادة — هؤلاء يبشرون بالجنة ، يبشرون بها إذا أسلموا وحسن إسلامهم ، ويبشرون بها عند موتهم ، ويبشرون بها عند حسابهم ، ثم يدخلونها ويخلدون فيها ، ولذلك يأمر الله نبيه أن يبشر من عباده الفريق الذين يجتمعون بالناس ، ويسمعون حديثهم ، وفيه ما هو حسن ، وفيه ما هو سيئ ، قرآناً أو غير قرآن ، فيسارعون إلى ما فيه خيرهم وإسعادهم ، وما فيه خير لدينهم ووطنهم ؛ هؤلاء الناس هم الذين يرضى الله عنهم ، ويوفقهم للهداية ، وهم أصحاب العقول الراجحة التي تفهم وتفقه وتميز .

(٤)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٦ من سورة الزمر

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ؟ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ؟ -١- . لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَعْدَ اللَّهِ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ -٢- . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ -٣- . أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؟ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ -٤- . اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ ، يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ -٥- . أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ -٦- كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لا يَشْعُرُونَ ، فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْىَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حق عليه كلمة العذاب	وجب تعذيبه بسبب كفره .
لهم غرف من فوقها غرف	لهم منازل رفيعة ، ومقامات عالية فى الجنة .
تجرى من تحتها الأنهار	تجرى الأنهار من تحت منازلهم ، مبالغة فى التنعم .
وعد الله	هذا هو الوعد الذى وعدهم الله إياه .
أنزل من السماء ماء	أنزل من السماء مطرا .
فسلكه ينابيع فى الأرض	فامتصت الأرض هذا الماء ، فدخل فيها ، واتخذ له مجارى فى باطنها ، تخرج الينابيع .
مختلفاً ألوانه	الزرع الذى يخرج بالماء مختلف شكلاً ولوناً ، وثمراً وحجماً .
ثم يهيج فتراه مصفرًّا	ثم يجف فيصفر ، وتذهب خضرته ونضارته .
ثم يجعله حطاماً	ثم يتكسر ويتفتت .
إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب	إن فى تقلب النبات فى هذه الأطوار ، موعظة وعبرة للعقلاء .
شرح الله صدره للإسلام	وسع الله صدره ، وجعله قابلاً للاستضاءة بنور الإيمان .

الألفاظ	شرحها
فهو على نور من ربه	فهو على علم حقيقى هيأه الله له ، واهتدى به إلى الإيمان .
فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله	فعذاب شديد للذين قست قلوبهم من ترك ذكر الله .
فى ضلال مبين	فى غـواية واضحة ظاهرة ، لا تحتاج معرفتها إلى تأمل .
نزّل أحسن الحديث	نزل القرآن .
كتاباً متشابهاً	كتاباً يشبه بعضه بعضاً ، وكله على نسق واحد فى النظم أو الاتساق ، والمعنى والإعجاز .
مثانى	مكرراً ما فيه من قصص وعظات وعبر ، ويردد على الألسن فلا يمل .
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم	تختلج وتضطرب جلود الذين يخافون الله عند تلاوة آيات الوعيد والتهديد أو سماعها .
ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله	ثم تنبسط أساريرهم ، وتهدأ نفوسهم ، عند تلاوة آيات الرحمة والمغفرة أو سماعها .
ذلك هدى الله	القرآن مصدر هداية الله لمن شاء له الهداية .
يتقى بوجهه سوء العذاب	يدفع بوجهه لا بيديه ولا بغيرهما شدة العذاب وقسوة حر النار .
ذوقوا ما كنتم تكسبون	قاسوا عقاب ما كنتم تعملون فى الدنيا من سيئات .
من قبلهم	من قبل قريش .
من حيث لا يشعرون	من الجهة التى كانوا لا يظنون أنهم يؤتـوْن منها .

الألفاظ	شرحها
فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا	فعانوا مرارة الذل والحرمان ، وأنواعاً من العذاب ، أصابتهم فى الدنيا .
لو كانوا يعلمون	لو كانوا يعلمون أنهم سيقع عليهم فى الآخرة عذاب أشد من العذاب الذى يقع عليهم فى الدنيا لآمنوا .

مجمل المعنى

١ — تخلف عن الإسلام رجال من قريش ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يود لو دخلوا فى الإسلام ، والمعنى : أفمن استحق العذاب ينج منه ؟ أفأنت تنقذ من سبق فى علم الله أنه من أهل النار ؟

٢ — والذين اتقوا ربهم وخافوه ، وآمنوا به ، يدخلون الجنة ، وينزلون فيها منازل رفيعة ، ويتمتعون فيها بكل أنواع المتع الحسية والروحية ؛ ومن أنواع المتع التى يجدونها أنهم يقيمون فى قصور فخمة ، ذات حدائق غناء ، تجرى الأنهار من تحتها ؛ وهذه أرقى نزه الدنيا ومتعها ، صور الله لنا نزه الجنة ومتعها بها ، ولكنها فى حقيقتها فوق ما تراه العين فى الدنيا فى أرقى صوره ، وأجمل هيئاته ، وبهذا وعد الله عباده المؤمنين ، والله إذا وعد وفّى ، فلا يُخلفُ عنده ميعاد .

٣ — ينبه الله إلى أنه بقدرته وتدبيره ، خلق الكون على نظام يجعل ماء المطر ينزل من السماء ، وهذا الماء تمسك الأرض بعضه فيكوّن الأنهار ، وتمتص

بعضه ويجرى فى باطنها ، ويكون له مسالك ومجار فى باطن الأرض ؛ وهذا الماء الذى يكون فى باطن الأرض يجرى هنا وهناك ، فإذا صادفته أرض رخوة أو منخفض من الأرض ، تفجر عيوناً وينابيع ، وإذا لم تصادفه هذه ولا تلك ، استخرجه الإنسان بالأجهزة والآلات ؛ وهذا الماء كله الذى أصله من المطر النازل من السماء ، يستخدمه الإنسان فى أمور كثيرة ، منها إرواء الأرض ، واستنبات الزروع المختلفة الأشكال والألوان والأنواع ، وهذه فيها الشجر الكبير ، والنبات الصغير ، ومنها ما يخرج الحب كالقمح والذرة والشعير ، ومنها ما يخرج الفاكهة كالبرتقال والتفاح والعنب ، ومنها ما يخرج الزهر كالورد والفل والياسمين ، ومنها ما يتخذ غذاء كالخُضَر ، ومنها ما يكون غذاء للماشية كالبرسيم ؛ وهذه الصنوف كلها نبتت بالماء ، وهى جميعها تكون فى بعض أدوار حياتها خضراء نامية ، فإذا استوت واستكملت أطوار نموها ، بدأت تزول عنها خضرتها ، وظهر عليها اليبس والجفاف ، ثم بدأت تتقصف وتتكسر ؛ هذه الأطوار المختلفة التى تمر بالنبات ، يجب أن تكون موضع عبرة وموعظة لأولى العقول النيرة المشرقة .

٤ — الناس صنفان : صنف شرح الله للإسلام صدره ، وهيأ له قلبه ، وأنار بصيرته ، فآمن وأطاع ، وعمل بما أمره الله به ، وانتهى عما نهى الله عنه ، وصنف ضاق صدره ، وعمى قلبه ، وأظلمت بصيرته ، فانصرف عن الدعوة ، ولم يستجب للرسول ، وظل قائماً على الكفر ، عاكفاً على الضلال وهذان الصنفان لا يستويان ، ففريق فى الجنة ينعم بنعيمها لصدق إيمانه ، وفريق فى جهنم يصلى نارها لضلاله المبين .

٥ — جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، وقالوا له : يا رسول الله ؛

لو حدثتنا ! فنزل عليه : أن أحسن الحديث ما كان بالقرآن ، فهو كتاب . جمع ما لم يجمعه كتاب آخر ، وليس مثله كتاب فى رصفه ونظمه ، ومعانيه وإعجازه ، تتكرر فيه الأخبار والقصص والأحكام والقضاء ، والحجج والفرائض والحدود ، ولكل موضعه ؛ وهو كتاب يحلو لقارئه أن يقرأه ويعيده ، ويحلو لسامعه أن يسمع ويستعيد ويستزيد ؛ وليس كذلك كتاب آخر ؛ والناس الذين يخشون ربهم ، ويخافون عذابه يوم القيامة ، إذا سمعوا آيات التهديد والوعيد أو قرءوها ، وجفت قلوبهم ، واقشعرت جلودهم ، واضطربت نفوسهم خوفاً من وعيد الله ، وإذا سمعوا آيات الرحمة والمغفرة أو قرءوها ، آمنت قلوبهم ، وانبسطت أسارير هم ، وهدأت نفوسهم ، طمعاً فى عفو الله ورحمته ؛ وهذا القرآن العظيم ، أنزله الله على محمد هدى للناس ونوراً ، ولكنه لا يهتدى به ، ولا يستضىء بنوره ، إلا من قدّر الله له هذا ؛ أما الذين قدر الله عليهم أن يظلوا عاكفين على ضلالهم وكفرهم ، فلن تدركهم رحمة الله ، ولا هدى القرآن ، ولا يستطيع أحد أن يجلب لهم إيماناً أو هدى .

٦ — الذين يأمنون العذاب ويدخلون الجنة ، لا يكون مثلَهم الذين يقذفون فى نار جهنم لكفرهم ، وقد غُلت أيديهم إلى أعناقهم ، فتلفح النار الشديدة أجسامهم ، فلا يجدون حيلة إلا أن يحاولوا أن يتقوها بوجوههم ، والوجه عادة يتقى له ولا يتقى به ، وهذه صورة بشعة للكافرين وهم يتقلبون فى نار جهنم ، ويقال لهم شماتة بهم : ذوقوا هذا العذاب الشديد جزاء لكم على كفركم وعصيانكم ، وارتكابكم السيئات فى الدنيا ، وعدم استجابتكم لداعى ربكم .

٧ — ليس مشركو قريش أول من أشرك بالله ، ولا أول من كذب نبيّ لله ،

وكانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وأهليهم ، فأتاهم عذاب الله من حيث كانوا لا يظنون أنهم سيعذبون ؛ وكان على كفار قريش وقد عرفوا أنباء السابقين أن يتعظوا بما جرى لهم ، وألا يُصروا على كفرهم الذى يسبب لهم عذاباً فى الدنيا وعذاباً فى الآخرة ، أما عذاب الدنيا فإنه سيسبب لهم خزياً وعاراً ، وأما عذاب الآخرة فهو أشد وأقسى من عذاب الدنيا .

(٥)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٣١ من سورة الزمر

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ —١— . ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ، وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ الْحَمْدُ لِلّٰهِ ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —٢— . إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل	مثلنا للمشركين بما جرى لأمثالهم من الأمم السابقة .
لعلهم يتذكرون	لعلهم يتعظون .
غير ذى عوج	لا لبس فيه ولا إبهام ، ولا تناقض ولا اختلاف .
فيه شركاء متشاكسون	فيه شركاء مختلفون متنازعون .
ورجلا سلما لرجل	ورجلاً سالماً لرجل ، خالصاً له .
هل يستويان مثلا	لا يستويان فى حالة واحدة .

مجمل المعنى

١ — ضرب الله الأمثال لمشركى قريش ، بما جاء فى القرآن من أخبار المشركين السابقين ، وما جرى لهم مع أنبيائهم ، وما جرى عليهم من تعذيب ؛ وساق لهم هذا كله بلسان عربى فصيح ، لاشك فيه ولا لبس ، ولا إبهام ولا تناقض ولا اختلاف ، رجاء أن يكون لهم فى ذكر هذا كله موعظة وعبرة ، فيتقوا الله ويحذروه .

٢ — وتوضيحاً لحالهم مع أوثانهم — ضرب الله لهم مثلا واضحاً ، فمثّل الكافر وآلهته التى يعبدها من دون الله ، بعبد اشترك فيه ناس كثيرون ، اختلفوا وتنازعوا ، وصار كل منهم يدعى أنه عبد له ، ويحاول أن يخص به نفسه من دونهم جميعاً ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه ، وقد يؤدى هذا الخلاف ، إلى أنه يخرج من أيديهم جميعاً ، فلا يستفيد واحد منهم ، ولا يستفيد هو من واحد منهم ، ومثّل المؤمن بعبد له سيد واحد ، خالص من المشاركة لرجل آخر ، فهل يستوى هذا الذى يخدم جماعة من الشركاء أخلاقهم مختلفة ، لا يلقاه أحد منهم إلا جره لخدمته ؛ وإن أرضى واحداً غضب الباقون ؟ هل يستوى هذا ومن يخدم واحداً لا ينازعه فيه أحد ، إن أطاعه قدر له طاعته ، وإن أخطأ صفح عنه ؟ فأيهما أقل عناء أو على هدى مستقيم؟ والمراد: أن من يدعى تعدد الآلهة ، فإن هذه الآلهة تتنازع ، ويحاول كل منهم أن يعلو على الآخر ، فلما بطل القول بادعاء الشركاء ، ثبت أن الله واحد أحد ، وثبت أنه وحده هو المختص بالحمد والثناء ، ولكن المشركين لا يعلمون فضل الله ، ولو علموا من غير إصرار على العناد لآمنوا .

٣ — إن محمداً يجرى عليه ما يجرى على الناس فى كل زمان ومكان ، فهو إنسان يحيا ويموت ، ويموت كذلك أتباعه المؤمنون، أو يموت الكافرون، ويجتمع هؤلاء جميعاً عند الله يوم القيامة ، ويخاصم بعضهم بعضاً : المؤمنون والكافرون ، والصادقون والكاذبون ، والمظلومون والظالمون ، والمهتدون والضالون ، والضعفاء والأقوياء ، والمتواضعون والمستكبرون ، والمعتدى عليهم والمعتدون، والحكام والمحكومون، والمحقون والمبطلون، ويؤدى الله لكل صاحب حق حقه ، سبحانه وتعالى !

فهرس الجزء الثالث والعشرون من القرآن الكريم

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	ص	من ١ — ١١	من ٨٥ — ٩١
٢	»	» ١٢ — ١٦	» ٩٢ — ٩٤
٣	»	» ١٧ — ٢٦	» ٩٥ — ١٠٣
٤	»	» ٢٧ — ٢٩	» ١٠٤ — ١٠٥
٥	»	» ٣٠ — ٤٠	» ١٠٦ — ١١١
٦	»	» ٤١ — ٤٤	» ١١٢ — ١١٨
٧	»	» ٤٥ — ٦٤	» ١١٩ — ١٢٦
٨	»	» ٦٥ إلى آخر السورة	» ١٢٧ — ١٣٣
١	الزمر	» ١ — ٤	» ١٣٤ — ١٣٦
٢	»	» ٥ — ١٠	» ١٣٧ — ١٤٤
٣	»	» ١١ — ١٨	» ١٤٥ — ١٤٨
٤	»	» ١٩ — ٢٦	» ١٤٩ — ١٥٥
٥	»	» ٢٧ — ٣١	» ١٥٦ — ١٥٨

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع والعشرون

تأليف

محمود محمد حمزة

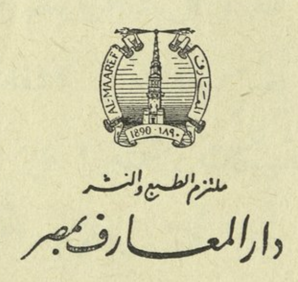
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى
فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر
مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ،
وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ،
تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ٣٢ إلى الآية ٤١ من سورة الزمر

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ؟ –١– . وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ، لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ –٢– . أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ؟ –٣– وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ : إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ ، هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ، هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ –٤– . قُلْ : يَا قَوْمِ ، اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ،

إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ —٥— . إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فمن أظلم ممن كذب على الله	لا أحد أشد ظلماً من الذين يفترون على الله ، وينسبون إليه ما لا يجوز عليه ، كالشريك والولد .
وكذّب بالصدق إذجاءه	وكذب بما لا يتطرق إلى صدقه شك بمجرد سماعه أو معرفته ، من غير تروّ ولا تفكير .
أليس فى جهنم مثوى للكافرين ؟	أليس فى النار مسكن ومُقام للذين يكذبون على الله ، وللذين يكذبون بالصدق من غير تروّ ولا تفكير ؟ .
أولئك هم المتقون	أولئك هم الذين يخافون الله .
ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا	ليستر عليهم أسوأ ما ارتكبوه فى الدنيا من ذنوب تابوا عنها ، ورجعوا إلى الله ، وصاروا من المحسنين .
أليس الله بكاف عبده	أليس الله —سبحانه وتعالى— يكفى عبده محمداً : فيحميه ويعزه وينصره ويعصمه كما وعده ؟ .
بالذين من دونه	بالأصنام التى اتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله .

الألفاظ	شرحها
فما له من هاد	فما له مرشد يهديه ، ولا هاد يدله على طريق الحق والصواب .
أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟	أليس الله قويـًّا شديداً فى مؤاخذته الكفرة ، منتقماً من أعدائه المشركين به ؟ .
إن أرادنى الله بضر	إن أراد الله أن أصاب بشدة من مرض أو فقر ، أو فقدان زوجة أو ولد ، أو غير ذلك .
هل هن كاشفات ضره	هل الأصنام مزيلات عنى ما قدر الله علىّ من شدة أصابتنى ؟ .
هل هن ممسكات رحمته	هل هن مانعات ما يريد الله لى من خير : كالسعة فى الرزق ، أو الصحة الجيدة ، أو غير ذلك ؟.
حسبى الله	يكفينى أن أكون مقرًّا بوحدانية الله ، وهو يحمينى من كل شر .
عليه يتوكل المتوكلون	عليه يعتمد كل من يريد أن يعتمد ، وبه لا بغيره ثقة المؤمنين .
اعملوا على مكانتكم	ابذلوا غاية ما تستطيعون من قوة ومكر .
إنى عامل	إنى مستمر على حالتى التى أنا عليها فى تقرير دينى ، بتأييد الله ونصره .
فسوف تعلمون	فسوف تعرفون نتيجة مخالفتكم وعصيانكم ، وسوف تعرفون نتيجة إيمانى وإيمان من أطاعونى .
عذاب يخزيه	عذاب يذله فى الدنيا والآخرة .
عذاب مقيم	عذاب دائم لا يتغير ولا يتحول ، فلا نجاة له منه.

الألفاظ	شرحها
أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق	أنزلنا عليك القرآن حقًّا : لحاجة الناس إليه فى إرشادهم وتعبدهم .
فإنما يضل عليها	فإنما يقع ضرر ضلاله على نفسه لا على غيره .
وما أنت عليهم بوكيل	ولست حفيظاً عليهم ، ولا موكلا بهم ، ولا مسئولا عن ضلالهم .

مجمل المعنى

١ ـ لا أحد أشد ظلماً من الذين يفترون الكذب على الله ، فينسبون إليه ما لا يجوز عليه ، كأن يشركوا معه فى عبادته آلهة أخرى كاللاَّت والعزَّى ، أو يزعمون أن له ولداً أو بنتاً أو زوجة ، أو غير ذلك من الأشياء التى لا تجوز عليه ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهؤلاء الناس تعرض عليهم أمور الدين ، فبمجرد سماعها يسارعون إلى تكذيبها من غير أن يفكروا فيما عرض عليهم ، أو يناقشوا فيه مثلا ؛ ولكنه التكذيب السريع ، والنفور من الدعوة ؛ ومثل هؤلاء مقرهم يوم القيامة جهنم التى يقيمون فيها إقامة الخالدين .

٢ ـ أما الذى جاء بالصدق ـ وهو محمد ـ ، جاء بالقرآن ، وبالدعوة إلى التوحيد ، وتجنب عبادة الأصنام ؛ وكذلك الذين آمنوا بالقرآن وبما جاء به من دعوة إلى التوحيد ـ أما هؤلاء جميعاً فهم المتقون الذين يخافون الله ويخشونه ؛ وأولئك لهم يوم القيامة عند الله من الثواب والجزاء الحسن كل ما يريدونه لأنفسهم ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ؛ وهذا الذى أثابهم الله به ، هو جزاء كل محسن فى الدنيا بالطاعة والتوحيد والعمل الصالح ؛ والله

يستر عنهم أشد سيئاتهم التى ارتكبوها فى الدنيا قبل الدخول فى الإسلام، وتابوا عنها وأنابوا ، ورجعوا إلى ربهم مخلصين ، ويثيبهم ثواباً جزيلاً فى الآخرة على أحسن حسناتهم التى عملوها .

٣ — بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أحد أصنام قريش ، — وهو العُزَّى — ليكسره بفأسه، فقال له سادِنُ بيت الصنم : يا خالد ، أنا أحذِّركها ، إن لها شدة لا يقاومها شىء ؛ فمشى إليها خالد بالفأس فهشم أنفها ؛ وكانت قريش تخوف النبىّ مضرة الأوثان، وتقول له : أتسب آلهتنا؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو لتصيبنك بسوء، فكان مثلهم مثل الكفار الذين خوفوا إبراهيم عليه السلام انتقام الأصنام منه ، فأجابهم : « وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن ؟ » ، (تراجع الفقرة الثامنة من الصفحة ١٠٦ من تفسير الجزء السابع) ، فأنزل الله : أنه حام نبيه ، وحافظه من الأذى ، هو ومن آمن به ، فلا يجوز أن يعبأ بتخويفهم إياه آلهتهم التى يشركونها مع الله فى العبادة ، والله إذا قدر لعبد من عباده الهداية فلن يضله أحد ، وإذا قدر على عبد من عباده الضلال فلن يهديه أحد ، وهو سبحانه قوى شديد فى مؤاخذته الكفرة ، منتقم من أعدائه المشركين به .

٤ — هؤلاء المشركون الذين يعبدون الأصنام ، إذا سألتهم : من الذى خلق السموات والأرض ؟ لا يترددون فى أنهم يقولون لك : الله هو الذى خلق السموات والأرض ؛ فإذا سألتهم : إذا أراد الله أن يصاب أحد بشدة وكرب فى صحة أو مال أو ولد أو أهل ، أتستطيع هذه الآلهة أن تدفع عنه وتحميه مما أراد الله له ؟ أجابوك : لا ؛ وإذا سألتهم : إذا أراد الله أن يوسع على أحد فى رزقه ، أو يمنحه صحة جيدة ، أو يمنّ عليه بخير فى ولد أو أهل ،

أتستطيع هذه الآلهة أن تمنع هذا الخير عمن أراده الله له ؟ ! ! أجابوك : لا ؛ فإذا كانت هذه اعترافاتهم يقرون بها على أنفسهم ، فاعجب لسخف عكوفهم على عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع ، واسأل الله أن يحفظك منهم ، واستكف باعتمادك عليه ، ورضاه عنك ، وتوليه تدبير أمرك أنت ومن اتبعك من المؤمنين .

٥ — وأمر الله نبيه أن يقول لقومه بعد أن أقام عليهم الدليل وألزمهم الحجة : ابذلوا غاية جهدكم فى أنواع مكركم وكيدكم ، وأنا عامل ما رأيت أن أعمل فى نشر دينى والدعوة إليه ، فلكل منا شأنه وعمله ؛ وسوف تعرفون بعد ذلك أينا على صواب ، وأينا يرضى الله عنه ، وأينا الذى يقع عليه عذاب الله فى الدنيا بالخذلان ، والذل والهوان ، وفى الآخرة بدخول جهنم ، والخلود فيها .

٦ — يؤكد الله لنبيه أنه أنزل عليه القرآن بالحق والعدل ، لأن إعجازه يدل على أنه من عند الله ، فيه الدعوة إلى الإسلام ، وفيه التبشير للمؤمنين ، والإنذار للكافرين ؛ فالذين يهتدون ويُسلمون كان خير ذلك راجعاً إليهم ، والذين يستكبرون ويعاندون ، ويؤثرون الضلال على الهدى ، كان شر ذلك واقعاً عليهم دون غيرهم ؛ ولا عمل لك يا محمد إلا أن تبلغ رسالة الله بالطريقة التى رسمها الله ، فليس لك عليهم وكالة ولا وصاية ، ولست مكلفاً أن تحملهم على الإيمان بالقهر والسيطرة .

(٢)

من الآية ٤٢ إلى الآية ٤٨ من سورة الزمر

اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ؛ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ –١– . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ؟ –٢– . قُلْ : لِلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ، لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ –٣– . وَإِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ –٤– . قُلِ : اللّٰهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ –٥– . وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ –٦– . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ –٧– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الله يتوفى الأنفس حين موتها	الله هو الذى يتوفى الأحياء التى تموت بعد استيفاء أجلها .
والتى لم تمت فى منامها	والله يتوفى الأحياء التى لم تستوف أجلها فى أثناء نومها ، فلا تتصرف ولا تميز وقت النوم ، فهى تشبه الميتة فى هذا .
فيمسك التى قضى عليها الموت	فالأحياء التى استوفت آجالها وتوفاها الله ، لا ترد إلى الحياة الدنيا .
ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى	والأحياء التى لم تستوف أجلها ، وتوفّاها الله فى أثناء نومها ، يردها إلى الحياة بالحركة والتمييز والتصرف ، حتى ينقضى أجلها فى الدنيا ، فتموت الموتة الكبرى .
إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون	إن فى توفى الأنفس على الصورتين السابقتين ، لدلالات واضحات على قدرة الله ، يعرفها العقلاء المفكرون .
أم اتخذوا من دون الله شفعاء	هل اتخذت قريش شفعاء لها عند الله من الأصنام التى تعبدها ، من غير أن يأذن الله لها ؟ .
أوَ لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون	أيشفع هؤلاء لكم عند الله ، ولو كانوا لا شأن لهم فى نفع ولا ضر ، ولا عقل يميزون به بين الخير والشر ؟ .

الألفاظ	شرحها
لله الشفاعة جميعاً	الله وحده هو المختص بالشفاعة ومالكها، والآذن بها.
اشمأزت	انقبضت ونفرت ، لترك ذكر أصنامهم وأوثانهم .
الذين من دونه	الأصنام والأوثان ، كاللات والعزى .
إذا هم يستبشرون	إذا هم تمتلئ قلوبهم سروراً ، وتفيض وجوههم بشراً .
فاطر السموات والأرض	يا خالق السموات والأرض .
عالم الغيب والشهادة	يا عالم السر والعلن .
لافتدوا به من سوء العذاب	لجعلوا كل ما يملكون فداء لهم من العذاب الشديد، الذى يقاسونه يوم القيامة .
وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون	وأظهر الله لهم يوم القيامة أموراً لم يدُر بخلدهم أنها ستظهر على الصورة التى رأوها عليها .
وبدا لهم سيئات ما كسبوا	وظهرت لهم الأعمال السيئة التى كسبوها فى الدنيا .
وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون	وأحاط بهم العذاب الشديد ، جزاء على استهزائهم فى الدنيا بما كان يعرض عليهم ، ويُدعَوْن له .

مجمل المعنى

١ — من الأدلة الواضحة على قدرة الله ووحدانيته ، أنه يتصرف فى جميع خلقه على ما يشاء ؛ ومن دلائل تصرفه المطلق أنه يتوفى الأحياء توفياً لا رجعة بعده إلى الدنيا ، بعد أن تنتهى أعمارها ، وأنه يتوفاها توفياً جزئياً يتمثل فى عدم التمييز والتصرف ، وذلك فى وقت النوم ، فإذا انتهى وقت النوم صَحَت ورُدت إليها قدرتها على التمييز والتصرف ، وتظل كذلك الأنفس بين موت

وحياة ، حتى تستوفى أجلها من الدنيا ، ثم تموت الموتة الأخيرة التى يمسك الله بعدها روحها ، فلا ترد إليها ؛ وفى هذا كله أدلة قوية واضحة لأصحاب العقول المفكرة ، التى تعتبر بما يجرى حولها من شئون الحياة وتقلباتها ، وتغير مظاهرها .

٢ — وإن هؤلاء الذين يشركون مع الله آلهة أخرى ، يظنون أنها تشفع لهم عند الله ، لبئس ما ظنوا ! إذ كيف تتوسط لهم عند ربهم ، وهى لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئاً ، وإنما هى جمادات صماء ، صنعوها بأيديهم ، ونصبوها آلهة لهم .

٣ — لا يستشفع أحد عند الله إلا بإذن الله ، « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ » ، فالشفاعة له سبحانه ، اختص بها ، ولم يمنحها أحدا من خلقه إلا بإرادته ورضاه ؛ ولكنه لا يمنح شرف الاستشفاع إلا مَن يرتضيهم ويأذن لهم بالشفاعة ، فإن الشفاعة منزلة رفيعة لا ينالها إلا أخص خلق الله بالله ؛ وهو يملك السموات والأرض والعوالم كلها ، والمرجع إليه وحده ، ولا يمكن التكلم فى أمر من الأمور إلا برضاه وإذنه ، فهو المختص بالعبادة والتوحيد ، فإن تعبدوه لا تحتاجوا إلى شفيع ، لأنكم بذلك تكونون بحاجتم إلى صاحب الأمر ، من غير وسيط ولا شفيع .

٤ — قرئت سورة النجم أمام باب الكعبة ، وفيها توحيد الله ، وتنزيهه عن الشريك والولد ، فسمعها المشركون من قريش ، فانقبضت نفوسهم ، ولوَّوا رءوسهم ، ونفروا من سماعها ، وهؤلاء الجهال إذا سمعوا ذكر آلهتهم ولو مع ذكر الله — تعالى — ، استبشروا وفرحوا ، وظهرت آثار سرورهم على وجوههم ، ألا بئس ما يصنعون !

٥ — يأمر الله نبيه أن يقول : يا ألله ، يا خالق السموات والأرض ، يا عالم الغيب والشهادة ، يا من لا تقع عليه عين ، ولا يحسه بصر ، يا محيطا بكل شيء ، حتى هاجسات النفوس ، وواردات الخواطر والظنون — أنت الحاكم العدل ، الواقف على ما بيني وبين قومي من خلاف ، فاحكم بيني وبينهم بما تقتضيه حكمتك ، ويرتضيه عدلك .

٦ — هؤلاء المشركون الذين ظلموا أنفسهم بشركهم ، لو أنهم يملكون جميع ما في هذه الدنيا ، ويملكون مثل ما في هذه الدنيا فوق ما فيها ، وأرادوا أن يقدموا جميع ما يملكون فداء لهم من العذاب الشديد الذي سيعذبونه يوم القيامة ، لما قُبِلَتْ منهم هذه الفدية ، وظهر لهم من عذاب الله وشدته يوم القيامة ما لم يكونوا يظنون أنهم سيلقونه ؛ وفي هذا تهديد لهم ، ووعيد شديد ، وتيئيس من الخلاص والنجاة إذا ظلوا على كفرهم .

٧ — وظهر لهم كذلك الأعمال السيئة التي عملوها في الدنيا ، لأن كلا منهم سيجد عمله حاضراً أمامه ، فتلزمه الحجة ، ولا يستطيع أن ينكر ، وأحاط بهم العذاب إحاطة شديدة ، فلا مفر لهم منه ، وذلك بسبب ما بدر منهم في الدنيا من استهزاء بمحمد وبدعوته ، وبمن آمن به .

(٣)

من الآية ٤٩ إلى الآية ٥٢ من سورة الزمر

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا ، قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —١— . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا، وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ —٢— أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مس الإنسان ضر	أصابت الإنسان شدة .
خوّلناه	منحناه متفضلين عليه .
أوتيته على علم	أعطيت ما عندى من النعمة لفضلى ومنزلتى ، ولأنى أحصل عليه بكدى وعملى ، ومعرفتى الطرق التى أجلُب منها رزقى .

الألفاظ	شرحها
بل هى فتنة	بل النعم اختبار وابتلاء نختبر ونبتلى بها .
ولكن أكثرهم لا يعلمون	ولكن أكثر هؤلاء الناس لا يعلمون حكمة الله فى ابتلائهم ، بإنزال الضر بهم ، تعقبه نعمته عليهم .
قد قالها الذين من قبلهم	هذا الكلام الذى يقوله هؤلاء ، وهو : إنما أوتيته على علم عندى ، قاله ناس من الذين سبقوهم ، كقارون .
فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون	فما أغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من عذاب الله.
فأصابهم سيئات ما عملوا	فأصابهم جزاء سيئاتهم التى كسبوها فى الدنيا .
من هؤلاء	من مشركى مكة .
وما هم بمعجزين	وليسوا بمفلتين من عذاب الله .
ويقدر	ويضيّق .
إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون	إن فى هذا الذى يفعله الله بهم ، لدلالات للذين يؤمنون بالله ، وينتفعون بها .

مجمل المعنى

١ — الإنسان إذا أصابه شدة فى جسمه أو ماله أو أهله لجأ إلى الله ، ودعاه أن يكشف ما به من غم وضرّ ، وإذا منّ الله عليه ، ولطف به ، وأنعم عليه متفضلاً ، أنكر فضل الله عليه ، وقال : إن هذه النعمة إنما حصل عليها بجده وكده ، أو بعلم استخدمه فى الحصول على الثروة ، أو الشفاء من المرض ؛ وإن اعترف بأن الله أعطاه إياه ، علل ذلك بأنه إنما أعطاه ، لاستحقاقه ،

وأهليته للتصرف فيه ، ورضاه عنه ، ولشرفه بين قومه وبين الناس ، ولم يدرِ أن الله إنما تفضل عليه بهذه النعم اختباراً له وابتلاء ، أيشكر أم يكفر ؟ ولكنهم لجهلهم ، وسوء رأيهم ، لا يعلمون حكمة الله فى أنه تفضل عليهم بمنحهم هذه النعمة .

٢ — وإن كثيراً ممن سبق كفار قريش ، كقارون وغيره ، قالوا مثل هذا القول ، حين وسع الله عليهم فى صحتهم أو مالهم أو غير ذلك ، ولكن هذا لم يفدهم شيئاً ، حين أراد الله مؤاخذتهم على إشراكهم ، وتكذيبهم أنبياءهم ، وأصابهم العذاب الشديد بسبب ما كانوا عليه من الكفر فى الدنيا والآخرة ؛ وإن قومك يا محمد سيصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء السابقين ، ولن يعجزوا الله ، ولن يفلتوا منه ؛ وقد نزل بهم فى الدنيا ما أنذرهم الله ، وهو قتلهم يوم بدر ، وسيقع عليهم فى الآخرة العذاب الشديد .

٣ — هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضرهم ، كان يجب عليهم أن يعلموا أن كل شىء بيد الله وحده ، فهو الذى يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيّقه على من يشاء ، ويعطى بقدَر من يشاء ؛ وفى هذا كله دلائل واضحة على قدرته ووحدانيته ، لا يعرفها ويقدرها إلا الذين يشرح الله صدرهم للإيمان .

(٤)

من الآية ٥٣ إلى الآية ٦٤ من سورة الزمر

قُلْ : يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ —١—. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ —٢— . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ —٣— . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ —٤— . أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ —٥— . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ، فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ! —٦—. بَلَى ، قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ ، وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ —٧— . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ —٨—. وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ، لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ —٩— . اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ،

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، قُلْ : أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ؟ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الذين أسرفوا على أنفسهم	الذين جنوا على أنفسهم بالإسراف فى ارتكاب المعاصى .
لا تقنطوا من رحمة الله	لا تيئسوا من عفو الله ومغفرته .
إن الله يغفر الذنوب جميعاً	إن الله يقبل توبة التائب عن أى ذنب ، ما دامت توبته نصوحاً .
إنه هو الغفور الرحيم	إنه هو الذى يستر على المذنبين ذنوبهم ، ويبالغ فى سترهم ، وإنزال الرحمة بهم إذا تابوا وقبل توبتهم .
وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له	وارجعوا إلى الله ، وأخلصوا له ظاهراً وباطناً .
من قبل أن يأتيكم العذاب	من قبل أن يحق عليكم العذاب ، وينزل بكم ، فتفلت من أيديكم فرصة التوبة
واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم	واتبعوا ما أمر الله به ، واجتنبوا ما نهى عنه .
بغتة	فجأة .
وأنتم لا تشعرون	وأنتم لا تحسون به قبل نزوله ، فليس له مقدمات تنذركم مجيئه

الألفاظ	شرحها
أن تقول نفس	وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له لئلا تقول نفس .
يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله	يا أسفى ويا ندمى على تهاونى فى أمر الله ، وتساهلى فى طاعته ، وجرأتى على ذاته بإشراك غيره معها ! ! .
وإن كنت لمن الساخرين	وإنى كنت من المستهزئين بالمؤمنين .
لو أن الله هدانى	لو أن الله منحنى الهداية وقدرها لى .
لكنت من المتقين	لكنت من الذين يتقون الشرك ، ويجتنبونه .
لو أن لى كرة فأكون من المحسنين	أتمنى أن تكون لى رجعة إلى الدنيا ، فأكون من الموحدين الذين يحسنون العمل فى طاعة ربهم .
بلى قد جاءتك آياتى	يرد الله على الكافرين : قد أرسلت إليكم الرسل ومعهم حججهم ، فلم تعبئوا بهم ، ولم تؤمنوا .
كذبوا على الله	نسبوا إليه ما لا يليق به ، ولا يجوز عليه .
أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين	إن فى جهنم منزلا للذين استكبروا على الله ولم يؤمنوا .
بمفازتهم	بفوزهم ونجاتهم بصالح أعمالهم .
لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون	لا تصيبهم النار فى أبدانهم ، ولا الخوف والحزن فى قلوبهم .
وهو على كل شىء وكيل	والله حافظ كل شىء برعايته له .
له مقاليد السموات والأرض	له ملك السموات والأرض : يدبر الأمر فيهما ويحفظهما ؛ والمقاليد : المفاتيح ، والذى فى يده مفاتيح الخزائن يكون كل ما فيها عنده .
قل أفغير الله تأمرونى أعبد	قل للذين يدعونك إلى دين آبائك : أبعد هذا تأمروننى أن أعبد غير الله .

مجمل المعنى

١ — قال أهل مكة : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، ودعا مع الله إلهاً آخر ، وقتل النفس التى حرم الله — لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم ، وقد عبدنا الأوثان ، وقتلنا النفس التى حرم الله ، ونحن أهل الشرك ؟ ؛ فأنزل الله : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... » ، والمعنى : أن كل من يرتكب ذنباً ، صغيراً كان أو كبيراً ، ولو كان هذا الذنب إشراكاً ، ثم رأى المذنب أنه أخطأ فى حق الله ، وأنه يتوجه إلى ربه تائباً نائباً ، مستغفراً نادماً ، معترفاً بشناعة ما ارتكب ، ولجأ إلى الله طامعاً فى عفوه وغفرانه ، صحيح العزم على ألا يعود إلى مثل ما ارتكب — فإن الله واسع المغفرة ؛ ولا يجوز أن ييئس إنسان من عفوه ورضاه ؛ حكَوا أن وحشيًّا قاتل حمزة رضى الله عنه ، ظن أن الله لا يقبل إسلامه ، فأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا محمد ، أتيتك مستجيراً ، فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذ أتيتنى مستجيراً ، فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله ، قال وحشىّ : فإنى أشركت بالله ، وقتلت النفس التى حرم الله ، وزَنيت ، هل يقبل الله منى توبتى ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . . . » ، إلى آخر الآية ، فتلاها على وحشىّ ، فقال : أرى شرطاً ، فلعلى لا أعمل صالحاً ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، فدعا به وتلاها عليه ، فقال : فلعلى ممن لا يشاء ، أنا فى جوارك حتى أسمع

كلام الله ، فنزلت : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله » ، فقال : نعم ، الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم ، وهكذا قبل الله توبة وحشىّ قاتل حمزة ، كما قبل توبة هشام بن العاصى بن وائل ، وكان قد فُتن فى دينه .

٢ — ولما هيأ الله للناس أن يتوبوا ، وأطمعهم فى عفوه ، وفتح لهم باب مغفرته ورحمته ، أمرهم أن يسارعوا إلى التوبة ، وأن يخلصوا له ظاهراً وباطناً ، وأمامهم فرصة التوبة ، لأنهم إذا أضاعوا هذه الفرصة حتى توشك أن تنتهى أعمارهم ، وحتى يوشك العذاب أن يقع عليهم ، وأرادوا إذ ذاك أن يتوبوا ، فإن الله لا يقبل منهم .

٣ — وأمرهم كذلك أن يتبعوا ما أنزل على نبيه ، ويتبعوا كل ما أمر به ، ويجتنبوا كل ما نهى عنه ، قبل أن يفجأهم العذاب ، وينزل عليهم من غير إنذار سابق ، ولا مقدمات تنبئ به .

٤ — أمر بهذا وذاك ، حتى لا يقولوا : واحسرتاه على ما فرطنا فى حق الله ، وتهاوناّ فى أمر الله ، وتساهلنا فى طاعة الله ، واجترأنا على ذات الله ، واستهزأنا بالدعوة إلى الله ! ! .

٥ — وأمرهم بهذا وذاك أيضاً ، حتى لا يقولوا : لو أن الله أراد لنا الهدى لاهتدينا ، وأطعنا رسوله واتبعناه ، وجانبنا الشرك ، وابتعدنا عن المعاصى .

٦ — وأمرهم بهذا وذاك أيضاً ، حتى لا يقولوا حينما يرون العذاب نازلا عليهم ، أو محيطاً بهم : نتمنى أن يعيدنا الله إلى الدنيا كما كنا ، ولو أنه يعيدنا لآمنا به ، وأطعنا رسوله ، وعبدناه وحده .

٧ — ومثل هؤلاء يرد الله عليهم : بأنه قد أرسل إليهم نبيه ، ومعه قرآنه ، ودعاهم ومنّاهم ، وبشرهم وأنذرهم ، فلم يكن منهم إلا التكذيب والعناد ، والنفور والاستكبار ، والإصرار على الكفر .

٨ — يبعث هؤلاء الكافرون الذين كذبوا على الله ، ونسبوا إليه ما لا يليق به ، ولا يجوز عليه من الشريك والولد وغير ذلك ، ووجوههم قبيحة شوهاء ، سوداء كالحة ، وهم جميعاً فى جهنم يأوون إليها ، ومنازلهم فيها ، يقيمون بها إقامة دائمة خالدة .

٩ — أما الذين خافوا الله ، وأطاعوا رسوله ، وآمنوا به ، فإن الله منجيهم بفوزهم بالجنة ، ونجاتهم من النار بصالح أعمالهم ، فلا تصيبهم فى أبدانهم ، ولا يدخل الحزن قلوبهم .

١٠ — الله — وحده — هو الذى خلق كل العوالم السماوية والأرضية ، وما نعرف منها وما لا نعرف ، وهو الذى يحفظ ما خلق ، ويبقيه على نظامه البديع إلى أجله المحدود ؛ وهو الذى يتصرف فى خلقه كله ، فهو أحق بالألوهية والعبادة ؛ ولذلك نجد الذين كفروا بعد إثبات هذا لهم ، هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ، وهم الذين سخفت عقولهم ، إلى درجة أنهم بعد هذا كله يطلبون من محمد أن يرجع إلى دين آبائه وأجداده ، وأن يفضله على الدين الجديد : دين الإسلام ، دين التوحيد .

(٥)

من الآية ٦٥ إلى آخر سورة الزمر

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ –١– . وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ !–٢– . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ –٣– . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ، وَوُضِعَ الْكِتَابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ –٤– . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ –٥– . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ ، رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا ؟ قَالُوا : بَلَى ، وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ، قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ،

فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ! —٦— . وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ ، فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ، وَقَالُوا : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ! —٧— . وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
و إلى الذين من قبلك	وإلى الأنبياء الذين أرسلوا قبلك .
ليحبطن عملك	ليبطلن عملك الطيب الذى عملته قبل أن تشرك .
وكن من الشاكرين	وكن من الذين يشكرون الله على ما أولاهم من نعم جليلة ، وأخصها نعمة الرسالة
وما قدروا الله حق قدره	وما عظموا الله بما يستحق من التعظيم .
والأرض جميعاً قبضته	الأرضون كلها يتصرف فيها تصرفاً مطلقاً بلا عناء ، كما يتصرف الرجل فيما يملكه فى كفه .
والسموات مطويات بيمينه	والسموات جميعاً هو ناشرها وهو طاويها بقدرته .

الألفاظ	شرحها
سبحانه وتعالى عما يشركون	صاحب هذه القدرات العظيمة ، منزه تنزيهاً مطلقاً عن الشركاء الذين يشركونهم معه فى عبادته .
فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله	فهلك الخلق جميعاً ، إلا من يريد الله استبقاءهم من الملائكة .
فإذا هم قيام ينظرون	فإذا هم يبعثون على أثر النفخة الثانية ، وينظرون فيما حولهم مشدوهين مبهوتين ، ينتظرون أمر الله فيهم .
وأشرقت الأرض بنور ربها	وأضاءت أرض الموقف يوم الحساب بعدل الله الذى يقيمه بين عباده جميعاً .
ووضع الكتاب	ووضعت صحائف الأعمال المسجل فيها كل ما عمله الإنسان فى الدنيا .
وجىء بالنبيين	وأتى بالنبيين الذين أرسلهم الله لعباده ، ليقول كل منهم ما جرى بينه وبين من أرسل إليهم .
والشهداء	والذين شهدوا من الأبرار ما رأوا من أهل زمانهم .
وقضى بينهم بالحق	وحكم الله بينهم جميعاً حكماً عادلا ، لا ظلم فيه .
ووفيت كل نفس ما عملت	واستوفت كل نفس حقها من ثواب أو عقاب ، جزاء ما قدمت فى الدنيا .
وهو أعلم بما يفعلون	والله يعلم كل ما فعلوه فى الدنيا ، وليس فى حاجة إلى شاهد أو إقامة دليل .
وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا	ودفع الكافرون إلى جهنم جماعات دفعاً عنيفاً ، لا هوادة فيه ولا رفق .

الألفاظ	شرحها
وقال لهم خزنتها	وقال لهم حراسها ، القائمون عليها ، الموكلون بتعذيب أهلها .
رسل منكم	رسل من جنسكم من بنى آدم .
وينذرونكم لقاء يومكم هذا	ويخوفونكم هول هذا اليوم وشدته .
قالوا : بلى	اعترفوا بأنهم جاءتهم رسل الله ، ودعتهم إلى الإيمان بالله .
حقت كلمة العذاب على الكافرين	وجب عذاب الله للكافرين بكفرهم ، وسوء أعمالهم .
فبئس مثوى المتكبرين	فبئس المُقام مقام الذين استكبروا على أنبيائهم ولم يطيعوهم ، وهو جهنم !
وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمرا	وحمل المؤمنون الذين لهم الجنة جماعات جماعات .
سلام عليكم طبتم	أمان دائم لكم ، لطهارتكم من دنس المعاصى ، وبُعدكم عن كل ما يشين .
صدقنا وعده	صدقنا ما وعدنا فى الدنيا ، وهو أن هناك بعثاً وحساباً ، وثواباً وعقاباً .
وأورثنا الأرض	وملّكنا المكان الذى صرنا إليه .
نتبوأ من الجنة حيث نشاء	ننزل فى تلك الجنة الفسيحة الواسعة أى منزل نريد .
فنعم أجر العاملين	فنعمت الجنة أجراً للذين عملوا فى الدنيا بما أمر الله ، من تصديق أنبيائه ، والإيمان به !

الألفاظ	شرحها
حافين من حول العرش	محيطين به .
وقضى بينهم بالحق	وحكم بالحق بين الناس بعد الحساب ، وإدخال فريق الجنة وفريق النار ، وبين الملائكة بإقامة كل منهم فى منزلته .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أنه أوحى إليه وإلى الذين قبله من الأنبياء والمرسلين : أن من يشرك منهم ومن أتباعهم ، ومن الذين أرسلوا إليهم ، ليبطلن ثواب جميع أعمالهم الطيبة التى عملوها قبل أن يشركوا ، ولا يمكن أن يكون عليها ثواب ؛ ويفهم من هذا أن المرتد يفسد عمله الصالح ، وتبطل طاعاته التى أداها قبل الرِّدة ، إذا مات على ردّته وكفره ؛ فالإشراك هلك وخسران ، ولذلك يأمر الله نبيه ألا يطيع مشركى مكة فى إلحاحهم عليه أن يعبد آلهتهم ، وأن يخص الله وحده بعبادته ، وشكره على نعمة الهداية التى منّ بها عليه .

٢ — هؤلاء المشركون الذين يشركون بالله ، ويعبدون آلهة أخرى لتقربهم إلى الله زُلفى ، لم يعظموا الله على الوجه الذى يجب أن يعظَّم عليه ، مع أنه صاحب القدرة التى لا حد لها ، فإن الأرَضين وما عليهن ، والسموات وما فيهن ، يتصرف فيها جميعاً تصرفاً مطلقاً هيناً عليه ، كما يتصرف مالك الشىء وواضعه فى كفه ؛ والمتحكم فى كلياته وجزئياته ، كأنه يجعلها فى قبضته ، ويقول : أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز ؛ وصاحب هذه القدرات العظيمة ، منزه تنزيهاً كاملاً عن الشركاء الذين يشركونهم معه فى عبادته .

٣ — ينفخ فى الصور يوم القيامة نفختان: الأولى تموت بعدها الخلائق التى تكون موجودة حينذاك ، وتلحق بالتى شاء الله لها أن تموت قبل ذلك ولم تر هول هذا اليوم ، والثانية تحيا الخلائق بعدها ، ويقومون ينظرون أمر الله فيهم ، وما سيصير إليه أمر كل منهم : إما إلى جنة ، وإما إلى نار .

٤ — وتحشر الخلائق بعد الإحياء، ويساقون للحساب ، ويقفون أمام الواحد القهار ، الذى ينشر بينهم عدله ، فتضىء أرض الموقف بعدل الله الذى يقيمه بين عباده جميعاً ، وليس بينهم إلا كل مطمئن لعدل الله ، راض بقضائه فيه ، فإنه وجد كل ما عمل من خير محضراً ، وكل ما عمل من سوء محضراً ؛ ويأتى الأنبياء بعد ذلك ليُسألوا عما كان بينهم وبين أممهم ، حين بلغوهم رسالات ربهم ؛ ويأتى الشهداء الذين يستشهد الله بهم ، ويسألون عما كان منهم لدينهم ولأنبيائهم ، وعما كان من الأنبياء لهم ولغيرهم ، وعما كان من الكافرين لهم ولأنبيائهم ، وهؤلاء الشهداء يكونون من الأبرار المقربين ، ويقضى الله بين الأنبياء وأممهم با لحق ، فلا يظلم ربك أحدا ، وكلٌّ مسئول عن نفسه ، وصاحب الذنب يؤاخذ هو بذنبه .

٥ — وحينئذ يوفى الله كل نفس جزاء عملها ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر ، والله يعلم ما صدر من كل إنسان فى الدنيا من حسنات وسيئات ، ومن معاص وطاعات ، والمحسن المطيع يثاب بإحسانه وطاعته ، والمسىء العاصى يعاقب بإساءته وعصيانه .

٦ — أما الكافرون فإنهم يدفعون إلى نار جهنم دفعاً ، ويساقون إليها جماعات جماعات ، سوْق ازدراء واحتقار وإذلال ؛ حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها ، ووقف الموكلون والخزنة على الأبواب ينظرون إليهم شامتين ، ويقولون لهم مبكِّتين : ألم يرسل الله إليكم رسلا من جنسكم : آدميين مثلكم ، يتحدثون بلغاتكم ، ويدعونكم إلى سبيل الهدى والرشاد ، ويتلون عليكم

الكتاب الذى أنزله الله إليكم ، ويثبتون رسالتهم بما أجرى الله على يديهم من معجزات ، ويصفون لكم أحوال هذا اليوم ، وما تلقون فيه من عذاب شديد إن أصررتم على كفركم وعنادكم ؛ يقول لهم خزنة جهنم هذا كله ، فيعترفون به ، ويقرون أنه وقع ، ولا ينكرون منه شيئاً ، ويستدركون على اعترافهم ، بأن العذاب وجب عليهم ، بسبب كفرهم ، فلا مخلص منه ، وإذ ذاك يدخلون جهنم مأمورين ، ويخلدون فيها معذبين ، وليست جهنم إلا مسكناً لهؤلاء الذين تكبروا على الله فى الدنيا ، ولم يوحدوه ، ولم يؤمنوا برسله .

٧ — وأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله ، وعملوا بطاعاته ، وتجنبوا المعاصى ، فإنهم يساقون إلى منازلهم فى الجنة مكرّمين ، ويذهبون إليها جماعات متحابين متآلفين . فإذا وصلوا إلى الجنة فتحت لهم أبوابها الثمانية ، وتلقاهم خزنتها فرحين مستبشرين ، وقالوا لهم : سلام دائم لكم ، وطهارة طاهرة ، وعيشة راضية دائمة ، وطلبوا منهم أن يدخلوها طيبين ، كما كانت أعمالهم فى الدنيا طيبة ، وبشروهم بالخلود والدوام ، كما وعدهم الله حين كانوا فى الدنيا ، ولذلك يحمدون الله الذى صدق وعده ، وما كان الله ليعد إلا ليصدق وعده ، وما شكّوا فى هذا ، ولكنهم يذكرونه لمجرد الذكر ؛ فإنه أورثهم أرض الجنة ، وجعلها لهم من دون الكافرين ، وتركهم يتمتعون فيها بكل ما يشاءون أن يتمتعوا به ؛ فنعم ثواب المطيعين الذين أطاعوا رسلهم ، وآمنوا بربهم ، فليس بعد الجنة ثواب خير منها .

٨ — وفى يوم القيامة يرى محمد الله مسيطراً على ملكه ، ويرى الملائكة تسبح الله فى كل نواحى ملك الله ؛ ويقضى الله بين الأنبياء وبين أممهم بما يقتضيه عدله ، ويختم مجلس القضاء بالحمد لله رب العالمين على ما قضى بالعدل ، والثناء عليه ، وشكره على ما فصل به بين خلقه أجمعين .

سورة غافر

نزلت بمكة ، ماعدا الآيتين ٥٦ ، ٥٧ فقد نزلتا بالمدينة ؛
وآياتها ٨٥ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية السادسة

حم ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذِى الطَّوْلِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ -١- . مَا يُجَادِلُ فى آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى الْبِلَادِ ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، فَأَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ -٢- . وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا : أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
تنزيل الكتاب	تنزيل القرآن .
من الله العزيز العليم	من الله القوى السلطان ، العالم بمن يؤمنون به ، و بمن يكفرون .
غافر الذنب وقابل التوب	الله يغفر للمذنبين ذنوبهم ، ويقبل من التائبين توبتهم .
ذى الطول	صاحب الغنى عن كل موجود فى كل الوجود ، وصاحب الفضل على جميع خلقه .
إليه المصير	إليه المرجع والمآب .
ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا	ما يناقش ويخاصم فى أن القرآن صدق أو كذب إلا الكافرون .
فلا يغررك تقلبهم فى البلاد	فلا يخدعنك أنهم يترددون بتجاراتهم على البلاد الأخرى ، ويربحون فيها أرباحاً كثيرة .
والأحزاب من بعدهم	والذين تحزبوا ضد رسلهم ، الذين جاءوا بعد نوح .
وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه	وتعصبت هذه الأمم على رسلها ، وتعرضت كل أمة لرسولها تريد قتله .
وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق	وناقشوا رسلهم منتصرين للباطل ، معتمدين على السفسطة والمغالطة ، لينصروا باطلهم وكفرهم على الحق والإيمان الذى هو من عند الله .

الألفاظ	شرحها
فأخذتهم	فعاقبتهم .
فكيف كان عقاب ؟	فماذا حدث لهم ، وما حقيقة العقاب الذى عوقبوا به؟ إنه كان شديداً .
حقت كلمة ربك	وجب عذاب ربك .

مجمل المعنى

١ – الحاء والميم صيغ منهما ومن غيرهما من حروف الهجاء القرآن ، الذى هو تنزيل من الله سبحانه وتعالى ؛ والله يتصف بصفات كثيرة ، منها : أنه قوى السلطان ، منيع عزيز فى انتقامه من أعدائه ، وأنه عليم بمن يؤمنون به و بمن يكفرون به ، وأنه يقبل توبة التائب إذا صدرت عن إيمان صحيح ، وقلب خاشع ، وأنه يغفر ذنوب التائبين ، وأنه شديد العقاب للكافرين الذين لا يؤمنون ، والعاصين الذين لا يتوبون ، فغفرانه لمن يستحق الغفران ، وعقابه لمن يستحق العقاب ، وأنه صاحب فضل على خلقه جميعاً ، فى حين أنه غنى عنهم جميعاً ، وقادر عليهم جميعاً ، وإذا كانت هذه كلها صفاته ، فهو أحق بالوحدانية والعبادة ، ولا يجوز إشراك غيره معه – والمرجع إليه ، والثواب والعقاب عنده سبحانه وتعالى ؛ روى عن عمر بن الخطاب أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فعلم أنه يدْمنُ الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ،

لا إله إلا هو ، إليه المصير »، ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ؛ ثم أمرَ مَن عنده بالدعاء له بالتوبة ؛ فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذّرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزَع فأحسن النزوع ، وحسنت توبته ؛ فلما بلغ عمرَ أمرُه قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أحدكم زلّ زلة فسددوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه ؛ والتوب : مصدر تاب يتوب .

٢ — آيات الله وحججه وأدلته على صدق أنبيائه فيما يبلغون ، لا يخاصمُ فيها ويجادل إلا الكافرون الذين عميت قلوبهم ، فلم تشرق بنور الإيمان ، فلا يخدعك يا محمد أن هؤلاء المخاصمين ممهلون ، باقون أحياء بخير ظاهر ، يغدون ويروحون ، ويتقلبون فى البلاد بتجارة وزراعة ، ويحصلون على رزق واسع مبسوط ، فإن هذا إمهال موقوت ، ليس ناشئاً عن رضا عنهم ، أو مطاولة لهم ، ولكنّ لعذابهم وقتاً محدوداً ، وأجلاً مقرراً ، سيقع فيه حتما ؛ وانظر إلى الذين كذبوا أنبياءهم من قبلهم ، وما أرادوا أن يفعلوه معهم ، من محاولة قتلهم أو تعذيبهم أو غير ذلك ، وما كانوا يجادلونهم به ، وكيف كانوا يحاولون أن ينصروا باطلهم على الحق الذى جاء به أنبياؤهم ؟— انظر إلى هؤلاء وما جرى لهم ، وما وقع عليهم من عذاب ، إنه كان عذاباً شديدا ، لم يفلت منه واحد منهم ، فقد أهلكهم ، وخرب ديارهم ، وجعلهم عبرة لمن بعدهم .

٣ — وهكذا وجب عذاب الله على الكافرين الذين لم يؤمنوا به ولم يوحدوه من قومك ، كما وجب على الذين سبقوهم ممن كانوا فى مثل حالهم من الكفر والتكذيب ؛ وبعد ذلك يجتمع هؤلاء وهؤلاء كلهم فى نار جهنم يوم القيامة .

(٢)

من الآية ٧ إلى الآية ٩ من سورة غافر

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يسبحون بحمد ربهم	يصلون لربهم حامدين شاكرين .
ويؤمنون به	ويقرون بوحدانيته ، وبأنه لا إله إلا هو .
ويستغفرون للذين آمنوا	ويسألون الله أن يغفر للمؤمنين الذين أقروا بوحدانيته ذنوبهم .
وسعت كل شيء رحمة وعلماً	وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك .

الألفاظ	شرحها
واتبعوا سبيلك	واتبعوا أمرك ونهيك ، ودين توحيدك .
وقهم عذاب الجحيم	واحفظهم من عذاب النار يوم القيامة .
ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم	ربنا وأدخلهم جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، وهى الجنات التى وعدتهم بدخولها .
ومن صلح	ومن أرضاك بالطاعة والعمل الصالح .
إنك أنت العزيز الحكيم	إنك أنت يا ربى العزيز فى انتقامك ، الحكيم فى تدبيرك .
وقهم السيئات	واحفظهم واصرف عنهم جزاء ما عملوا فى الدنيا من سيئات ، بسبب طاعتهم وتوبتهم .
ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته	ومن تصرف عنه العذاب الذى كان يستحقه على ما ارتكب من سيئات قبل أن يتوب ، فقد رحمته بتنجيته .
وذلك هو الفوز العظيم	ونجاته من العذاب ، وإدخاله الجنة : فوز عظيم ، بل هو أعظم فوز .

مجمل المعنى

ملائكة الله على اختلاف درجاتهم ومنازلهم ، يحيطون بملك الله ، ولا ينقطعون عن التسبيح والعبادة ، والإقرار بالوحدانية ، وطلب المغفرة للمؤمنين من عباده ، ويقولون فى دعائهم للمؤمنين : ربنا وسعت رحمتك كل شىء ، فرحمت خلقك ، ووسع علمك كل شىء ، فلم يخف عليك شىء ظاهراً كان أو باطناً ؛ فنسألك يا عالم يا رحمن ، أن تغفر للذين تابوا عن ذنوبهم وآمنوا بك ، وأطاعوك ، وأقروا

بوحدانيتك ، واصرف عنهم عذاب جهنم يوم القيامة ، وأدخلهم جنتك التى وعدتهم أن يقيموا فيها إقامة دائمة ، هم ومن أرضاك بالعمل الصالح من آبائهم وأزواجهم وأولادهم ، وإن لم يصلوا إلى مثل درجتهم فى الصلاح والعبادة ، لأن رحمتك تتسع لهم ؛ ونؤكد لك يا ربنا أنك عزيز فى انتقامك ، حكيم فى تدبيرك ، فاصرف عنهم — يا ربنا — عقابهم على ما ارتكبوا فى الدنيا من سيئات ، قبل أن يرجعوا إليك ويتوبوا ، ويؤمنوا بك ، فإن الذين تصرف عنهم ذلك العذاب ، تكون قد شملتهم بعفوك ورحمتك ، والذين يظفرون من هؤلاء بعفوك ورحمتك ، يكونون قد وصلوا إلى أعلى درجات الفوز ، لأنهم نجوا من النار ، ودخلوا جنة تجرى من تحتها الأنهار .

(٣)

من الآية ١٠ إلى الآية ١٧ من سورة غافر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ : لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ —١— . قَالُوا : رَبَّنَا ، أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ، فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ —٢— . ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ —٣— . هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ —٤— . فَادْعُوا ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ، رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ، يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ : يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ لِلهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ —٥— . اَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم	لغضب الله عليكم فى الدنيا إذعصيتموه حين دعيتم إلى الإيمان ، أكبر من غضب بعضكم على بعض فى الآخرة .
إذ تدعَوْن إلى الإيمان فتكفرون	إذ أضل بعضكم بعضاً .
أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين	الموتتان : موتة حين كانوا فى الأصلاب قبل النشأة الأولى ، وموتة بعد الحياة الدنيا ؛ والحياتان : حياة فى الدنيا ، وحياة بالبعث فى الآخرة .
فاعترفنا بذنوبنا	فاعترفنا فى حياتنا الثانية بما ارتكبناه من الذنوب فى حياتنا الأولى .
فهل إلى خروج من سبيل ؟	فهل نعود إلى الدنيا ، لنؤمن ونعمل بأوامر الله ؟
ذلكم بأنه إذا دُعى الله وحده كفرتم	أجيبوا بأنه لا سبيل إلى الرجوع إلى الدنيا ، وأن مُقامهم هو ذلك المُقام ، بسبب أنهم كانوا إذا دعوا إلى التوحيد فى الدنيا لم يستجيبوا .
و إن يشرك به تؤمنوا	و إن يشرك بالله مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله ، واستجبتم لداعى الإشراك ، لا لداعى التوحيد والإيمان .
فالحكم لله العلى الكبير	فالقضاء لله الذى حكم عليكم بدخول جهنم ، العلى الذى لا يرد له حكم ، الواسع السلطان ، المنزه عن الشريك والولد .
هو الذى يريكم آياته	الله هو الذى يطلعكم على دلائل قدرته ، وسلطانه و وحدانيته .

شرحها	الألفاظ
وينزل لكم من السماء مطراً ، والمطر سبب الرزق .	وينزل لكم من السماء رزقاً
وما يتعظ بآيات الله إلا من يرجع إلى طاعة الله .	وما يتذكر إلا من ينيب
مخلصين له فى طاعتكم إياه ، وعبادتكم له .	مخلصين له الدين
ولو كره المشركون إخلاصكم فى الطاعة والعبادة ، فلا يهمكم كرههم .	ولو كره الكافرون
رافع منازل أوليائه فى الجنة .	رفيع الدرجات
صاحب الملك ، المنفرد بالسلطان .	ذو العرش
ينزل الوحى من قول أو حكم أو قضاء ، أو غير ذلك ، على من يختارهم من خلقه ، وهم أنبياؤه .	يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده
لينذر رسوله الخلائق يوم التلاقى ، وهو القيامة ، ويخوفهم ما يكون فيه من حساب وثواب وعقاب .	لينذر يوم التلاق
يوم هم خارجون من قبورهم ، لا يسترهم شىء .	يوم هم بارزون
لا يخفى على الله شىء من أعمالهم .	لا يخفى على الله منهم شىء
يقال للخلائق : لمن الملك فى هذا اليوم ؟	لمن الملك اليوم ؟
يجيبون جميعاً : لله الواحد القهار ، أما المؤمنون فيجيبون بما كانوا يعتقدون فى الدنيا ، وأما الكافرون فيجيبون متحسرين مغمومين بما لا سبيل إلى إنكاره ، وإن فاتهم ذلك فى الدنيا .	لله الواحد القهار
بما عملت فى الدنيا من خير أو شر .	بما كسبت
لا يتطلب محاسبة الله الخلائق يوم القيامة وقتاً طويلا ، لأنه قادر على أن يحاسبهم جميعاً حساباً سريعاً فى وقت قصير .	إن الله سريع الحساب

مجمل المعنى

١ — يتألم أصحاب النار من عذاب النار ، وشدته عليهم ، وامتداده بهم ؛ فيتعزون بالصبر لعله ينفعهم ، فيصبرون ، ويطول صبرهم ولا يستفيدون ؛ فيجزعون ، ويطول جزعهم فلا يستفيدون ، فيقولون : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ؟ ما لنا من محيص ، وإذ ذاك يقول لهم إبليس : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان . . . إلى أن يقول لهم : ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ . . . ، (تراجع الفقرة الرابعة من الصفحة ٩٨ من تفسير الجزء الثالث عشر) ، إذ ذاك تتجلى لهم حقيقة أمرهم ، فيعود بعضهم على بعض بالمقت واللعنة ، ويرجعون إلى أنفسهم التى استعدَّت لإغواء الشيطان الماكر الخبيث ، فيمقتونها ويلعنونها كذلك ؛ ومقتُ الله ولعنته لهم ، وغضبه عليهم ، أشد من مقتهم أنفسهم ، ولعنة بعضهم بعضاً ؛ لأنهم طالما دُعوا إلى الإيمان ، وعصوا الدعاة ، وآثروا إطاعة الشيطان والكفر بالله ، على إطاعة الله والإيمان به .

٢ — يتجهون بعد ذلك إلى الله، ويقولون متضرعين : ربنا ، كانت لنا موتتان : موتة فى أصلاب الرجال وترائب النساء ، قبل أن يتم الاتصال الذى ينشأ عنه امتزاج نطفة الرجل ببييضة المرأة، ليتكون الجنين على صورته الخاصة ؛ وليس معنى ذلك أن كلاًّ من النطفة والبييضة كانا ميتين ميتة لا حياة فيها ، ولكن كلاًّ منهما كان فى حياة خاصة به، كسبها من وضعه الخاص، حتى تم التزاوج بينهما فى الرحم ، فكانت الحياة التى تنتج الإنسان؛والموتة الثانية : هى التى تلحق الأحياء بعد استيفائها آجالها فى الدنيا ؛ أما الحياتان : فأولاهما : هى التى تكون بعد التزاوج والإخصاب، وثانيتهما : هى التى تكون يوم البعث للحساب، والثواب والعقاب ؛ ويقول هؤلاء الكافرون: يا ربنا ،

يا قادر ، يا من قدرت أن تدبر حياتين من موتتين : نتمنى أن تردنا بقدرتك إلى الحياة الدنيا ، لنؤمن بك ونوحدك ، ونفردك بالعبادة .

٣ — يجابون حين يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا : بأنه لا سبيل إلى إرجاعكم إليها ، فقد طاولناكم وعمرناكم فى الدنيا وقتاً كافياً ، يتعظ فيه من عنده استعداد للعظة ، وأرسلنا إليكم الرسل مبشرين ومنذرين ، فكنتم إذا دعا داع إلى عبادة الله وحده ، أنكرتم تفرده بالألوهية وكفرتم به ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه ، وآمنتم بقوله ؛ فالقضاء اليوم لله الذى حكم عليكم بدخول جهنم ، وهو العلى الذى لا يرد له حكم ، الواسع السلطان ، المنزه عن الشريك والولد والزوجة.

٤ — ولو كان لكم أن تؤمنوا لآمنتم به فى حياتكم الأولى ، بعد أن أراكم دلائل قدرته عياناً ؛ فهو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات ، وما فيها من عجائب ؛ كالشمس والقمر والنجوم والسحاب ، والهواء والجبال والمعادن ، والأنهار والعيون والبحار ، والحيوان والطير والنبات ، وغير ذلك ؛ وثبت لكم أنه — سبحانه وتعالى — إنما خلق هذه الأشياء من أجلكم ، وسخرها كلها لكم ، ومع ذلك لم تؤمنوا ، وآثرتم أن تتخذوا الأصنام آلهة على توحيده وإفراده بالعبادة ، وهذه الأشياء كلها لا يتعظ بها إلا من يرجعون إلى الله ، ويتوبون إليه ، فيؤمنون به .

٥ — يأمر الله المؤمنين أن يدعوا الله مخلصين له فى طاعتهم وعبادتهم وتوحيدهم ، ليستجيب لهم دعاءهم ، ولا يهمهم أن يكره المشركون دعاءهم ، لأنهم يريدون أن يكون الدعاء لآلهتهم ؛ وقد نسوا أن الله أحق بأن يدعى ، فهو القادر على استجابة الدعاء ، ورفع درجات عباده وأوليائه فى الدنيا والآخرة ، لتمكنه من السلطان والتصرف فى العوالم كلها ، وهو الذى ينزل الوحى على رسله بما يشاء من أوامر ونواه ، وحكم وتشريع وقضاء ، وغير ذلك ؛ يريد

بذلك أن يحذر الناس عذاب يوم القيامة ، وهو اليوم الذى يعرض فيه الناس والخلق جميعاً أمام الله ، بعد بعثهم وخروجهم من قبورهم ، وإذا سئلوا : لمن الملك اليوم؟ أجابوا جميعاً : برُّهم وفاجرهم ، مؤمنوهم وكافرهم : لله الواحد القهار ، أما المؤمنون فيجيبون بما كانوا يعتقدون فى الدنيا ، وأما الكافرون فيجيبون فى غم وحسرة وهمّ ، لما فاتهم من خير الطاعة ، وحقيقة الإيمان ، ولا يستطيعون أن ينكروا الحق الواضح أمامهم ، لأن إنكارهم لا يجدى عليهم شيئاً .

٦ — وفى يوم القيامة تلقى كل نفس جزاءها ، فالنفس المؤمنة الطائعة تدخل الجنة ، وتخلد فيها ، والنفس الكافرة العاصية تدخل النار ، وتخلد فيها ؛ والله سبحانه يجازى كل إنسان بما عمل ، لا يظلم مؤمناً ولا كافراً ؛ ويحاسب هؤلاء الناس جميعاً حساباً سريعاً ، لينتهى كل منهم إلى مصيره : إما إلى جنة وإما إلى نار ؛ وقدرته واستمكانه وسيطرته على خلقه ، تجعل محاسبتهم سريعة ، لا تستنفد وقتاً طويلاً .

(٤)

من الآية ١٨ إلى الآية ٢٢ من سورة غافر

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ : إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ –١–. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ؛ وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ –٢– . أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ؟ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ –٣– .

بذلك أن يحذر الناس عذاب يوم القيامة ، وهو اليوم الذى يعرض فيه الناس والخلق جميعاً أمام الله ، بعد بعثهم وخروجهم من قبورهم ، وإذا سئلوا : لمن الملك اليوم؟ أجابوا جميعاً : برُّهم وفاجرهم ، مؤمنوهم وكافرهم : لله الواحد القهار ، أما المؤمنون فيجيبون بما كانوا يعتقدون فى الدنيا ، وأما الكافرون فيجيبون فى غم وحسرة وهمّ ، لما فاتهم من خير الطاعة ، وحقيقة الإيمان ، ولا يستطيعون أن ينكروا الحق الواضح أمامهم ، لأن إنكارهم لا يجدى عليهم شيئاً .

٦ — وفى يوم القيامة تلقى كل نفس جزاءها ، فالنفس المؤمنة الطائعة تدخل الجنة ، وتخلد فيها ، والنفس الكافرة العاصية تدخل النار ، وتخلد فيها ؛ والله سبحانه يجازى كل إنسان بما عمل ، لا يظلم مؤمناً ولا كافراً ؛ ويحاسب هؤلاء الناس جميعاً حساباً سريعاً ، لينتهى كل منهم إلى مصيره : إما إلى جنة وإما إلى نار ؛ وقدرته واستمكانه وسيطرته على خلقه ، تجعل محاسبتهم سريعة ، لا تستنفد وقتاً طويلاً .

(٤)

من الآية ١٨ إلى الآية ٢٢ من سورة غافر

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ : إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ —١—. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ؛ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ —٢—. أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ؟ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ —٣—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يوم الآزفة	يوم القيامة ، وسميت القيامة آزفة لقربها .
لدى الحناجر	تحركت القلوب من أماكنها وضغطت على الرئات ، وضغطت الرئات على الحناجر حيث الأوتار الصوتية ، فيصابون بضيق شديد يتمنون معه الراحة ولو بالموت ، فلا يحصلون عليه .
كاظمين	مكروبين صامتين ، قد امتلأت قلوبهم غمًّا وهمًّا وكرباً ، وعجزوا عن الكلام .
ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع	ليس للكافرين صديق يشفع لهم ويواسيهم ، ولا شفيع يشفع فيهم فيجاب إلى ما يشفع فيه .
يعلم خائنة الأعين	يعلم كل شىء حتى استراق النظر إلى أى شىء .
وما تخفى الصدور	وما تكنه النفوس ، وهو أخفى الخفيّات .
والله يقضى بالحق	والله يحكم بالعدل .
والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء	والآلهة التى يعبدونها من دون الله ، ويشركونها معه ، لا فائدة فيها ألبتة ، لأنها لا تعلم شيئاً .
فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم	كيف كان آخر أمر الذين كذبوا رسلهم من الذين سبقوهم .
فأخذهم الله بذنوبهم	فعذبهم الله بكفرهم .
وما كان لهم من الله من واق	وليس لهم حافظ يحفظهم من عذاب الله .

مجمل المعنى

١ — ويأمر الله نبيه أن يحذر قومه أهوال القيامة ، حيث يكونون فى ضيق شديد ، فيحسون أن القلوب تتحرك من أماكنها ، وأن الأرواح تصعد إلى الحناجر ، وتضغط على مجرى النَّفَس وأوتار الصوت ، فتتلاحق الأنفاس ، وتنحبس الأصوات ، ويشتد الكرب ، ويعم الخطب ، وتمتلئ القلوب همًّا وغمًّا وكرباً ، ولا يجدون فى هذا اليوم صديقاً يدافع عنهم ، ولا شفيعاً يشفع لهم .

٢ — والله يعلم كل شىء ، حتى اختلاس النظر ، واستراق العين . وخواطر القلب ، وهواجس النفس ؛ وهذه أخفى الخفيّات . ولعلمه كلَّ شىء ، وما كان فى النية والضمير ، يقف على حقيقة كل ما عمل ، وما أريد به ظاهره ، وما أريد به شىء خفى لم يبح به — يحكم بين الناس بالعدل ؛ أما الآلهة التى يعبدها المشركون فإنها لا تعلم شيئاً ، ولا تستطيع أن تحكم بشىء لا ظلماً ولا عدلاً ، لأن الجاهل ليس أهلاً لأن يتولى حكماً ؛ ويؤكد الله بعد هذا أنه سميع لكل ما يقال ولو همساً ، عليم بكل ما يفعل ولو سرّا .

٣ — هؤلاء الكافرون كان عليهم أن يسيروا فى الأرض ، ويرتحلوا فى البلاد ، ويقفوا على ما تركه من كفروا بالأنبياء السابقين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم ، ويعرفوا من آثارهم ما وقع عليهم من عذاب بسبب تكذيبهم أنبيائهم ، مع أنهم كانوا أقوى منهم قوة ، وأكثر تعميرا للارض ، ولم يمنعهم ذلك من أن الله يعذبهم بسبب كفرهم ، ويهلكهم بالصواعق أو الطوفان أو الريح الصرصر العاتية ، أو الإغراق أو القحط أو غير ذلك ؛ وما فعل الله بهم هذا إلا لأنهم كذبوا رسلهم ، بعد أن أقاموا لهم الأدلة القاطعة على صدقهم ، والله إذا عاقب كان عقابه شديداً .

(٥)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٥ من سورة غافر

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ، فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ —١— . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ، قَالُوا : اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ —٢— . وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ —٣— . وَقَالَ مُوسَى : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ —٤— . وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ —٥— . يَا قَوْمِ ، لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

الرَّشَادِ —٦— . وَقَالَ الَّذِى آمَنَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ : مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللّٰهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ —٧— . وَيَا قَوْمِ ، إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ : يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ —٨— . وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ؛ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّٰهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ! كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بآياتنا	بالآيات التسع المذكورة فى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، وسبق الحديث عنها فى الصفحة ٧١ من تفسير الجزء الخامس عشر.

الألفاظ	شرحها
وسلطان مبين	وقوة قوية واضحة .
إلى فرعون وهامان وقارون	إلى الملك ووزيره، وأغنى رجل فى قومه ، وخصوا بالذكر : لأنهم الرؤساء ، وغيرهم تبع .
ساحر كذاب	رموا موسى بالسحر والكذب ، حينما عجزوا عن مقاومته ومعارضته .
بالحق من عندنا	بالنبوة والرسالة ، والدعوة إلى التوحيد من عند الله .
واستحيوا نساءهم	واتركوا نساءهم أحياء .
فى ضلال	فى خسران وبطلان وضياع ، فلا أثر له .
ذرونى أقتل موسى	دعونى أقتل موسى .
وليدع ربه	وليستعن بربه كما يشاء ، إن كان له إله غيرى .
أو أن يظهر فى الأرض الفساد	أو أن يسبب إزعاجاً وهيجاناً بين الناس، فيفسد الأمن ويختل النظام .
إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر	إنى استعذت بالله ، واعتصمت به من كل من يتعاظم عليه ولا يؤمن به .
أن يقول ربى الله	لأنه يقول : ربى الله .
بالبينات من ربكم	بالحجج الدالة على صدقه ، وهى الآيات التسع .
مسرف كذاب	متجاوز الحد فى ادعائه .
ظاهرين فى الأرض	عالين مشهورين ، ليس عليها من غلبت شهرته شهرتكم .
من بأس الله	من عذاب الله .
ما أريكم إلا ما أرى	ما أشير عليكم بغير ما أشرت به ، وهو قتل موسى .

الألفاظ	شرحها
مثل يوم الأحزاب	أن يأتى عليكم يوم تعذبون فيه ، كما عذب الكفار المتحزبون على الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ، كنوح وهود ، وصالح .
دأب	جزاء .
يوم التناد	يوم القيامة .
مدبرين	محاولين الهرب حين تسمعون زفير جهنم .
ما لكم من الله من عاصم	ليس عليكم حافظ يحفظكم من عذاب الله .
ومن يضلل الله فما له من هاد	ومن يزرع الله فى قلبه الضلال ، لا يمكن أن يهديه أحد .
بالبينات	بالمعجزات الدالة على صدقه .
كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب	مثل هذا الضلال يضل الله كل شاكٍّ فى دينه ، متجاوز الحد فى عصيانه .
يجادلون فى آيات الله بغير سلطان آتاهم	يخاصمون فى حجج الله ومعجزاته من غير علم ، وبدون قدرة على إقامة حجة .
كبر مقتاً	عظم بغضاً ! .
يطبع الله على كل قلب متكبر جبار	يختم الله على قلوب الجبارين المتكبرين على الإيمان به ، فلا تخلص إليها هداية .

موسى عليه السلام

سبق الحديث عن موسى عليه السلام ، وقصته مع فرعون ، وقصة الرجل المؤمن مع آل فرعون ، وهو الذى قال الله تعالى عنه : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » ، (راجع الفقرة السادسة من الصفحة ٤٤ من تفسير الجزء العشرين) ، فلا داعى للإعادة هنا ، ونكتفى بشرح النص القرآنى .

مجمل المعنى

١ — أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه ، مؤيداً بالمعجزات والحجج التى تؤيده فى رسالته ، فلم يصدقوه ، واتهموه بالسحر والكذب ، حين لم يستطيعوا أن يقيموا عليه حجة ، أو يردوا له دليلاً .

٢ — ولما لم يجدوا فائدة من مقاومته ، رأى فرعون أن ينتقم من الذين آمنوا به ، فأمر أن يقتل أبناؤهم إذلالاً لهم ، وإضعافاً لشأنهم ؛ كما أمر باستبقاء نسائهم من غير قتل ، ليقمن بخدمة سادتهم من المصريين ؛ و بذلك يكون فرعون مصر قد أمر بقتل أبناء إسرائيل مرتين : الأولى زَمن وُلد موسى ثم أمسك عنه ، والثانية زمن بعث موسى ؛ ومع ذلك فإن الله أبطل كيده وكيد أعوانه ، وأبطل تدبيرهم ضد بنى إسرائيل .

٣ — اشتد موسى ، وأطاعه أكثر بنى إسرائيل ، وأصبح خطراً على فرعون ؛ فقال فرعون لقومه قول الجائر المستبد : دعونى أقتل موسى ، وله أن يدعو ربه الذى يدعو له كما يشاء ، إن كان له إله غيرى ، ويستعين به كما يريد ، فأنا لا يهمنى ذلك ولا أخافه ؛ وإنى إن تركته يدعو فيكم بدعايته ، أخاف أن يؤثر فيكم ، فتبدلوا دينكم الذى نشأتم عليه ، أو أن يزعج الناس ، ويسبب ثورة تثير الفتن والفساد بين الناس ، وتهدد أمنهم .

٤ — استعاذ موسى بالله أن يحفظه من كل طاغية متكبر ، لا يستجيب له ، ولا يؤمن به ، ولا يوحد ربه ، ولا يعترف بيوم القيامة الذى سيحاسب فيه الناس جميعاً .

٥ — آمن بموسى خفية رجل من آل فرعون ، ولما رآهم يدبرون قتل موسى اعترض عليهم ، وأنكر أن يقتلوا رجلاً لمجرد أنه يدعو إلى الله ، ويقول : إنه هو

الرب الذى يستحق العبادة ، وأثبت صحة ما يقول بالأدلة والمعجزات التى تجرى على يديه ، ومع ذلك فإن هذا الرجل — وهو موسى — إما أن يكون كاذباً ، وإما أن يكون صادقاً ، فإن كان كاذباً فإن عاقبة كذبه تقع عليه وحده ، وإن كان صادقاً نزل بكم ما توعدكم ، وأصابكم العذاب الذى يتهددكم به ؛ وأكد بعد ذلك أن الله لا يهدى من يتجاوزون الحد فى ادعائهم ، ويكذبون على ربهم وعلى قومهم .

٦ — واستمر الرجل المؤمن يقول لقومه : أنتم اليوم ذوو نفوذ وسيطرة فى الأرض ، وأنتم فى مصر أشهر الدول وأقواها فى زمانكم ، ومع ذلك فإننا لن نجد أحداً يدفع عنا عذاب الله ، إذا قدر الله أن يصب علينا عذابه ؛ ولما سمع فرعون كلام الرجل المؤمن ، لم يزد على أن قال : لا أرى لكم إلا ما رأيته ، وهو قتل موسى ، وأن السبيل الحق هو الذى أدعوكم إليه ؛ وفى هذا اعتراف ضمنى بقوة حجة الرجل .

٧ — قال الرجل المؤمن بعد هذا لقومه : إنى أخاف أن يصيبكم مثل ما أصاب الأقوام السابقين الذين خالفوا رسلهم ، وتحزبوا عليهم فعذبهم الله ، وأبادهم بصنوف مختلفة من العذاب ، وذكرهم بما حدث لقوم نوح وعاد وثمود ، ومن جاء بعدهم من الأنبياء إلى زمن موسى ، فقد عذبهم الله لأنهم استحقوا العذاب بمخالفة أنبيائهم ، وقد أرسل الله إلى قوم فرعون نبيًّا يدعوهم إلى الإيمان به ، فإن لم يؤمنوا عذبهم الله كما عذب من قبلهم . والله لا يظلم من عباده أحداً .

٨ — بعد أن حذر الرجل المؤمن قومه عذاب الدنيا ، حذرهم عذاب الآخرة : عذاب يوم القيامة الذى يتنادى الناس فيه : فينادى أصحاب النار بعضهم بعضاً ، ويتصايحون مستغيثين ولا مغيث ، ويتنادى أصحاب الجنة وأصحاب

النار ، وفى هذا اليوم يحاول الكافرون حين يسمعون زفير النار أن يفروا ولا مفر ، وأن يهرُبوا ولا مهرب ، والذين اقتضت إرادة الله ضلالهم لفساد فطرتهم ، لا يمكن أن يهديهم أحد .

٩ — استمر الرجل المؤمن يقول لقومه : جاءكم يوسف يهديكم ، ويدعوكم إلى الإيمان بالله وقال لكم : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟» وأقام الحجة على صدقه فيما يدعو إليه من توحيد الله ، فشككتم فيما جاءكم به ، وبقيتم على هذا الشك ، حتى إذا مات استراحت نفوسكم ، وقدرتم أن الله لن يبعث بعده نبيًّا لهدايتكم ؛ وتفكيركم هذا تفكير من قدّر الله عليهم الضلال والخسران ، وثبّت الشك فى قلوبهم ، ولن يهتدى كل مسرف فى عصيانه ، شاكّ فى وحدانية الله ، ممن يجادلون فى المعجزات التى يجريها الله على يد أنبيائه من غير حجة أتاهم الله بها ، بل لمجرد التقليد ، والسير فى مضمار الآباء ؛ عظمت لعنة الله ولعنة الذين آمنوا به على هؤلاء الناس ! وكما يختم الله على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يختم على قلب كل من وصفوا بالتكبر والجبروت ، ويكتب عليهم الضلال والخسران ، حتى لا يعقلوا الرشاد ، ولا يقبلوا الحق .

(٦)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٦ من سورة غافر

وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانُ ، ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ : أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ، وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ —١— . وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ ، اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ ، إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى — وَهُوَ مُؤْمِنٌ — فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ —٢— . وَيَا قَوْمِ ، مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ، وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؟ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ ، وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ —٣— .

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ —٤— . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ : اَلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ابن لى صرحاً	ابن لى قصراً عالياً .
أسباب السموات	أبواب السموات ، والطرق المؤدية إليها .
فأطلع إلى إله موسى	فانظر إلى إله موسى الذى يتحدث عنه ، وأشرف عليه ، وأعرف حقيقته .
وإنى لأظنه كاذباً	وإنى لأظن أن موسى كاذب ، فى ادعائه أن هناك إلها غيرى يستحق العبادة .
وكذلك زين لفرعون سوء عمله	وهكذا زين لفرعون عمله السيئ القبيح ، وادعاؤه الألوهية .
وما كيد فرعون إلا فى تباب	وما تدبير فرعون ضد موسى إلا فى هلاك وخسران وضلال .
سبيل الرشاد	طريق الهداية ، وهو الطريق الذى يوصل إلى الجنة .

الألفاظ	شرحها
هذه الحياة الدنيا متاع	هذه الحياةالدنيا يتمتع بها الناس تمتعاً موقوتاً، ينتهى بانتهاء الآجال ، أو بزاول أسباب التمتع ، كالمال أو الصحة مثلا ،
هى دار القرار	هى دار الاستقرار والإقامة والخلود .
إلى النجاة	إلى العمل الذى ينجيكم من النار ويدخلكم الجنة ، وهو الإيمان .
وتدعوننى إلى النار	وتدعوننى إلى العمل الذى يدخلنى النار ، وهو الكفر .
لا جرم	حقـًّا .
ليس له دعوة	ليس له دعوة توجب تأليهه ، وليس له شفاعة ، وليس فى إمكانه استجابة دعوة .
وأن المسرفين هم أصحاب النار	وأن متجاوزى الحد فى السفه وسفك الدماء بغير حق ، والتجبر على الناس والإشراك بالله ، هم الذين يخلدون فى جهنم .
فستذكرون ما أقول لكم	فسيأتى الوقت الذى تذكرون فيه أن ما أقوله لكم الآ ن هو الحق ؛ وفى هذا الكلام تهديد ووعيد .
وأفوض أمرى إلى الله	وأسلم أمرى إلى الله .
فوقاه الله سيئات ما مكروا	فصانه الله وحفظه من نتائج مكرهم السيىء ، وتدبيرهم القبيح .
وحاق بآل فرعون سوء العذاب	ونزل بقوم فرعون العذاب الشديد ، نتيجة لسوء مكرهم ، وشنيع تدبيرهم .
يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا	يعذبون فى النار صباحاً ومساء ، وفى كل وقت .

مجمل المعنى

١ – لم يجد فرعون ما يحاجّ به موسى والرجل المؤمن ، فطلب إلى وزيره هامان أن يبنى له قصراً عالياً جدًّا ، ضارباً فى الفضاء ، ليصعد فى هذا القصر إلى السماء ، لعلّه يشرف على إله موسى ويراه ، ويبرهن أن موسى كاذب فى دعواه ، وهكذا زين لفرعون عمله السيء القبيح بتكذيب موسى ، وادعائه الألوهية ، وانصرافه عن الهداية ، وليس تدبير فرعون ضد موسى إلا تدبيراً خاسراً مردوداً عليه .

٢ – طلب الرجل المؤمن إلى قومه أن يتبعوه ليهديهم إلى طريق الصواب ، وأكد لهم أن هذه الحياة الدنيا متاعها موقوت بنهاية الأعمار ، أو زوال الأسباب ، كأن يمرض الصحيح ، أو يفتقر الغنى ، أو يزول السلطان عن صاحب السلطان ، أو غير ذلك ؛ أما المتاع الدائم الخالد ، فإنه لا يكون إلا فى الآخرة ؛ الذين يعملون السيئات يجزون بمثلها سيئات ، والذين يعملون الصالحات من المؤمنين يدخلون الجنة ، ويتمتعون بما فيها تمتعاً لا حد له ولا نهاية .

٣ – يستعجب الرجل المؤمن من قومه : كيف يدعوهم هو إلى ما ينجيهم من غضب الله وعذابه فى الدنيا ، ويدخلهم الجنة فى الآخرة ، وهم يدعونه إلى ما يعرضه لغضب الله عليه فى الدنيا ، ويدخله النار فى الآخرة ! ! أما دعوتهم له ، فهى دعوة إلى الكفر والإشراك بالله ، وأما دعوته لهم ، فهى دعوة الكفار إلى الله العزيز فى انتقامه ، الكثير الغفران لمن تاب من عباده ، وأحسن التوبة ؛ والحق أن الذى يدعونه هؤلاء لعبادته ، ليس له دعوة توجب تأليهه ، وليس له شفاعة مقبولة ، ولا دعوة مستجابة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ومرجع الجميع إلى الله ؛ ومتجاوزو الحد فى السفه والتكبر على الله ، والكفر

به ، وإيذاء أنبيائه ، هم الذين يدخلون جهنم ، ويخلدون فيها .

٤ — وبعد أن انتهى مؤمن آل فرعون من دعوة قومه ، وإسداء النصح لهم ، والتلطف بهم ، توعدهم توعداً خفيفاً ، بأنهم سيذكرون قوله هذا لهم ، فى الوقت الذى لا تنفع فيه توبة ولا شفاعة ؛ وترك أمره لله ، واعتمد عليه وحده ، فهو العالم بشئون عباده جميعاً .

٥ — حفظه الله من مكر فرعون وآل فرعون ، وصانه مما كانوا يدبرون له من إيذاء وشر ، وأصابهم هم العذاب الشديد بسبب كفرهم ؛ وتكذيبهم نبيهم . وعذابهم يكون فى نار جهنم التى يعرضون عليها بعد موتهم صباح كل يوم ومساءه ، وفيما بين الصباح والمساء ؛ حتى إذا قامت القيامة سيقوا إليها ، وألقوا فيها ، وعذبوا عذاباً شديداً ؛ ويستدل المفسرون بهذه الآية على عذاب القبر فى الدنيا .

(٧)

من الآية ٤٧ إلى الآية ٥٤ من سورة غافر

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ، فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ؟ –١– ؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ –٢–. وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا : أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى ! قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ –٣–. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ –٤–. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ، وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ، هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يتحاجون فى النار	يتخاصمون فى النار .
فيقول الضعفاء للذين استكبروا	فيقول السوقة للأشراف والسادة .
فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار	فهل أنتم متحملون عنا جزءاً من العذاب الذى تسببتم لنا فيه ؟ .
إنا كلٌّ فيها	إنناجميعاً فيها : لا يغنى أحد عن أحد ، ولا يتحمل شريف عن مشروف ، ولا مسود عن سيد .
حكم بين العباد	قضى بين خلقه ، فكانت الجنة نصيب أهل الجنة ، وكانت النار نصيب أهل النار ، ولكل نصيبه .
يخفف عنا يوماً من العذاب	يريحنا وقتاً من العذاب .
بالبينات	بالمعجزات الدالات على صدقهم .
قالوا : فادعوا	يقول خزنة جهنم للكفار : فادعوا ما شئتم أن تدعوا ، فلن يستجيب الله لكم .
وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال	دعاء الكافرين غير مستجاب ، فهو دعاء بائر ، خاسر باطل .
ويوم يقوم الأشهاد	وفى يوم القيامة الذى تقوم فيه الشهود ليشهدوا ضد الكافرين .
لا ينفع الظالمين معذرتهم	لا ينفع الكافرين اعتذارهم عما كان منهم فى الدنيا.
ولهم اللعنة	ونصيبهم يوم القيامة البعد من رحمة الله .
ولهم سوء الدار	ولهم فى الآخرة شر دار ، وهى جهنم .

الألفاظ	شرحها
آتينا موسى الهدى	أنزلنا على موسى كل أسباب الهدى ، وأيدناه بالمعجزات والتوراة والشرائع .
وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب	وجعلنا التوراة ميراثاً لبنى إسرائيل .
هدى وذكرى لأولى الألباب	هداية وموعظة للعاقلين .

مجمل المعنى

١ — يدخل المشركون جهنم ، ويتجادلون فيها ، فيقول الذين كانوا ضعفاء فى الدنيا للذين كانوا حكاماً أقوياء ذوى سلطان : نحن اتبعناكم فى ضلالكم كما أمرتمونا ، ولشدة سلطانكم علينا ، لم يكن لنا اختيار فى أن نختار ، وأنتم الذين أضللتمونا ، فهل تتحملون عنا اليوم بعض العذاب الذى سببتموه لنا؟

٢ — فيرد السادة المستكبرون ، على الضعفاء الذين كانوا مستعبدين : إنا جميعاً فى جهنم ، لا يتحمل أحد عن أحد شيئاً ، وبهذا حكم الله علينا وعليكم ، وحكم الله لا ينقض ولا يعدّل .

٣ — هؤلاء المعذبون فى نار جهنم ، يقولون لخزنتها : ادعوا ربكم أن يخفف عنا هذا العذاب الشديد الذى نحن فيه ، ولو بما يساوى يوماً من أيام الدنيا ، فهو راض عنكم ، فلعله يستجيب لكم ، فيرد عليهم الخزنة ردًّا فيه تهكم بهم ، واحتقار لشأنهم : أوَلم يرسل الله إليكم رسله ؟ ! أو لم تُثبت لكم الرسل أنهم مرسلون من عند الله بما جرى على أيديهم من معجزات ، وآيات

بينات؟ ! ! ؛ فلا يجد الكافرون أمامهم إلا الاعتراف بالحق ، والتسليم بأن الله أرسل إليهم الرسل مؤيَّدين بالمعجزات ؛ فيزيدهم الخزنة تهكماً وإيجاعاً بقولهم لهم : ادعوا أنتم لأنفسكم ، فليس من شأننا أن ندعو للكافرين أمثالكم ، وأنتم مهما دعوتم ، فإن دعاءكم غير مستجاب ، وهو دعاء خاسر ، بائر باطل .

٤ — يؤكد الله أنه ينصر رسله ، وينصر الذين آمنوا به فى الحياة الدنيا ، وينصرهم كذلك فى الآخرة ، يوم يقوم الشهود الذين يشهدون لرسل الله أنهم بلغوا ، وللمؤمنين أنهم استجابوا للدعوة وآمنوا ، وأخلصوا فى إيمانهم ؛ ويشهدون على الكافرين أنهم بلغتهم الدعوة فلم يؤمنوا ، فيحكم الله للمؤمنين بالجنة ، وعلى الكافرين بالنار ؛ ويحاول الكافرون أن يتخلصوا بالاعتذار والتوبة ، وتمنى العودة إلى الدنيا ، وغير ذلك ؛ ولكن الله لا يسمع لهم ، فقد حقت عليهم اللعنة ، وحق عليهم أن ينزلوا فى أسوأ منزل قدر لهم ، وهو جهنم وبئس المصير .

٥ — أعطى الله موسى الهدى ، وحمله الرسالة ، وورث بنو إسرائيل التوراة ، يهتدى بها ويعتبر أصحاب العقول الراجحة ، والقلوب التقية .

(٨)

من الآية ٥٥ إلى الآية ٦٥ من سورة غافر

فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ –١– . إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ –٢– . لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ –٣– . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ، قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ –٤– . إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ –٥– . وَقَالَ رَبُّكُمُ : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ –٦– . اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ –٧– . ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ –٨– . اللهُ الَّذِي

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ! هُوَ الْحَيُّ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن وعد الله حق	إن الله منجز وعده ، ولا خلف له .
وسبح بحمد ربك	وصل شكراً لله .
بالعشىّ والإبكار	فى المساء وفى الصباح .
يجادلون فى آيات الله	يخاصمونك فيما أنزل عليك من القرآن ، وفيما أتيتهم به من البينات .
بغير سلطان أتاهم	بدون حجة نزلت عليهم ، يخاصمونك بها .
إن فى صدورهم إلا كبر	ليس فى قلوبهم إلا تكبر يمنعهم من اتباعك ، وليس تكذيبهم لك ناشئاً عن اقتناع ، وإنما هو حقد وحسد ، وكبر مصطنع .
ما هم ببالغيه	ليسوا واصلين الأمر الذى وصلت إليه .
فاستعذ بالله	فاستجر — يا محمد — بالله من شر المجادلين المتكبرين ، ومن أن تتصف بما اتصفوا به من الغل والحقد والكبر .

الألفاظ	شرحها
إنه هو السميع البصير	إن الله هو الذى يسمع ما يقولونه فيك وفيما جئت به ، ويبصر ما يعملون لتعويق رسالتك ، وفض الناس عنك .
لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس	لإنشاء السموات والأرض ، وابتداعها على غير مثال سابق ، أعظم وأدل على القدرة من خلق آدم وذريته .
ولكن أكثر الناس لا يعلمون	ولكن أكثر الناس لا يدركون أن خلق أى شىء مهما عظم هين على الله .
ومايستوى الأعمى والبصير	الأعمى والمبصر لا يستويان ، وكذلك الكافر والمؤمن لا يستويان .
قليلا ما تتذكرون	تذكر الناس واعتبارهم بخلق الله وقدرته قليل .
إن الساعة آتية لاريب فيها	إن الوقت الذى يحاسب فيه الناس على ما عملوا آت ، ولا شك فى مجيئه .
ولكن أكثر الناس لا يؤمنون	ولكن أكثر قريش لا يصدقون بمجيئها .
ادعونى أستجب لكم	اعبدونى وأخلصوا فى عبادتى أعف عنكم ، واسألونى أعطكم .
إن الذين يستكبرون عن عبادتى	إن الذين يتعاظمون على توحيدى .
داخرين	أذلاء صاغرين .
لتسكنوا فيه	لتهدءوا فيه وتستريحوا من السعى للمعاش .
والنهار مبصرا	والنهار مضيئاً ، لتتجروا فيه وراء معايشكم .

الألفاظ	شرحها
فأنى تؤفكون	فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ .
كذلك	مثل هذا الانصراف الذى ينصرفونه الآن عن عبادة الله .
كانوا بآيات الله يجحدون	كانوا ينكرون آيات الله ، ويكذبونها .
جعل لكم الأرض قراراً	خلق الأرض بصورة تمكنكم من الاستقرار عليها ، والسكون فوقها .
والسماء بناء	خلق السماء بصورة تساعدكم على تحقيق مصالحكم ، وجلب معايشكم .
وصوّركم فأحسن صوركم	وخلقكم فأحسن صوركم .
من الطيبات	من الرزق الحلال الذى تستلذونه وتطمئنون إليه .
ذلكم الله ربكم	الذى فعل لكم هذا كله هو الله الذى لا يجوز تأليه غيره ، والرب الذى لا تصلح الربوبية إلا له .
فتبارك الله رب العالمين	فتنزه الله مالك جميع الخلق ! .
هو الحى	هو الذى لا يموت أبداً .
لا إله إلا هو	لا معبود بحق سواه .
فادعوه مخلصين له الدين	فاعبدوه مخلصين له فى العبادة .

مجمل المعنى

١ — يأمر الله — سبحانه وتعالى — نبيه محمدا أن يصبر على ما يقابله به قومه من إنكار رسالته ، واستكبارهم عليه ، وعدم استجابتهم لدعوته ؛ وأن يستمر فى التبليغ والإنذار والتبشير ؛ وأن يتأكد أن الله عند وعده الذى وعده إياه ،

فهو لابد ناصره على أعدائه ؛ وأن يطلب منه الغفران والعفو، وأن يجعل شكره لله دائماً فى صباحه ومسائه ، وفى غدوه ورواحه .

٢ - ويؤكد له أن الذين يخاصمونه فى آيات الله التى جرت على يديه ، وفى قرآنه الذى أنزل عليه ، وفى الأدلة التى يقدمها لهم تصديقاً لما جاء به ، إنما يجادلون من غير علم أنزله الله عليهم ، وبدون حجة خصهم بها ، وإنما هو الحقد الذى يأكل صدورهم ، والتكبر الذى يمنعهم من التسليم له ، والإيمان بما جاء به ، فليس امتناعهم عن الدخول فى الإسلام ناشئاً عن يقين واقتناع ، ولكنه مجرد العناد والمكابرة ، وهم أعجز من أن يصلوا إلى ما وصلت إليه من شرف النبوة ، وتحمل الرسالة ، لأن الكبر والتعنت والحقد لا توصل إلى غاية شريفة كريمة ؛ ويأمر الله محمدا أن يستعيذ بالله أن يقع فيما وقع فيه مشركو قومه من الكبر ، ويعتصم بربه أن يصونه من أن يتصف بما اتصفوا به من غل وحقد ، فالله هو الذى يسمع ما يقولونه فيك وفيما جئت به إليهم ، ويبصر ما يعملون لتعويق رسالتك ، وصد الناس عنك .

٣ - ابتداع السموات والأرض ، وخلقهما ابتداء على غير مثال سبق ، أعظم وأجل من خلق آدم ، ومن خلق الناس بعد ذلك . وفيه دليل على قدرة الله القادرة ، وآياته الباهرة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع المخلوقات هين على الله ، وأن قدرته لا تحد .

٤ - اثنان لا يستويان : الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ، فلا تقع عينه على أرض ولا سماء ، ولا أى شىء من خلق الله ، فيدرك ما عليه من قدرة ؛ والمبصر الذى يقع بصره على خلق الله فى الأرض وفى السماء ، فيتأمل ذلك ويؤمن به ، ومثل هذين : المؤمن والكافر ، لا يستويان أيضاً : فالمؤمن يرى خلق الله

بعينيه وقلبه وعقله ، فيفكر ، فيهديه تفكيره إلى الإيمان بالله وتوحيده ؛ والكافر المسىء ، يعمى قلبه ، ويضل عقله ، فلا يفكر فيما خلق الله ، فيعصى ، ويخالف الرسل ؛ والناس تذكرهم لربهم ، واتعاظهم به قليل ، لما جبلوا عليه من الجحود بمن غمرهم بآلائه .

٥ — يؤكد الله — سبحانه وتعالى — تأكيداً لا يتطرق إليه شك ، أن يوم القيامة آت حتماً ، ولكن أكثر قريش غير مصدقين بمجىء هذا اليوم .

٦ — يأمر الله الناس أن يعبدوه ، والعابد مطيع ، والمطيع معتصم بالله ، ولاجئ إليه ، ومعتمد عليه ، ومسلم كل أموره له ؛ فالله يرعاه ، ويحفظه ، ويستجيب له ؛ أما العصاة المستكبرون فإنهم كافرون بالله ، مشركون به ، لا يلجئون إليه ، ولا يعتمدون عليه ؛ فالله يتركهم يعمهون فى ضلالهم ، ويوم القيامة يدخلون النار ، أذلاء صاغرين .

٧ — الله الذى يشرك به بعض الناس ، هو صاحب الفضل على جميع الخلق ، فقد يسر لهم أمورهم ، ورتب لهم حياتهم ؛ فخلق ليلاً ونهاراً ، نشأا متعاقبين من دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وجعل الليل ظلاماً إلا من ضوء القمر أحياناً ، ليسكن الناس فيه ويهدءوا ، ويستريحوا من عناء العمل نهاراً ، وجعل النهار مضيئاً ليسعى الناس فيه ، ويضربوا فى الأرض لكسب عيشهم ؛ ولا ينقض حكمة الله ما يجرى الآن من أن بعض الناس يعملون ليلاً ، وينامون نهاراً ، فإن طبيعة العمل الذى يزاولونه تقتضى هذا ، أو أن الإنتاج يقتضى أن يستمر العمل ليلاً ونهاراً ، فيوزع العمل نوبات ؛ ولعلم الناس أن عمل الليل فيه مخالفة للطبيعة ، قدّروا ما يسببه من جهد ومشقة ، وإرهاق للجسم ، وإتعاب للأعصاب ؛ ولعلمهم كذلك أن نوم

النهار لا يريح الجسم كما يجب أن يستريح ، ناوبوا بين العاملين الكادحين ، فكل منهم يأخذ نصيبه من العمل فى الليل ؛ ولو أن العمل فى الليل والنهار يستويان ، والراحة والنوم فى الليل والنهار يستويان ، لما كان هناك داع لهذه المناوبات ؛ والله بهذا وبغيره صاحب فضل كبير على الناس جميعاً ؛ ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على ما أولاهم من نعم ، وعلى ما خصهم به من فضل .

٨ — الله الذى خلق الليل والنهار على الوضع الذى ذكرناه ، وللحكمة التى قلناها ، هو الذى خلق كل شىء : خلق الأرض والسموات وما بينهما من إنسان وحيوان وطير ، وزواحف وحشرات ، وهواء وماء ، وغير ذلك من الأشياء الكثيرة التى لا يحصيها العدّ ، وخلق عوالم أخرى لا تقع تحت حسِّنا وإدراكنا ؛ وهذا كله يدل دلالة واضحة على وحدانيته وقدرته ، فهو الإله الذى لا إله غيره ، فكيف تنصرف قريش بعد هذا عن عبادته وتوحيده ؟ ومثل هذا الانصراف الذى انصرفه كفار قريش عن توحيد الله ، كان ينصرف غيرهم ممن سبقوهم من أقوام الأنبياء السابقين ، لإنكارهم معجزات الله التى كان يجريها على أيدى رسله ، وعدم إيمانهم بها .

٩ — ومن الدلائل على قدرة الله ، أنه هو الذى جعل هذه الأرض مستقرًّا لكل ما استقر فوقها ، وصيرها صالحة لمُقامه عليها ؛ وأنه هو الذى رفع السماء على ما نرى من غير عمد تحملها ، فهى سقف مرفوع من غير أن يتكىء على ما يحفظه فى وضعه ، ولكنها قدرة الله التى وراء هذا الكون ، ووراء ما نعلمه ظاهراً من قوانين الجذب وغيرها ، وأنه هو خلق الإنسان وأحسن خلقه ، فهو أرقى أنواع الحيوان بعقله وسمته وقوامه ، وتناسق أعضائه ؛ وبعد أن خلقه وأحسن خلقه ، هيأ له أسباب الرزق ، ويسر له أطيب العيش

وألذه ؛ والله هو الذى فعل كل هذا ، منزه عن كل ما ينسب إليه ، وهو رب العالمين جميعاً ، وهو الحى الدائم الذى لا أول له ولا آخر ، الواحد الذى ليس له شريك ، ولا ولد ولا زوجة ؛ فيجب أن يعبد عبادة خالصة ؛ وهو المحمود دون غيره ، ولذلك قالوا : من قال : لا إله إلا الله ، فليقل : الحمد لله رب العالمين .

(٩)

من الآية ٦٦ إلى الآية ٦٨ من سورة غافر

قُلْ : إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ -١- . هُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لما جاءنى البينات	لما نزلت علىَّ الأدلة الصحيحة .
أن أسلم لرب العالمين	أن أخضع وأنقاد لرب العالمين .
ثم يخرجكم طفلا	ثم يخرجكم من الأرحام أطفالا ، ويطلق الطفل على المفرد والجمع .
ثم لتبلغوا أشدكم	ثم ليتكامل خلقكم وقوتكم وشبابكم .

الألفاظ	شرحها
من قبل	من قبل أن يتناهى شبابهم .
ولتبلغوا أجلا مسمى	وانتهوا إلى عمر محدود ، وأجل موقوت .
فإذا قضى أمراً	فإذا أراد أن يصنع شيئاً .
فإنما يقول له : كن ، فيكون	فإنما يخلقه سريعاً .

مجمل المعنى

١ – طلب كفار قريش إلى محمد أن يترك الدعوة إلى الإسلام ، وأن يرجع إلى دين آبائه وأجداده ؛ فأمره الله أن يؤكد لهم أن الله نهاه أن يعبد الآلهة التى يعبدونها ، بعد أن ثبت له ثبوتاً قاطعاً أنها أصنام لا تضر ولا تنفع ، وأن المعبود الذى يستحق العبادة هو الله وحده ، وأنزل الله عليه القرآن حجة له ، ومعيناً على الدعوة ، وأمره ألا يخضع لأحد غيره ، لأنه هو الذى خلق الناس أولاً من تراب ، والمراد : آدم ، ثم تناسلوا وخلقهم أطواراً : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ؛ وبعد أن تتم أطوار النمو فى الرحم ، يخرج منه الإنسان طفلاً ؛ ينمو هذا الطفل ويدرج ، حتى يتكامل خلقه ، ويتناهى شبابه ، ثم يكبَر وتتقدم به السن ، حتى يصير شيخاً هرماً ، وبعد ذلك ينتهى أجله ويموت ؛ وبعضهم ينتهى أجله قبل أن يستكمل أطوار الحياة ، فيموت قبل أن يهرم ؛ فقد يموت جنيناً أو طفلاً أو شابـًّا ، فهل يرجى بعد أن يتأمل الإنسان هذا كله ، وهو متعلق به فى أطوار حياته ، أن يعقل ويعتبر ويؤمن ؟

٢ — ومن دلائل قدرته أيضاً، أنه هو الذى خلق الحياة ، وأنه هو الذى خلق الموت ، وأنه إذا أراد للإنسان حياة حيي ، وإذا أراد له موتا مات ؛ والإحياء والإماتة وغيرهما من الأعمال التى اختص الله بها ، إذا أراده الله كان ، وبمجرد المشيئة يوجده سريعاً .

(١٠)

من الآية ٦٩ إلى الآية ٧٨ من سورة غافر

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ ، أَنَّى يُصْرَفُونَ ؟ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ : إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ، يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ —١— . ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ —٢— . ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ، ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ! —٣— . فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ —٤— . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يجادلون فى آيات الله	يتخاصمون فى الأدلة الدالة على قدرة الله .
أنى يصرفون	كيف ينصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ؟ .
بالكتاب	بالقرآن .
وبما أرسلنا به رسلنا	وبما أرسلنا به رسلنا من التوحيد والكتب .
فسوف يعلمون	فسوف يعلمون بطلان ما هم عليه من كفر .
الأغلال	أطواق من حديد تجعل فى العنق . واحدها : غُل.
يسحبون فى الحميم	يُجرُّون فى الماء الحار الذى بلغت حرارته غايتها .
يسجرون	يطرحون بها ، ويوقد عليهم فيها ، ويتخذون لها وقوداً .
ضلوا عنا	غابوا عن عيوننا .
لم نكن ندعو من قبل شيئاً	ظهر لنا أننا ما كنا نعبد فى الدنيا شيئاً يستحق العبادة .
كذلك يضل الله الكافرين	مثل ضلال آلهتهم عنهم ، يضلهم الله عنها .
ذلكم	العذاب الذى نزل بكم .
بغير الحق	كنتم تفرحون وتمرحون بالشرك وعبادة الأوثان .
وبما كنتم تمرحون	وبما كنتم تبطرون وتأشرون وتختالون .
ادخلوا أبواب جهنم	ادخلوا جهنم من أبوابها السبعة .
خالدين فيها	مقدرين أنكم مخلدون فيها .
فبئس مثوى المتكبرين	فبئس المقام مُقام الكافرين !.
إن وعد الله حق	إن الوعد الذى وعدك الله إياه بإهلاك الكافرين حق.

الألفاظ	شرحها
فإما نرينك بعض الذى نعدهم	فإن نُرِك بعض الذى نعدهم من العذاب فى الدنيا ، فهذا من وفاء الله بوعده .
أو نتوفينك فإلينا يرجعون	وإن نتوفك قبل تعذيبهم فى الدنيا ، فمصيرهم إلينا يوم القيامة ، وفيه يلقَوْن العذاب .
منهم من قصصنا عليك	منهم من ذكرنا لك أخبارهم مع أقوامهم .
فإذا جاء أمر الله	فإذا جاء يوم القيامة .
قُضى بالحق	حُكم بالعدل .
وخسر هنالك المبطلون	وخسر فى هذا اليوم الذين اتبعوا الباطل ، وأشركوا فى الدنيا .

مجمل المعنى

١ — اعجب يا محمد للمشركين من قومك ، الذين يجادلون فيما تأتى به من حجج وآيات ، كيف يعدلون عن الحق ؟ ! وبأى وجه يظلون متمسكين بالباطل ؟ ! وهؤلاء القوم يكذبون بما جاء به القرآن ، وبما جاء به غير القرآن من الكتب السماوية ، ويكذبون بما أرسل الله به رسله جميعاً ، وهو التوحيد ، ثم هدد الله أولئك الناس بأنهم سوف يعلمون وجه الحق ، يوم يجرى عليهم ما يجرى من عذاب ، حيث تُطوّق أعناقهم بالأغلال ، وتوضع فيها السلاسل التى يسحبون بها إلى جهنم سحباً ، ويلقون فى حميمها ، يتقلبون فى حره الذى بلغ غايته من الشدة ، ثم يحرقون فى نار جهنم ، ويُتخذون لها وقوداً .

٢ — ويُنادَى هؤلاء المشركون وهم فى نار جهنم نداء شماتة ، فيقال لهم : أين

آلهتكم التى كنتم تشركونها بالله ، وتخصونها بالعبادة من دونه ؟ فيقولون : غابت عنا هذه الآلهة ، فنحن نتفقدها فلا نراها ، ولو رأيناها لما نفعتنا ، ولا دفعت عنا ؛ ونحن الآن آمنا أننا ما كنا نعبد فى الدنيا شيئاً يستحق أن يعبد ؛ وبمثل هذا الضلال الذى أضله الله للذين ضلت عنهم آلهتهم يوم القيامة ، يضل الله الكافرين به عنه ، وعن رحمته ورضاه .

٣ — هذا الذى لحقكم أيها القوم من العذاب الشديد، هو بسبب فرحكم فى الدنيا بما كنتم تأتون من باطل ، وترتكبون من خطايا الشرك وغيرها ، مما لم يأذن به الله ، وبسبب ما كنتم عليه من تفاخر وتكاثر ، وخيلاء وبطر بنعمة الله ، وعدم اعتراف بجميله ؛ ويقال لهم فى هذا اليوم : ادخلوا إلى جهنم من أبوابها السبعة المعدة لاستقبالكم ، مخلدين فيها ، وبئس المصير مصيراً يصير إليه المتكبرون أمثالكم .

٤ — اصبر يا محمد على مجادلة الكفار إياك بغير الحق ، وعملهم على إثارتك ، وإيذائك وإيذاء من آمن بك ، فإن الله وعدك أن يعاقبهم ويعذبهم ؛ ووعده حق ؛ وهذا العذاب قد يقع بعضه فى الدنيا ، وتراه بعينك ، وإلا فإنه واقع كله فى الآخرة ، حيث يرجعون إلى الله ، ويحاسبهم ويعذبهم .

٥ — يطمئن الله نبيه ، ويصبّره على ما يلقى من قومه ، فيخبره بأنه أرسل إلى الناس فى الأزمنة المختلفة رسلاً كثيرين ، قص عليه أخبار بعضهم ، وما جرى لهم مع أقوامهم ، ولم يقص عليه أخبار الآخرين ؛ وهم جميعاً لا تجرى على يد واحد منهم معجزة ، ولا ينهض معه دليل على صدق رسالته من أى نوع كان ، إلا بإذن الله وأمره ، فإذا كان قومك يا محمد يطلبون منك آية على صدقك ، فإنك لست أنت الذى تأتيهم بما يطلبونه منك ، ولكن الله هو الذى يأذن بذلك ، ويجريه على يديك ، فإذا جاء يوم القيامة ، حكم الله الحكم العادل بين الناس جميعاً ، فيربح المؤمنون ، ويخسر الكافرون .

(١١)

من الآية ٧٩ من سورة غافر ، إلى آخر السورة

اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، فَأَىَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ ؟ —١— . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، قَالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جعل لكم الأنعام	خلق لكم الإبل والبقر والغنم والمعز .
لتركبوا منها ومنها تأكلون	لتركبوا بعضها ، وتأكلوا بعضها .
ولكم فيها منافع	وتنتفعون بغير ركوبها وأكل لحمها فى أشياء أخرى.
ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم	واتصلوا بها إلى أمور كانت مجرد رغبة فى نفوسكم ، ولكنها حققت بها .
وعليها وعلى الفلك تحملون	وعلى الأنعام المركوبة وعلى السفن تحملون .
ويريكم آياته	ويريكم الحجج القائمة الدالة على وحدانيته .
فأى آيات الله تنكرون ؟	فأى حجج الله التى يريكم إياها تنكرون صحتها ؟
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم	كيف كانت نهاية الذين كذبوا رسلهم من قبلهم ؟
كانوا أكثر منهم	كانوا أكثر منهم عدداً ومالا .
فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون	فما دفع عنهم وحماهم من العذاب ما كانوا يجمعون .
فرحوا بما عندهم من العلم	فرحوا بالعلم التافه الذى عندهم ، والذى جعلهم يقولون : لا بعث ولا حساب ولا عذاب .
وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون	ونزل عليهم فأحاط بهم العذاب الذى كانوا يسخرون منه فى الدنيا ويستعجلونه .
فلما رأوا بأسنا	فلما رأوا عقاب الله الذى أنذرهم إياه رسله فى الدنيا.

الألفاظ	شرحها
فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا	لم يكن توحيدهم لينفعهم ، إذ آمنوا فى الوقت الذى رأوا فيه عقاب الله نازلا عليهم .
سنة الله التى قد خلت فى عباده	طريقة الله التى سنها ، ومضت بين عباده ، وهى أن الإيمان وقت نزول العذاب لا ينفع .

مجمل المعنى

١ — من الدلائل على قدرة الله ، أنه خلق للناس الإبل والبقر والمعز والغنم ، وغير ذلك من البهائم التى ينتفع بها الإنسان ، فيأخذ من بعضها لحماً ، ويأخذ لبناً ، ويأخذ من جلودها بيوتاً ينتفع بها فى سفره وإقامته ، ويأخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً لبيته ، ومتاعاً يتمتع به ، ويركبها فتوصله إلى جهات بعيدة ، كان الوصول إليها أملاً يداعبه فى أحلامه ، ولكنها صارت حقيقة ، ونتخذ بعضها كالإبل للركوب وقطع المسافات فى البر ، ونتخذ السفن لقطع المسافات فى البحر ، ونركب فيها ، ونحمل متاعنا عليها ؛ والله بهذا يبصرنا بدلائل قدرته ؛ والذى ينظر فى هذه الآيات نظر المنصف ، لا يسعه إلا أن يؤمن ؛ والعجب كل العجب أننا نجد المكابرين الذين ينكرون هذه الآيات ، مع أن واحدة منها لا تستحق الإنكار ، وتكفى للاقتناع والتسليم ،

٢ — هؤلاء الذين يخاصمونك يا محمد ، ويجادلونك فى كل ما تبلغهم إياه ، كان عليهم أن يتعظوا بما رأوا فى رحلة التجارة التى يرحلونها إلى الشام صيفاً ، والتى يرحلونها إلى اليمن شتاء ، لأنهم فى أثناء الرحلة يمرون بالبلاد التى كان يعيش فيها أقوام الأنبياء السابقين ، الذين كذبوا رسلهم ، فعذبهم الله وأهلكهم ،

وبقيت من بعدهم آثار تدل على ما كانت عليه بلادهم من عمران ، وتدل على ما كانوا عليه من قوة وبأس شديد ، وتدل على أنهم كانوا ذوى عدد كبير ؛ وهم فى كل هذا يمتازون على مشركى قريش ؛ ومع ذلك فإنهم لما لم يطيعوا أنبياءهم ، أهلكهم الله ؛ ولم يفدهم أنهم كانوا ذوى عدد ، وأولى قوة وبأس شديد ، ولم ينفعهم ما كانت عليه بلادهم من خصب ونماء ، وما كانت عليه من حضارة كبيرة ؛ فكان من الواجب أن يكون لمشركى مكة عبرة فى هؤلاء ، فإن من كانوا أقوى منهم قوة ، وأشد بأساً ، وأكثر مالاً ، وأعز نفراً ، لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم ؛ وإن هذه الأمم السابقة حينما رأت عذاب الله ينزل بهم ، فطنوا وتنبهوا من غفلتهم ، وأعلنوا إيمانهم بالله ، وكفرهم بآلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، ويشركونها مع الله ، ولكن هذا لا ينفعهم ، لأن الله حكم بأن الذين يؤمنون حينما يرون العذاب لا يقبل إيمانهم ، ويعاملون بما قدموا من كفر ، وفى ذلك خسران لهم ، وبطلان لعملهم .

سورة فُصّلت

نزلت بمكة ، وآياتها ٥٤ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثامنة

حٰمٓ ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ –١– . وَقَالُوا : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ، فَاعْمَلْ ، إِنَّنَا عَامِلُونَ –٢– . قُلْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ : الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ –٣– . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
كتاب فصلت آياته	القرآن الكريم بُينت آياته وفسرت ، وميزت ، وجعلت تفاصيل لإيراد معان مختلفة .
لقوم يعلمون	نزل القرآن بلسان عربى على العرب الذى يفهمونه ويدركون معانيه ومغازيه .
بشيراً ونذيراً	القرآن مبشر للمؤمنين ، ونذير للكافرين .
فأعرض أكثرهم	فانصرف أكثر أهل مكة .
لا يسمعون	لا يسمعون سماع متفهم يريد أن ينتفع .
فى أكنة مما تدعونا إليه	فى أغطية من دعوتك إيانا إلى التوحيد ، فلا تصل الدعوة إليها ، وواحد الأكنة : كِنان .
وفى آذاننا وقر	وفى آذاننا ثقل يمنع من الاستماع لكلامك .
ومن بيننا وبينك حجاب	ومن بيننا وبينك ستر يمنعنا من تقبل دعوتك .
فاعمل ، إننا عاملون	فاعمل بدينك ، واعمل على إبطال ديننا ، فنحن عاملون أيضاً بديننا ، وعاملون على إبطال دينك .
أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ	أنا إنسان عادىّ مثلكم ، فلست ملكاً ، وكل فرق بينى وبينكم أنى يوحى إلىّ ، وأنتم لا يوحى إليكم .
فاستقيموا إليه	فاتجهوا إليه ، وآمنوا به ، ووجهوا وجوهكم نحوه إذا دعوتم .

الألفاظ	شرحها
واستغفروه	واطلبوا إليه أن يغفر لكم ذنوب إشراككم به .
وويل للمشركين	وعذاب للمشركين بالله .
غير ممنون	غير مقطوع ولا منقوص .

والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة

قال الملأ من قريش وأبو جهل : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكَهانة والسحر فكلمه ، ثم أتانا ببيان أمره ! ! فقال عُتبة ابن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علماً لايخفى علىّ إن كان كذلك ، فقالوا : إيته فحدثه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا محمد ، أنت خير أم قصّى بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فلم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟ ! فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا عليك ألويتنا ، فكنت رئيسنا ما بقيت ؟ وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك ، وإن كان هذا الذى يأتيك رِئياً من الجن قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب ماتتداوى به ، أو نُغْلَب فيك ، قال عتبة بن ربيعة هذا كله ، ومحمد ساكت ؛ فلما فرغ قال الرسول : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال عتبة : نعم ، قال محمد : فاسمع منى ، قال عتبة : يا بن أخى ، أسمع ، قال محمد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربيًّا لقوم يعلمون » ، واستمر يتلو إلى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل

صاعقة عاد وثمود » ، فلما وصل محمد — صلى الله عليه وسلم — إلى هذا الموضع ، وثب عتبة ، ووضع يده على فم النبيّ ، وناشده الله والرحم ليسكتن ؛ ورجع إلى قريش فى ناديها ، فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذى مضى به من عندكم ، ثم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ، قال : والله لقد سمعت كلاماً من محمد ، ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ؛ فأطيعونى فى هذه وأنزلوها بى ، خلوا محمداً وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدى غيركم ، وإن كان ملكاً أو نبيًّا كنتم أسعد الناس به ، لأن ملكه ملككم ، وشرفه شرفكم ؛ فقالوا : هيهات ! ! سحرك محمد يا أبا الوليد ، قال : هذا رأيى لكم ، فاصنعوا ما شئتم .

مجمل المعنى

١ — هذا القرآن لا يعدو أن يكون مؤلفاً من حروف الهجاء التى يتكلم بها العرب ، ومنظوماً مما ينظمون به أقوالهم فى شعرهم ونثرهم ، مثل الحاء والميم ، والمعاندون قادرون على أن يؤلفوا كلاماً مركباً من حروف الهجاء ، ولكنهم عاجزون عن صوغه فى أسلوب مثل أسلوب القرآن ، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا ، وقد نزله الله الرحمن الرحيم على نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — وهو كتاب مفصل الآيات ، واضح الأغراض والغايات ، اشتمل على السير والقصص ، والتشريع والكونيات ، والوعد والوعيد ، والحكم والأمثال ؛ وهو فى هذا كله وفى غيره يدعو إلى التوحيد ، وإلى حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة ، ونزل القرآن عربيًّا على العرب ، ليقرءوه ، ويفهموا ما فيه ، ويقفوا على غاياته ومراميه ، ويعرفوا تبشيره ، ويتأثروا بإنذاره ؛ ولكن أكثر قريش مع

هذا أعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إليه ، ولم يسمعوه سماع متفهم يريد أن ينتفع به ، فكأنهم لم يسمعوا شيئاً .

٢ — المشركون الذين أعرضوا عن محمد ، ولم يستمعوا له ، قالوا لمحمد : كلامك لا يصل إلى قلوبنا ، فكأن حولها غطاء يمنعه من الوصول إليها ، فلا تتأثر ، وآذاننا لا تسمع ، فكأن فيها وقراً وثقلاً ، وهى ليس بها صمم ، ولكن لما كان الكلام لا يتجاوز الأذن ، كانت كأنها لم تسمع ، ومن بيننا وبينك حجاب ساتر ، لا يلقى بعضنا بعضاً من أجله ، وهذا الحجاب هو اختلاف الدين ، فهو يعبد الله ويدعو له ، وهم يعبدون الصنم ويدعون له ، وبعد هذا قالوا لمحمد : اعمل يا محمد بدينك ، وما تعتقد أنه الحق ، ونحن عاملون بديننا وما نعتقد أنه الحق ، ولا تدعنا إلى دينك ، ونحن لا ندعوك إلى ديننا .

٣ — أمر الله محمداً أن يرد عليهم ، ويقول لهم : أنا بشر مثلكم ، أنا من بنى آدم ، فلست ملَكاً ولا جنيًّا ؛ أوْحى الله إلىّ أنه إله واحد ، لا شريك له فى ملكه ، ولا يستحق العبادة سواه ، فوجّهوا إليه وجوهكم ، واستقيموا على دين التوحيد ، واطلبوا من الله أن يغفر لكم ذنوبكم التى ارتكبتموها من قبل ؛ والذين يشركون بالله ولا يوحدونه ، لهم العذاب الشديد بإشراكهم ، ومنعهم الزكاة التى تزكى أبدانهم ، وتطهر أرواحهم ؛ ولا تزكّى هذه ولا تطهر تلك إلا بالطاعة والتوحيد ، والتصدق ببعض المال على المحتاجين ، وهم بهذا كافرون بالآخرة ، منكرون لها ، فلا يؤمنون ببعث ولا حساب ، ولا عقاب ولا ثواب .

٤ — يؤكد الله أن الذين آمنوا بالله ووحدوه ، وآمنوا برسوله فصدقوه وأطاعوه ، وعملوا الأعمال الصالحة ، لهم أجرهم يوم القيامة ، غير منقوص عن القدر الذى وعد الله أن يؤجرهم به .

(٢)

من الآية ٩ إلى الآية ١٨ من سورة فصلت

قُلْ : أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ؟ ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ —١— . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ : ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ —٢— . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ، إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ ، قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ —٣— . فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ، لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ

الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ، وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ —٤— . وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فى يومين	فى وقتين أو طورين أو زمنين .
وتجعلون له أنداداً	وتجعلون له شركاء ونظراء وأشباها .
رب العالمين	سيد جميع الخلق .
وجعل فيها رواسى	وجعل فى الأرض جبالا ثابتات .
وبارك فيها	وبارك فى الأرض ، بما فوقها وفى جوفها من الأشياء النافعة .
وقدر فيها أقواتها	وقدر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم .
فى أربعة أيام	فى تتمة أربعة أوقات ، تشمل الوقتين السابقين .
سواء للسائلين	تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة ، وقد قدرنا فيها الأقوات ، لأجل الطالبين لها ، المحتاجين إليها .
ثم استوى إلى السماء	ثم اتجه إلى السماء ليخلقها ، وعمد إلى خلقها وتسويتها .

الألفاظ	شرحها
وهى دخان	وهى ذرات سابحة فى الجو الممتلىء ببخار الماء .
ائتيا طوعاً أو كرهاً	ائتيا بما خلقت فيكما من المنافع لعبادى ، مختارتين أو مكرهتين .
أتينا طائعين	ظهرت فيهما علامات الطاعة .
فقضاهن سبع سموات فى يومين	أتم إنشاء السموات وإحكامها فى فترتين زمنيتين .
وأوحى فى كل سماء أمرها	ودبر أمر كل سماء بما تقتضيه إرادته .
وزينا السماء الدنيا بمصابيح	وزينا السماء القريبة من الأرض بكواكب .
وحفظاً	وحفظناها حفظاً ، فكانت قائمة من أول خلق الدنيا ، وستظل قائمة إلى يوم القيامة .
ذلك تقدير العزيز العليم	خلق السموات والأرض على هذه الصورة ، وبهذا التطور ، بتقدير الله الغالب الذى لا يُغلب ، العليم بما يجب أن يكون .
أنذرتكم صاعقة	خوفتكم عذاباً ينزل عليكم نزول الصاعقة .
من بين أيديهم ومن خلفهم	من كل جانب .
يجحدون	ينكرون .
ريحاً صرصراً فى أيام نحسات	ريحاً باردة شديدة البرد ، قاسية تحدث صريراً لشدة سرعتها ، وجاءت تلك الريح فى أيام مشئومات .
لنذيقهم عذاب الخزى	لنعذبهم عذاباً فيه ذل وهوان لهم .
ولعذاب الآخرة أخزى	ولعذاب الآخرة أشد إذلالا وهواناً لهم .
وهم لا ينصرون	ولا يدفع عنهم العذاب الأصنام التى عبدوها .
فهديناهم	فبيّنا لهم الرشد ، لهدايتهم إلى الإيمان .

الألفاظ	شرحها
فاستحبوا العمى على الهدى	فاختاروا الكفر على الإيمان .
فأخذتهم صاعقة العذاب الهون	فأخذتهم شدة العذاب المذل .
بما كانوا يكسبون	بسبب عملهم السيء في الدنيا .
ونجينا الذين آمنوا	ونجينا الذين اختاروا الإيمان على الكفر .

مجمل المعنى

١ — أمر الله نبيه محمدا أن يقول لقومه من كفار مكة : أعجبُ أنكم تكفرون بالله الواحد القهار، الذى تدل كل مخلوقاته على قدرته ، وتتركون عبادته ، وتعبدون غيره مما تصنعون من الأصنام ؛ وكل شىء خلقه يدل على وحدانيته وقدرته ، فهو الذى خلق الأرض التى تعيشون عليها فى فترتين من الزمان ، ومع ذلك تجعلون له شركاء فى العبادة ، فى حين أن خالق هذه الأرض أحق بالعبادة ، فهو رب العالمين جميعاً ؛ وحين خلق الأرض ثبّتها بجبالها الراسيات فوقها ، وذلك أن السلاسل الجبلية الممتدة على سطح الأرض ، موزعة عليها توزيعاً يجعلها كالأعمدة التى يعتمد عليها ، فهى متصلة متماسكة ، على أطوال وأبعاد خاصة ، وليست المحيطات الواسعة التى تفصل القارات بعضها عن بعض قاطعة هذا الاتصال ، فإن أصول الجبال متصلة فى باطن الأرض اتصالاً صخريًّا قويًّا يطوّق الهيكل الأرضى ، كما تطوق الأطواق الحديدية جسما من الأجسام ، فتجعله متماسكاً لا تنفصل أجزاؤه ؛ وبفضل هذا الاتصال تقاوم الأرض جميع العوامل الخارجية أو الداخلية ،

التى تعمل على تمزيقها ، أو اختلال توازنها ، أو تبعثر أجزاء منها فى الفضاء ، أو غير ذلك ؛ فالأرض تدور حول الشمس بسرعة ، تبلغ أكثر من مائة ألف كيلو متر فى الساعة ، أو ثمانية عشر ميلاً ونصفاً فى الثانية ، وتتأثر بجاذبيتى الشمس والقمر ؛ والغازات التى فى باطنها تضغط ضغطاً شديداً هائلاً على قشرتها ؛ هذه الأمور كلها تؤثر فى توازن الكرة الأرضية ؛ والذى يحفظها من الاختلال أو التناثر ، هو السلاسل الجبلية التى تعتبر أحزمة قوية لهذا الجسم الكبير ، تصونه من الاضطراب والاختلال ؛ وبعد أن خلق الله الأرض ، وثبتها بجبالها ، بارك فيها ، بما هيأها له من إنبات النباتات التى تروى بالماء العذب الذى أجراه فى الأنهار ، وأخرجه من العيون ؛ وقدر بذلك أقوات الأحياء التى تكون فوقها ، وما يلزم لمعايشهم وحاجاتهم ؛ وكان ذلك كله فى فترتين زمنيتين ، أو فى طورين آخرين ؛ وبذلك تكون الأرض وما عليها ، وما ينبت فيها ، قدر له أربعة أطوار ، خلق فيها خلقاً مستوياً كاملاً ، ينتفع به الأحياء وغيرهم .

٢ — ثم توجهت قدرة الله إلى خلق السماء ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى أحدث فى الماء الذى كان يغمر الكون سخونة ، نشأ عنها بخار انتشرت بسببه الظلمة ، وهو المعبر عنه بالدخان ، فخلق الكواكب فاستنار الكون ، ثم أمر السموات والأرض أن تكونا مسخرتين لعباده ، بما خلق فيهما من المنافع لهم ، وأن تأتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه كما أرادهما ، فلم تمتنعا عليه ، وأجابتا : أنهما طوع إرادة الله ، ولما كان الخطاب والإجابة من لوازم العقلاء ، أنزلهما الله منزلتهم ، فعبر عن إجابة السموات والأرض بقوله : « أتينا طائعين » ، ونظيره قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف : « إنى رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، وقد أتم الله إنشاء السموات فى زمنين آخرين ، أو على

درجتين أو طورين ، ودبر أمر كل سماء بما تقتضيه إرادته ، فخلق فى كل منها سكانها ، وشمسها وقمرها ونجومها ، وكلف سكان كل سماء بما يليق بهم من التكاليف ، ولا شك أن الله كان مستطيعاً أن يخلق السموات والأرض ، وأعظم من السموات والأرض ، فى أقل من لمح البصر ، فهو — سبحانه وتعالى — يقول لأى شىء : كن ، فيكون ؛ ولكنه يخبرنا أنه خلق هذا الكون فى تدرج وتأن ، لإرشاد عباده أن يتدرجوا فى أعمالهم ويتأنوا ، لتكون أعمالهم متقنة ، ونتائجهم حميدة ، فإن لهم فى الله أسوة حسنة ، فقد خلق الأرض ، وجعلها صالحة للسكنى ، ثم خلق السموات ، وزين أقربهن إلى الأرض بما نراه فيها من نجوم وكواكب متلألئة ، وحفظها قائمة من غير عمد ؛ وهذا كله بتقدير الله العزيز الذى لا يغلب ، العليم بما يجب أن يكون .

٣ — يأمر الله نبيه أن يقول هذا لقومه ، وأن ينبههم لدلالته على قدرة الله ؛ فإن آمنوا فذلك خير لهم ، وإن لم يؤمنوا فأعلمهم أنهم سيجرى عليهم مثل الذى جرى لقبيلتى عاد وثمود من قبل ، وهما من العرب ، حين كذبت عاد نبيّها هودا ، وحين كذبت ثمود نبيّها صالحا ، مع أن الرسالة بلغت لهم خير تبليغ وأعمه وأدقه ، وكلفوا ألا يعبدوا إلهاً غير الله ، فأبوا أن يطيعوا الرسل ، واعتلّوا بأنهم من جنسهم من بنى آدم ، ورأوا أن الله لو أراد هدايتهم ، لأرسل إليهم رسولاً من جنس أشرف من جنسهم ، أو من جنس أقرب إلى الله من بنى آدم ، وهو الملائكة ، وأكدوا أنهم كافرون بما جاءتهم به رسلهم ؛ والمراد بالصاعقة هنا : العذاب الهائل الشديد ، الذى يفجؤهم ، وينقض عليهم انقضاض الصاعقة .

٤ — وكان لكل أمة مع نبيّها قصة ، فعاد استكبروا من غير أن يكون لهم حق فى

الاستكبار ، فلأن الله زادهم بسطة فى الجسم اغتروا بقوتهم ، ولم يروا أحداً أشد منهم قوة ، ولو فكروا قليلاً لعلموا أن الذى خلقهم ومنحهم القوة ، لابد أن يكون أقوى منهم ، ولما استمروا على جحودهم وطغيانهم وكفرهم ، أرسل الله عليهم ريحاً شديدة باردة فى أيام مشئومة عليهم ، فأهلكتهم ، وخرّبت ديارهم ، وأذلتهم إذلالاً شديداً ، وسيكون لهم فى الآخرة عذاب أشد وأقوى ، وأخزى من عذاب الدنيا ، ولا يجدون من يدفعه عنهم .

٥ – وأما ثمود فطلب الله منهم على لسان نبيه صالح أن يهتدوا ، فلم يستجيبوا ، وآثروا الضلال على الهدى ، وذبحوا الناقة ، فأرسل الله عليهم صاعقة أبادت الكافرين منهم بسبب كفرهم ، ولم ينج إلا صالح ومن آمن به ، من الذين خافوا الله واتقوه .

(٣)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٩ من سورة فصلت

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إلَى النَّارِ ، فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّى إذَا مَا جَاءُوهَا ، شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —١— . وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —٢— . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ، وَلٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ، وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ —٣— . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ —٤— . وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ —٥— . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ ، وَالْغَوْا فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ —٦— . فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا

يَعْمَلُونَ ؛ ذٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ —٧— . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : رَبَّنَا ، أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ، لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أعداء الله	الكافرين فى كل زمان ومكان .
فهم يوزعون	فهم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً ، ويساقون إليها سوق الأنعام .
وهو خلقكم أول مرة	والله الذى قدر على خلقكم من تراب أصلا ، ومن نطفة بعد ذلك ، قادر على أن ينطق سمعكم وأبصاركم وجلودكم .
وما كنتم تستترون	حينما ارتكبتم الخطايا مستترين ، وظننتم أنكم لم يركم أحد ، كنتم واهمين ، فقد كانت تراكم جلودكم وأبصاركم وسمعكم .
ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون	استترتم ظانين أن الله لا يعلم خفيّات أعمالكم .
أرداكم	أهلككم .

شرحها	الألفاظ
فإن يصبروا على الذى هم فيه من عذاب الآخرة ، لم ينفعهم صبرهم ، فإن الصبر إنما يكون لانتظار زوال الغمة ، ولكن غمتهم الناشئة من إقامتهم فى جهنم لن تزول ، فلن ينفعهم صبرهم .	فإن يصبروا فالنار مثوى لهم
وإن يطلبوا رضا الله عنهم ، فلن ينالوا هذا الرضا .	وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين
وهيأنا وسلطنا على أهل مكة أخداناً من الجن ، ومن شياطين الإنس .	وقيضنا لهم قرناء
فزينوا لهم رأيهم فيما يعملون فى الدنيا ، وعقيدتهم فى الآخرة ، حيث يرون أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب .	فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم
ووجب تعذيبهم مع من سبقوهم من الكافرين : جنًّا كانوا أو إنساً .	وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم
إنهم خسروا دينهم ، فخسروا آخرتهم .	إنهم كانوا خاسرين
وعارضوه وعيبوه ، وشوشوا على قارئه برفع أصواتكم .	والغوا فيه
ولنعاقبنهم أشد عقاب على أشنع عمل عملوه ، وهو الكفر .	ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون
هذا العذاب الشديد ، هو النار التى يخلد فيها أعداء الله .	ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد
من الجن هو إبليس ، ومن الإنس من كانوا يصدونهم عن الإيمان .	اللذين أضلانا من الجن والإنس

مجمل المعنى

١ — الذين كفروا بالله فى كل زمان ومكان أعداء الله ، يحشرون يوم القيامة فى نار جهنم ، ويدفعون إليها دفعاً ، ويحبس أولهم على آخرهم ، ويُرد أسبقهم على متأخرهم ، فإذا وصلوا إلى النار ، وظنوا أن لا شاهد يشهد عليهم ، أنطق الله جلودهم وأسماعهم وأبصارهم ، وبَيَّنت ما سجلت عليهم من سيئات ارتكبوها فى الدنيا : فكل ما أصغى إليه العاصى من قبيح شهد به سمعه ، وكل ما وقع عليه نظره من محرم شهدت به عينه ، وكل ما عمله شهد عليه به جلده.

٢ — هؤلاء الكفار الذين تشهد عليهم جلودهم وأبصارهم وسمعهم ، يرون ما لم يتوقعوه ، فيسألون جلودهم : لم شهدتم علينا بما كنا نعمل فى الدنيا؟ ؛ فتجيبهم جلودهم : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء فنطقنا ، والله القادر على كل شىء ، وخلق الناس أول خلق من تراب ، مستطيع أن ينطق الجلود وغير الجلود إذا أراد ذلك ، والمرجع كله إليه ، فيحاسب كلاً على عمله ؛ وليس الله فى حاجة إلى شاهد يشهد ، ولكن عدله يقتضى أن يلزم الكافر الحجة ، ويقنعه بشناعة جرمه ، واستحقاقه لما يقاسيه من عذاب .

٣ — اجتمع عند الكعبة ثلاثة نفر : قرشيان وثقفى ، أو ثقفيان وقرشى ، قليل فقه قلوبهم ، كثيرٌ شحم بطونهم ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال ثان : يسمع إن جهرنا ، ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا ، فهو يسمع إذا أخفينا ؛ فعلم النبىّ — صلى الله عليه وسلم — ذلك ، فأنزل الله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ... » ؛ والمعنى : أنكم حين ارتكبتم خطاياكم فى الدنيا مستخفين فى زعمكم ، ما كنتم مستخفين ولا مستترين ، فإنكم إن لم تقع

عليكم عين ، فإن عين الله تنظر إليكم ، ورقابته قائمة عليكم ، وتمثلها جلودكم وأبصاركم وأسماعكم ، وما كنتم تظنون أنها شاهدة عليكم يوم القيامة ، وظننتم كذلك أن ما تفعلونه فى سر من الناس ، هو كذلك فى سر من الله ، ولكن الله ليس عليه سر : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، وهذا الظن الذى ظننتموه بالله هو الذى أهلككم ، وأدّى بكم إلى جهنم ، إذ لو كنتم تعتقدون أن الله يعلم السر وأخفى منه ، لما ارتكبتم الخطايا التى قذفت بكم فى جهنم .

٤ — والذين كتب الله عليهم أن يكونوا من أهل جهنم ، إذا لجئوا إلى الصبر لا ينفعهم الصبر ، لأن الصابر إنما يصبر انتظاراً لفرج الله ، وهؤلاء لا يؤدى صبرهم إلى فرج ، لأنهم — صبروا أم جزعوا — مخلدون فى جهنم لا يبرحونها ، وإن يطلبوا رضا الله فلن يرضى عنهم ، لأن هذا الطلب فات أوانه ، فقد كان عليهم أن يطلبوه فى الدنيا .

٥ — بعث الله إليهم نظراءهم من شياطين الإنس والجن ، فزينوا لهم القبيح ففعلوه ، وحضوهم على المنكر فارتكبوه ، ووسوسوا لهم أن لا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب ، فصدقوهم ، وعلى أساس أنه لا بعث ولا حساب ، أرخَوْا لأنفسهم العِنان فى الدنيا ، وأطلقوا بهيميتها ، واستمتعوا بكل ما يظنونه من المتع ، لا يفرقون بين حلال وحرام ؛ وهؤلاء وجب تعذيبهم ، كما وجب تعذيب أمثالهم من أهل الأمم السابقة ، لا فرق فى ذلك بين إنس وجن ، وقد خسروا لأنهم باعوا الإيمان بالكفر ، ورضا الله بغضب الله .

٦ — مشركو قريش ، الكافرون بالله ورسوله ، يقولون لأتباعهم : حينما ترون قارئاً يقرأ القرآن لا تستمعوا له ، ولا تلقوا آذانكم إليه ، ولا تصغوا إلى قارئه ، والْهُوا عنه ، بل إذا رأيتم قارئاً فشوشوا عليه ، حتى لا يسمعه أحد ، وذلك

بالصفير والتصفيق ، وإحداث الجلبة والضوضاء ، حتى لا يفهم أحد ما يقول ، وأنكروا عليه ما يقرأ ، وأغروا به الصبية يتصايحون عنده ؛ يريدون بفعلهم هذا أن يصرفوا عنه من يجوز أنه إذا سمعه يتأثر به ، فيؤمن ؛ فيصرفون بذلك الناس عن محمد ، لعلهم يغلبونه ويبطلون دعوته .

٧ — يؤكد الله سبحانه وتعالى أن الذين كفروا به من مشركى قريش ، سيعذبهم عذاباً شديداً يوم القيامة ، وسيعاقبهم أشد عقاب على أسوأ عمل عملوه فى الدنيا وهو الشرك ، وهذا العذاب الشديد ، هو النار التى سيخلدون فيها ، جزاء جحودهم وإنكارهم آيات الله .

٨ — الذين كفروا بالله ورسوله ، بعد أن يدخلوا نار جهنم يوم القيامة — يقولون : يا ربنا ، أرنا ، اللذين أضَلاَّنا من خلقك : جنًّا وإنساً ، لأنهما كانا سبباً فى سوء مصيرنا ، وإذا عرفناهما وضعناهما تحت أقدامنا لسببين : السبب الأول أن الوضع تحت القدم علامة الاحتقار الشديد فى الدنيا ، والثانى أن جهنم طبقات ، فوضعهما تحت الأقدام يجعلهما فى طبقة أسفل من الطبقة التى نحن فيها ، فيكونان فى عذاب أشد ، لأن الطبقة فى جهنم كلما سفلت ، كانت أشد على المعذبين .

(٤)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٦ من سورة فصلت

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ : أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ -١- . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ -٢- . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ : إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ -٣- . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ ، كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ -٤- . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ -٥- . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ثم استقاموا	ثم لم يرتكبوا ذنباً ، ووطنوا أنفسهم على طاعة الله قولا وفعلا ، واستمروا على ذلك .
تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا	تأتيهم الملائكة وتطمئنهم ، فلا يخشون الموت ولا حرمان الثواب ، ولا يحزنون ، لأنهم إن كانوا قد ارتكبوا ذنوباً فإن الله غافرها .
كنتم توعدون	كنتم تبشَّرون بدخولها وأنتم فى الدنيا .
نحن أولياؤكم	نحن نصراؤكم وأحباؤكم .
ولكم فيها ما تدَّعون	ولكم فيها ما تتمنون وتطلبون .
نزلا	النزل : رزق النزيل ، والنزيل : الضيف .
ومن أحسن قولا	لا أحد أحسن قولا .
دعا إلى الله	دعا إلى عبادة الله ، والعمل بشريعته .
ولا تستوى الحسنة ولا السيئة	ليست الحسنة والسيئة فى منزلة واحدة ، وليس التوحيد والشرك فى منزلة سواء .
ادفع بالتى هى أحسن	ادفع بحلمك السيئة بالخصلة التى هى أحسن منها ، وهى الصفح .
كأنه ولى حميم	كأنه قريب صديق ، مصافاة ومحبة .
وما يلقاها إلا الذين صبروا	ولا يظفر بهذه المنزلة الكريمة إلا الصابرون ، الذين يكظمون الغيظ ، ويعفون عن الناس .
ذو حظ عظيم	صاحب نصيب وافر من الخير والرضا .

الألفاظ	شرحها
وإما ينزغنك من الشيطان نزغ	وإن يدفعك من الشيطان دافع إلى فعل الشر ، وعدم الدفع بالتى هى أحسن ؛ أدغمت إن الشرطية فى « ما » : الزائدة .
فاستعذ بالله	فقل : أعوذ بالله من كيد الشيطان وشره .
إنه هو السميع العليم	إنه هو السميع لاستعاذتك ، العليم بنزغ الشيطان ، وبأقوالك وأفعالك .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله — سبحانه وتعالى — أن الذين يؤمنون بالله وحده ، ويقولون : لا إله إلا الله ، لا شريك له ، ويثبتون على إيمانهم ، ويستمرون على الطاعة فى أقوالهم وأعمالهم ، تنزل الملائكة عليهم إذا حزَبهم أمر ، أو عند موتهم ، وتطمئنهم ، ويقولون لهم : لا تخشوا الموت ، ولا حرمان الثواب ، ولا تحزنوا بسبب ما ارتكبتموه من الذنوب ، ولا على ما خلفتموه وراءكم من مال وولد ، ولا يهولنكم ما تنتظرونه من أمر الآخرة ، فلن يكون إلا خيراً ، لأن الله وعدكم الجنة ، والله موف وعده ، فأبشروا بها .

٢ — ويقول الملائكة أيضاً لهؤلاء المؤمنين المطيعين ، الثابتين على إيمانهم : نحن نصراؤكم وأحباؤكم فى الحياة الدنيا ، فكنا نرعاكم فيها ، ونقيد لكم حسناتكم ، ونحن أصدقاؤكم وأحباؤكم فى الآخرة كذلك ، نشهد لكم ، ولا نترككم حتى تستقروا فى الجنة ، التى ستجدون فيها كل ما تتصورونه من ألوان المتع التى أباحها الله لكم ، ومكنكم من الاستمتاع بها ، ولكم

فيها كل ما تتمنونه وتطلبونه ميسراً لكم ، تيسيراً يجعل الحصول عليه من غير كُلْفة ولا مئونة ، يسره لكم الله الغفار لذنوبكم التى فرطت منكم فى الدنيا ، الرحيم بكم فلا يعاقبكم .

٣ — يتواصى مشركو قريش ألا يسمعوا للقرآن ، وأن يَلْغَوْا فيه ، مع أنه لا أحد أحسن قولاً من محمد ولا من أتباعه ، حين يتلون القرآن ، ويدعون به إلى الله ، وإلى توحيده وعبادته ، والعمل بشريعته ، وهؤلاء أولياء الله وأصفياؤه وخيرة خلقه .

٤ — الإيمان والكفر لا يستويان ، والحسنة والسيئة لا تستويان ، فليستا فى منزلة سواء ، وشتان بين من يقولون : ربنا الله ، ويستقيمون ويحسنون فى أقوالهم وأفعالهم ، وبين من يقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه ؛ وهؤلاء وأولئك لا تستوى عندالله مراتبهم ومنازلهم ؛ وقدأمر الله نبيه بدفع سيئة المسيئين بالحسنى : فيحلم على الجاهل ، ويعفو عن المسىء ، ويدعو بالهداية للضالّ ، ويصبر على الأذى ؛ وهو إذا فعل هذا كله ، صار العدو صديقا ، والمبغض محبًّا ، والعصِي طيِّعاً ، والجامح ذلولاً ، والمتكبر متواضعاً ، والجاهل حليما .

٥ — وليس سهلاً على كل إنسان أن يقابل السيئة بالحسنة ، فإن هذه صفة عالية ، لا تتأتى إلا لمن رزقهم الله الصبر على المكاره ، وأصحاب النصيب العظيم من العقل والحلم ورضا النفس ، والاطمئنان إلى كل ما يريد الله ؛ وهؤلاء كتب الله لهم الجنة .

٦ — وإن يدفعك — يا محمد — من الشيطان دافع إلى فعل الشر ، ويوسوس فى نفسك أن تجانب الصبر ، فليس عليك إلا أن تلجأ إلى الله ، وتستعيذ به من الشيطان ، والله يسمع دعاءك ، واستعاذتك من الشيطان واستجارتك به ، ويعلم كل ما يجرى فى نفسك ، وما يكون من الشيطان لك ، وما يكون منك من استغاثة واستعاذة .

(٥)

من الآية ٣٧ إلى الآية ٤٦ من سورة فصلت

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ -١- . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ -٢- . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ -٣- . إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ -٤- . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ -٥- . مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ، وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ -٦- . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا : لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ! أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ —٧— . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ؛ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن آياته	ومن العلامات الدالة على قدرته ووحدانيته .
لا تسجدوا للشمس ولا للقمر	لا تعبدوا الشمس والقمر من دون الله .
إن كنتم إياه تعبدون	إن كنتم تخصون الله بالعبادة .
فالذين عند ربك	المراد بهم : الملائكة .
لا يسأمون	لا يملون .
خاشعة	يابسة مقفرة ، لا ماء فيها ولا زرع .
اهتزت وربت	حييت وتحركت ونمت ، بما يجرى فيها من ماء ، وبما ينبت من نبات .
يلحدون فى آياتنا	يميلون عن الحق بالنسبة للقرآن ، فيصفونه بأنه سحر ساحر ، أو كهانة كاهن ، أو أساطير الأولين ، أو غير ذلك .

الألفاظ	شرحها
لا يخفَوْن علينا	لا يغيب أمرهم عنا ، حتى يستطيعوا أن يفلتوا من عقابنا .
اعملوا ما شئتم	تصرفوا كما يحلو لكم ، فآمنوا أو لا تؤمنوا ، وهذا أشد أساليب التهديد والوعيد .
كفروا بالذكر	لم يؤمنوا بالقرآن .
إنه لكتاب عزيز	إنه لكتاب محْمِيّ بحماية الله ، وعنايته ورعايته .
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	لا يعتريه تعديل ولا تغيير ، ولا يطرأ عليه زيادة ولا نقص ، على أى وضع من الأوضاع .
من حكيم حميد	من إله موصوف بالحكمة ، مستحق للحمد والثناء .
ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك	ما يقوله لك كفار قريش الآن ، مثل ما قيل لمن سبقك من الأنبياء ، من الذين كفروا بهم .
ولو جعلناه قرآنا أعجمياً	ولو نزلنا عليك القرآن بلغة غير لغة العرب .
لولا فصلت آياته	هلاّ نُزلت آياته علينا واضحة مفهومة بلغتنا !.
أأعجمى وعربى ؟ !!	أقرآن أعجمى ، ورسول عربى . ؟ ! !
هدى وشفاء	إرشاد إلى الطريق المستقيم ، وإزالة لمرض الشك الذى فى القلوب .
فى آذانهم وقر	فى آذانهم صمم .
وهو عليهم عمى	والقرآن ظلمة عليهم ، فهم لا يرون ما فيه من نور الهداية والإيمان .
أولئك ينادون من مكان بعيد	أولئك لا يفهمون لعدم انتفاعهم بالقرآن ، وعدم استجابتهم لداعى الإيمان ، كأنهم ينادون من مسافة بعيدة ، فلا يسمعون النداء .

الألفاظ	شرحها
الكتاب	التوراة .
فاختُلف فيه	فكان الناس فيه مختلفين : بعضهم قال : هو حق ، وبعضهم قال : هو باطل .
ولولا كلمة سبقت من ربك	ولولا أن الله قدر عدم تعجيل العذاب لهم .
لقُضى بينهم	لعجل بتعذيبهم وإهلاكهم فى الدنيا .
فلنفسه	فمنفعة عمله الصالح راجعة إليه .
فعليها	فضرر عمله السيئ واقع عليه .
وما ربك بظلاّم للعبيد	والله يقضى بين عباده بالحق ، لا يظلم الناس شيئاً ، فيعذب المسىء ، ويرحم المحسن .

مجمل المعنى

١ — من الدلائل على قدرة الله ، أنه خلق الليل والنهار متعاقبين ، يختلفان طولاً وقصراً ، وحرًّا و برداً ، وضوءاً وظلمة ؛ ومن الدلائل كذلك أنه خلق الشمس والقمر ، وجعل كلاًّ منهما يسبح فى فلكه ، بدورانه حول نفسه ، ثم بدوران القمر حول الشمس ، لا الشمس تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، كلٌّ فى فلك يسبحون ؛ والشمس والقمر خلقهما الله ، وسخرهما للناس ينتفعون بهما ، ولا حياة لهم من دونهما ، وليس معنى ذلك أنهما هما

اللذان يمنحان الإنسان ما ينتفع به من وجودهما ، فيعبدهما ، ولكن الله هو الذى خلقهما على وضع يجعل الناس ينتفعون بهما ، ولو شاء غير ذلك لكان ما شاءه ؛ ولذلك كان أحق بالعبادة من أى معبود آخر ، ولو كان الشمس والقمر ؛ ولذلك ينهى الله النبى والمؤمنين عن السجود لهما ، ويأمرهم بالسجود لله ، إن كانوا يريدون أن يخصوا بالعبادة من يستحق العبادة .

٢ — يخبر الله نبيه أنه إن استكبر قومه على الله ، ولم يخصوه بالعبادة ، فالله فى غنى عنهم وعن عبادتهم ، لأن من عباده الملائكة المقربين ، الذين لا عمل لهم إلا عبادة الله عبادة دائمة متصلة فى الليل والنهار ، لا يملونها ، ولا يتبرمون منها .

٣ — ومن الدلائل على قدرة الله أيضاً ، هذه الأرض اليابسة الهامدة التى تراها ، فلا تجد فيها أثراً للحياة ، فإذا نزل عليها الماء حييت ، واهتزت ، ونمت ، وأخرجت النبات ، وصارت جنة ؛ والله الذى قدر على أن يحيى الأرض الميتة ، ويجعل من جدبها خصباً ، ومن قحلها جنة ، ومن موتها حياة ، هو الله الذى يستطيع أن يحيى الموتى يوم القيامة ، ويبعثهم من قبورهم ، وهو قادر على كل شىء : إنشاء وإعادة ، وإحياء وإماتة .

٤ — يؤكد الله أن الذين يعدلون عن الحق ، ويتنكبون الطريق السوىّ ، وينتقصون آيات الله ، ولا يعترفون بها كدلائل على قدرته ، ويطعنون على القرآن بأنه سحر ساحر ، أو كهانة كاهن ، أو أساطير الأولين ، ويحاولون أن يبطلوه باللغو فيه ، هؤلاء لا يغيبون عن الله ، ولا يخفى عليه شرهم ،

فلا يستطيعون أن يفلتوا من عذابه ، أو يتخلصوا من عقابه ؛ وفى هذا تهديد لهم ، وإنذار بما سيجرى عليهم من تعذيب إذا بقوا على استكبارهم وكفرهم ؛ وهؤلاء إذا وازنا بينهم وبين المؤمنين ، الذين يأتون يوم القيامة آمنين مطمئنين على أنفسهم وعلى مصيرهم ، فأيهم أفضل ؟ ! لا شك أن المؤمنين الذين يدخلون الجنة ، أفضل من الكافرين الذين يلقون فى النار ، بل إنه لا تجوز الموازنة بينهما ؛ وأهلُ النار يهددهم الله تهديداً شديداً. بقوله لهم : « اعملوا ما شئتم » ، ويؤكد الله أنه يعلم علم إحاطة وشمول كل ما يجرى منهم ، وهو محاسبهم عليه .

٥ — إن الذين ينكرون القرآن ، ويصفونه بما لا يجوز أن يوصف به ، ويحرضون على مقابلة قارئه بالاستهزاء والصفير والسخرية ، هؤلاء يغضب الله عليهم ، ويعذبهم يوم القيامة ؛ ويؤكد الله أن القرآن كتاب عزيز عليه ، محمى بحمايته ، مصون بعنايته ، مكلوء برعايته ، فلا يستطيع كائن من كان من إنس أو جن أن يغير فيه أو يبدل أو يحرف ، أو يزيد عليه أو ينقص منه ، فإنه كلام الله المنزل على نبيه ، والله حكيم فى كل ما يقول ، مستحق لكل حمد وثناء .

٦ — لا تجزع يا محمد مما يلقاك به قومك ، ولا يؤلمك أن يصفوك بأنك شاعر أو ساحر أو كاهن ، ولا يحزنك أن يرموك بالباطل ، فإن ما يحصل منهم لك هو نفسه الذى حصل لأولى العزم من الرسل قبلك ، فقد لقى كل منهم مثل ما تلاقى ، وعانى من قومه مثل ما تعانى ؛ وإن الله مطلع على كل شىء ، وهو يغفر للتائبين ذنوبهم ، ويعاقب المذنبين الكافرين عقاباً شديداً موجعاً .

٧ — كفار قريش يتعللون بأتفه الأشياء التى لا يقبلها عقل ؛ فلو أن القرآن الذى نزل على محمد عربياً بلسانهم ، كان قد نزل عليه بلسان غير عربى ، لاحتجوا على ذلك ، وقالوا : نحن عرب ، ونزل القرآن بغير لغتنا ، فلو أنه نزل واضحاً مفهوماً لنا ، لكان لنا رأى آخر ؛ ولقالوا أيضاً : عجباً ! ! أقرآن بلسان أعجمى ينزل على رجل عربى ، ولسانه عربى ؟ ومع ذلك فقد قطع الله عليهم السبيل ، وأنزله قرآناً عربيًّا ، بالغاً أعلى درجة من البلاغة ، فأعجزهم جميعاً عن أن يأتوا بسورة من مثل سوره القصار ، وهذا القرآن إمام المؤمنين ، وإرشاد الطالبين ، ودواء القلوب المريضة ، وشفاء العقول السقيمة ، وهو نور على من يستضىء به ، وبركة لمن يتمنى الخير لنفسه ؛ فكل من لا يؤمن به ، ولا يجيب دعوة الداعى إليه إذا سمعه ، وأعرض عنه ، يكون كأنه لم يسمع ، ولم يفهم ، وكأنه أصيب فى أذنه بالصمم ، فلم ينتفع بخير القرآن وبركته ؛ ومثل هؤلاء من يجدون القرآن مُعَمًّى عليهم ، لأنهم لم يحاولوا أن يفقهوه ، فهم عُمْى لم تتفتح أعينهم على نور الهداية ، ولم تنعكس عليها أشعة الإيمان ، فلم يسمعوا ولم يروا ؛ هؤلاء المتصامّون عن الحق ، المتعامون عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها ، مثلهم كمثل من ينادَى من مكان بعيد ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

٨ — وكما أنزل الله عليك القرآن يا محمد ، فقد أنزل على موسى التوراة من قبلك ، واختلف فى القرآن قومك ، كما اختلف فى التوراة من قبلك ؛ فكانوا بين مؤمن وكافر ، ومصدق ومكذب ؛ وقال بعضهم : إنه حق ، وقال آخرون : إنه باطل ؛ فالاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم ، لم يختص بها قومك ، ولولا أن الله سبق أن قضى بأن الجزاء مؤجل إلى يوم القيامة ، لحكم عليهم حكماً عاجلاً ، فيه إهلاك المبطلين منهم وتعذيبهم ؛ وإن هؤلاء الكافرين

ليسوا مكذبين عن يقين ، وإنما هو مجرد ظن منهم ، أو مكابرة جعلتهم يشكّون ، فلا يحزنك قولهم : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ؛ ومع ذلك فإن لكل إنسان عمله : فعمله الصالح له ، وعمل المسىء عليه ، للأول الجنة بسبب طاعته وإيمانه ، وللثانى النار بسبب عصيانه وكفره ، والله يحكم بالعدل بين الجميع ، فلا يظلم منهم أحدا على عمله ، سواء أكان قليلا أم كثيراً ، فارفق بنفسك ، ولا يكبر عليك إعراضهم عن قبول دعوتك .

فهرس الجزء الرابع والعشرين من تفسير القرآن الكريم

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس والعشرون

تأليف

محمود محمد حمزة

المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)

والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان

المراقب بوزارة التربية والتعليم

محمد أحمد برانق

المفتش العام بالتعليم الإعدادى



ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

(١)

من الآية ٤٧ إلى الآية ٤٨ من سورة فصلت

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ : أَيْنَ شُرَكَائِي ؟ قَالُوا : آذَنَّاكَ ، مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ -١- . وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَظَنُّوا : مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
علم الساعة	وقت قيام القيامة .
من أكمامها	من أغلفتها التى تحفظها فيها قبل أن تتفتح .
أين شركائى	أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دونى ، وتشركونها معى ؟
آذناك	أخبرناك .
ما منا من شهيد	ليس منا من يشهد أن لك شريكاً .
وضل عنهم	وغاب عنهم .

الألفاظ	شرحها
ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص	ما كانوا يعبدون فى الدنيا وأيقنوا أنهم لا مهرب لهم من عذاب الله .

مجمل المعنى

١ — هذه أمور ينفرد الله تعالى بها : موعد قيام الساعة ، وخروج الثمرات من أغلفتها ، وحمل الأنثيات ووضعهن ؛ وليست هذه الأمور وحدها هى التى انفرد بها علم الله ، فإن الله يعلم كل شىء حاضر للإنسان أو غائب عنه ، يدخل تحت إدراكه وحسه ، أو لا يدخل تحت إدراكه وحسه ، يرقى إليه خياله ، أو لا يستطيع أن يتصوره خياله ، فالله يعلم والإنسان لا يعلم ، وكل خلقه فى هذا العالم الذى نعرفه وفى جميع العوالم الآخر لا يعلم ؛ وفى يوم القيامة ينادى الله المشركين الذين أشركوا به غيره فى الدنيا ، ويقول : أين شركائى ؟ ! على سبيل الاستهزاء والتقريع ، فيردون : أخبرناك أنه ليس منا واحد يشهد اليوم أن لك شريكاً ، وكلنا نشهد أنك واحد لا شريك لك .

٢ — أما الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله فقد غابت عنهم ، ولم يجدوها أمامهم ، وتأكدوا أنهم لا مهرب لهم من عذاب الله .

(٢)

من الآية ٤٩ من سورة فصلت إلى آخر السورة

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ -١- . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : هٰذَا لِي ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ -٢- . وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ -٣- . قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟ -٤- . سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ -٥- . أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا يسأم الإنسان	لا يمل الكافر .
من دعاء الخير	من طلب ما ينتفع به من مال أو ولد أو صحة، أو غير ذلك .
وإن مسه الشر فيئوس قنوط	وإن أصابه ضرر وفقر يئس من الخير ، وقنط من رحمة الله .
ولئن أذقناه رحمة منا	ولئن أنعمنا عليه من عندنا بعافية أو رخاء أو غنى .
من بعد ضراء مسته	من بعد شر أصابه من فقر أو شدة .
هذا لى	هذا حق أستحقه ، فليس لأحد جميل علىّ فيه .
وما أظن الساعة قائمة	وما أظن أن القيامة ستقوم ، وسيكون حساب .
ولئن رجعت إلى ربى	وإذا صح أن هناك قيامة وبعثاً وحساباً ، وبعثت يوم القيامة .
إن لى عنده للحسنى	إن لى عندالله إذ ذاك الحالة الطيبة، من التكريم والإنعام علىّ .
فلننبئن الذين كفروا بما عملوا	فلنخبرن الذين كفروا بحقيقة ما عملوا .
من عذاب غليظ	من عذاب شديد دائم .
ونأى بجانبه	وأعرض عن ذكر الله ، واستكبر .
فذو دعاء عريض	فإنه يرجع إلى الله ويدعوه دعاء طويلا دائماً .
أرأيتم إن كان من عند الله	أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله .

الألفاظ	شرحها
من أضل	فأى الناس أضل ؟
فى شقاق بعيد	ممعن فى خلاف واسع المدى .
آياتنا	علامات وحدانيتنا وقدرتنا
فى الآفاق وفى أنفسهم	فى البلاد التى حول مكة ، وفى فتح مكة نفسها .
أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد	أولا يقنعهم أن الله شاهد على كل شىء من أعمالهم ؟
فى مرية	فى شك .
بكل شىء محيط	عالم بكل شىء : عظم أو صغر ، ظهر أو خفى

مجمل المعنى

١ — الإنسان لا يقنع بما يصيب من مال أو ولد أو صحة ، أو أى شىء من زينة الحياة الدنيا ، فهو يطلب المزيد من هذه الأشياء دائماً ؛ وإذا أصابه شر مهما كان تافهاً جزع ، وضاقت فى وجهه الدنيا ، ويئس من زوال الشر ، ومن رحمة الله ، وضعف وخارت نفسه .

٢ — فإذا أدركته رحمة الله ، وكشف عنه ما أصابه من سوء فى صحته أو ماله أو عياله ، عاوده تكبره وتجبره ، ونسى فضل الله عليه ، وقال : هذا حقى ، لا فضل لأحد علىّ فيه ؛ ونسى القيامة والبعث والحساب ، والثواب والعقاب ، وغير ذلك من الأمور التى ينادى الإسلام بالإيمان بها ، وجعلها دائماً نصب عينيه ، ويرى مع هذا أنه لو سلّم بأنه سيبعث ويحاسب ، فإنه يكون من المكرمين فى الآخرة ، لأنه من المكرمين فى الدنيا ؛ ويؤكد الله أنه سيخبر

الذين كفروا بحقيقة ما عملوا فى الدنيا ، ويعذبهم عذاباً شديداً دائماً ، ويُظهر لهم أن الأمر على غير ما تصوروه .

٣ – والإنسان إذا أنعم الله عليه فى الدنيا استكبر وتجبر ، وأعرض عن الإيمان وعن فعل الخير ، ولم يفكر فى فضل الله عليه ؛ وإذا أصيب بشرّ رجع إلى الله ودعاه ، وأكثر من الدعاء فى تضرع واستغاثة ومسكنة ، وسأله أن يكشف عنه ما به من ضر ، فهو يعرف ربه عند البلاء ، وينساه وقت الرخاء .

٤ – يأمر الله نبيه أن يقول لهم : أخبرونى ، إن كان هذا القرآن من عند الله كما أقول ، وكفرتم به مع قيام الأدلة على صحة ما أبلغكم به ، فهل يكون هناك أشد ضلالا من هؤلاء المتعنتين ، الممعنين فى الخلاف ؟ لا لسبب إلا أنهم فى أنفة الجاهلية يُعرضون ويقولون : « لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » .

٥ – هؤلاء الذين لم يؤمنوا ، سيعرفون قريباً أن ما تدعو إليه يا محمد حق ، وسيرون ذلك حينما تفتح مكة ، وتدخلها عليهم ظافراً منصوراً ، وسيرون ذلك أيضاً حينما تفتح الآفاق المحيطة بمكة ، وتدخلها على أهلها ظافراً منصوراً ؛ أو لا يُقنع هؤلاء المعاندين المتكبرين أن الله مطلع على كل شىء ، وأنه أخبر أن القرآن منزل من عنده على رسوله ؟ فأى شىء أكبر شهادة من شهادة الله ؟

٦ – إن هؤلاء الناس فى شك من لقاء الله يوم القيامة للحساب والجزاء ، وإن الله يعلم كل شىء يجرى فى هذه الدنيا مهما صغر ومهما خفى ، فلا تخفى عليه خافية ، ويعلم بواطن الكفار وظواهرهم ؛ وفى يوم القيامة يجازى الكافر بكفره ، فيدخله جهنم ، ويجازى المؤمن بإيمانه ، فيخلده فى الجنة .

سُورَةُ الشُّورَى

نزلت بمكة ، ماعدا الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ فإنها نزلت بالمدينة
وآياتها ٥٣ آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٢

حمٓ عٓسٓقٓ ، كَذٰلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —١— . لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ —٢— . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ، وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ —٣— . وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ —٤— . وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ —٥— . وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ -٦- . أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ، وَهُوَ يُحْيِي ٱلْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ -٧- . وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ، ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ -٨- . فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ -٩- . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ -١٠- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حم عسق	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك	مثل ما تضمنته هذه السورة من المعانى ، قد أوحى الله إليك نظيره فى غيرها من السور ، وأوحاه إلى من قبلك من الرسل .
العزيز الحكيم	الغالب بقوته وقهره .
العلى العظيم	وهو العلى الشأن ، العظيم الخلق والبرهان .
يتفطرْن من فوقهن	يتشققن ، كل واحدة تنفطر فوق التى تليها .

الألفاظ	شرحها
ويستغفرون لمن فى الأرض	ويطلبون من الله ألا يعاجلهم بالعقوبة ، طمعاً فى إيمان الكافر ، وتوبة الفاسق .
اتخذوا من دونه أولياء	عبدوا من دون الله شركاء وأنداداً .
الله حفيظ عليهم	الله رقيب على أعمالهم وأقوالهم ، فيجازيهم عليها .
بوكيل	بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك الإبلاغ والإنذار .
لتنذر أمّ القرى ومن حولها	لتبلغه لأهل مكة ، وإلى الناس قاطبة فى مشارق الأرض ومغاربها .
وتُنذر يومَ الجمع	وتنذرهم ما ذكر عن يوم القيامة ، الذى يجتمع فيه الخلائق للحساب .
لا ريَب فيه	لا شك فيه .
وفريق فى السعير	ومنهم فريق ضالٌّ ، فهم فى عذاب النار المستعرة .
لجعلهم أمّة واحدة	لجعلهم كلهم أمة واحدة ، وفريقاً واحداً ، مهتدين أو ضالين .
من ولىّ ولا نصير	من ولىّ يلى أمرهم ، ولا نصير يخلصهم من العذاب .
وما اختلفتم فيه من شىء	يقول النبى للمؤمنين : وكل أمر من أمور الدين اختلفتم أنتم والكفار فيه .
فحكمه إلى الله	فاتركوا حكمه إلى الله ، ولا تخوضوا معهم فيما لا تعرفونه .
وإليه أنيب	وإليه أرجع فى كل أمر .

شرحها	الألفاظ
خالق السموات والأرض ، ومبدعهما على غير مثال سبق .	فاطر السموات والأرض
جعل لكم من جنسكم أصنافاً : ذكوراً وإناثاً .	جعل لكم من أنفسكم أزواجاً
وجعل من جنس الأنعام أصنافاً: ذكوراً وإناثاً لتتوالد .	ومن الأنعام أزواجاً
يكثِّركم بسبب هذا الازدواج .	يذرؤكم فيه .
ليس مثله شىء فى شأن من الشئون التى من جملتها هذا التدبير البديع .	ليس كمثله شىء
وهو بالغ العلم لكل ما يسمع وما يبصر .	وهو السميع البصير
له مفاتيحها وخزائنها ، فالإعطاء والمنع بيده هو .	له مقاليد السموات والأرض
يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيقه على من يشاء ، على حسب إرادته .	يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر

مجمل المعنى

١ — هذه الأحرف الخمسة ، وهى الحاء والميم والعين والسين والقاف ، يتكون منها ومن أمثالها من الحروف الهجائية القرآن الذى أوحيناه إليك ، نتحدى به به الكفار المعاندين ، وليس بدعاً أن يوحى الله إليك هذا القرآن ، فقد أوحى مثل ذلك الوحى الذى أنزلناه إليك ، من الدعوة إلى توحيد الله ، وبيان

عظمته وقدرته ، إلى الأنبياء الذين أرسلهم قبلك ، فيما أنزل عليهم من كتب ، وهو العظيم الشأن ، الغالب بقوته وقهره على أمره ، الحكيم المصيب فى قوله وفعله .

٢ - له ملكوت السموات والأرض بالخلق والتدبير ، هو مالكهما ، ومالك ما فيهما من ملائكة وإنس وجن ، وحيوان ونبات ، ونار ونور ، ومعدن وغاز ، لا شريك له فى ملكه ، وهو العلى شأنه ، العظيم سلطانه وملكوته ، لا أحد ينازعه ملكه ، ولا يشاركه فى وحدانيته .

٣ - ولفظاعة قول المشركين : إن لله ولداً ، واتخاذهم آلهة يعبدونها من دونه - ودلائل عظمته ووحدانيته ناطقة بقدرته فى خلقه وتدبيره - قاربت الكواكب أن تتشقق وتتهاوى فوق التى تليها ، ويختل ما بينها من تجاذب وتماسك ، لشناعة ما يقولون ، وبشاعة ما يزعمون ، ونظير هذا قوله تعالى فى سورة مريم : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه » ، (تراجع الفقرة الثامنة من الصفحة ٧١ من تفسير الجزء السادس عشر) ؛ والملائكة يسبحون الله ، وينزهونه عما لا يليق به مما يفتريه الكفار ، ويطلبون من الله أن يغفر لأهل الأرض ، وأن يحلُم عليهم ويهديهم إلى طاعته ، وألا يعجل بعقوبتهم ، فيزلزل الأرض ، ويسرع بخرابها ؛ ألا أن الله الذى عظمت قدرته فأبدع هذا الكون ، وقد وسعت مغفرته وعمت رحمته ، لا يأخذ الناس بذنوبهم ، ولا يعجل العقاب لهم ، لعل أن يؤمن كافرهم ، ويتوب فاسقهم .

٤ - والذين عبدوا آلهة من دون الله ، وجعلوا الأصنام والأوثان أنداداً وشركاء له ، لا ينبغى أن تحزن لكفرهم ، أو تشغل بالك بأمرهم ، فإن الله يحفظ أعمالهم ليجازيهم عليها ، ويرقب كل ما يقولون وما يفعلون ، يحصيه عليهم

ويحاسبهم حساباً شديداً ؛ ولست أنت يا محمد بموكَّل عليهم ، أو بمفوَّض لك أمرهم ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

٥ — وكما أوحينا إليك وإلى من قبلك هذه المعانى ، أنزلنا عليك قرآناً بيّناً بلسان قومك ، لا لبس فيه ولا خفاء ، لتبلغه لأهل مكة ومن حولها من الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتنذرهم ما فيه من وعد ووعيد ، وحساب وعذاب ، وتبلغهم ما فيه من عبادات ومعاملات ، ونظم وأحكام ، وتخوفهم يوم القيامة ، يوم يجمعهم الله للمحشر ، يقول لهم : هذا يوم الجمع الذى كنتم تكذبون به محمداً ، حينما أنذركم إياه ؛ وبعد أن تؤدى رسالتك الواجبة عليك ، وهى مجرد التبليغ والإنذار ، سيؤمن بك فريق ، ويكفر فريق ، وسيكون منهم فريق ينعمون بالجنة ، وفريق يَصْلون عذاب السعير .

٦ — ولقد تمت مشيئة الله ، واقتضت حكمته ، أن يكون فى الناس شقى وسعيد ، ومهتد وضال ، ومؤمن وكافر ، ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ، أو جمعهم على الضلالة ، لكنه أراد أن يكونوا مختلفين فى العقيدة والعقل ، والعاطفة والقدرة ، والاستعداد والحظوظ ، وشاء أن يؤمن هذا ويعمل عملاً صالحاً فيدخله فى رحمته ، ويوفقه إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأن يكفر ذلك فيكون من الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ، فاستحقوا عذاب الله ، لا ينجيهم منه ولىّ أو نصير .

٧ — بل اتخذ الظالمون الكافرون الأصنام أولياءهم وأنصارهم من دون الله ، ولو كانوا يفكرون بعقل صحيح ، وقلب سليم ، لاتخذوا الله إلههم كما اتخذته ، ولعبدوه وحده كما عبدته ، لأن دلائل ألوهيته واضحة ، وآيات وحدانيته

ظاهرة ، فإنه خلق الناس من العدَم ، وهو الذى يحييهم مرة ثانية بعد الموت ، وهو عظيم القدرة على الخلق والبعث وإبداع الكون ، وهذه الأصنام لا تخلق شيئاً ، ولا تقدر على شىء .

٨ — لا تدخلوا أيها المسلمون أنتم والكفار فى جدال ، ولجاج ليس من ورائه اقتناع وإيمان ، ولكنكم ستجدون من ورائه عناداً وإصراراً على الضلال ، وكل أمر من أمور الدين يخالفكم فيه الكفار من المشركين ، وأهل الكتاب ، ويجادلونكم فيه ، فلا تخوضوا فى الجدال معهم ، فإذا جادلوكم فى الروح وفى يوم الحساب ، وفى الجنة والنار مثلا ، فلا تجادلوهم ، وليقل لهم كل واحد منكم : علم ذلك عند الله ، والحكم فيه إليه ، ذلكم الله ربى وربكم ، وخالقى وخالقكم ، فوضت إليه أمورى ، واعتمدت عليه ليهدينى ، وإليه أرجع فى كل المعضلات ، وأفوض إليه كل المشكلات ، لا إلى أحد سواه .

٩ — هو المبدع الخالق للسموات والأرض بكامل قدرته ، وإبداع خلقه ، على نظام يدل أنه الواحد القادر ، وإن آيات قدرته لمتجلّية فيكم أنتم ، فقد خلق لكم من جنسكم أصنافاً : ذكوراً وإناساً ، وخلق لكم من الدواب التى تسخرونها فى حياتكم ولخدمتكم ومعيشتكم أصنافاً : ذكوراً وإناثاً ، لينشّئكم ويكثركم بهذا التدبير الذى لا يقدر عليه غيره ، لأنه متفرد بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ، فليس كذاته ذات ، ولا كصفاته صفة ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، بالغ العلم لكل ما يسمع وما يبصر .

١٠ — له خزائن هذا الملكوت ، وعنده وحده مفاتيحه ومقاليده ، وهو صاحبه ومالكه ، لا ينازعه فيه أحد ، تام القدرة والسلطان عليها ، لا يملك أمرها

ولا يتصرف فيها غيره ، ولهذا فهو الذى يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الأمر ، يوسع فى الرزق لمن يشاء ، ويضيق فيه على من يشاء ، وعلمه واسع الإحاطة بكل شىء ، فيفعل كل ما يفعل على خير ما يكون .

(٢)

من الآية ١٣ إلى الآية ١٦ من سورة الشورى

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ —١— . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ —٢— . فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، ٱللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، ٱللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ —٣— . وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ ، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ —٤— .

ولا يتصرف فيها غيره ، ولهذا فهو الذى يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الأمر ، يوسع فى الرزق لمن يشاء ، ويضيق فيه على من يشاء ، وعلمه واسع الإحاطة بكل شىء ، فيفعل كل ما يفعل على خير ما يكون .

(٢)

من الآية ١٣ إلى الآية ١٦ من سورة الشورى

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، ٱللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ —١— . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ —٢— . فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ —٣— . وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ ، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ —٤— .

الألفاظ	شرحها
شرع لكم من الدين	أظهر وأوضح ، وبين لكم المسالك البينة الواضحة في الدين .
أن أقيموا الدين	أن اتبعوا أصول دين الإسلام ، وحافظوا عليها من أن يقع فيها ميل أو زيغ .
كبر على المشركين ما تدعوهم إليه	عظم على المشركين أن يمتثلوا إلى ما تدعوهم إليه من التوحيد ، ورفض عبادة الأوثان
الله يجتبي إليه	الله يختار إلى التوحيد واتباع دينه .
ويهدى إليه من ينيب	ويرشد إلى اتباع هذا الدين من يرجع إليه ، ويقبل عليه .
وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم	وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما علموا حقيقة رسول الله ، حسب ما جاء في كتبهم .
بغياً بينهم	بغياً من بعضهم على بعض طلباً للرياسة ، وحسداً من عند أنفسهم .
إلى أجل غير مسمى	إلى وقت معلوم عند الله وحده .
الذين أورثوا الكتاب من بعدهم	هم اليهود والنصارى في عهد رسول الله .
مريب	مدخل في الريبة والشبهة .
فلذلك	فلأجل ذلك التفرق والاختلاف في الدين .
فادعُ	فادع الناس كافة إلى الاتفاق ، والائتلاف على الدين الصحيح الموحد .
واستقم كما أمرت	واستقم على الدعوة إلى هذا الدين كما أوحى الله به إليك.

الألفاظ	شرحها
آمنت بما أنزل الله من كتاب	آمنت بجميع الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه .
وأمرت لأعدل بينكم	وأمرت أن أسوِّى بينكم فى تبليغ الشرائع والأحكام ، ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم.
لا حُجة بيننا وبينكم	ليس بيننا وبينكم محل للمحاجة والخصومة ، لأن الحق قد وضح .
يحاجّون فى الله	يجادلون فى دين الله ، ويتحاجون فيه .
من بَعد ما استجيب له	من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه .
داحضة	باطلة .

مجمل المعنى

١ — الله سبحانه وتعالى هو الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، شرع لكم يا أمة محمد ديناً قويماً ، وأوضح لكم حدوده ، وبيَّن سننه ، وهى أصول الدين الذى شرعه للأنبياء من قبل ، ووصى به نوحاً ، وأمره بتبليغه إلى قومه ، وهو الدين الذى أوحينا به إليك يا محمد ، وأوحينا به إلى أبيك إبراهيم ، وأوحينا به فى التوراة إلى موسى ، وفى الإنجيل إلى عيسى ؛ وخص الله هؤلاء الأنبياء بالذكر ، إما لأنهم من عظماء الأنبياء كنوح ، وإما لأنهم عظماء وأصحاب شرائع وكتب كالباقين ؛ هذا الدين الموحد فى أصوله ، الذى أمرنا جميع الأنبياء أن يقيموه ، لا يختلف عن الدين الذى جئت به يا محمد ، وهو توحيد الله تعالى وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبيوم الجزاء ، ونهيناهم أن يختلفوا فيه ، أو يتفرقوا شيعاً ؛ ولكن المشركين عظم عليهم ، وشق على نفوسهم ، أن تعيدهم إلى الحق ، وتدعوهم إلى الدين الصحيح الذى جاءت به الأنبياء من قبل ، وتطلب إليهم أن

يعبدوا الله وحده ، وأن ينبذوا عبادة الأصنام ، واستنكروا منك ذلك ، وقالوا : أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب ؛ لا تذهب نفسك حسرات على ضلالهم ، فإن الله يختار للإيمان به ، وتوحيده وطاعته ، من أراد له الهداية والتوفيق من عباده ، ويهدى إلى دينه القويم من يُنيب إليه ، ويرجع إلى طاعته من عباده .

٢ — ولم يختلف أهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى إلا بعد أن علموا أن التفرق يؤدى إلى الضلال والفساد ، ولكنهم فعلوا ذلك للبغى والحسد ، ورغبة رؤسائهم فى الاستطالة والرياسة ، فذهبت كل طائفة منهم مذهبا ، ودعت إليه ، وقبحت ما سواه ، فكانت مطامع الدنيا ومغرياتها وشهواتها هى الدافعة إليهم على أن يختلفوا فى الدين ، وكانوا يستحقون من أجل ذلك عذاب الاستئصال ، لكن الله أخره عنهم ، لأن لكل عذاب أجلا مسمى عنده ، ووقتاً معلوماً ، لولا ذلك لأوقع قضاءه فيهم ؛ وإن أبناءهم الذين ورثوا التوراة والإنجيل عن آبائهم ، قد ورثوا أيضاً عنهم هذا التفرق والاختلاف فى الدين ، فلما جئتهم يا محمد بالقرآن الذى تتفق أصوله مع حقيقة أصول دينهم ، كانوا منه فى شك قوى ، باعث للقلق والريبة ، لأنهم علموا أن هذا الدين يأمر بما يأمر به دينهم الحقيقى ، لكن إيمانهم به ، أو اتباعهم لأحكامه ، سيفقدهم سلطانهم ، وسيحد من شهواتهم ، فشككوا فيه ، وعارضوه معارضة تبعث القلق منه ، والريبة فيه ، حتى لا يزحزحوا عن الرياسة ، ولا يضيع منهم السلطان .

٣ — فمن أجل ذلك التفرق والاختلاف الذى حدث بين المشركين واليهود والنصارى فى الدين ، ومن أجل ما أدخلوا فيه من تشريع باطل ، فادع الناس إلى الدين الصحيح ، المطابق لدين أنبيائهم الذى جاءت به كتبهم ، واستقم على هذه الدعوة كما أوحينا إليك من القرآن ، وكما أمرناك به من

الشرائع والأحكام ، ولا تميلن فى دعوتك مع أهوائهم الباطلة ، المنبعثة عن أغراضهم وشهواتهم ، وقل لهم إن جادلوك : إنى مؤمن بجميع الكتب التى أنزلها الله على جميع الأنبياء ، لأنها تدعو إلى عبادة الله وتوحيده ، وقد أمرنى الله ألا أفرق بينكم ، وأمرنى أن أسوى بينكم فى تبليغ الشرائع والأحكام ، والحقوق والواجبات ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا آمركم بما لا أعلمه ، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، وكلنا عبيد الله ، فهو ربنا وربكم ، وكل منا مسئول عن نفسه ، لا تزر وازرة وزر أخرى ، ونحن مسئولون عن أعمالنا ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم ، وليس بيننا وبينكم ما يدعو إلى المخاصمة والمحاجّة ، فإن الحق واضح بيِّن ، لا يقتضى محاجّة أو خصومة ؛ وسنقف جميعاً بين يدى الله ، حين يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة للحساب ، وإليه المرجع والمصير ، فيفصل بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .

٤ — والذين يعارضون ويخاصمون فى دين الله ، من بعد ما استجاب الناس له ، ودخلوا فيه عن إيمان واعتقاد ، وشرح الله صدرهم للإسلام ، لن ينالوا إلا خزياً من محاجّتهم وخصومتهم ؛ وإن ما يزعمون أنه حجة لهم ، ما هو إلا زيف وباطل ، لا ثبات له أمام الله ، وعليهم غضب منه فى الدنيا ، ولهم عذاب شديد فى الآخرة .

(٣)

من الآية ١٧ إلى الآية ٢٢ من سورة الشورى

ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ ؟
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ —١— . يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ،
وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ —٢— . ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ،
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ —٣— . مَنْ كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ —٤— .
أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ ؟
وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ —٥— . تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ
بِهِمْ ، وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ،
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أنزل الكتاب بالحق والميزان	أنزل الكتب السماوية على أنبيائه، متوخية فى أخبارها وأحكامها الصدق والعدل .
وما يدريك	وما يعلمك ؟
لعل الساعة قريب	لعل وقت القيامة والبعث قريب منك ، وأنت لا تدرى
مشفقون منها	خائفون وجلون من قيام الساعة ، مع إيمانهم وطاعتهم .
يمارون فى الساعة	يشكُّون ويجادلون ويخاصمون فى يوم البعث .
القوى العزيز	الباهر القدرة ، الغالب على كل شىء .
حَرْث الآخرة	العمل للآخرة ، بالعبادة وإقامة حدود الدين .
حرث الدنيا	العمل للدنيا ، وهو طلب المال والرياسة ، وارتكاب المحظورات
ما لم يأذن به الله	الذى لم يأمر به الله ، ولم ينزله على أنبيائه .
ولولا كلمة الفصل	ولولا سابق وعد الله بتأجيل الجزاء إلى يوم القيامة.
وهو واقع بهم	وهو حالٌّ بهم لا محالة .

مجمل المعنى

١ – الله سبحانه وتعالى أنزل الكتب السماوية على أنبيائه للعباد ، متوخية الحق والصدق فى العقائد ، والأحكام والأخبار ، والشرعَ الذى يُسوى بين

الناس فى الحقوق والواجبات بالعدل والميزان ، فاعمل بما أنزل الله عليك ، وكن مستعداً للحساب والجزاء بين يدى الله تعالى ، حتى لا تفاجأ بقيام الساعة التى لا تعرف أجلها ، لأنها من علم الله وحده ؛ وأى شىء يجعلك تعلم أمرها ؟ لا شىء ، لعل وقت قيامها قريب منك وأنت لا تدرى ، فاتبع الكتاب ، واعمل به ، وتمسك بحبل العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه أعمالك ، وتوفَّى حسابك ؛ و « قريب » : وصف يستوى فيه المذكر والمؤنث ، مثل : « إن رحمة الله قريب من المحسنين »

٢ — يستعجل الكفار والمشركون الذين لا يؤمنون وقت قيام الساعة استهزاء ، ظنّاً منهم أنها غير آتية ، وإيهاماً للضعاف من أتباعهم بأنها لن تأتى ولن تكون ، فيقولون : متى قيام الساعة ؟ لعلها تقوم قريباً ، لنعرف إن كنا على حق أو على ضلال ، فنذوق العذاب الذى يتوعدنا به محمد ؛ والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقيام الساعة والحساب ، خائفون وَجلون من شدة هولها ، لأنهم يعلمون أنها الحق الذى لا يقبل الشك ، وأنها آتية لا ريب فيها ، وأنهم مستحقون لثواب الله ونعيم جنته ، ألا َ إن الذين يجادلون فى قيام الساعة ، ويخاصمون فى حقيقتها ، بعد الآيات البينات على قدرة الله ، لفى ضلال بعيد عن الحق ، بعيد عن طريق الهدى ، لأنهم لو تذكروا لعلموا أن الذى أنشأهم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم خلقهم فأحسن خلقهم ، قادر على أن يحيى الموتى ، وأن يبعثهم للحساب .

٣ — الله جل جلاله لطيف بعباده ، يُفيض عليهم من كل أنواع البرّ والرحمة ، فيوسعهم عفواً إذا عظمت ذنوبهم ، فرجعوا إليه أو تابوا ، وندموا على عصيانهم وأنابوا ، ويسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وتدركهم رحمته بعد أن يقع

بهم البلاء ، ويُلمّ بهم الشقاء ، شمل لطفه البر والفاجر ، وجعل الناس متفاوتين مالاً وجاهاً ، وصحة ومالاً ، وعقلا ومنزلة ، ليحتاج بعضهم إلى بعض ، ويستعين الغنى بعمل الفقير ، ويستعين الفقير بمال الغنى ، وليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً فى الحياة الدنيا ، فيقوم نظامها ، وينتظم عمرانها ، ويرزق من يشاء ، ويحرم من يشاء ، كما تقتضيه مصلحة كلٍّ ؛ وفى الحديث القدسى : « إن من عبادى المؤمنين من لا يُصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى المؤمنين من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك » ، وهو مع واسع رحمته ، وفيض بره ، وعميم لطفه ، القوى القادر على كل شىء ، العزيز المنيع الذى لا يغلبه غالب .

٤ — كل إنسان مجزىٌّ على الخير خيراً ، وعلى الشر شرّاً ، فمن عمل عملا يريد به ثواب الآخرة ، جازاه الله على عمله بنعيم الجنة ، وزاد له فى حسناته ، وضاعف له ثوابه ، ومن عمل عملاً سيئاً يريد به متاع الدنيا وطيباتها ، واكتساب الجاه والسلطان ، آتاه الله شيئاً مما أراد ، على حسب ما قسم له ، وليس له نصيب من نعيم الآخرة .

٥ — هذا ما شرعه الله لعباده ، وما أنزله فى كتبه على أنبيائه ، من الإيمان بالله ، وإقامة العدل بين العباد على سواء ، والإيمان بالبعث والجزاء ، وبأن من عمل للآخرة آتاه الله ثواب الآخرة أضعافاً مضاعفة ، ومن عمل للدنيا آتاه منها بقدر ما قسم له ، فهل للمشركين شركاء لله ، شرعوا لهم من الدين ما لم يأمر به الله ، ولم يُنزل به سلطاناً ، كالشرك والبغى ، وإنكار البعث والعمل للدنيا ؟ وإذا لم تشرع لهم أصنامهم وأوثانهم ذلك لعجزها ، فكيف يدينون به ؟ إن الله سينتقم منهم بكفرهم وظلمهم ، ولولا عِدَة سبقت من

الله بتأخر الفصل فى أمرهم ، لأوقع قضاءه بينهم فى الدنيا ، فعاجل الظالم بالعقوبة ؛ وإن المشركين لهم عذاب أليم فى الآخرة .

٦ — يوم القيامة حيث يأتى موعد حساب المشركين الظالمين ، تراهم خائفين فزعين من جرّاء ما كسبوا من السيئات فى الدنيا ، والوبال والنكال واقع بهم لا محالة ، أشفقوا أولم يُشفقوا ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فهم آمنون متمتعون فى أطيب بقاع الجنة وأنزهها ، وكل ما يشاءون من النعيم والطيبات ثابت ومعد لهم فى ضيافة ربهم ، وهذا النعيم الطيب المقيم ، هو الفضل العظيم الذى يصغر دونه أى نعيم فى الدنيا .

(٤)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٧ من سورة الشورى

ذٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللّٰهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ –١– . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَإِ ٱللّٰهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ ٱللّٰهُ ٱلْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ –٢– . وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ –٣– . وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ –٤– . وَلَوْ بَسَطَ ٱللّٰهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إلا المودة فى القربى	إلا أن تودونى لقرابتى منكم .
ومن يقترف حسنة	ومن يكتسب طاعة .
شكور	مُوفّ ثواب الطاعة .
يختم على قلبك	يُنسك القرآن ، ويقطع عنك الوحى .
ويمح الله الباطل	ويزيل الله الشرك .
ويحق الحق بكلماته	ويثبت الإسلام ويظهره .
عليم بذات الصدور	عليم بصدرك وصدورهم ، فيجرى الأمور على حسب علمه .
يقبل التوبة عن عباده	يعفو عن عباده بقبوله التوبة منهم .
ويستجيب الذين آمنوا	إذا دعاه المؤمنون استجاب لدعائهم ، وأعطاهم ما طلبوا .
ولو بسط الله الرزق لعباده	ولو أغناهم جميعاً .
لبغوا فى الأرض	لظلم هذا ذاك ، لأن الغنىَ داع إلى الظلم والبطر .
ينزّل بقدر ما يشاء	ينزل الرزق بقدر ما يريد .
خبير بصير	خبير بأحوالهم ، محيط بما خفى منها وما ظهر .

مجمل المعنى

١ — إن النعيم فى روضات الجنات التى أعدها الله لعباده المؤمنين ، هى الفضل الكبير ، ذلك هو الذى يبشر الله به عباده المؤمنين الصالحين ، فقل

يا محمد لقريش : إنى لا أسألكم على هذا الدين الذى يكفل لكم سعادة الدارين أجراً ، ولكنى أسألكم أن تودونى ، ولا تجافونى وتقاطعونى ، لقرابتى منكم ؛ هذا حق عليكم؛ ومن يعمل حسنة،أو يكتسب طاعة ، فإن الله يضاعفها له أضعافاً من الحسنات ، وإن الله عظيم المغفرة لمن أذنب ثم تاب وأناب ، شكور للمؤمن، فيوفيه ثواب طاعته مضاعفاً ، تفضلا منه وكرماً .

٢ — أيقول المشركون من قريش : إن هذا القرآن ليس من عند الله ، ولكن محمداً افتراه على الله كذباً ؟! إن افتراءك الكذب على الله مُستبعد ، لأنه لو كان ما تبلغه من القرآن عن الله افتراء ، لاستطاع الله عدم صدوره عنك ، فاقتضت مشيئته أن يختم على قلبك ، بحيث لا يخطر ببالك أى معنى من معانيه ، ولا تستطيع أن تنطق بحرف من حروفه، ولكن ذلك لم يحصل ، وتواتر الوحى عليك حيناً فحيناً ، فثبت أن القرآن من عند الله ؛ والله سبحانه وتعالى يمحو الباطل ، ويزيل الشرك والضلال ، ويثبت الإيمان والإسلام ، ويقيم الحق بما أنزل عليك من كلامه ، إنه يعلم ما يُكن صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمور على حسب ما يعلم ، فيجازيهم على جحودهم ، ويثبت دينك ، وينصرك عليهم ؛ وكلمة « يمح » ليست معطوفة على « يختم »، وإنما حذف حرف العلة من آخرها ، كما حذف من « يَدع » فى قوله فى سورة الإسراء : « وَيدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير »، على حسب ما رسم فى المصاحف.

٣ — وهو الذى يقبل من عباده المؤمنين توبتهم، إذا تابوا إليه وأنابوا ، وشعروا بالندم والحسرة على ما فعلوا ، وعزموا ألا يعودوا إلى معصية ، ويحط عنهم الأوزار ، ويغفر لهم ما ارتكبوا من الذنوب ، ويعلم ما ترتكبون من

المعاصى ، وما تقدمون من التوبة ، وما تفعلون من الخير والشر .

٤ — ويستجيب دعاء المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات ، وهى ملازمة للإيمان ، وأثر من آثاره ، فيجيبهم إلى ما طلبوا ، ويتفضل عليهم فيزيدهم على ما سألوه ، والكافرون لا يقبل توبتهم ، ولا يستجيب دعاءهم ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد .

٥ — لقد قسم الله الرزق بين عباده على حسب ما تقتضيه مصالح الأفراد والمجتمع ، حتى يتم التعاون ، ويقوم دولاب الحياة على نظام ؛ ولو وسّع عليهم جميعاً فى الرزق ، وجعلهم كلهم أغنياء ، لشعر كلٌّ منهم بالأشر والبطر ، وتحركت فى نفوسهم عوامل البغى والظلم ، فتعالى كلٌّ على أخيه ، وبغى بعضهم على بعض ، لأن الغنَى يبطر النفس ، ويملؤها علوا واستكباراً ؛ ومن الخير للناس أن تتفاوت أرزاقهم ، كما تتفاوت عقولهم وجهودهم وشخصياتهم ، فيعمل كل منهم بما وهب له من طاقة ووسيلة واستعداد ، فهذا بماله ، وهذا بجهده ، وذاك باستعداده ، وبهذا يقوم بناء الحياة من جميع النواحى ، ويشعر كل إنسان بحاجته إلى غيره ، فلا يأشر ولا يَبطر ، ولا يتوانى ولا يفتر ، ولا يتعالى ولا يتجبر ، لذلك يقدر الله الأرزاق ، وينزلها على حسب مايشاء ، فيفقر ويغنى ، ويعطى ويمنع ؛ ولو أغنى الناس جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا ، وما نراه من الثراء وَبسط الرزق لبعض الباغين ، فذلك من القلة فى مجتمع الإنسانية الكبير ، وسرعان ما يذهب المال كما تذهب القوة فى عواصف البغى ، وجبروت الظلم ؛ إن الله عليم بأحوال الناس ، خبير بما يصلح من شأنهم ، محيط بخفايا أمورهم وظواهرها ، فيقدر لكل منهم من الرزق بقدر ما تقتضيه حكمته ، من أجل سعادة الأفراد والمجتمع .

(٥)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥ من سورة الشورى

وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ —١— وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ —٢— وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ —٣— . وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ —٤— . أَوْ يُوبِقْهُنَّ : بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ، وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا : مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الغيث	المطر .
من بعد ما قنطوا	من بعدمايئسوا ، وانقطع رجاؤهم فى الغوث والإنقاذ .

الألفاظ	شرحها
وينشر رحمته	ويوزع فى الأرض بركات الغيث ومنافعه ، وما يحصل به من الخصب .
وهو الولىّ الحميد	وهو الذى يتولى عباده بإحسانه ، فيحمده أهل طاعته حمداً كثيراً .
وما بث فيهما من دابّة	وما فرّق فى السموات والأرض من دواب مختلفة الأشكال والأحجام.
جمعهم	جمعهم يوم القيامة .
فبما كسبت أيديكم	فبسبب ذنب فعلتموه ، فتعاقبون عليه.
وما أنتم بمعجزين	وما أنتم بفائتين ومفلتين من العقاب ، ولن تعجزوا الله فى أى مكان فى الأرض.
الجوار فى البحر كالأعلام	السفن الجارية فى البحر ، كأنها لعظمها جبال عالية .
يسكن الريح	يجعلها ساكنة لا تتحرك .
فيظللن رواكد	فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجرى.
يوبقهن بما كسبوا	يهلكهن بما عليها من سلع وأرواح ، بسبب ما ارتكبوا من السيئات .
يجادلون فى آياتنا	يعارضون ويخاصمون لدفع آياتنا وإبطالها.
محيص	فرار ومهرب وملجأ .

مجمل المعنى

١ — ومن أبهر الدلائل على قدرة الله ، وعظيم مننه ، أنه يصرف الرياح ، ويزجى السحاب ، وينزل المطر على البلد الميت ، والمكان الجدب ، بعد أن يشتد

القحط بأهله ، ويملأ اليأس نفوسهم ، فلا أمل لهم فى ماء يُروى الظمأ ، أو ينبت الزرع ، أو يخرج الثمر ، فإذا رحمته تنشر غمائمها على العباد ، فيسقط المطر ، وتخصب الأرض ، وينمو الزرع ، وتدب الحياة فى الحيوان والنبات ، وإذا اليأس يعود أملا ، والموت ينقلب حياة ، والسكون تحل محله الحركة ، برحمة الله الذى يتولى عباده بإحسانه ، فيحمده المؤمنون على سابغ نعمه ، وعظيم فضله .

٢ — ومن أبدع الدلائل على تفرده بالقدرة والوحدانية ، هذا الكون العجيب الذي خلقه فأبدع خلقه ، وهذا الملكوت : ملكوت السموات والأرض ، الذى أوجده فى أروع صنعة ، وأعظم إحكام ودقة ، كواكب ونجوم وأفلاك لا يُحصيها عدد ، ولا يستوعب تصورها عقل ، وقد خلق فيها من الأحياء ، ونشر فيها من الدواب أنواعاً وأشكالا وألواناً ، وهيأ فى بعضها من الأجواء والبيئات والبحار والأنهار ، ما جعلها صالحة لحياة الدواب ، وعيشة الأحياء ؛ أليس الخالق لهذا الكون قادراً على أن يبعث الموتى من قبورهم ، وأن يعيد إليهم الحياة كما بدأها أول مرة ، وأن يجمعهم يوم القيامة ليحاسب المكلفين على ما قدمت أيديهم ، ويوفى كلاًّ حسابه . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ؛ وفى هذا دليل على أن بعض الكواكب المعبر عنها بالسموات مسكونة .

٣ — هذا الخالق القادر ، زود الإنسان بالعقل ، وألزمه التكليف ، وجعله مسئولا عما يعمل ، وهداه طريق الخير ، وطريق الشر ، فإن ساقه عقله ، وأمرته نفسه أن يمضى فى طريق الخير ، فقد حمد العاقبة ، وانتهى إلى خير غاية ، وإن أضله عقله ، وسولت له نفسه أن يمضى فى طريق الشر ، فقد أساء العاقبة ، وانتهى إلى شرّ غاية ؛ ومن أجل هذا فلا ياومن الناس

إلا نفوسهم على كل سوء يصيبهم ، لأن كل ما يحل بهم من ألم أو غم أو مكروه ، إنما يرجع إلى سوء أعمالهم ؛ ولو ساروا على ما نهج لهم الدين ، لما أصابهم ما أصابهم ، على أنهم لو انكشفت عنهم حجب الغيب ، وفكروا فيما صدر منهم من عمل ، وما دار فى نفوسهم من خواطر منبعثة عن الفساد والشر ، لهالهم ما فعلوا ، وخجلوا مما رأوا ، لكن رحمة الله لا تتركهم ، فيعفو عن كثير من سيئاتهم ، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ، ما ترك عليها من دابة ، وليس لعاقل أن يرتكب السيئة ظاناً أن الله لا يراه ، أو يأخذه غرور فيجترئ على المعاصى ، ظاناً أن قدرة الله لا تمتد إليه ؛ إن هذا الإنسان الضعيف فى ملكوت الله القوى ، لا يستطيع أن يفلت من قبضة الله ، سواء اعتصم بجبل ، أم غاص فى بحر ، أم طار فى جو ؛ إنه لن يعجز الله ، ولن يفوته دَرْكُه ، فليراقب كل إنسان ربه فى عمله ، وليخش جانب الله وحده ، وليس لكم أيها الناس ولىّ غير الله يتولاكم برحمته ، ونصير يدفع عنكم العذاب إذا حل بكم .

٤ — ومن دلائل قدرته تلك الوسائل التى يزاولها الناس فى معيشتهم ، دون أن يتدبروا أمرها ، ويفكروا فى أحوالها ، وهى السفن العظيمة التى تسوقها الريح فتمخر العباب ، وتجرى فى البحر كأنها الأطواد الشامخة ، والجبال العالية ، فتصل أطراف اليابسة ، وتربط أجزاء المعمورة ، وينتقل الناس عليها من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى بلد ، يتبادلون المنافع ، ويتعاوضون السلع والمتاجر ، إنها آية من آيات الله ، ومنة من منه على عباده ، ولو شاء لأمر الريح أن تسكن ، فتركد معها السفن على ظهر اليمّ ، فلا تتحرك ولا تنتقل ، فتنقطع صلات الناس ، ولا يتعاونون ولا يتزاورون ؛ إن فيما يتفضل الله به على عباده من مثل تلك النعم ، لآيات تحمل كل

من وقع به بلاء، أن يكون كثير الصبر ،أو نالته نعماء ، أن يكون عظيم الشكر .

٥ — وكان — لولا فضل الله ولطفه — ممكناً أن يهلك تلك السفن ، ويغرقها بمن عليها من ناس ، وما فيها من سلع ، ويبتلعها البحر ، ويلتقمها اليم ، عقاباً لهم على ما اجترحوا من سيئات ، وهو إن فعل ذلك فقد عفا عن كثير من السيئات ، وليس فى انتقامه منهم ظلم لهم ، فجزاء سيئة سيئة مثلها؛ وليعلم الذين يخاصمون فى الآيات الدالة على قدرة الله،أنهم لامفر لهم من عقابه ، ولا مهرب لهم من ملكوته .

(٦)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٦ من سورة الشورى

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ –١– . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ –٢– . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ –٣– . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ –٤– . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ –٥– . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ، وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ –٦– . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ –٧– . وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ : هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ –٨– . وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا : إِنَّ الْخَاسِرِينَ

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ —٩— . وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فما أوتيتم من شىء	فما آتاكم الله من شىء ترغبون فيه ، وتحبون أن تنالوه فى الدنيا .
فمتاع الحياة الدنيا	فهو ما تتمتعون به فى الدنيا مدة حياتكم ، وهو متاع زائل .
وَما عند الله خيرٌ وأبقى	وما يدخره الله للمؤمنين المحسنين من ثواب الآخرة ، خير من هذا المتاع وأبقى .
كبائر الإثم والفواحش	الشرك والذنوب القبيحة الشنيعة ، كالقتل والزنى .
هم يَغفرون	يحلمون و يتجاوزون عن إساءة من ظلمهم .
وأقاموا الصلاةَ	أدوها فى أوقاتها ، بشروطها وهيئاتها .
وأمرُهم شُورى بينهم	يتشاورون فى أمورهم ، ولا يستبد أحد منهم برأى .
إذا أصابهمُ البغى هم ينتصرون	إذا وقع عليهم ظلم ردوه على ظالمهم ، وانتصروا لأنفسهم ممن بغى عليهم .
وأصْلحَ	وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو .
فأجره على الله	إن الله يأجرُه على ذلك .

الألفاظ	شرحها
انتصر بعد ظلمه	انتقم ممن ظلمه
ما عليهم من سبيل	لا لوم عليهم .
إنما السبيل على الذين يظلمون الناس	إنما اللوم على الذين يبدءون الناس بالظلم .
ولمن صبر وغفر	وإن الذى صبر على الأذى، وعفا عن ظالمه ، وترك الانتصار عليه لوجه الله .
لمن عزم الأمور	لمن الأمور التى تستوجب عزماً وسيطرة على النفس.
فما له من ولى من بعده	فما له من أحد يتولى هدايته من بعد إضلال الله له.
هل إلى مرد من سبيل	هل من طريق إلى العودة إلى الدنيا لنؤمن بالله ؟ .
يعرضون عليها خاشعين	يعرضون على النار متضائلين فى إنكسار وذل .
ينظرون من طرف خفى	يسارقون النظر من شدة الخوف ، ولا يرفعون أبصارهم ، لأنهم ناكسو الرءوس من الذل .
عذاب مقيم	عذاب دائم لا ينقطع .
أولياء	أعواناً ونصراء .

مجمل المعنى

١ — أنفق أبو بكر الصديق جميع ماله فى سبيل الله ، فلامه الناس، فنزل قوله تعالى « فما أوتيتم من شىء . . . » الآية ؛ والمعنى : أن ما آتاكم الله من شىء من الغنى والنعمة فى الدنيا ، فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، ينقضى ويذهب ، فلا ينبغى أن يحرص المؤمنون على بقائه ، أو ييأسوا على ذهابه ، وأما ما أنفقتموه فى ثواب الله وطاعته ، فهو خير من متاع الدنيا ، وأبقى للذين آمنوا بربهم ،

فبذلوا فى سبيله نفوسهم وأموالهم ، وفوّضوا إليه أمورهم ، واعتمدوا عليه فى جميع أحوالهم ، فلم يحرصوا على مال ، ولم يخافوا فقراً .

٢ — وما عند الله من ثواب الآخرة أيضاً ، خير للذين لم يقترفوا السيئات ، فاجتنبوا كبائر الإثم كالشرك بالله ، والذنوب البالغة فى القبح غاية الشناعة والفحش ، كالقتل والزنى ، وإذا ما غضبوا لم يُتبعوا غضبهم أذى وتنكيلاً ، وانتقاماً وتعذيباً ، ممن غضبوا عليهم ، لكنهم يملكون نفوسهم عند الغضب ، فيتجاوزون عن سيئاتهم ، ويصفحون عنهم ، ويحلُمون عليهم ؛ يفعلون ذلك طلباً لثواب الله ؛ إن ضبط النفس ، وكظم الغيظ ، والعفو عن المسىء ، لمن أنبل الصفات التى تجعل صاحبها فى مقدمة المؤمنين حقّاً ، المستحقين لثواب الله وإكرامه .

٣ — ومن أولئك المؤمنين الذين رضى الله عنهم وأثابهم ، أولئك الذين دعاهم محمد صلى الله عليه وسلم للإيمان بالله ، فاستجابوا لدعوته ، وآمنوا بربهم ، فأدوا الصلاة فى أوقاتها بجميع شروطها وهيئاتها أداء حسناً ، فأصلحتْ طباعهم ، وهذبت نفوسهم ، وانتهوا عن الفحشاء والمنكر ، وجعلوا الشورى أساس الرأى الذى يُجمعون عليه ، والعمل الذى يعملونه ، فساروا فى حياتهم على ضوء الفكر السليم ، والعمل الصحيح الواضح . وساد بينهم الوفاق ، واحترام الفرد ، واتحدت كلمتهم ، أسوة بنبيهم الذى كان يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بالحروب ، وأنفقوا الأموال فى سبيل الخير : فى الجهاد ، وسد حاجة المحتاج ؛ وقد رسم الله لعباده فى هذه الآية سعادة الفرد والجماعة ، وجعلها فى الإيمان ، والعبادة التى أهم مظاهرها إقامة الصلاة على أكمل وجوهها ، وفى اتباع المشورة فى الرأى والعمل ، وفى بذل المال فى الخير .

٤ — وقد ادخر الله حسن الثواب لعباده المؤمنين ، الذين لا يقبلون الظلم ، ولا يحتملون الضيم ، لأنه يحب لهم أن يكونوا أعزاء ، يكرمون أنفسهم كما كرمهم الله ، فإذا اعتدى عليهم معتد ، أو وقع عليهم بغى ، أو نالهم ظلم من ظالم ، لم يستسلموا لظلمه ، وانتصروا من ظالمهم ، ودفعوا البغى عن أنفسهم .

٥ — ولا سبيل على من يدرأ الظلم عن نفسه ، لأن الله يكره الذليل المستضعف ، كما يكره الظالم الباغى على الناس بغير الحق ، ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، وحقك على من أساء إليك أن تسىء إليه بقدر إساءته ، فلا تشتط فى الإساءة ، ولا تتجاوز الحد ، لأن الله يكره المغالين فى الانتقام ، كما يكره البادئين بالظلم ؛ وإن آنست القدرة على من بغى عليك ، وكنت قادراً تمام القدرة على رد إساءته بمثلها ، فعفوت عنه ، وأصلحت ما بينك وبينه بالمودة والعفو ، كان ذلك خيراً عند الله وأكرم ، وإن الله يأجرُك على عفوك عن قدرة منك أجراً عظيما ، وهو لا يحب الذين يبدءون الناس بظلم ، أو يبالغون فى الانتصار والانتقام .

٦ — وإن المظلوم الذى يأخذ حقه من ظالمه ، ويدرأ الشر بشر مماثل له ، بعد أن يكون وقع عليه الظلم ابتداء ، لا لوم عليه ولا عقاب ، ولا حجة لأحد عليه فيما فعل ؛ إنما اللوم والعقاب والحجة على الذين يبتدئون الناس بالظلم ، ويبغون عليهم بغير حق ، ويتكبرون على الناس ، ويعيثون فى الأرض فساداً وتجبراً ، أو ينتقمون فيجاوزون الحد ، أولئك سيعذبهم الله يوم القيامة عذاباً أليماً على هذا الظلم والبغى .

٧ — وإن من صبر على أذي الظالم ، وهو قادر على أن ينتصر عليه ، وصفح عنه ولم ينتصر ، وفوض أمره إلى الله — على ألا يكون صبره عن ضعف ، ولا تسامحه عن خوف — كان صبره وصفحه من أجلّ الصفات ، وأعظم

الخصال التى تدل على كرمٍ ما بعده كرم، وضبط للنفس لا يقوى عليه إلا ذو عزم ، وتصدقٍ على الظالم بالصبر ، وإفضالٍ عليه بالعفو .

٨ — هذا ما يريد الله لكم أن تكونوا عليه : الإيمان به ، والمودة فى القربى ، والتصديق بالبعث ، والانتصار بعد الظلم ، وإيثار الصبر ، والعفو عن قدرة ، فإن اتبعتموه سعدتم فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تتبعوه شقيتم ؛ ومن يُضلله الله عن اتباع ما أمر به ، ويخذله فلا يوفقه إلى طريق الهدى والرشاد ، فليس له من ناصر يتولاه بعد أن يخذله الله ، وسترى الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وتكذيب ما أنزل الله عليك يا محمد من كتاب ، وبالبغى والفساد فى الأرض ، حينما يرون يوم القيامة نار جهنم التى أعدت لعذابهم رأى العين ، يقولون فى تمنٍّ وحسرة : هل هناك طريق لرجوعنا إلى الدنيا ، فنصدق بما كنا كذبناه ، ونؤمن بما كفرنا به ؟ وهيهات هيهات ! !

٩ — وتراهم فى هذا اليوم بعد تجبرهم وعنادهم ، وكفرهم بالله فى الدنيا ، يعرَضون على النار وهم خاشعون خائفون ، متذللون متضائلون مما دهاهم ، يسارقون النظر إليها ، ولا تكاد أطرافهم تنفتح حتى تغمض ، ورءوسهم منكسة كمن قضى عليه بالقتل ، وهو يسارق النظر إلى بريق السيف ، فينخلع قلبه فى كل نظرة ، ويشتد كمده فى كل غمضة ، ولقد عرف المؤمنون يوم القيامة عاقبة أمر هؤلاء الظالمين ، فقالوا : إنهم هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم ، فقدموها طعمة للنار ، وخسروا أهليهم ، لأنهم إما أن يكونوا فى الجنة فلا يروهم إلى الأبد ، وإما أن يكونوا فى النار فيزدادوا

ببعدهم عنهم عذاباً وغماً . ألا إن الظالمين مقيمون فى العذاب لا يزحزحون عنه أبداً .

١٠ — وليس لهؤلاء الكافرين والبغاة الظالمين من يتولاهم وينصرهم ، وينجيهم من عذاب الله ، كما كانوا يزعمون فى الدنيا ، لأنه لا سبيل إلى نجاة من يخذله الله ويضله .

(٧)

من الآية ٤٧ من سورة الشورى ، إلى آخر السورة

ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ —١— . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ كَفُورٌ —٢— . لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ —٣— . وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ —٤— . وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ ، وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ : صِرَاطِ

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
استجيبوا لربكم	أجيبوا ربكم إلى ما دعاكم إليه من الإيمان .
لا مَرد له من الله	لا يرده الله بعد ما قضاه وحكم به .
ما لكم من ملجأ يومئذ	ليس لكم مخلص من العذاب .
وما لكم من نكير	ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه .
حَفيظاً	رقيباً .
إنْ عليك إلا البلاغ	ليس عليك إلا تبليغ الرسالة ، وقد فعلت .
بما قدمت أيديهم	بما اكتسبوا من المعاصى .
أو يزوجهم	أو يقرن بين الصنفين ، فيهب لمن يشاء ذكوراً وإناثاً معاً .
عَقيما	لا تلد .
وَحياً	إلهاماً ، كأن ينفث فى رُوعه ، أو برؤيا المنام ، والروع : القلب .
من وَرَاء حجاب	يسمع كلاماً من الله دون أن يراه .
رَسولاً	مَلكاً .
بإذنه	بأمره .
عليّ حكيم	قاهر لايمانَع ، حكيم فى أقواله وأفعاله لايعارَض.

الألفاظ	شرحها
أوحينا إليك روحاً من أمرنا	أرسلنا إليك بالوحى جبريل يبلغك أمرنا .
ما الكتاب ولا الإيمان	ما القرآن وما شرائع الإيمان ؟ .
لتهدى إلى صراط مستقيم	لتدعو إلى الإسلام .

مجمل المعنى

١ — أجيبوا ربكم إلى ما دعاكم إليه ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأقيموا الحدود والشرائع التى شرعها لكم ، حتى تُنَجُّوا أنفسكم من العذاب ، قبل أن تموتوا على كفركم ، ويأتى يوم القيامة الذى قضاه الله ولا رادّ له فيما قضاه ، فهو آت لا ريب فيه ، ولن يكون لكم ملجأ من الله ، أو مخلص من عذابه ، ولا تستطيعون أن تنكروا ما اقترفتم من سيئات ، وما كنتم عليه من كفر بالله ، وقد أُحصى عليكم ، ودوّن فى صحائفكم ، ولا يمكن أن تمحى .

٢ — فإن أصروا على الكفر ، وأعرضوا عن الإيمان الذى دعوتهم عليه ، فلا بأس عليك ، ولا تأسَ على كفرهم وضلالهم ، فما أرسلناك رقيباً عليهم ، وألزمناك بإيمانهم ، وإنما أرسلناك لتنذرهم ، ولم نوجب عليك إلا تبليغهم رسالة ربك ، وقد فعلت ، ونحن الذين خلقنا هذا الإنسان ، ونعلم طبائعه وجحوده وكفرانه ، ونعلم أنا إذا أوليناه رحمة منا ، وغمرناه بفيض برّنا ولطفنا ، فوهبنا له النعم والسعة فى الرزق ، والأمن والصحة وصفاء البال ، فرح بذلك وبطر ، ولم يحمد لنا ما أعطيناه ، ولم يشكر لنا ما أوليناه ،

وإن أصابته شدة بسبب معاصيه ، واعوجاج حياته ، وسوء سلوكه ، كمرض أو فقر أو خوف ، نسى ما منحناه من نعم ، ونسب إلينا ما أصابه من نقم ، وليس هذا غريباً منه ، فإنه ممعن فى الكفر بالنعم ، ينسى الإحسان ، ويذكر المصائب ، ولا يبحث عن أسبابها .

٣ — وبعد أن ذكر المولى جل وعلا أنه يذيق الناس الرحمة ، ويصيبهم بالشدة ، أتبع ذلك بأنه لا ينبغى للإنسان أن يغترّ بما ملكه من مال وجاه ، فإن ما يملكه لا يساوى مثقال ذرة فى ملكوت الله ، فهو مالك السموات والأرض وحده ، وهو الذى يتصرف فيهما كيف يشاء ، على حسب ما تقتضيه حكمته ، لا على حسب ما يريد الناس ، ومن جملة ذلك خلق الأولاد ، فهو الذى يصورهم فى الأرحام كيف يشاء ، ويهب ما يشاء لمن يشاء ، فيهب لبعض الناس إناثاً من الأولاد ، ويهب لبعضهم ذكوراً منهم ، دون أن يجرى على رغبة أحد فى النوع الذى يريده ؛ أو يقرن الذكور والإناث ويهبهم معاً للبعض ، وربما يجعل المرأة أو الرجل كليهما عقيماً لا يولد له ولد ، فلا يهب له شيئاً من ذكور أو إناث ، إنه واسع العلم ، عظيم القدرة ، فيفعل كل ما فيه حكمة ومصلحة .

٤ — قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيًّا فكلِّم الله وانظر إليه ، كما كلمه موسى ونظر إليه ، وإنا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك ، فقال لهم : إن موسى لم ينظر إلى الله ، ولن يستطيع ذلك ، لأن ذات الله غير محدودة بحدود ، وليس لها جِرم ، وليست هى من المرئيات حتى يستطيع بشر أن يراها ، وتأخذ عدسة العين صورتها ، كما تأخذ صور الأشياء ، وقد طلب موسى ذلك من ربه فلم يجبه إليه ، قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولا يصح لبشر أن يسمع كلام الله إلا بإحدى الطرق الآتية :

ا — أن يوحى إليه بما يريد ، ويلهمه إياه إلهاماً ، فيقذفه فى قلبه ، ويلقيه فى رُوعه ، كما قذف فى قلب إبراهيم عليه السلام ذبح ولده ، وكما ألهم الله أم موسى أن تضعه فى التابوت ، وتلقيه فى اليم .

ب — أو أن يسمع كلام الله دون أن يراه ، كما سمع موسى كلام ربه ، وناجاه وهو بجانب الطور .

حـ — أو أن يرسل الله إلى نبيه ملكاً فيوحى إليه ما يأمره به ، ويبلغه بإذنه ما يشاء أن يبلغه ، كما كان ينزل جبريل فى معظم الأحيان على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بوحى الله إليه .

وإن الله جلت قدرته متعال عن صفات المخلوقات ، قادر لا يمانَع ، يفعل ما يريد بمقتضى حكمته الواسعة ، فيكلم أنبياءه بواسطة ملك أو بإلهام ، أو يخاطبهم من غير واسطة أو إلهام .

٥ — ومثل الوحى الذى أنزلناه على الأنبياء من قبلك بالحالة التى أردناها ، أوحينا إليك أيضاً ، فأرسلنا إليك جبريل بأمرنا ووحينا الذى أردنا أن يبلغه لك ، وينزل به عليك ، فأوحى إليك بالقرآن مشتملا على الوعد والوعيد ، والحدود والأحكام ، وفصلنا لك شرائع الإيمان وطرقه ، فعلمت ما لم تكن تعلم ، وما كنت قبل أن نوحى إليك تعلم شيئاً عن القرآن ، وعن شرائع الإيمان وتفصيلاته ، من حيث وجوب اعتقادك بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وغير ذلك ، فاهتديت بوحينا ، واتبعت طريق الرشاد بأمرنا ، وقد جعلنا الوحى والكتاب والإيمان نوراً نهدى به من نريد هدايته من عبادنا ، بالتوفيق إلى قبوله واتباعه ، والاهتداء به ، وإنك يا محمد خير من

يهْدى الناس إلى صراط الله المستقيم وهو الإسلام، ويُبين لهم مافيه من الشرائع والأحكام ، صراط الله الذى رسمه لعباده ، والطريق الذى اختطه لسعادتهم ، وهو مالك السموات والأرض ، يدبر أمرهما وفق الحكمة والمصلحة ، وإليه ترجع كل الأمور .

سُورة الزُّخْرُف

نزلت بمكة ، ما عدا الآية ٥٤ فإنها نزلت بالمدينة ، وآياتها ٨٩ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١)

من أول السورة إلى الآية ١٤

حمٓ —١— . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ —٢— . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ —٣— . وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ، وَمَضَى مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ —٤— . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ؟ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ —٥— . ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ —٦— وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ، فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ —٧— . وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ،

ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا ! وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
والكتاب المبين	أقسم بالقرآن المبين لطريق الهدى .
لعلكم تعقلون	لكى تفهموا معانيه .
فى أم الكتاب لدينا	فى اللوح المحفوظ عندنا .
لعلىّ حكيم	لرفيع القدر بين الكتب المنزلة ، وفى أعلى طبقات البلاغة ، وذو حكمة بالغة تهدى إلى الحق .
أفنضرب عنكم الذكر صفحاً	أفنترك تذكيركم وتخويفكم ، عفواً عن إجرامكم ؟ .
أن كنتم قوماً مسرفين	من أجل أنكم كنتم قوماً مفرطين فى الجهالة ، مجاوزين الحد فى الضلالة .
وكم أرسلنا من نبى	وكثير من الأنبياء أرسلناهم .
فى الأولين	فى الأمم المتقدمة .
أشد منهم بطشاً	قوماً أشد من هؤلاء المسرفين قوة وأتباعاً .
وَمضى مثل الأولين	وسلف فى القرآن قصة المتقدمين من الأمم ، التى سارت سير المثل .
مَهداً	مهدها وجعلها موضع استقرار لكم .
سُبلاً	طرقاً تسلكونها حيث أردتم .

الألفاظ	شرحها
لعلكم تهتدون	لتهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم.
بقدر	بمقدار ما تقتضيه حاجتكم ومعيشتكم .
فأنشرنا به بلدة ميتا	فأحيينا بالماء بلدة مقفرة من النبات.
الأزواج كلها	الأصناف كلها : من الصيف والشتاء ، والليل والنهار ، والذكر والأنثى ، والحلو والمر ، وغير ذلك.
استويتم عليه	ركبتم واستعليتم عليه .
سخر لنا هذا	ذلل لنا هذا المركوب ، وأخضعه لنا .
مقرنين	مطيقين .
لمنقلبون	لراجعون .

مجمل المعنى

١ — هذان حرفان : الحاء والميم ، من حروف الهجاء العربية ، تألف منهما ومن نظائرهما القرآن العربى المبين ، بأسلوب يعجز عن الإتيان بمثله جميع البشر ، ليفحم المعاندين ، وينبه الغافلين ، ويهدى الضالين .

٢ — نقسم بالكتاب المبين لطرق الهدى والرشاد ، أننا أنزلناه قرآناً عربيًّا بلسانكم الذى تفهمونه ، لتدركوا معانيه ، وتتدبروا آياته ، وتعقلوه وتحيطوا بما فيه من حكم وعظات ، وآيات بالغات ، وشرائع وأحكام ، وأنه مُثبت عندنا فى اللوح المحفوظ ، فى مقام كريم ، ومنزلة عالية ، بين الكتب المنزلة ، وفى أعلى درجات البيان والبلاغة ، وأنه ذو حكمة بالغة ، يهدى إلى طريق الرشاد ، محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٣ — ولقد أنزلنا هذا القرآن بلغتكم رحمة بكم ، حتى لا نكلفكم الإيمان بما لا تفهمون ، والاعتقاد بما لا تعرفون ، فهل نترك تذكيركم وتخويفكم عذابنا ، من أجل أنكم قوم مفرطون فى الكفر والضلال ، مغرقون فى الشرك والجهالة ؟ إن رحمتنا بكم تدعو ألا نأخذكم بإسرافكم فى الجهل والشرك ، فأنذرناكم وذكرناكم .

٤ — ولستَ أول نبىّ سخر منه قومه يا محمد ، واستهزءوا بدعوته ، فقد أرسلنا رسلا كثيرين فى الأمم المتقدمة ، والقرون الماضية ، فكذبتهم أممهم ، وسخر منهم قومهم ، فإن كان مشركو قريش يتعالون ويتكبرون ، ويعاندون ويخاصمون ، فقد أهلكنا أمماً سابقة كانت أعظم من قريش قوة ، وأكثر مالا وأتباعاً ، وأشد بطشاً وعُتوًّا ، وقد مضى ذكر هؤلاء الأمم فى القرآن ، وسلفت قصصهم ، وسارت على تعاقب الأجيال ، وتتابع الأزمان ، سير الأمثال ؛ فلتحذر قريش أن يحل بها مثل ماحل بالأولين المكذبين لرسلهم من العقوبة .

٥ — عجيب أمر هؤلاء المشركين ؛ لئن سألتهم : مَن الذى خلق السموات والأرض ، وأودع فيها دلائل القدرة ، وآيات الوحدانية ؟ لقالوا : إن الذى خلقهن الله العزيز الذى لا يُغلب ، البالغ الحكمة والإبداع فى خلقه ، ثم هم مع ذلك يعبدون الأصنام ، ويشركون بعبادة الله أوثاناً لاتسمع ولاتعقل .

٦ — كيف تشركون بالله الذى أفاض عليكم النعم ، وجعل آيات قدرته تحت أعينكم ظاهرة بينة ، فهو الذى مهد لكم الأرض التى تعيشون فيها ، وجعلها مستقرًّا لكم ، وذللها لمعيشتكم ، وجعل لكم فيها سُبلاً ، ومسالك وطرقاً ، تسلكونها فى أسفاركم ، وتنتقلون فيها لتسعوا فى أرزاقكم ، وتجمعوا مادة حياتكم ، ولتهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم .

٧ — وكما ذلل لكم الأرض ، وجعل لكم فيها سبلا ، أخضع السحاب والغيث لمشيئته ، وصرّفها وفق مصلحة عباده ، فأنزل الماء من السماء مقدراً على

حسب احتياج الناس ، وبقدر منافعهم ، ولو شاء لجعله طوفاناً يهلك الحرث والنسل ، ويأتى على الأخضر واليابس ، فأحيا بهذا الماء الأرض القاحلة المجدبة ، فأنبتت وأمرعت ، وأخرجت الزرع والحب ، والزهر والثمر ، وكما بعث الحياة فى الأرض المجدبة ، والبذرة الجافة ، بالماء الذى أنزله من السحاب ، فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فهو قادر على أن يخرجكم من قبوركم ، ويحييكم بعد موتكم .

٨ — ولم تنته قدرته عند تذليل الأرض ، وإزجاء السحاب ، وإنزال المطر ، وإحياء الأرض ، ولكنه جعل مخلوقاته أزواجاً وأصنافا ، ليتم التكامل والتكافل ، والتعاون والتناسل ، وتستكمل الحياة كل العناصر اللازمة لنموها وبقائها ، فجعل الزمان أزواجاً : صيفاً وشتاء ، وليلا ونهاراً ، وجعل الأرض أزواجاً : جبالاً ووديانا ، وبراً وبحراً ، وجعل النبات أزواجاً ، والحياة أزواجاً ، لتدركوا باهر قدرته ، ولتعم رحمته ؛ وجعل السفن فى البحر ، والدواب فى البرّ ، مراكب تستقرون على ظهورها ، وتسخرونها فى معايشكم ، وتبلغون بها الأماكن القاصية ، وتذكرون حينما تركبونها وتصرفونها لخدمتكم ، نعمة الله عليكم ، إذ سخر لكم هذه المخلوقات ، وأخضعها لخدمتكم ، فتقولون : تنزه الله الذى ذلل لنا هذا الجنس من مخلوقاته ، فى الماء والبرّ والهواء ، وما كنا — لولا قدرته ، وبارع حكمته فى خلقه — بقادرين على استخدامها ، ولا مُطيقين لخدمتها ، فهو الذى وهب لنا العقول التى استخدمناها فى تسخير ما حولنا من قوى الطبيعة ، وأنواع الحيوان ؛ وإذا كانت هذه قدرة الله ، وهى ماثلة لنا فى كل ما يحيط بنا ، وفى كل ما يقوم بخدمتنا ، فلا بد أن نرجع إليه يوم القيامة ، وأن يعيدنا إلى الحياة ، ليحاسبنا على ما قدمت أيدينا .

(٢)

من الآية ١٥ إلى الآية ٢٥ من سورة الزخرف

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ —١— . أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ؟ —٢— . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ، ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ؛ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي ٱلْحِلْيَةِ ، وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ؟ —٣— . وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ إِنَاثًا ! أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ —٤— . وَقَالُوا : لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ —٥— . أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ ، فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ —٦— . بَلْ قَالُوا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ —٧— . وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ —٨— . قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ —٩— . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جزءاً	بعضاً .
وأصفاكم بالبنين	واختصكم وأخلصكم بالبنين
بما ضرب للرحمن مثلاً	بولادة ما جعله مثلاً للمولى ، وهو البنت .
ظل وْجهه مُسوداً	صار وجهه مسوداً من الغم والغيظ .
كظيم	حزين .
أوَ مَن ينشأ فى الحلية	أينسب إلى الله البنات اللائى يربَّين فى الحلية والزينة ؟ .
وهو فى الخصام غير مُبين	ولا يستطيع أن يجادل ويُدلى بالحجة بينة ظاهرة .
أشهدوا خلقهم	أحضروا عند ما خلقهم الله وشاهدوهم ، حتى يحكموا أنهم إناث لا ذكور ؟
ستكتب شهادتهم ويسألون	ستكتب عليهم شهادتهم فى صحائف أعمالهم ، ويطالبون يوم القيامة بإثباتها .
ما لهم بذلك من عِلْم	ليس لهم بقولهم : إن الملائكة إناث ، علم ولا معرفة .
يخرُصون	يختلقون ويكذبون .
أم آتيناهم كتاباً من قبله	أو أنزلنا عليهم كتاباً من السماء قبل أن ينزل القرآن ، وقلنا لهم فيه : إن الملائكة إناث ؟ .
فهم به مستمسكون	فهم مستمسكون بالعمل بما جاءهم فيه .
على أمة	على دين ومذهب .
وإنا على آثارهم مهتدون	وإنا نهتدى بهم .

شرحها	الألفاظ
نبيّ .	نذير
متنعموها ، وهم الذين أبطرتهم النعمة .	مُترفوها
أتتبعون آباءكم ، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟	أوَلو جئتكم بأهدى

مجمل المعنى

١ — ومع اعتراف المشركين من العرب حين تسألهم ، بأن الله خالق السموات والأرض ، فإنهم قد ناقضوا أنفسهم بهذا القول ، وأظهروا أن هذا القول منهم لم يكن عن اعتقاد وإيمان ، إذ جعلوا له من عباده الذين خلقهم جزءاً ، ونسبوا إليه بعضاً ، فقالوا : إن الملائكة بناته ، مع أن مُوجد هذا الكون لا يتصور فى العقل أن يكون له شريك فى الملك ، أو يكون له بنت أو ولد ؛ إنّ كلّ من يقول هذا القول من الناس لعظيم الجحود لنعمة الله ، ممعن فى الكفر ، مظهر للشرك فى أبشع حالة .

٢ — هل قسَّم بينكم وبينه الخلق أيها المشركون ، فجعل لنفسه البنات ، وآثركم واختصكم بالبنين ؟ وإذا كنتم تفضلون البنين على البنات ، فكيف حكمتم أن أدنى النوعين لله ، وأعلاهما لكم ؟ وعلى أى أساس جعلتم لأنفسكم أشرف النوعين ، وجعلتم لله أخسهما ؟ إن قولكم هذا لا يعتمد على حقيقة ، بل على افتنان فى الكذب ، ليبين ما صرتم إليه من ضلال الفكر ، وسخافة الرأى .

٣ — على أن قولهم ذلك يحمل فى تضاعيفه أقبح كذب ، وأسخف رأى ، لأن

أحدهم إذا أُخبر بولادة ما جعله مثلا للرحمن، ملأ الغمّ قلبه ، واسودّ وجهه، كأنه أصيب بأفدح الكوارث ، وأفجع المصائب ، وصار كئيباً حزيناً ، فكيف يسوِّغ له حمقه أن يزعم أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ؟ ولمَ جعل المشركون البنات لله، وهن يربَّيْن فى الزينة، ويُنشَّأن فى الحلْية ، ولا يَقْوَين على كفاح، ولا يدفعن حجة بالجدال والخصام ؟ وجعلوا لأنفسهم الأبناء الذين يقومون بالسعى والكدّ، ويتولَّوْن الدفاع والذود عن الحمى ، ويُدْلون بالحجة الدامغة دون خوف أو رهبة ؛ إن هذا الزعم ما كان ينبغى أن يخطر ببال إنسان له مُسكة من عقل ؛ وفى هذه الآية إشارة إلى أن الرجل لا يليق به التزين .

٤ — لقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، فكيف يكونون عبيداً لله وهم بناته ؟ ومن قال لهم : إن الملائكة إناث ؟ ومن يكون ذكورهم ؟ وكيف تكون الإناث لا ذكران لها ؟ هل أحضرهم الله يوم خلق الملائكة ، فعرفوا أنهم إناث ؟ وهل رأوهم وخالطوهم ، حتى يحكموا عليهم بالأنوثة أو الذكورة؟ إن هذا الافتراء الفاضح ، والسخف الفظيع ، سيسجل عليهم فى اللوح المحفوظ ، وسيسألون عنه يوم الحساب، وسيلقون جزاءهم على هذا الافتراء؛ سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يدريكم أنهم إناث ؟ فقالوا : سمعنا ذلك من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا .

٥ — ولقد افتنُّوا فنّاً آخر من كفرهم ، فقالوا : إن عبادتنا للملائكة كانت بمشيئة الله ، وإن ما يصدر بمشيئة الله من عبيده يكون الله راضياً عنه ، ونظير هذا قوله فى سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا » ، (تراجع الصفحة ٣٨ من تفسير الجزء الثامن) ، لقد قالوا ذلك عن جهل ، وليس لهم سند يستندون إليه ، إنما هم يهرفون بما لا يعرفون،

ويحدسون ويتقوّاون ، ويتمحلون الباطل ويكذبون .

٦ — هل أنزلنا عليهم كتاباً من السماء ، قبل أن ننزل القرآن ، وقلنا لهم : إن الملائكة الذين هم عبادنا إناث ، فهم مستمسكون بالعمل بما جاءهم فيه ؟ لم نُنزل عليهم كتاباً كهذا ، فكيف اختلقوا هذه الفرية علينا ؟

٧ — بل قالوا حين عجزوا عن الإتيان بحجة تنهض دليلاً على ما هم عليه من ضلال وبهتان : ليس لدينا الحجة على صحة ما نعتقد ، غير أننا وجدنا آباءنا على هذا الدين والاعتقاد ، ومهما كان فيه من أضاليل وأباطيل ، فلن نغيره إلى دين غيره ، إننا ندين كما كانت آباؤنا تدين ، ونفعل مثل ما فعلوا ، ونعتقد ما اعتقدوا ؛ فاعترفوا بأنهم يقلدون آباءهم تقليداً أعمى من غير تفكير ، وألغوا عقولهم ، ومضوا على سيرتهم ، واهتدوا بآثارهم .

٨ — ولم يكن إغفال العقل ، وترك الفكر والنظر ، والاستمساك بالتقليد الأعمى ، هو حالة المشركين من قريش فقط ، ولكنه حالة الأوّلين أيضاً ، فلم نرسل قبلك إلى أهل قرية من القرى نبيا ينذرهم ، ويخوفهم عاقبة كفرهم وضلالهم ، إلا قال المترفون الذين صرفهم التنعم وحب البطالة ، إلى تعطيل العقل والنظر ، وإلى الاستمساك بالتقليد الذى هو داء قديم فى الأمم ، وليس لهم سند غيره : إنا مقلدون لآبائنا ، مقتدون بآثارهم ؛ والحق أن التقليد من آفات الأمم ، وسبب ضلالها ، وجمود الفكر ، وانقطاع الاجتهاد ، وركود الرأى فيها ، والوقوف عند القديم مما أخر كثيراً من الأمم ، وأضعف قوتها ، وأفسد عقولها .

٩ — قال كل نبى لمن أرسل إليهم من الأمم التى ركدت عقولها ، وجمد تفكيرها ، واستمسكت بتقليد من سبقوها : أتبقَوْن على التقليد ، وتستمرون على الضلال ، ولا تتزحزحون عن دين آبائكم ، ولو كان الدين الذى جئتكم

به أهدى إليكم ، ينير لكم الطريق إلى الهدى ، ويسلك بكم سبيل الخير؟ لقد أعمى الضلال بصائرهم ، وران الجهل على عقولهم ، فقالوا : لن نترك دين آبائنا إلى دينكم ، وإن كان هادياً إلى الخير ، ومرشداً إلى الحق ، إننا بدينكم الذى جئتمونا به كافرون .

١٠— إن الأمم إذا أعماها الضلال عن التفكير ، ودرجت على إلف ما ورثت من العَماية والغَواية ، لا رجاء فى إصلاحها ، ولا أمل فى تقويمها ، ومن الخير استئصالها ، والقضاء عليها ، وكذلك فعلنا بأمثالهم ، انتقمنا منهم فأهلكناهم ودمَّرناهم ، فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين من الأمم لرسلهم ؛ فلا تكترث يا محمد بمن يكذبونك من قريش ، فسننصرك عليهم ، ويظهر دينك على الأديان كلها ، رغم أنوف المعاندين .

(٣)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٥ من سورة الزخرف

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ –١– . بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ، حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ، وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا : هٰذَا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ –٢– . وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ! –٣– . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ –٤– . وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا ، وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إنني بَراء مما تعبدون	إنني برىء من عبادتكم ومعبوداتكم .
إلا الذى فطرنى	غير الذى خلقنى .
وجعلها كلمة باقية فى عقبه	وجعل كلمة التوحيد باقية فيمن يأتى بعده من ذريته .
لعلهم يرجعون	رجاء أن يرجع إليها ويؤمن بها من أشرك منهم .
بل متعت هؤلاء	لكنى متعت من بقى على الشرك من هؤلاء المعاصرين لك .
جاءهم الحق	جاءهم القرآن ودين الإسلام .
لولا نزل هذا القرآن	هلا َنزل هذا القرآن ! .
القريتين	مكة والطائف .
أهم َيقسمون رحمة رَبك	أهم يقسمون رحمة ربك ، فيوزعون النبوة كما يشاءون ؟
ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًّا	ليصرِّف بعضهم بعضاً فى مصالحهم ، ويسخروهم فى أعمالهم .
مما يجمعون	مما يجمعون من حطام الدنيا الزائل .
ولولا أن يكون الناس أمة واحدة .	ولولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا ، وتركهم الآخرة ، لأعطيناهم منها ما يشاءون ، لهوانها علينا .
ومعارج عليها يظهرون	ومصاعد يرتقون عليها إلى السطوح ، والطبقات العليا فى الصروح .

الألفاظ	شرحها
وزخرفاً	وزينة .
وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا	وما كل ما ذكر من البيوت التى وصفناها ، إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة .

مجمل المعنى

١ — واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين المتمسكين بدين آبائهم ، المقلدين لهم تقليداً أعمى ، وقت قول إبراهيم لأبيه آزر وقومه ، الذين كانوا يتخذون الأصنام آلهة : إننى برىء من عبادتكم ومن معبوداتكم ، فإن إبراهيم لم يقلد أباه وقومه ، وإذا كان لا بد لكم من التقليد ، فأولى بكم — وهو أشرف آبائكم — أن تقلدوه فى طلب الاستدلال والبرهان على أحقية ما تعبدون ، لا أن تظلوا مستمسكين بالضلال القديم ، وقال لهم إبراهيم بعد أن تبرأ من عبادة الأصنام التى كان يعبدها أبوه وقومه : لكنى أعبد الله الذى خلقنى ، فإنه سيثبتنى تثبيتاً على دين الحق ، ويرشدنى دائماً إلى طريق الخير ، وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التى يدل عليها قوله : « إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى » ، كلمة ثابتة باقية فى عقبه ، ووصى بها ذريته التى تأتى من بعده ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ، ويدعو إلى توحيده ، رجاء أن يرجع إلى هذه الكلمة ، ويؤمن بها المشركون منهم ، فيؤمنوا بها ويتبعوها .

٢ — لكن رجاء إبراهيم لم يحققه كثير من ذريته ، فاستحبوا الضلالة على الهدى ، وآثروا الشرك على التوحيد ، هؤلاء هم مشركو مكة ، الذين دعاهم محمد فلم يستجيبوا له ، فتركهم الله وأمهلهم ، كما ترك آباءهم وأمهلهم ،

ومتعهم بنعيم الدنيا الزائل ، فغرتهم الدنيا ، وانهمكوا فى شهواتها ، حتى أنزل إليهم الكتاب الحق ، وجاءهم بالقرآن والإسلام ، وبعث فيهم رسولا واضح الرسالة ، ظاهر الدين والشريعة ، مبيناً للتوحيد بالآيات البينات ، والحجج الدامغات ، موضحاً لهم سبل الخير والإيمان ؛ فلما جاءهم هذا القرآن منزلا من عند الله ، على محمد صلى الله عليه وسلم ، ينبههم إلى غفلتهم ، ويهديهم من ضلالتهم ، ويدعوهم إلى توحيد الله ، واتباع شريعته ، كفروا به وكذبوه ، واستهانوا به ، وقالوا : ما هذا الذى جاء به محمد قرآناً من عند الله ، ولكنه سحر مُفترى ، وإنا به لكافرون .

٣ — وقالوا : لم يبق إلا محمد ، هذا الفقير اليتيم ، الذى كان يرعى الغنم ، ويعمل فى التجارة لبنت خُويلد ، ليبعثه الله رسولاً إلى العرب ، فلو أن الله أراد أن يبعث رسولا ، وينزل قرآنا ، لما أنزله عليه ؛ هلا اختار الله لرسالته رجلا ذا جاه وسلطان وثراء ، فأنزل عليه هذا القرآن بدل ابن عبد الله ، وهو الذى ليس له جاه ولا سلطان ولا ثراء ! هلا اختار لذلك أحد العظيمين فى القريتين : مكة والطائف ، فلهما من شرف السيادة والرياسة ، وواسع الثراء والنفوذ ما لهما ! وعظيم مكة الذى يريدون ، قالوا : إنه الوليد بن المغيرة عم أبى جهل ، وعظيم الطائف الذى يريدون ، قالوا : — إنه أبو مسعود ، عروة بن مسعود الثقفى ؛ لقد زعموا أن الرسالة منصب جليل ، لا يليق به إلا صاحب البطش والمال والجاه ، ولم يدروا أنها رتبة روحانية ، لا يرقى إليها إلا الذين زكت نفوسهم ، وتحلَّوا بالفضائل ، وتأيدوا بقوة الله وحده ، وتجردوا من مطامع الدنيا ومغانمها ، وتغلبوا على الشهوات بقوة رُوحهم ، وسموِّ غايتهم ، وصفاء نفوسهم .

٤ — هل لهؤلاء الذين رأوا أن تكون النبوة لهذا ولا تكون لذاك ، أن يقسموا النبوة

بين الناس ، ويضعوها حيث شاءوا ؟ وإذا كنا نحن قسمنا بينهم أسباب معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ووزعنا عليهم أرزاقهم فيها ، فجعلنا بعضهم فقيراً ، وبعضهم غنيا ، على حسب ما تقتضيه المصلحة العامة بين الناس ، وفق حكمتنا ومشيئتنا ، ولم نفوض أمرها إليهم ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، وجعلناهم متفاوتين فى الرزق والجاه ، والسلطان والذكاء ، وغير ذلك ، ليستخدم بعضهم بعضاً فى أمور الحياة ، فيقوم بينهم تعاون وتكافل ، يؤدى إلى انتظام دولاب الحياة من جميع نواحيها ، فالغنى بماله ، والفقير بجهده ، والعالم بعلمه ، وهكذا — إذا كان الله قسم بينهم الأرزاق التى تقوم عليها حياتهم هم ، لأنهم عاجزون عن تدبيرها ، فمن أين لهم أن يدبروا أمر النبوة ، وأن يتخيروا من بين الناس مَن يصلح لها ؟ وإن النبوة التى اختصك الله بها ، ورحمته التى هيأك لها ، من هداية البشر بك ، وانتظام حياتهم باتباع دينك ، لخير لك مما يجمعون من المال ، وما يحرصون عليه من الجاه والسلطان .

٥ — وإن حطام الدنيا وترف الحياة ، لشىء تافه إلى جانب ما عند الله من النعيم فى الآخرة ؛ ولولا أن مصلحة الناس جميعاً لا تتحقق إذا جعلناهم جماعة واحدة ، وأمة واحدة ، فأوسعنا عليهم جميعاً فى الرزق ، وأعطيناهم من حطام الدنيا ما يشتهون ، لأغدقنا عليهم المال ، ولكان مظهر احتقارنا لنعيم الدنيا وزينتها ، أن نعطى الكافرين بالله ذى الرحمة والمنة — وهم شر الخلائق وأدناهم منزلة — قصوراً عالية ، وجعلنا سقفها وسلالمها التى يصعدون فيها إلى طبقاتها العليا وسطوحها ، من الفضة ، وأوثقناها بالأبواب المحكمة ، وجمعنا فيها كل فخم بهيج من أنواع الأثاث والرياش ، ونضدنا فيها السرر والأرائك التى يتكئون عليها ، وينامون فيها ، وأتحفنا كل ذلك

بجميع أنواع الزخرف والزينة — ونحن إن فعلنا ذلك لا نعطيهم إلا شيئاً تافهاً حقيراً ، لأن كل هذا الذى وصفناه ما هو إلا متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، وهو متاع زائل لا يُغنى عن صاحبه شيئاً ، والتمتع به إلى حين ، وهو ليس شيئاً يذكر بجانب نعيم الآخرة ، التى أعدها الله لعباده المتقين ، فينبغى أن يحرص المؤمنون عليه ، وأن يعلموا أن العظيم الذى يختار للنبوة ، هو العظيم فى الآخرة ، لا فى الدنيا كما يتوهمون .

(٤)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٥ من سورة الزخرف

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ، فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ -١- . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ -٢- . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا ، قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ! فَبِئْسَ الْقَرِينُ ! -٣- . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ -٤- . أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ، وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؟ -٥- . فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ -٦- . فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ -٧- . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ -٨- . وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ -٩- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن يعشُ عن ذكر الرحمن	ومن يتعام عن القرآن الذى نَزَل هدى ورحمة للعالمين .
نقيِّضْ له شيطاناً	نسلط عليه شيطاناً .
فهو له قرين	فهو ملازم له فى الدنيا ، يغويه ويزين له فعل المعاصى .
وإنهم ليصُدُّونهم عن السبيل	وإن الشياطين ليمنعون المتعامين عن النظر فى كتاب الله ، وعن سبيل الهدى والإيمان .
حتى إذا جاءنا	حتى إذا بعثناه يوم القيامة للحساب والعذاب .
بُعدَ المشْرقَيْن	بعد ما بين المشرق والمغرب ، والتثنية للتغليب ، كالأبوين للأب والأم .
فبئس القرين	فبئس الصاحب أنت !
ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم	ولن ينفعكم — ضالين ومضلين — يوم القيامة إذ أشركتم فى الدنيا .
أنكم فى العذاب مشتركون	اشتراككم فى العذاب ، فلن يخفِّف عنكم منه شيئاً ، فلكل منكم النصيب الأوفر منه .
أفأنت تسمع الصُّمَّ أوْ تهدى العُمْىَ	ليس لك أن تهديهم ، فلا يضق صدرك بكفرهم .
فإما نذهبن بك	فإن قبضناك وفارقت الدنيا قبل أن نريك عذابهم ؛ أدغمت إن الشرطية فى « ما » الزائدة .
أو نرينك الذى وعدناهم	أو إن أردنا أن نريك فى حياتك بعض ما أنذرناهم إياه من العذاب .

الألفاظ	شرحها
فاستمسك بالذى أوحى إليك	فاستمسك بالقرآن وإن كذب به من كذب .
صراط مستقيم	طريق يوصلك إلى ثواب الله ورضاه .
وإنه لذكر لك ولقومك	وإن القرآن لشرف لك ولمن عمل به من أمتك .
واسأل من أرسلنا من قبلك	واسأل المؤمنين ممن كانوا يدينون بالتوراة والإنجيل .

مجمل المعنى

١ — ومن يتجاهل ويتعامَ عن ذكر القرآن ، وتدبر آياته وتفهم معانيه ، وينصرف عن العمل ، نهيئ له شيطاناً نسلطه عليه ، فيضله ويغويه ، ونجعله له صاحباً وقريناً ، يلازمه ملازمة ظله ، وبذلك نكون قد جعلنا له نوعاً آخر من العقوبة فى الدنيا ، وهو مضاعفة سيئاته ، حتى يزداد عقابه فى الآخرة .

٢ — وإن الشياطين ليضلون هؤلاء العابثين المتعامين عن سبيل الهدى والفوز ، ويميلون بهم عن الحق ، ويظن المتعامون أن الشياطين سائرون بهم فى طريق الهداية ، ماضون على صراط الحق ، فيسيرون وراءهم ويتبعونهم .

٣ — ولا يزال الشياطين يغوونهم ، والمخدوعون يجرون وراءهم ، حتى يأتى يوم القيامة ، ويبعث كل عاص وشيطانه ، فيرى ما كان عليه من ضلال وباطل ، وما أعد له من عذاب ، فيقول متمنياً ما لا يكون : يا ليت الدنيا كانت فرقت بينى وبينك ، وباعدت بيننا بعد المشرق من المغرب ، فبئس الصاحب أنت ! لقد جلبت علىّ الويلات ، وجررتنى إلى تلك المصائب والنكبات .

٤ – إن هذا التمنى لا يخفف عنكم الشقاء ، ولايدفع عنكم البلاء ، ولن ينفعكم اليوم : يوم الآخرة ما تبدون من ندم ، وما تقدمون من اعتذارات ، بعد إذ ظلمتم أنفسكم – شياطين وعاصين – فى الدنيا ، فهؤلاء أضاوكم ، وأنتم اتبعتموهم ، ولا يخفف عنكم اشتراككم فى العذاب ، فكل منكم سيأخذ منه أكبر نصيب ؛ هذه حكاية حالهم يوم القيامة ، والمقالة التى تقال لهم ، وهى مقالة قطعت عليهم الأمل فى تخفيف العذاب ، وفى الأمل معين على الاحتمال ، ولكن لات حين أمل .

٥ – وكانت قريش تسمع ما تسمع من وصف حال الكفار يوم القيامة ، وما ينتظرهم من عذاب ، فلا تزداد إلا عتوا واعتراضاً ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحرص على هداهم وإيمانهم ، فيشق على نفسه إصرارهم على الكفر ، فنزل قوله تعالى : « أفأنت تسمع الصم ... » الآية ، تسلية له ، لكيلا يحرص على إيمانهم ، فليس ذلك مطلوباً منه ؛ إن الله خلق الحواس للناس لينتفعوا بها ، لكن هؤلاء لم يستعملوا حواسهم ، صموا آذانهم عن دعوتك ، وأغمضوا عيونهم عن النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله ، فلم يتدبروا قدرته ووحدانيته ، وعطلوا عقولهم فلم تفكر ، فصاروا صمّا عُمياً ، حيارى ضالين ضلالا بيناً ظاهراً ، فلا يمكنك أن تُسمعهم أو تهديهم ، فدع ذلك لله تعالى ، يتصرف فيهم بما يشاء .

٦ – ولا بد أن نريك ما يحل بهم من عقاب ، فإن زايلت الدنيا ، وفارقت الحياة ، قبل أن ننصرك عليهم ، فإنا منتقمون منهم فى الآخرة انتقاماً شديداً ، أو إن أردنا أن نريك فى حياتك شيئاً من العذاب الذى وعدناهم به ، فسيحل بهم ، ولن يُفلتوا منه ، لأنهم فى قبضتنا ، ونحن عليهم مقتدرون ؛ ولقد حقق الله وعده ، فأصابهم ما أصابهم من القتل والتنكيل وسلب الأموال يوم بدر .

٧ — فاثبت على دعوتك ، ولا تحد عنها ، وتمسك بالقرآن الذى أوحينا به إليك ، سواء أكذبوك أم صدقوك ، وسواء أعجلنا عقابهم فى الدنيا أم أخرناه إلى يوم القيامة ، لأنك متبع الصراط المستقيم ، وماض فى طريق الحق الذى لا عوج له .

٨ — وإن هذا القرآن الذى أنزلناه هدى للناس ، وأمرناك أن تستمسك به ، لشرف لك ولمن اتبعك من المؤمنين وعمل به ، شرف لك لأن الله اصطفاك لهداية الخلق من بين العالمين ، وأنزل عليك هذا الكتاب ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وشرف لقومك لأنه نزل بلغتهم ، وعلى رجل منهم ، ونظير هذا قوله تعالى : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم » ، (تراجع الفقرة الثامنة من الصفحة الثامنة من تفسير الجزء السابع عشر) .

٩ — وما لهؤلاء المشركين يجادلون فى وحدانية الله ، ويصرون على أن لله شريكاً ، وأن له ولداً ؟ من أين جاءتهم هذه الأباطيل ؟ فلديك من اتبعك من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، الذين أرسلنا إليهم رسلنا قبلك ، فاسألهم : هل ورد فى الكتب التى أنزلناها عليهم ذكر لآلهة يعبدون غير الله ؟ إن جميع الأنبياء والمرسلين دعوا إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وجميع الكتب السماوية ليس فيها إلا الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ، وها هى ذى لديكم فافحصوا عنها ، فإنكم لا تجدون عبادة الأوثان قد وردت قط فى ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام .

(٥)

من الآية ٤٦ إلى الآية ٥٦ من سورة الزخرف

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَقَالَ : إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ –١– . وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ –٢– . وَقَالُوا : يَاأَيُّهَا السَّاحِرُ ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ –٣– . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ، وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ، وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ، وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ؟ –٥– . فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ! –٦– . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ –٧– . فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ؛ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ –٨– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وملئه	وقومه .
بآياتنا	بمعجزاتنا .
لعلهم يرجعون	لعلهم يتوبون عن المعاصى ، ويرجعون عن الكفر .
بما عَهِد عندك	بعهده عندك من أنك نبى ، ومستجاب الدعوة ، أو بكشف العذاب عمن اهتدى .
إننا لمهتدون	إننا لمؤمنون .
ينكثون	ينقضون العهد بالإيمان ، ولا يفُون به .
تجرى من تحتى	تجرى من تحت قصورى .
أفلا تبصرون	أفلا ترون ملكى وفقر موسى ، وقوتى وضعفه ؟ .
أم أنا خيرٌ	بل أنا خير .
مَهين	حقير ضعيف .
ولا يكاد يبين	ولا يكاد يظهر الكلام ، لأن فى لسانه عقدة .
فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب	فهلا كان متسماً بسمات الشرف والسيادة ، فألقيت عليه أسورة من ذهب ! والأسورة : جمع سوار .
مقترنين	يقترن بعضهم ببعض ، يمشون وراءه فى حاشيته متتابعين .
فاستخف قومه	استولى على عقولهم ، واستفزهم بالكلام ، واستجهلهم .

الألفاظ	شرحها
فاسقين	خارجين عن دين الله وطاعته .
فلما آسفونا انتقمنا منهم	فلما أغضبونا بالإفراط فى المعاصى ، استوجبوا عقابنا ، واستعجلوا انتقامنا .
سلفاً ومثلاً فى الآخرين	حديثاً سالفاً ، وقصة تذكر للعبرة ، وأصبحوا يضرب بهم المثل لمن يأتى بعدهم من الأمم .

قصة سيدنا موسى

تقرأ قصة عن موسى وفرعون فى الأجزاء السابقة :

تفسير الجزء الأول : الآيات ٤٧ — ٧٤ من سورة البقرة ، وتفسير الجزء التاسع : الآيات ١٠٣ — ١٥٥ من سورة الأعراف ، وتفسير الجزء الحادى عشر : الآيات ٧٥ — ٩٣ من سورة يونس ، وتفسير الجزء السادس عشر : الآيات ٩ — ٩٩ من سورة طه ، وتفسير الجزء التاسع عشر : الآيات ١٠ — ٦٨ من سورة الشعراء ، وتفسير الجزء العشرين : الآيات ٧ — ٤٢ من سورة القصص .

مجمل المعنى

١ — لما قالت قريش : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، تحقيراً من شأن محمد حين بعث إليهم رسولاً ، وأنزل عليه القرآن لهدايتهم ، قص الله عليه قصة فرعون تسلية له ، بأن ما قالته قريش فى محمد ، قد قال فرعون وقومه أشد منه فى موسى ، فحين أرسل الله موسى إلى فرعون ، ليدعوه

إلى عبادة الله وتوحيده ، ويبلغه بأنه مرسل إليه وإلى قومه من لدن رب العالمين ، وخالق الخلق ومربيهم ، ومالك الملك وموجده ، طالبه فرعون بالآيات التى تدل على أنه رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بها فاجئوه بالضحك ، استهزاء وسخرية بموسى ومعجزاته ، دون أن يتأملوها أو ينظروا فيها ، وقالوا : ليست هذه بمعجزات من عند الله ، ولكنها سحر ساحر عليم ، فعلوا ذلك أيضاً ليوهموا أتباعهم أن ما جاء به موسى ليس من آيات الله ، لكنه سحر وتخييل ، حتى لا يتبعوه .

٢ — وكانت الآيات التى جاءهم بها موسى من الآيات الباهرة ، فما كان موسى يريهم من آية إلا وهى فى روعة عظمتها ، وظهور دلالتها ، كأنها هى الوحيدة فى العظمة والروعة ، فتظهر كل آية حينما تعرض عليهم ، كأنها أكبر من أختها ، لكنهم لم يؤمنوا بها ، فأرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع ، وأصابهم بالجدب ونقص الثمرات ، لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم .

٣ — فلما عاينوا هذا العذاب ، قالوا لموسى : يأيها الساحر ، تعظيماً له — وكانوا يطلقون كلمة الساحر على العالم — : ادع لنا ربك بما عهد إليك فى أن يستجيب دعاءك ، فى كشف العذاب عنا ، إنا لمؤمنون بك ، مصدقون برسالتك .

٤ — فدعا موسى ربه أن يذهب عنهم العذاب ، فاستجاب دعاءه ، وكشف عنهم العذاب ، فأسرعوا بالارتداد عن دين موسى ، ونكثوا عهدهم ، ونقضوا أيمانهم .

٥ — فلما رأى فرعون معجزات موسى ، وما أنزل الله على قومه من العذاب ، وكيف كشفه عنهم بدعاء موسى ، خاف ميل القوم إليه ، وانحيازهم

نحوه ، فأسرع بجمع العظماء من قومه ، ووقف يخطبهم ويناديهم ، فقال لهم : يا قوم ، ألست مالك مصر ، وصاحب الأمر والنهى فيها ، لا ينازعنى منازع ، ولا يغالبنى مغالب؟ أليست أنهار النيل وفروعه تجرى من تحت قصورى ، بين جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ؟ أفلا تبصرون أيها القوم ملكى الواسع ، وجاهى العريض وسلطانى البعيد ، وقوّتى فيكم ؟ ثم ضعف موسى وفقره ، لا ملك له ولا جاه ، ولا سلطان ولا أتباع ؟ بل أنا بذاتى وشخصى فرعونُ ابن فرعون ، ربيب العز والنعمة والحكم ، فأنا خير من هذا الحقير الذى يمتهن نفسه ، ويسخرها للحصول على لقمة يسد بها جوعه ، وخرقة يستر بها بدنه ، وهو ليس خطيباً مفوّهاً ، ولا متكلماً فصيحاً ، كما ترونى أخطبكم بطلاقة وفصاحة ، فلا يكاد يفصح عما يريد ، ولا يكاد لسانه ينطلق بالكلام ، فهو عَيىّ معقود اللسان ، فكيف يجىء إلى بلادكم ، ويطلب منكم أن تتبعوه ، وتصيروا على دينه ؟

٦ — إننا إذا سوّدنا رجلا ألقينا إليه بمقاليد الملك ، وحليناه بأوسمة الشرف والرياسة ، وجريا وراء عادتنا ، نُلبسه أسورة من الذهب ، فهلا جاءكم هذا الذى يدعوكم إلى اتباعه ، وقد ألقيت عليه مقاليد الشرف والسيادة ، فرأيتم فى يده أسورة من ذهب ، وفى عنقه طوق من ذهب ! فكيف يريد أن يسودكم ، ويدعوكم إلى اتباعه ، وإدخالكم فى دينه ، دون أن تلقى عليه أسورة الذهب ؟ وإن فرضنا أن رب العالمين الذى يدعو إلى عبادته قد أرسله إليكم ، فلماذا لم يرسل معه حاشية من الملائكة يمشون وراءه صفاًّ صفّا ، مقترناً بعضهم ببعض ، ليكونوا أتباعه وأعوانه ، كما تمشى الحاشية خلف الملك المتوج ؟ فلا هو مُحلى بالذهب كما هو الحال فى أشرافنا ،

ولا هو مصحوب بحاشية من الملائكة حتى نصدقه ، ونعرف أنه رسول رب العالمين ، كما يقول لكم .

٧ — استولى فرعون بخطابته وخديعته على قومه ، واستجهلهم واستفزّهم ، واستخف عقولهم ، فأطاعوه ، وانقادوا إليه ، لأنهم كانوا قوماً خارجين على طاعة الله ، فأسرعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوىّ المبين .

٨ — لقد أرسل الله إليهم موسى بآيات بينات فكذبوه ، وقالوا لموسى : إننا لمؤمنون ، فادع الله أن يكشف عنا العذاب ، فلما دعاه وكشف عنهم العذاب ارتدوا ، ونكثوا ولم يؤمنوا ، ولما أضلهم فرعون وأغواهم ضلوا وَغوَوا ، فاغضبوا الله وأسخطوه عليهم ، فانتقم منهم بإغراقهم فى البحر أجمعين ، وأصبحوا قصة سالفة من قصص الأولين ، ومثلا يضرب للعبرة والعظة لمن جاء بعدهم من الأمم ، فلا تأس يا محمد إن كذب بك قومك وعصَوْك ، فسينتقم الله لك منهم ، كما انتقم من فرعون وقومه .

(٦)

من الآية ٥٧ إلى الآية ٦٧ من سورة الزخرف

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ -١- .
وَقَالُوا : أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ ، أَمْ هُوَ ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ،
بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ -٢- . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ،
وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ -٣- . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ
مَلَائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ -٤- . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ،
فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ، هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
الشَّيْطَانُ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ -٥- . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ
بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، فَاخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ
أَلِيمٍ -٧- . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ؟ -٨- . ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، إِلَّا
ٱلْمُتَّقِينَ -٩- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يصدُّون	يرتفع لهم ضجيج وَجلبة ، فرحاً وجذلاً .
أم هو	يقصدون عيسى عليه السلام.
ما ضربوه لك إلا جَدلاً	ما ضربوا هذا المثل إلا من أجل الخصام والجدل والمكابرة.
خَصِمون	شديدو الخصومة واللّجاج .
إن هو إلا عبد أنعمنا عليه	ليس المسيح إلا عبداً أنعمنا عليه بالنبوة ، وما هو بإله .
وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل	وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنى إسرائيل .
لجعلنا منكم ملائكة	لجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم .
فى الأرض	مستقرين فى الأرض ، كما جعلناهم مستقرين فى السماء .
فلا تمترُن بها	فلا تشكُّنَّ ، ولا تجادلُن وتخاصمن فى وقوعها.
صراط مستقيم	دين موصّل إلى الحق .
بالبينات	بالمعجزات .
بالحكمة	بالإنجيل .
هذا صراط مستقيم	هذا التوحيد طريق مستقيم ، لا يضل سالكه .
الأحزاب	الفرق المتحزبة .
بغتة	فجأة من غير توقع .
الأخِلاَّءُ	المتحابون فى أمور الدنيا .
يومئذ	يوم إذ تأتيهم الساعة .

جدل ومغالطة وصخب

لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » ، قال ابن الزبَعْرَى الشاعر لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه : أهذا لنا ولآلهتنا ، أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « هو لكم ولآلهتكم ، ولجميع الأمم » ، فقال ابن الزبعرى ، خصمتك ورب الكعبة ، أليس النصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عُزيرا ، وبعض العرب يعبدون الملائكة ؟ فإن كان هؤلاء فى النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرح به قومه وضحكوا ، وارتفعت أصواتهم ، فنزل قوله تعالى : « ولما ضرب ابن مريم مثلا ، إذا قومك منه يصدون . . . . » ، ونزل أيضاً قوله تعالى ردًّا على مغالطة ابن الزبعرى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون » ، أى أن المسيح وعزيرا والملائكة الذين عبدهم النصارى واليهود وبعض العرب ، لن يكونوا حصب جهنم ، لأن الحسنى من الله سبقت لهم .

مجمل المعنى

١ — ولما ضَرَب عبد الله ابن الزِّبَعْرَى عيسى ابن مريم مثلا ، فى أن النصارى تعبده ، فيجوز عليه وعلى النصارى الذين عبدوه ، ما يجوز على قريش وعلى أصنامهم التى يعبدونها من دون الله ، تصديقاً لقوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » ، إذا قومك قريش لما سمعوا هذا المثل منه ، يرتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحاً وضحكاً بما سمعوا منه ، وظنوا أنهم حاجُّوا محمداً وأفحموه .

٢ — وقالوا إتماماً للمثل الذى ضربوه بعيسى عليه السلام : أآلهتنا خير أم عيسى ؟ وإذا كان عيسى والنصارى الذين عبدوه حصب جهنم ، فلا بأس أن نكون مع آلهتنا أيضاً حصب جهنم ؛ إنهم ما ضربوا هذا المثل

إلا للجدل والغلبة فى القول ، والممارة فى الباطل ، لا لطلب التمييز بين الحق والباطل ، بل هم قوم شديدو الخصومة ، كثيرو اللجاج ، لأن الآية واضحة بينة فى أنها لم ترد معبوداً عاقلا كالمسيح وعزير ، لأن « ما » فى قوله تعالى : « وما تعبدون » تقع على غير العاقل من الأصنام ، على أن جعل هذه المعبودات حصب جهنم ، وإلقاءها فى النار ، الغرض منه تحقير شأنها ، وأنها لا تستطيع أن تدرأ العذاب عن نفسها .

٣ — وليس عيسى إلهاً ، وما قبل لنفسه أن يكون معبوداً ، وهو الذى حينما سئل من الله : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته » ، وما هو إلا عبد لله ، أنعم عليه بالنبوة ، كما أنعم على سائر الأنبياء بها ، وجعله آية لبنى إسرائيل ، وعبرة يُستدل بها على قدرة الله ، فإنه كان من غير أب ، وجعل له من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، ما لم يجعل لغيره فى أى زمان .

٤ — ولو تشاء قدرتنا لهبطنا بالملائكة من السماء ، وأسكناهم فى الأرض ، وجعلناهم بدلكم ، يخلفونكم فى الاستقرار فى الأرض ، وإقامة العمران بها ، فتعلمون أننا قادرون على كل شىء ، فكما جعلنا عيسى الذى ألهه النصارى عبداً من عبادنا ، كذلك نستطيع أن نهبط بالملائكة الذين ألهتموهم إلى الأرض ، ونغير من طبيعتهم ، فنجعلهم يعملون فيها ويعمرونها ، بدلا من إقامتهم فى السماء ، يسبحون الله ويذكرونه ذكراً كثيراً .

٥ — وإن الأمر ذا الشأن الخطير ، لَعِلم قيام الساعة ، ومعرفة يومها ، وهذا ما اختص الله بعلمه وحده ، فيجب أن تؤمنوا بها ، ولا تشكوا أو تجادلوا فيها ، واتبعوا هداى وشريعتى ، فإن هذا الذى أدعوكم إلى إتباعه هو الطريق

المستقيم ، الذى يوصلكم إلى الحق ، ويكفل لكم السعادة ؛ واحذروا أن يوسوس إليكم الشيطان ويغويكم ، ويصدكم عن اتباع الحق ، والتمسك بالشريعة السمحاء ، لأن الشيطان يضلكم ويغويكم ، وهو عدو لكم بيِّن العداوة ، يريد بكم الشر ، ولا يريد بكم الخير .

٦ — ولما جاء عيسى بالبينات والمعجزات ، من إحياء الموتى ، والإبراء من الأسقام ، والإخبار بكثير من الغيوب وغيرها ، قال : قد جئتكم بالإنجيل لأبيِّن لكم فيه حقيقة الذى تختلفون فيه من أحكام التوراة وأمور الدين ، فاتقوا الله واحذروا الشرك ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ، إن الله هو ربى وربكم لا رب سواه ، فاعبدوه وحده ، والذى أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ، هو الصراط المستقيم ، وطريق الحق الذى لا عوج فيه .

٧ — فاختلفت الفرق المتحزبة من بين النصارى بعد المسيح ، وهى فرق النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفت فى عيسى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعاقبة : هو الله ، وقالت الملكية هو ثالث ثلاثة أحدهم الله ، فويل للذين ظلموا وأشركوا بالله من يوم أليم عذابه .

٨ — ما ينظر الناس وهم فى اشتغالهم بأمور الدنيا إلا أن يفاجئهم قيام الساعة ، ويأتيهم بغتة وهم غافلون .

٩ — فى هذا اليوم لا ينفع خليل ولا صديق حميم ، بل ترى الأخلاء الذين كانت تجمع خُلتهم أمورُ الدنيا ، يوم تقوم الساعة ينقطع ما بينهم من خلّة ومحبة ، بل تنقلب خُلتهم إلى عداوة ، لأنها كانت قائمة على أسباب الدنيا ، التى جلبت لهم العذاب فى الآخرة ، إلا خُلة المتصادقين فى الله ، فإنها خلة باقية ، بل تزيد يوم القيامة ، لأنها كانت سبيل الثواب والخلود فى دار النعيم .

(٧)

من الآية ٦٨ إلى الآية ٨٠ من سورة الزخرف

يَا عِبَادِ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ —١—. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ —٢—. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ —٣—. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا تَأْكُلُونَ —٤—. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ —٥—. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ —٦—. وَنَادَوْا: يَا مَالِكُ، لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ —٧—. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ —٨—. أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا، فَإِنَّا مُبْرِمُونَ —٩—. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بَلَى! وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ —١٠—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لا خوف عليكم اليوم	لا خوف عليكم من العذاب يوم القيامة .
وأزواجكم	ونساؤكم المؤمنات .
تحبرون	تُسرون سروراً يظهر أثره على وجوهكم .
بصحاف من ذهب	بآنية من ذهب .
وتلذ الأعين	تستلذه الأعين ، وتقرُّ بمشاهدته .
وأنتم فيها خالدون	وأنتم ماكثون فيها على الدوام ، تتنعمون بنعيم لا زوال له .
بما كنتم تعملون	بالأعمال الصالحة التى عملتموها فى الدنيا .
المجرمين	الكفار .
لا يفتَّر عنهم	لا يخفف العذاب عنهم .
وهم فيه مبلسون	وهم فى العذاب آئسون من النجاة ، والخلاص منه .
كانوا هم الظالمين	كانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بتعريضها للعذاب .
مالك	خازن النار .
ليقض علينا ربك	سل ربك أن يقضى علينا بالموت ، لنستريح من هذا العذاب الأليم .
إنكم ماكثون	إنكم مقيمون فى العذاب أبدا ، لا خلاص لكم منه بموت أو بغيره .
لقد جئناكم بالحق	لقد جئناكم بالحق ، وهو إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

الألفاظ	شرحها
أم أبرموا أمراً	بل دبروا كيداً لمحمد ، ولكننا سنحبطه .
فإنا مبرمون	فإنا مدبرون لهم كيداً سيقع عليهم حتما .
سرهم	ما حدثوا به أنفسهم .
ونجواهم	ما يتحدثون به فيما بينهم ، ويخفونه عن غيرهم .
بلى	نحن نسمعها ونطلع عليها .
ورسلنا	وملائكتنا .

مجمل المعنى

١ — بيّن الله أن الأخلاء المتحابين فى أمور الدنيا وشهواتها ، سيأتون يوم القيامة وهم متعادون ، ثم حكى ما ينادى به المتقون المتحابون فى الله ، المتعاونون على البر والتقوى يوم القيامة ، فيتلطف الله بهم ، ويناديهم : « ياعبادى » ، إظهاراً لرحمته بهم ، وحنانه عليهم ، ويقول لهم : كونوا آمنين من الخوف ، مطمئنين بالا ، قريرين عيونا ، ولن يقع ما يكدر صفوكم ، أو يُقلق خاطركم ، أو يحزنكم ، فأنتم اليوم فى ضيافتى ، وفى ساحة رحمتى ، ونعيم جنتى .

٢ — أنتم الذين آمنوا بآياتنا وكتبنا ورسلنا واليوم الآخر ، وأخلصوا الإيمان ، وكانوا مسلمين صادقين ، فجازيناهم بما عملوا جنة وأمناً ، وسروراً ومُقاماً محموداً .

٣ — أمامكم الجنة مفتحة أبوابها لكم ، فادخلوها بسلام آمنين أنتم ونساؤكم المؤمنات ، تقيمون فيها دائماً محبورين مسرورين ، جذلين فرحين ، يبدو

السرور على وجوهكم ، ويترقرق البشر فى قسمات مُحياكم .

٤ — وقد أعد لهم فى الجنة كل ما لذ وطاب ، يطوف به عليهم غلمان صباح الوجوه ، بآنية وأكواب من ذهب ، وإذا كانت الصحاف والأكواب من ذهب ، فما الظن بما فيها من طعام شهى ، وشراب حلو لذيذ ؟ ففيها كل ما تشتهيه الأنفس ، من أثاث ورياش ومنازل ، وملاعب وبهجة وموسيقا ، وكل ما خطر وما لم يخطر ببال أحد من البشر ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفيها من المناظر الحسنة البهيجة ما يونق العين ، ويقر النظر ، ويسر الخاطر ، هى لكم أيها المتقون ، تحيون فيها دائماً ، وتنعمون بنعيمها ، وهذه الجنة هى حق لكم ، ومتاع لا ينقطع ، استحققتموها بتقواكم ، وورثكم الله إياها بأعمالكم الصالحة فى الحياة الدنيا ، لكم فيها فاكهة كثيرة الأنواع والأصناف والألوان ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، تأكلون منها كما تشاءون .

٥ — وكما أعد الله للمؤمنين المتقين هذا النعيم المقيم ، فقد أعد للكافرين المجرمين العذاب الأليم ، فى نار جهنم يمكثون فيها دائماً لا يخرجون ، لا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يتسرب إليهم أمل فى الخروج منها ، فهم فيها برجاء منقطع ، وأمل ذاهب ، آئسون من الرحمة ، قانطون من تخفيف العذاب .

٦ — ولم نقدر لهم هذا المصير المؤلم أشد الإيلام ظلماً لهم ، ولكنهم فى الدنيا ظلموا أنفسهم بالإغراق فى المعاصى ، وبالإصرار على الشرك ، فاستحقوا ما كتبنا عليهم من عذاب دائم .

٧ — ولما انقطع رجاؤهم فى تخفيف العذاب ، وأيسوا من الخلاص منه ، واشتد بهم الألم ، صرخوا مستغيثين مستجيرين ، ونادوا مالكا خازن جهنم ، والواقف على أبوابها ، والموكل بأهلها ، متوسلين إليه أن يدعو الله أن

يقضى عليهم بالموت ، ليستريحوا من العذاب ، فأجابهم بجملة مؤكدة من كلمتين اثنتين ، فيها القضاء على كل أمل لهم ، والحكم بعذابهم فى النار دائماً ، قال : إنكم ماكثون فى جهنم ، ولابثون فى العذاب أبداً ، فذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

٨ — يقول الله لهم بعد مقالتهم ، وإجابة مالك الإجابة القاطعة لهم : لقد جئناكم فى الدنيا بالكتب المنزلة ، وأرسلنا إليكم الرسل ، ولكنكم أعرضتم عن قبول الدين الحق كارهين له ، مشمئزين منه .

٩ — ثم انتقل الله من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية قريش على رسول الله ، حين استقر رأيهم على أن يُختار من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله ، فتضعف المطالبة بدمه ، فبيّن أنهم أبرموا فيما بينهم أمر قتله ؛ ألا فليدبروا ما شاءوا ، فإنا قد قضينا بأن نحبط تدبيرهم ، ونرد كيدهم إلى نحورهم ، ونكيد لهم كيداً لا يفلتون منه ، ولا ينجون من ويلاته .

١٠— بل هم يجتمعون ويتناجون فى أمر محمد ، ويأتمرون لإحكام جريمة الفتك به ، كما فعلوا فى دار الندوة ، يظنون أنا لا نسمع السر الذى تخفيه صدورهم ، ويجول بخواطرهم ، وأننا لا نسمع مناجاتهم التى يتهامسون بها بينهم ، بحيث لا يراهم ولا يسمعهم غيرهم وهم يتناجون ، بلى ! نحن نسمع السر والنجوى ، ونطلع على كل كيد وتدبير منهم ، وملائكتنا تسجل عليهم فى صحائفهم ما يقولون وما يفعلون .

(٨)

من الآية ٨١ من سورة الزخرف ، إلى آخر السورة

قُلْ : إِنْ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ ، فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَابِدِينَ —١— .
سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ! —٢— .
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ، حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ —٣— .
وَهُوَ ٱلَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلٰهٌ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ —٤— . وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ —٥— . وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ —٦— .
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللّٰهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ —٧— .
وَقِيلِهِ : يَا رَبِّ ، إِنَّ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ —٨— . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ، وَقُلْ : سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سُبحان	تنزه وتبرأ .
عما يصفون	عما يصفونه به ويتسبونه إليه ، من أن له ولداً .
فذرهم	فدعهم واتركهم .
يخوضوا ويلعبوا	يخوضوا فى الباطل ، ويلعبوا فى هذه الدنيا الفانية .
حتى يُلاقوا يومهم	حتى يجىء يومهم وهو يوم القيامة ، فيعرفوا الحقيقة عما قالوا وفعلوا .
وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله	وهو الذى استحق أن يعبد وحده ، وأن يكون إلهاً دون غيره فى السماء والأرض ، لتجلى آثار خلقه وقدرته فيهما .
وتبارك	تقدس وتكاثر خيره ، وعظمت بركاته .
وعنده علم الساعة	وعنده وحده العلم بالساعة التى تقوم فيها القيامة .
إلا من شهد بالحق	إلا من آمن بالله وحده ، ولم يشرك به شيئاً .
وهم يعلمون	وهم يشهدون ويؤمنون بالله عن علم وبصيرة وإيقان ، لا عن تقليد .
فأنى يؤفكون	فكيف يُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟ .
وقيله	وعنده علم قوله عليه السلام ، شاكياً إلى الله عدم إيمان الكفار .
فاصفح عنهم	فأعرض عن دعوتهم واتركهم .
وقل : سلام	وقل لهم : إنى تارككم ، ومنصرف عن مجادلتكم .
فسوف يعلمون	فسوف يعلمون ما يصيبهم يوم القيامة من عذاب ، جزاء عدم الإيمان .

مجمل المعنى

١ — قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنهم بنات الله ، ويعبدون المسيح ويزعمون أنه ابن الله : إننى أعلم بحقوق الله تعالى وواجبات تعظيمه ، فلو كان له ولد كما زعمتم ، لكنت أول العابدين لهذا الولد، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد ، لكنى على قوة يقين، وثبات إيمان ، بوحدانيته تعالى ، وأنه — تقدست صفاته — لا تجوز عليه الصفات التى تجوز على عباده ، فلا يلد ولا يولد .

٢ — تنزه الله تعالى وتبرأ ، وهو خالق السموات والأرض ، وآثار وحدانيته وجلائل قدرته ظاهرة ناطقة فيهما ،وربّ العرش القابض على زمام الملكوت ، والمدبر لأمر الكون ، تنزه سبحانه وتعالى عما يصفه المشركون من أن له ولدا ! !

٣ — فدعهم يا محمد يخوضوا فى الباطل كما يشاءون ، ويلعبوا فى الحياة الدنيا كما يحبون، فستنقضى الدنيا، وتقوم الساعة التى ليس فيها لهو ولا لعب ، ولا خوض فى الباطل ، وسيلاقون عذابهم وويلهم فى هذا اليوم ، كما وعدناهم به من قبل .

٤ — وهو الذى تدل آثار قدرته ، وتنطق دلائل ربوبيته فى السماء على أنه الواحد الأحد ، وفى الأرض على أنه الواحد الأحد ، وهو الذى خلقهما على نمط الحكمة التى لا يقدر عليها سواه ، وهو الذى يعلم ما كان وما يكون ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٥ — تعاظمت بركات الله ، وتكاثرت خيراته ، وتقدست صفاته ، خالق السموات والأرض ، وصاحب الأمر فيهما ، وهو وحده الذى يعلم متى

تقوم الساعة، ومتى يبعث الناس فيها، ليحاسبوا على أعمالهم التى اكتسبوها فى الدنيا ، وإليه وحده يرجعون ويقفون بين يديه ، ويقابلون وجهه الكريم .

٦ — إن المشركين يزعمون أن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله، سيكونون شفعاءهم عنده يوم القيامة ، وآلهتهم لا تملك شفاعة لأنفسهم ، حتى يشفعوا للمشركين معهم ، بل ستكون الآلهة حصب جهنم ، وسيكونون وقودا فيها مع الناس والحجارة ، إنما يأذن الله فى أن يشفع عنده لأولئك الذين آمنوا به ، وأقروا بوحدانيته ، عن علم ويقين .

٧ — وهؤلاء الذين يدعون أن لله شريكاً يعبد ، أو له ولد يولد، إن سألتهم عمن خلق السموات والأرض ، ليقولن : خلقهن الله العزيز العليم ، فكيف خلقهما وله شريك ؟ وكيف يصرف هؤلاء عن التوحيد والإيمان ، إلى الشرك وعبادة الأوثان ؟

٨ — وهو جل شأنه عنده علم قول رسوله شاكياً آسفاً : يارب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون بك، ولا يصدقون بوحدانيتك، مع ما أدليت لهم بالحجج والبينات على وحدانيتك ؛ وقيله بالجر ، معطوف على الساعة فى قوله : « وعنده علم الساعة » ، والمراد : أن الله عنده علم الساعة ، وعلم قول رسوله .

٩ — فأعرض يا محمد عن دعوتهم ، ولا ترج إيمانهم وهدايتهم، واتركهم ترك المفارق لهم ، وقل لهم : سلام وترك ومفارقة لكم، فسوف يعلمون ما يصيبهم يوم القيامة ، جزاء كفرهم وتكذيبهم لك .

سُورَةُ ٱلدُّخَانَ

نزلت بمكة ، وآياتها تسع وخمسون آية

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٦

حمٓ —١— . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ : رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ —٢— . فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ ، هٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، رَبَّنَا ، ٱكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ ، إِنَّا مُؤْمِنُونَ ، أَنَّى لَهُمُ ٱلذِّكْرَى ؟ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ، وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ —٣— . إِنَّا كَاشِفُو ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ، إِنَّكُمْ عَائِدُونَ —٤— . يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
والكتاب المبين	أقسم بالكتاب المنزل عليك ، الواضح فى بيانه ومعانيه ، وحججه وأحكامه .
إنا أنزلناه	إنا بدأنا إنزال القرآن
ليلة مُباركة	هى ليلة القدر .
مُنذرين	محذرين ومخوفين من العقاب .
فيها يُفرق كل أمر حكيم	فى هذه الليلة يفصل ويكتب كل أمر من أمور العباد ، كالأرزاق والآجال على حسب ما تقتضيه الحكمة .
أمراً من عندنا	أنزلنا القرآن آمرين باتباعه أمراً من لدنا .
إنا كنا مرسلين رحمة من ربك	إنا أرسلنا رسولنا رحمة للعالمين ، مبعوثاً من خالقهم ومربيهم .
موقنين	مقرين بما تقولون عن علم وإيمان .
فارتقب	فانتظر .
بدخان مبين	تضعف أبصار الخلق من شدة القحط والجوع ، فيرون دخاناً ظاهراً يملأ ما بين السماء والأرض .
يَغشى الناس	يشملهم ويحيط بهم ، كما يحيط الثوب بالجسم .
اكشف عنا العذاب	أزل عنا ما أصبتنا به من الجدب والقحط .
أنَّى لهم الذكرَى	كيف يتذكرون ويفون بوعدهم ، بأن يؤمنوا ؟ .

الألفاظ	شرحها
تولَّوْا عنه	أعرضوا عنه وكذبوه .
معلَّمٌ مجنون	يعلمه هذا القرآن أعجمى ، وهو مجنون ذاهب العقل .
إنكم عائدون	إنكم راجعون إلى ما كنتم عليه من العتو والتكذيب .
يوم نبطش .	يوم نأخذهم بعنف وشدة وصولة .

مجمل المعنى

١ — هذان حرفان : الحاء والميم ، من حروف الهجاء العربية ، تألف منهما ومن نظائرهما القرآن ، بأسلوب يعجز عن الإتيان بمثله جميع البشر ، لنفحم به المعاندين ، فإن كانوا فى ريب من أن هذا كلامنا ، وأننا أنزلناه على رسولنا محمد ، فليأتوا بمثل أقصر سورة منه ، وهم ذوو الألسن والفصاحة .

٢ — نقسم بالقرآن البيِّن ، الواضح فى مبانيه وبيانه ، ومعانيه وأحكامه ، وحججه وآياته ، أنا أنزلناه عليك يا محمد فى ليلة القدر ، تلك الليلة التى يعم الناسَ فيها الخيرُ والبركة والثواب ، والتى بدأنا فيها إنزال القرآن هادياً للناس ، فتضاعفت لهم منافع الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ، وفيها تعم الرحمة ، وتستجاب الدعوة ، وقد أنزلناه لتنذر به الناس ، وتحذرهم العقاب ، رحمة بهم ، وفيها يُقضى كل أمر قضاء مصدره الحكمة ، ومصلحة العباد ، وتكتب الأرزاق والحظوظ طبقاً لمشيئتنا ، ووفقاً لأمرنا ، إنا أرسلنا به محمداً صلى الله عليه وسلم كما أرسلنا بالكتب غيره من المرسلين ، لأجل رحمة ربك بعباده ، ولطفه بهم وعطفه عليهم ، إنه سميع لكل ما يقولون ، عليم بكل

ما يفعلونه ، خالق السموات والأرض وكل ما فيها ، وخالق ما بينهما من هواء وغاز ، وأنتم حينما تسألون عن خالق السموات والأرض ، تقرون أنه هو العزيز العليم ، فإن كان إقراركم هذا عن علم وإيمان ، وكنتم موقنين به ، ومصدقين له ، فلماذا تشركون فى عبادته آلهة غيره ؟ ومقتضى علمكم بربوبيته لهذا الكون ، يجعلكم تؤمنون بأنه واحد لا شريك له ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، بيده كل شىء ، يحيى ويميت ؛ وهو ربكم ، وصاحب الأمر فيكم ، ورب آبائكم وآباء آبائكم منذ القدم ، لكنهم غير موقنين بما يقولون ، بل هم فى شك من إقرارهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ولا يقولون ذلك عن إيمان وتصديق ، بل يقولونه مشوباً بلعب وسخرية ، وافتراء واستهزاء بمحمد ، وما أنزل عليه من كتاب .

٣ — لا يردعهم البلاء

لما اشتدت معارضة قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعا الله أن يصيبهم بعذاب ، وأن يوقع بهم جدباً وقحطاً ، وسنين كسنى يوسف ، فأصابهم جهد وقحط ، حتى أكلوا العظام والجيف ، وحتى كان الرجل منهم يرى بين السماء والأرض كهيئة الدخان ، وكان يحدث غيره ولا يراه من بين ما يتراءى له من الدخان ، فمشى إليه عليه الصلاة والسلام أبو سفيان ، ونفر معه من زعماء قريش ، وناشدوه الله والرحم ، أن يدعو الله أن يكشف عنهم العذاب ، ووعده أن يؤمنوا إذا دعا الله لهم ، فكشف الضر عنهم ، فدعا لهم ، وكشف الله عنهم العذاب ، وزال عنهم الكرب ، فلم يؤمنوا ، بل رموه بالجنون ، وقالوا : إن غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف ، يعلمه هذا القرآن ، فنزل قوله تعالى : «فارتقب يوم تأتى السماء . . .» ،

والمعنى : فانتظر يوم يصيبهم الجوع والقحط ، فيضعف أبصارهم ، فيرون كأن دخاناً يملأ الجو بين السماء والأرض ، يحيط بهم ويغشّيهم ، كما يغشى الثوب البدن ، ويقال لهم : هذا عذاب أليم ابتلاكم الله به ، لإسرافكم فى الكفر ، وإمعانكم فى الضلال ، فيقولون : يا ربنا ، أزل هذا الكرب ، واكشف هذا العذاب عنا ، ولئن رحمتنا ، وكشفت هذا العذاب عنا ، لنؤمنن بك ، كيف لايتذكر هؤلاء الناس وعدهم ، ويفون بعهدهم ، بأن يؤمنوا إذا كشف الله عنهم العذاب ، وقد شاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتعاظ ، أكثر مما طلبوا من الرسول أن يسأل ربه من أجله ، فقد أرسل إليهم رسولا أميناً على ما أنزله الله إليهم من الهدى والحق ، بيّن لهم مناهج الشريعة ، وجاءهم بآيات بينات ، فأصروا على تكذيبه ، ثم أعرضوا عنه ، وانصرفوا عن دعوته ، وقالوا إن بعض الأعاجم يعلمه هذا القرآن الذى يدعى أنه من عند الله ، ألاساء ما يقولون ! ولم يكتفوا بذلك ، بل رموه بالجنون ، وافتروا عليه الكذب ؛ (تراجع الفقرة الخامسة من الصفحة ١٠١ من تفسير الجزء الرابع عشر ، بشأن يسار وجبر الأعجميين)

٤ — ردّ الله عليهم بأنه استجاب لنبيه ، فكشف عنكم العذاب زماناً قليلا ، وهو يعلم أنهم عائدون إلى ما كانوا عليه من العتو والافتراء على نبيه ، لأن الحقد والضلال أعمى بصائرهم ، فلا ينفذ إليها إيمان أو هدى مهما وضحت المعجزات ، وظهرت الآيات ، ولا يتذكرون ما غشيهم من بلاء ، وما أصابهم من شقاء .

٥ — وانتظر يا محمد يوم ننصرك عليهم وأنتم قلة وهم كثرة ، فنأخذهم بعنف وقسوة ، ونفتك بهم فتكا ذريعاً ، ونبطش بهم أقسى بطشة ، وننتقم منهم انتقاماً شديداً .

(٢)

من الآية ١٧ إلى الآية ٣٧ من سورة الدخان

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ : أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ ، إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ –١– . وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ –٢– . فَدَعَا رَبَّهُ : أَنَّ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ –٣– . فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ، إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ –٤– . وَاتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ –٥– . كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ –٦– . كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ ، وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ –٧– . وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ : مِنْ فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ –٨– . وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ ٱلْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ –٩– . إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ : إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَى ، وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ –١٠– . فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ، أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ؟ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ —١١— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فتنّا	ابتلينا واختبرنا .
رسول كريم	هو موسى عليه السلام ، كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة .
أنْ أدوا إلىّ عبادَ الله	قائلاً لفرعون وقومه : أرسلوا وسلموا إلىّ عباد الله بنى إسرائيل .
وألا تعلوا على الله	وألا تتكبروا على الله وتتعاظموا عليه ، بالاستهانة بوحيه ورسله .
بسلطان مُبين	بآية بينة ، وحجة واضحة ظاهرة .
عُذت بربى	لجأت إلى ربى ، واعتصمت بقوته وحفظه .
أن ترجمون	من أن تقتلونى رجماً كما توعدتمونى .
فاعتزلون	فاتركونى وابتعدوا عنى ، ولا تتعرضوا لى بشر وأذى .
قوم مجرمون	مشركون أبوْا أن يؤمنوا ، وأن يطلقوا بنى إسرائيل .
فأسر بعبادى ليلاً	فقيل له : ارحل واهرب ببنى إسرائيل فى الليل .
إنكم مُتبعون	إن فرعون وجنوده سيتبعونكم ، ويقتفون آثاركم .
رَهواً	ساكناً منفرجاً .
ومَقام كريم	وقصور ومنازل حسنة .

الألفاظ	شرحها
ونعمة كانوا فيها فاكهين	ورغد فى العيش ، وسعة فى الرزق ، كانوا ناعمين فيه ، متمتعين به .
وما كانوا مُنظرين	لم يمهلوا ولم يُنظروا إلى وقت آخر .
كان عالياً من المسرفين	كان متكبراً مسرفاً فى العتو .
اخترناهم على علم	اخترنا بنى إسرائيل على علم منا باستحقاقهم .
بلاء مبين	اختبار ظاهر ، لننظر ماذا يعملون .
بمنشرين	بمبعوثين .
قوم تُبَّع	أهل اليمن ، وتبع : لقب لمن ملك اليمن ، ككسرى للفرس ، وقيصر للروم .

مجمل المعنى

١ — ليس تكذيب قريش لك ، وغلوهم فى العتوّ والعناد ، وخوفهم إن أطاعوك واتبعوك أن تزول عنهم الرياسة والسلطان ، أمراً عجباً ، فلقد سبقهم على مثل هذه الحال فرعون وقومه ، فقد فتناهم بالملك والمال ، والسلطان والقوة والكثرة ، فطغوا وبغوا ، وأرسلنا إليهم رسولا كريماً علينا ، اصطفيناه للرسالة ، فذهب إليهم ، وطلب منهم أن يطلقوا سراح بنى إسرائيل ، ويرسلوهم معه ، ويرفعوا عنهم العذاب والاستعباد ، وطلب منهم أن يستجيبوا إلى ما طلب ، ويطيعوا ما أمر ، لأنه رسول الله إليهم ، أمين على رسالته أبلغها كما تلقاها ، وقال لهم : لست ظنيناً أو متهماً فيما أقوله لكم ، فعليكم ألا تتكبروا أو تعلوا فى الأرض ، ولا تكونوا قساة جبارين ، تذلون بنى إسرائيل ، وتسخروهم

فى الأعمال الشاقة دون شفقة أو رحمة ، وقد أتيتكم بالحجة الواضحة ، والبرهان الصادق ، على أنى رسول الله إليكم ، بعثنى لأدعوكم إلى توحيده ، وترك بنى إسرائيل وشأنهم ، وترك العلو والكبرياء فى الأرض .

٢ — فلما سمعوا مقالة موسى ، ومصارحته بترك التكبر والعتوّ ، ثاروا ، وتوعدوه وتهددوه أن يقتلوه ضرباً ورجماً ، لجرأته عليهم ، فقال لهم : إن كنتم تهددوننى بالقتل ، فقد اعتصمت بالله ربى الذى يحمينى من جوركم ، ويرحمنى من من شركم وبغيكم ، وربّكم صاحب القدرة والجبروت والسلطان على أمثالكم ، لقد لجأت إليه أن يحمينى من الرجم الذى تهددوننى به ، ولقد جادلتكم بالحسنى ، وجئتكم بالآيات البينات ، التى يستجيب لها ويقبلها كل عاقل ، فإن قبلتموها وآمنتم بى فخيراً فعلتم ، وإن أصررتم على الكفر والعلوّ والعسف ببنى إسرائيل ، فاتركونى واعتزلونى ، ولا تتعرضوا لى بشر أو أذى ، فليس هذا جزاء من يدعوكم إلى الحق ، ويجادلكم بالحسنى .

٣ — بعد هذا المقال اللين ، والموعظة الحسنة ، لم يستجب إليه قوم فرعون ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، وامتنعوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فدعا عليهم موسى أن ينتقم الله منهم ، لأنهم قوم مجرمون ، عاتون متكبرون ، ضالون مشركون .

٤ — فأجاب الله دعاء موسى ، وأمره أن يخرج ليلا بمن معه من بنى إسرائيل ، حتى يستطيعوا فى سكون الليل وتحت ستاره ، أن يقطعوا مسافة من طريقهم إلى فلسطين ، قبل أن يعلم بأمرهم فرعون وجنوده ، لأنهم سيتبعونهم ، ويقتفون أثرهم .

٥ — سمع موسى ومن اتبعه من قومه أمر ربهم ، وخرجوا ليلا من مصر ، وعلم فرعون وجنوده بأمر خروجهم ، فأسرعوا وراءهم ليردوهم ، إلى عبوديتهم ،

ويستمروا على اضطهادهم ، فأدركوهم على ساحل البحر الأحمر ، وضرب موسى بعصاه البحر وكان ساكناً هادئاً بقدرة الله ، فانفلق فِرْقين ، وظهر اليبس ، ومضى موسى وقومه حتى عبروه ، وتركوه منفرجاً ، لتتم مشيئة الله فى إغراق فرعون وقومه ، فلما جاوزه بنو إسرائيل وبقى فرعون وجنوده فيه ، انطبق عليهم البحر فغرقوا .

٦ — أغرق الله فرعون وجنوده ، وأهلكهم ، ولم يغن عنهم جبروتهم وطغيانهم شيئاً ، وما أكثر ما تركوا وراءهم من الحدائق والعيون والزروع ، والمنازل المشيدة ، والقصور العالية ، ونعيم كثير كانوا يتمتعون به ! .

٧ — مثل ذلك الفعل فعلنا بهم ، ومثل هذا النعيم سلبناهم ، وورثناه قوماً غيرهم ، فلم يكترث أحد لموتهم ، ولم يأسَ أحد لفقدهم ، وذهبوا فلم يبك لذهابهم لا أهل السماء ولا أهل الأرض ، فما كانوا على دين الله فيبكيهم أهل السماء ، وما كانوا خيراً للناس فيبكيهم أهل الأرض ، وفى هذا الأسلوب تمثيل وتخييل ، على ما جرى عليه العرب فى أساليبهم ، فكانوا إذا مات منهم سيد ، يقولون : بكت لفقده السموات والأرض ؛ ولم ينظرهم الله ولم يمهلهم ، ولكنه عجل باستئصالهم .

٨ — ولقد أوقعنا هذا الهلاك بفرعون وقومه لظلمهم ، ونجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين لكرامتهم ، باستخدامهم فى الأعمال الشاقة واستعبادهم ، وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم ، ونجيناهم من فرعون نفسه ، لأنه كان طاغية ، ومصدراً لكل بلاء ، ورأساً لكل فتنة ، وكان عالياً متكبراً ، جباراً ممعناً فى العلو والتكبر والطغيان .

٩ — ولقد اخترنا بنى إسرائيل ، ونحن نعلم استحقاقهم لهذا الاختيار ، وفضلناهم على جميع الخلق فى زمانهم ، لأن العالم جميعه فى زمانهم كان غارقاً فى الوثنية ،

أما بنو إسرائيل فقد عرفوا الله ، وهداهم موسى إلى عبادته ، فكانوا خير الناس فى زمان موسى عليه السلام ، وآتيناهم من الآيات البينات : كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك ، ما فيه نعمة جلية ، واختبار ظاهر ، لننظر ماذا يعملون .

١٠— كان فرعون وقومه غارقين فى الضلال والبهتان فالتقمهم البحر ، وذهبوا لم يبكهم أحد ، وهؤلاء قريش يسلكون مسلكهم ، ويسيرون سيرتهم ، ويقولون: ليس بعد الموت حياة ،وليس لنا بعث ولا نشور ، وما أمرنا إلا أن نحيا فى الدنيا ونموت ، وينقضى أمرنا ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت ، كما يقول لنا محمد ومن اتبعه ، فإن كنتم صادقين فابعثوا آباءنا لنشاورهم فيما تدعون .

١١— لقد قال قوم منهم ، ومن أبناء جنسهم ، ما قالت قريش: وكانوا أقوى منهم وأشد بأساً ، وهم أهل اليمن: قوم تُبّع الحميرى ، الذي جيش الجيوش ، وصار مظفّراً منتصراً ، واسمه أسعد ، وكنيته أبو كَرِب ، غزا بلاد الصين ، وهابته الملوك ، كما فى تاريخ الطبرى ؛ ويقال لملوك اليمن : التبابعة ، إذا ملكوا الشِّحْر وحضرَموت ، كما قال مثله الذين سبقوهم كعاد وثمود ، فأهلكناهم لأنهم كانوا مجرمين ، ولم تمنعهم قوتهم ، ولم يغن عنهم عتوهم شيئاً ، فلتعلم ذلك قريش ، ولتكن على يقين من أن الذى حل بغيرهم سيحل بهم .

(٣)

من الآية ٣٨ من سورة الدخان ، إلى آخر السورة

وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —١— . إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ ٱللّٰهُ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ —٢— . إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ؛ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ، ذُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ، إِنَّ هٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ —٣— . إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ : فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ، كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَى ، وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ، فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ، ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ —٤— . فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ —٥— . فَارْتَقِبْ ، إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن يومَ الفصل ميقاتهم	إن يوم القيامة الذى يفصل فيه بين الحق والباطل ميعاد حسابهم .
يوم لا يُغنى مولى عن مولى شيئاً	يوم لا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه ، شيئاً .
شجرة الزقوم	شجرة تنبت فى جهنم .
الأثيم	الكافر كثير الآثام .
كالمهل	كالنحاس المذاب ، أو دُردىّ الزيت .
الحميم	الماء الحار .
فاعتلوه إلى سواء الجحيم	فجروه يا زبانية جهنم بعنف إلى وسط جهنم .
تمترون	تشكّون فيه وتمارون وتخاصمون .
سندس وإستبرق	السندس : ما رق من الحرير ، والإستبرق : ما غلظ منه .
كذلك	الأمر كذلك .
بحور عين	بنساء حور عين ، والحور : البيض من النساء ، والعين : واسعات العين ، جمع عيناء .
يدعون فيها	يأمرون ويطلبون ما يشتهونه .
الموتة الأولى	الموتة التى انتهت بها حياتهم فى الدنيا .
ووقاهم عذاب الجحيم	حفظهم من عذاب النار .
يسرناه بلسانك	أنزلنا القرآن بلغتك .
لعلهم يتذكرون	ليفهمه قومك ويتذكروه .
فارتقب	فانتظر ما يحل بهم .

مجمل المعنى

١ — لم نخلق هذا الكون من سمواته وأرضه ، وفضائه وهوائه ، عبثاً ، ولم ننشئ هذا الملكوت لهواً ، دون أن يكون لنا غرض صحيح من إنشائه ، وغاية حميدة نريدها من خلقه ، ولكنا خلقناه لإقامة الحق وإظهاره ، من توحيد الله والتزام طاعته ، والإيمان بالبعث والجزاء ، ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون أن الأمر كذلك ، فيشركون بالله وينكرون يوم البعث والجزاء .

٢ — إن يوم القيامة الذى يفصل فيه المولى بين خلقه ، فيتميز الحقّ من الباطل ، والمؤمن من الكافر ، لهو موعد الناس للحساب ، فيه يوفى كلٌّ جزاءه ، ويقضى عليه بما قدم فى دنياه ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فليفعل الناس جميعاً ما يريدون ، فسنحاسبهم فى هذا اليوم على ما يفعلون ، « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة » ، يوم لا يغنى قريب عن قريبه شيئاً ، ولا ينفع صديق صديقه ، ولا يستطيع المؤمن أن ينصر كافراً ، ولا يقدر المطيع أن يمنع الكافر من عذاب الله ، ولا ينفع ولى ولا شفيع ، الأمر كله لله وبيده ، كلٌّ بما كسب رهين ، إلا من رحمهم الله وأراد أن يعفو عنهم ، ويقبل الشفاعة فيهم ، فهو صاحب الأمر فى عباده ، لا يمنعه مانع ، ولا ينازعه منازع ، لأنه العزيز الغالب على كل شىء ، الرحيم لمن أراد أن يرحمه .

٣ — لقد أعد العذاب الأليم فى جهنم للمشركين ، فلا يأكلون ولا يشربون إلا النار ، وقد أنبت الله لهم فى قرار جهنم شجرة الزقوم ، ليأكلوا منها ، لأنها طعام كل أثيم فاجر مشرك ، وثمرها قطع من النار الملتهبة ، تقع فى بطونهم كذوب النحاس أو دردىّ الزيت ، فتغلى فيها غلياناً كالماء الحار الذى اشتد غليانه ، وهى الشجرة الملعونة التى ذكرنا شيئاً عنها فى الفقرة الثامنة من الصفحة ٤٣ من تفسير الجزء الثامن عشر ، والفقرة الأولى من الصفحة ٥٦ من تفسير الجزء الثالث والعشرين ؛ ثم يقال لزبانية جهنم :

خذوا هذا الأثيم الفاجر ، فجروه بعنف وقسوة ، واتركوه فى وسط نار جهنم ، يلاقى فيها العذاب الأليم ، وبعد أن يأكل هذا الطعام الكريه من شجر الزقوم ، وتلقوه فى وسط الجحيم ، عليكم أن تتموا ضيافته ، فهاتوا الماء فى أشد درجات غليانه ، وصبوه فوق رأسه ، وقولوا له إهانة وتوبيخاً له واستهزاء : ذق جزاء ما فعلت ، لأنك أنت العزيز الذى لا تصل يد الله إلى البطش بك ، الكريم عليه فلا يحاسبك ولا يعاقبك ؛ روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بين جبلى مكة أعز ولا أكرم منى ، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً ، فأخذه الله فى الدنيا أخذ عزيز مقتدر ، وسيلقى فى الآخرة عذاباً أشد وأنكى ، وفى هذا العذاب يقال للمشركين للتوبيخ والتقريع : إن هذا العذاب هو الذى كنتم تشكون فيه ، وتمارون وتجادلون ، لقد رأيتموه بعيونكم ، واكتوت به جسومكم ، وتقطعت به أمعاؤكم .

٤ — هذا شأن المشركين يوم القيامة ، أما المتقون فقد أعد الله لهم دار النعيم ، يتمتعون فيها بحياة طيبة دائمة ، ويعيشون فى منزل كريم يليق بهم ، بين جنات وعيون ، فيأكلون من فاكهتها ، ويشربون من عذب عيونها ، ويستظلون بظلالها ، وهم فى أحسن هيئة ، عليهم ثياب الحرير ، ما رقّ منه وما غلظ ، يجلسون على الأرائك متواجهين ليستأنس بعضهم ببعض ، ولهم ما يشاءون وما يشتهون ، ونساؤهم فيها من الحور ، بضات البشرة ، بيض الوجوه فى حسن وجمال ، ذوات عيون واسعات فى حلاوة وخفر ، يطلبون فيها كل فاكهة من أى نوع ولون ، وفى كل وقت ، فيجدونها كما طلبوا ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، آمنين من نفادها وتلفها ؛ وحياتهم هذه لا تذهب بالموت ، ولا تنقطع بالفناء ، لأنهم خالدون فى الجنة ، لا يذوقون فيها موتاً بعد الموتة الأولى التى بعثوا منها ، وقد حفظهم الله من عذاب الجحيم ،

ونار السعير ، تفضلا من الله عليهم، ورحمة من ربك بهم، وليس بعد ما آتى الله أهل الجنة فوز أعظم مما آتاهم : من نعيم مقيم، ووقاية من عذاب الجحيم .

٥ - فهذا القرآن الذى أقسمنا به فى أول السورة ، إنما أنزلناه بلسانك عربيًّا مبيناً، تيسيراً لقومك، ليفهموه ويتدبروه ، ويتعمقوا فى فهمه ، ليتذكروه ويتعظوا به ، وينزجروا .

٦ - فانتظر ما وعدتك من النصر عليهم ، وما يحل بهم من الدوائر ، انهم منتظرون أن يخذلوك ويتغلبوا عليك ، وتحل بك الدوائر ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

سُورَةُ الجاثِيةِ

نزلت بمكة ، ماعدا الآية ١٤ فإنها نزلت بالمدينة، وآياتها ٣٧ آية

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١١

حمٓ ، تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ —١— . إِنَّ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ —٢— . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ، آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ —٣— . وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ، وَمَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّماءِ مِنْ رِزْقٍ ، فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ، آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ —٤— . تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يَسْمَعُ آيَاتِ ٱللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ، أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ —٦— . مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ،

وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً ، وَلاَ مَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ —٧— . هٰذَا هُدًى ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ، لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حم	تراجع الصفحة ١٣ من تفسير الجزء الأول .
تنزيل الكتاب من الله	القرآن كتاب منزل من عند الله .
لآيات للمؤمنين	لدلالات على قدرة الله و وحدانيته ، لعباده الذين آمنوا به .
وما يبث من دابة	وفى خلق ما يدب ويتحرك على الأرض من كل ذى روح .
آيات لقوم يوقنون	دلائل و براهين ناطقة ، لقوم يؤمنون و يعتقدون بوحدانية الإله ، و بالبعث .
من السماء من رزق	من مطر يكون سبباً للرزق .
فأحيا به الأرض بعد موتها	فأخصب به الأرض بعد أن كانت مجدبة .
وتصريف الرياح	وسوق الرياح من حارة ، ، وأخرى باردة ، وتارة رُخاء، وأخرى عاصفة .
نتلوها عليك بالحق	نقصها عليك متضمنة الحق والهدى .

الألفاظ	شرحها
ويل لكل أفاك أثيم	العذاب لكل كذاب كثير الإثم .
يصر مستكبراً	يتمسك بالكفر ، وهو متكبر عن الإيمان والرجوع إلى الحق .
اتخذها هزُواً	استهزأ بها .
عذاب مهين	عذاب فيه مع الألم الشديد إهانة وتحقير .
من ورائهم جهنم	أمامهم عذاب جهنم .
ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً	ولا ينفعهم شيئاً ما جمعوا من المال .
أولياء	آلهة ونصراء .
هذا هدى	القرآن هدى للناس من الضلالة .
من رجز	الرجز : أشد العذاب .

مجمل المعنى

١ — هذا القرآن المكون من الحاء والميم ، ونظائرها من حروف الهجاء ، كتاب منزل من عند الله القوى ، الغالب على أمره ، الذى تصدر كل أفعاله عن حكمة ومصلحة ، تدل على أنه الواحد القادر العزيز الغالب .

٣ — إن فى خلق السموات والأرض ، وما انطوت عليه من فنون القوة والحكمة ، والقدرة والدقة ، لآيات هادية لمن شرح الله صدورهم للإسلام ، وهداهم إلى الإيمان .

٣ — وإن فى خلقكم وأطوار نشأتكم ، من عجائب قدرة الله ، حيث خلقكم

من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، إلى أن تم خلقكم فى أحسن تقويم ، وأعجب تركيب ، وإن فى خلق كل ذى روح مما ينتشر ويتحرك على الأرض ، فيعيش فى الأحراش والغابات ، وفى البحار والمحيطات والهواء ، وفى المناطق الباردة والحارة ، وفى الصحارى والجبال ، وكلٌّ مزود باستعدادات وغرائز تعينه على أن يحفظ حياته ، ويذود عن نفسه ، وكلٌّ يؤدى على هذه الأرض غرضاً وإن لم يعرفه — إن فى هذا كله لدلائل واضحة ، وآيات بينة ظاهرة ، تقطع بأن هذا الملكوت العظيم ، خلقه إله واحد متفرد بالقدرة والألوهية ، ولكل من يطلب الحق واليقين ، ويؤمن بالحقائق فى غير استكبار ولا عناد ؛ أما من كان فى قلبه عَمى ، وعلى بصره غشاوة ، فيمر على هذه الآيات دون أن يوقن بها .

٤ — وإن فى تعاقب الليل والنهار ، وفى اختلافهما طولا وقصراً ، بنظام ثابت لا يتغير ، ليل وظلام ونجوم ، واستقرار وسكون ، ونهار ونور وشمس ، وحركة وسعى ، وإن فيما يتكون فى السماء من سحاب يسقط مطراً ، يُروى الأرض فتخصب وتُنبت ، وتقوم فيها أسباب الحياة بعد أن كانت عارية مجدبة ، لا أثر فيها للحياة ، وإن فى توجيه الرياح وسوقها ، وتصريفها شمالا وجنوباً ، حارة وباردة ، لينة وقاصفة ، رُخاء وعاصفة ، تزجى السحاب ، وتسوق السفن ، وتنعش النفس ، وتلقِّح النبات ، وتمضى على بساطها الطائرات والطير — إن فى ذلك كله لبراهين قاطعة ، وأدلة ثابتة ، للذين يفكرون ، ويستعملون عقولهم قبل أن يبرموا أمراً ، أو يصدروا حكماً ، وقد ختم الله هذه الآيات بثلاث كلمات : « للمؤمنين » ، و « يوقنون » و « يعقلون » ، كأنه يقول : إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ،

وإن كنتم لستم من المؤمنين ، بل من طلاّب الحق واليقين ، فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين ، فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين ، فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل .

٥ — هذه آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، نقصها عليك ، متضمنة للحق الذى تؤيده المشاهد المحسوسة ، ويقره التفكير السليم ، فبأى حديث يتلى عليهم ليؤمنوا به ويصدقوه ، بعد حديث الله فى كتابه ، الذى أنزله الله على نبيه بلسان قومه ، وبعد حديث آياته المشاهدة ، ودلائل خلقه الناطقة بوحدانيته وقدرته ؟ إنهم لا يؤمنون بهذا أو بذاك ، لأن كتاب الله وآياته إنما تنفع المؤمنين الموقنين ، الذين يعقلون ما يقال لهم ، ويفكرون فيما حولهم .

٦ — العذاب والويل لكل مبالغ فى الكذب والافتراء على الله ، كثير الآثام والمعاصى ، يضل الناس عن الحق ، ويصرفهم عن الإيمان ، يسمع كلام الله يُتلى عليه ، فلا يفتح له قلبه ، ولا يوجه لفهمه عقله ، ولا يلقى إليه سمعه ، ويبقى على الكفر . ويستمر فى الضلال تكبراً منه عن أن يذعن إلى الحق ، ويسلك سبيل الإيمان ، ويتغابى ويتصامّ مبالغة فى الاستكبار والعناد ، كأنه لم يسمع شيئاً من آيات الله تتلى عليه ، فأنذر هذا وأمثاله بعذاب شديد الألم ، جزاء عنادهم وكفرهم ، وإذا نَفذَ إلى سمعه ، ووصل إلى علمه بعض آياتنا ، أخذ يسخر منها ويستهزئ بها ؛ أما هذا وأمثاله فلهم عذاب مقرون بالذلة والمهانة ، والاحتقار والصغار ، جزاء كفره واستكباره ، وإصراره على الضلال ، وإعراضه عن السمع مع الاستهزاء والاحتقار ؛ نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث ، الذى كان يشترى أحاديث العجم ، ويشغل بها الناس عن الاستماع إلى القرآن ؛ والتهديد والوعيد فى الآية عامٌّ لكل من يُضل الناس عن الدين ، ويصرفهم عن الطاعة .

٧ — هؤلاء قضى الله بعذابهم ، وجعل لهم يوم القيامة جهنم يدخلونها . لا فرار منها ولا مهرب ، ولن ينفعهم شيئاً ، أو ينجيهم من عذاب الله ، ما جمعوا من أموال فى الدنيا ، واستطالوا واستكبروا بها ، ولن يمنعهم من نار جهنم تلك الأصنام التى عبدوها ، واتخذوها لهم أولياء وأنصاراً ، وجعلوها شفعاء لهم يوم القيامة — إنها لن تمنع عنهم من عذاب الله شيئاً ، بل سيكون لهم بسببها عذاب عظيم ، وعقاب شديد .

٨ — هذا القرآن أنزله الله هدى للناس ، والذين كفروا به لهم عذاب هو أشد العذاب وآلمه .

(٢)

من الآية ١٢ إلى الآية ٢٠ من سورة الجاثية

اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ —١— . وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ —٢— . قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ، لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ —٣— . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ —٤— . وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ —٥— . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ —٦— . هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
سخر لكم البحر	ذلله لكم ، وجعله منقاداً لمنفعتكم ، تسبحون فيه وتغوصون ، ومنه تأكلون ، وعليه تتنقلون .
الفلك	السفن ، الواحد والجمع بلفظ واحد .
ولتبتغوا من فضله	ولتطلبوا الأرزاق من فضله وتوفيقه ، بالتجارة والصيد والغوص .
منه	إنعام وفضل من الله .
قل للذين آمنوا يغفروا	قل للمؤمنين اغفروا : بأن يغفروا ، ويعفوا ، ويصفحوا .
للذين لا يرجون أيام الله	للذين لا يخافون عقاب الله ونقمته .
ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون	ليجزى المؤمنين حُسن الثواب ، بما عملوا فى الدنيا من أعمال صالحة .
الكتاب والحكم	التوراة والملك .
وفضلناهم على العالمين	آثرناهم على عالم زمانهم ، بفلق البحر ، والمن والسلوى ، وغيرها .
بينات من الأمر	آيات ظاهرة ، ومعجزات باهرة ، وأدلة واضحة فى أمر الدين
بغياً بينهم	لأجل البغى والحسد والعداوة ، والظلم الواقع بينهم .

الألفاظ	شرحها
جعلناك على شريعة من الأمر	أقمناك على طريقة وسُنة من أمر الدين .
أهواء الذين لا يعلمون	آراء الجهلة ، واعتقاداتهم الباطلة .
وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض	لا يوالى الظالم ولا ينصره إلا من كان ظالماً مثله .
هذا	القرآن .
بصائر	إرشادات وهدايات .

مجمل المعنى

١ — ومن نعم الله على عباده ، وآثار فضله ، ودلائل ألوهيته ووحدانيته وقدرته ، أنه خلق البحار الواسعة العميقة ، وطوّعها لخدمة الإنسان ، وذللها لخدمته ، وجعلها منقادة لمنافعه ، صالحة للملاحة ، فتخوض السفن عُبابها ، وتجرى فيها كما يريد الناس ، حاملة لهم ولسلعهم وجيوشهم ، ليطلبوا الكسب بالتجارة ، أو الغوص على اللآلىء والمرجان ، أو صيد السمك والإسفنج وغيره ، وذلك كله من فضل الله على الناس ليشكروه على نعمه ، وليحمدوه على ما أوتوا من خير .

٢ — وهو الذى جعل السموات وما فيها من هواء وكواكب ، تؤدى للإنسان خدمات ومنافع لا حصر لها ، فالهواء يمده بالحياة ، ولو انقطع عنه لحظة لمات ، وهو مَسبَحُ الطير والطائرات ؛ والشمس تمده بالحرارة والضوء ، والقمر يضىء له ليلا ، والكواكب تزين السماء ، ويُهتدى بها فى الظلمات ،

وتؤنس الخلق من وحشة الليل ؛ وسخر لكم الأرض التى نشأتم فيها ، وأقمتم وسائل العمران بها ، وابتنيتم فيها المصانع والدور ؛ سخر لكم كل هذا من فضله ومنته عليكم ، فهل فكرتم فى كل ذلك ، لتدركوا فضل الله عليكم ، ولتؤدوا له حق العبادة والطاعة ، إن فى كل ما خلق الله لبراهين قاطعة ، وآيات ظاهرة ، لمن يتفكرون ويتدبرون فيما حولهم ، وما تقع عليه أبصارهم ، آيات تدل على قدرة الله ، وبديع صنعه ، وعظيم قدرته .

٣ — صفح كريم

خرج المسلمون وفيهم النبى وأبو بكر وعمر ، وبينهم عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، فى غزوة بنى المصْطلِق ، ونزلوا على بئر يقال لها المُرَيْسيع ، فأرسل ابن أبىّ غلامه ليستقى ، فأبطأ عليه ، ولما رجع قال له : ما حبسك؟ قال : غلامُ عمر بن الخطاب ، قعد على فم البئر ، فما ترك أحداً يستقى حتى ملأ قرَب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقرَب أبى بكر ، وملأ لمولاه ، فقال عبد الله بن أبىّ : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمِّن كلبك يأكلك ، فبلغ عمر رضى الله عنه قوله ، فاشتمل على سيفه ، يريد التوجه إليه ليقتله ، فأنزل الله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله . . . » ؛ والمعنى : قل يا محمد للذين آمنوا اغفروا للذين لا يخشون لقاء الله ، ولا يخافون بأسه ونقمته وعذابه ، ليغفروا لهم ، ويصفحوا ويتجاوزوا عن سيئاتهم ، ولا يؤاخذوهم بما قالوا أو فعلوا ، لأن الله تعالى سيجزى المؤمنين بما عملوا من الصالحات ، ويجزى الكافرين بما اجترحوا من السيئات ، وفى هذا التنزيل هداية إلى أنه ينبغى الصبر والإغضاء ، وكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ممن تصادقهم من الناس ،

ويعيبون بغير حق ، ويجترئون على الاتهام الباطل ، كما كان شأن عبد الله بن أبيّ المنافق ، وأن تعالج أمراضهم النفسية ، وقلوبهم المليئة بالحسد والبغضاء ، بالعفو والصفح ، وترك أمرهم إلى الله يحاسبهم على ما كانوا يفعلون .

٤ — كلٌّ محاسب على عمله ، إن عمل خيراً فجزاؤه خير ، وإن عمل شرًّا فجزاؤه شرّ ، وكل نفس لها ثوابها ، وعليها عقابها ، فليعمل كلٌّ ما شاء ، فسيلقى جزاء عمله يوم القيامة ، حين ترد الخلائق إلى الله ، ويرجعون إليه ، ويقفون بين يديه ، فيجد كلٌّ صحيفته ، وقد دونت فيها أعماله ، فيحاسب على ما فعل فى دنياه ، بالعدل والقسطاس المستقيم ، لا يظلم ربك أحداً .

٥ — ولقد أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل ، وأنزلنا إليهم التوراة ، وجعلنا فيهم القضاء والفصل فى الخصومات ، والحكم بين الناس والملك ، وجعلنا منهم أنبياء كثيرين ، وأنزلنا عليهم المن والسلوى . وأعطيناهم طيبات الرزق فى أرض الشام ، والحلال من الأقوات والثمار والأطعمة ، وفضلناهم على سائر الناس الذين كانوا يعيشون معهم فى زمانهم ، فأنجيناهم من الغرق ، وأورثناهم الأرض بعد فرعون ، وآتيناهم دلائل ظاهرة ، ومعجزات باهرة ؛ فعلنا لهم كل ذلك ، وعلموا بما فعلناه لهم ، وأنزلناه عليهم ، لكن وقع بينهم البغى والحسد ، والتنافس على الرياسة ، فاختلفوا فى أمر دينهم ، وبغى بعضهم على بعض ، وقتلوا أنبياءهم ، وسيحكم الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا .

٦ — ثم بعثناك رسولا للعالمين ، وجعلنا لك منهاجاً واضحاً ، وطريقاً مستقيما من الدين ، يتجه بك إلى الحق ، ويسلك بك سبيل السعادة والخير لك ولمن اتبعك ؛ فسر على هذه الشريعة ، واتبع أحكامها ، وامض على منهاجها ،

ولا تستمع لآراء الجهلة الذين يتابعون أهواءهم ، ويعتقدون الاعتقادات الباطلة التى تلائم شهواتهم ، فيطلبون منك أن ترجع إلى دينهم ، وتسير فى طريق ضلالهم ، لأنك إن اتبعتهم فلن ينفعوك بشىء ، ولن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً ، ولقد اصطفاك الله واختارك لهداية خلقه ، فلا تتبعن هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر ، لأن الظالم لا يعينه ولا يتبعه إلا ظالم مثله ، ولا يواليه ولا ينصره إلا من كان على شاكلته ، أما المؤمنون المتقون فإن الله وليهم وناصرهم ، ومعينهم على أعدائهم .

٧ — هذا القرآن بينات من الهدى ، تبصر الناس بالإيمان وحسن العاقبة ، والسلوك المحمود ، وهو براهين ودلائل ومعالم ترسم لهم الحدود والأحكام ، ورشد وهدى يؤدى بهم إلى الجنة ، ورحمة من عذاب الله لمن يتبعونه عن علم واعتقاد ويقين .

(٣)

من الآية ٢١ إلى الآية ٢٦ من سورة الجاثية

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! —١— . وَخَلَقَ ٱللّٰهُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ —٢— . أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ ٱللّٰهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ؟ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللّٰهِ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ —٣— . وَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ، نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ —٤— . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ، مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ —٥— . قُلِ : ٱللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
اجترحوا السيئات	ارتكبوا الكفر والمعاصى .
أن نجعلهم كالذين آمنوا	أن نصيرهم مثل المؤمنين .
سواء محياهم ومماتهم	ونسوى بينهم فى الحياة والموت ، وفى الدنيا والآخرة ، وفى البهجة والكرامة .
ساء ما يحكمون	بئس الحكم حكمهم ، والقضاء قضاؤهم ، إذا ظنوا أنهم كالمؤمنين !
وهم لا يظلمون	لا يلحقهم ظلم بنقص الحسنات ، أو بزيادة السيئات .
اتخذ إلهه هواه	ترك اتباع الهدى إلى اتباع هوى نفسه .
وأضله الله على علم	خذله الله ، وهو يعلم أنه ضال منحرف عن الحق .
وختم على سمعه وقلبه	لا يسمع موعظة ، ولا يدخل قلبه إيمان .
وجعل على بصره غشاوة	لا ينظر عبرة مما يراه حوله ، من آثار قدرة الله .
أفلا تذكرون	أفلا تتعظون ، وتعرفون أن الله قادر على كل شىء؟
وما يهلكنا إلا الدهر	وما نموت إلا بمرور الزمان علينا .
وما لهم بذلك من علم	وما لهم بقولهم هذا ، مستند إلى عقل أو نقل .
إن هم إلا يظنون	لا يقولون ذلك عن علم ويقين ، لكنهم يقولونه عن ظن وتخمين .
بينات	واضحات الدلالة على ما يخالف معتقداتهم .
ما كان حجتهم	ما كان فى زعمهم حجة .

الألفاظ	شرحها
ائتوا بآبائنا	أعيدوا لآبائنا الحياة ، وابعثوهم من قبورهم .
ثم يجمعكم إلى يوم القيامة	ثم يبعثكم يوم القيامة جميعاً أحياء بعد الموت .
لا رَيب فيه	لا شك فيه .

مجمل المعنى

١ — إن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولى المتقين ، فلا يظن الذين ارتكبوا المعاصى واجترحوا السيئات ، أن نصيّرهم على سواء ، مع المؤمنين الذين عملوا الصالحات فى الحياة وبعد الموت ، كلاّ ! لا يستوون فى شىء منهما ، فإن المؤمنين فى عز الإيمان وشرف الطاعة فى الحياة ، وفى رحمة الله ورضوانه فى الممات ، وإن الذين اجترحوا السيئات فى ذل الكفر ، وهوان المعاصى فى الحياة ، وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات ، بئس الحكم حكمهم ، إذا ظنوا أنهم كالمؤمنين ! بل شتان ما بينهما ! سنعز المؤمنين ، ونذل الكافرين .

٢ — وخلق الله السموات والأرض بالحق ، والحق يقتضى العدل ، والعدل يستوجب التفريق بين المحسن والمسىء ، والمطيع والعاصى ، والمؤمن والكافر ، كما يستوجب أن تُجزى كل نفس بما كسبت ، وأن تحاسب على ما عملت ، وأن توفى كل النفوس حسابها بالعدل والقسطاس ، لا يظلمون مثقال ذرة ، فلا تنقص حسناتهم ، ولا تزاد سيئاتهم .

٣ — لقد وهب الله للإنسان عقلا ليفكر به ويهديه الطريق المستقيم ، وخلق له سمعاً لينفذ منه الكلام إلى قلبه فيتذكر ويتعظ ، وخلق له بصراً لينظر

ما خلق الله فيشاهد ويعتبر ، أفنظرت فرأيت ذلك الذى عطل قُوَى تفكيره ، وأقفل منافذ العلم والتذكر والاعتبار من نفسه ، واستسلم لهواه ، واتخذه معبوداً له من دون الله ، ينقاد إليه فى أعماله ، ويحكم بما يزين له ، فأوقعه الله فى مهاوى الضلال والخذلان ، فضلّ وهو يعلم أنه يسلك سبيل الضلال ؛ وليس أشقى ممن يتردى فى الشقاء وهو عالم به ، وطبع الله على سمعه فلا يسمع موعظة ، وطبع على قلبه فلا يفقه حديثاً ، وغطى بصره فسار فى حياته كالأعمى ، فمن يهدى هذا الذى لم ينتفع بكل وسائل العلم والهدى ، من بعد أن خذله الله وأضله ؟ أفلا تتعظون وتتذكرون ، وتعرفون أن الهدى هدى الله ، ومن يضلل الله فلا هادى له ؟ وإذا أراد الله أن يشقى إنساناً جعله عبد هواه ، واستهدف الضلال على علم به ، ولم يسمع موعظة ، ولم يتدبر أمراً ، وكم رأينا فى هذا الزمان كثيراً من هؤلاء الناس .

٤ — لقد سيطر الهوى على المشركين ، حتى جعلهم كالأنعام بل هم أضل ، فتركوا النظر والمشاهدة ، والسمع والتفكير ، وعطلوا عقولهم وقلوبهم فلا تفقه شيئاً ، وأنكروا البعث والحساب ، وأنكروا وجود الإله الذى يخلق ويحيى ويميت ، وقالوا : ليس وراء حياتنا التى نحياها فى الدنيا حياة أخرى لكننا نحيا فى الدنيا ثم نموت ، وينتهى أمرنا عند ذلك ، وليس هناك إله يميتنا ، وملك يقبض أرواحنا ، وساعة تقوم ، وحساب وعذاب ، لكن الزمان هو الذى يهلكنا ، والدهر هو الذى يُنهى حياتنا ، ويسلمنا إلى الموت والفناء ، لا يقولون ذلك عن علم ويقين ، ونظر وتفكير ، لكنهم يقولونه عن ظن وتخمين ، وليس لهم عليه حجة أو دليل .

٥ — وإذا قرئ عليهم القرآن ، وتليت عليهم الآيات ، الناطقة بالحق الذى من حملته البعث ، وكانت الآيات بينة ظاهرة ، لا شك ولا خفاء فيها ، لم يؤمنوا

ولم يصدقوا ، وبقوا على عنادهم وإنكارهم ، ولم يكن لهم فى زعمهم حجة إلا أن يقولوا : أحيوا لنا آباءنا من الموت ، وابعثوهم من القبور ، إن كنتم صادقين فيما تقولون لنا ، من أن هناك بعثاً من القبور ، وحساباً وعذاباً يوم الدين .

٦ — قل لهم : إن الله هو الذى يخلقكم نطفاً فى بطون أمهاتكم ، ويبعث فيكم الحياة ، ثم يميتكم بعد انقضاء آجالكم التى قدرها لكم ، وإذا كان قد أنشأكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فهو قادر على أن يعيدكم ، والإعادة أيسر من البدء ، فهو يجمعكم بعد الموت يوم القيامة ، ولكن أكثر قريش لايعلمون قدرة الله على البعث ، لإعراضهم عن النظر والتفكير .

(٤)

من الآية ٢٧ من سورة الجاثية ، إلى آخر السورة

وَلِلّهِ مُلكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخسَرُ الْمُبْطِلُونَ —١— . وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلى كِتَابِهَا ، اَلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٢— هٰـذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٣— . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ —٤— . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ؟ —٥— . وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ، قُلْتُمْ : مَا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ ؟ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ —٦— . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ —٧— . وَقِيلَ : اَلْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ، ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا ، وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ ، مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ —٨— . فَلِلّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ، رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يخسر المبطلون	يَظهر خُسران المبطلين .
كلّ أمة جاثية	كل أهل ملة جالسة على الركَب وأطراف الأصابع ، خوفاً من هول ذلك اليوم .
تُدعى إلى كتابها	تطلب إلى الاطلاع على صحيفة أعمالها فى الدنيا .
هذا كتابنا	هذا كتابنا عليكم ، الذى أمرنا ملائكتنا أن تدون فيه أعمالكم .
ينطق عليكم بالحق	يشهد عليكم بما عملتم فى الدنيا بالحق.
نستنسخ ما كنتم تعلمون	نستكتب الملائكة ما كنتم تعملون فى الدنيا .
الفوز المبين	النجاح الظاهر .
إن وعد الله حق	إن وعد الله بالبعث حق.
والساعة لا ريب فيها	وقيام الساعة لا شك فيه .
بمستيقنين	بعالمين على يقين .
وحاق بهم	ونزل بهم وأحاط .
لقاء يومكم هذا	لقاء الله فى يومكم هذا .
ومأواكم النار	مسكنكم ومستقركم النار .
اتخذتم آيات الله هزواً	استهزأتم بالقرآن .
يستعتبون	يُسترضَوْن .
وله الكبرياء	وله العظمة والجلال ، والقدرة والسلطان والكمال .

مجمل المعنى

١ — الله سبحانه وتعالى هو المتصرف فى الخلق بالإحياء والإماتة ، وبعثهم وجمعهم للحساب يوم القيامة ، وهو خالق السموات والأرض ، ومالكهما ، ومدبر أمرهما ، ويوم تقوم الساعة ، ويبعث الناس من قبورهم ، ويرى المشركون حقيقة ما كانوا به يكذبون ، فى هذا اليوم ، يظهر لهم خُسرانهم وسوء عاقبتهم .

٢ — وفى هذا اليوم يُجمع أهل كل دين وملة ، فيجلسون على ركبهم وأطراف أصابعهم ، جلوس خضوع وخوف من هول هذا اليوم ، كما يجثو المحكوم أمام الحاكم ، وعندئذ تطلب كل أمة ليقرأ كل فرد ما دوّن له أو عليه فى صحيفة أعماله ، ويقال لهم : فى هذا اليوم تحاسبون على ما قدمتم من عمل فى الدنيا ، وتجزون عليه بالخير خيراً ، وبالشر شراً .

٣ — ويقال لهم : هذا كتابنا الذى سجلنا فيه أعمالكم ، يشهد عليكم بالحق ، لا زيادة فيه ولا نقصان ، لأننا كنا نأمر ملائكتنا أن ينسخوها ويكتبوها ، وتحفظ عليكم إلى هذا اليوم الموعود .

٤ — لا ظلم اليوم ، كل مُلاق جزاء ما عمل ، بالحق والعدل ، فأما الذين آمنوا بالله وعملوا عملا صالحاً ، فجزاؤهم أن يدخلهم ربهم فى جنته ، ويُفيض عليهم من رحمته ، وإن الحياة فى نعيم الجنة حياة دائمة ، لفوز مبين ، ونجاح كبير ، وانتصار عظيم .

٥ — وأما الذين كفروا بالله ، وماتوا وهم كفار ، فيبعثون يوم القيامة ، ويساقون إلى جهنم ، ويقال لهم : ألم تكن آياتى التى تذكركم بالبعث ، والتى تهديكم إلى الإيمان ، تتلى عليكم فكذبتموها ، واستكبرتم على الإيمان ، وآثرتم الضلال على الهدى ، وكنتم قوماً مجرمين ، ضالين مشركين ؟

٦ — ولقد بلغ من استكبارهم وإصرارهم على الكفر ، أنهم إذا ذُكِّروا بآيات الله ، وقيل لهم : يا هؤلاء ، إن وعد الله بالبعث حق لا محالة ، وإن قيام الساعة أمر لا يحتمل الشك ، بالغوا فى العتوّ ، وقالوا على سبيل الاستغراب والإنكار : أي شيء هى الساعة ؟ وكيف تكون ؟ ومتى تقوم ؟ إننا لا ندرى من أمرها شيئاً ، وليس لنا بها علم ، وكل ما نعرف عنها لا يعدو أن يكون مجرد ظن وحَدس وتخمين ، وما نحن عالمين بها علم جَزْم ويقين .

٧ — لكن وعد الله حق ، وحين تقوم الساعة يبدو لهم سيئات ما عملوا ، وتظهر لهم معاصيهم فى صورة وخيمة منكرة ، ويعرفون وخامة عاقبتها ، فإن جزاء سيئة سيئة مثلها ، وحلّ بهم من الجزاء ما كانوا يستعجلونه ، ومن العذاب فى هذا اليوم ما كانوا به يستهزئون .

٨ — وقيل لهم : اليوم نلقيكم فى عذاب جهنم ، ونترككم فيها ترك المنسىّ ، كما نسيتم لقاء الله ، والوقوف بين يديه فى يومكم هذا ، وكذبتم به ، ومُستقركم ومسكنكم الدائم هو النار ، ومالكم من أحد ينصركم من الله ، وينجيكم من عذابه ، ذلكم لأنكم استهزأتم بالقرآن ، وسخرتم من آيات الله ، وغرتكم حياتكم الدنيا ، فظننتم أن لا حياة بعدها ، وقد تحقق وعد الله ، فألقيتم فى النار لا تخرجون منها ، ولن يسمح لكم — كما تريدون — أن تخرجوا منها ، لتستغفروا ربكم وتُرضُوه ، فقد فات الأوان وضاعت الفرصة عليكم .

٩ — فلله وحده الحمد والثناء على واسع فضله ، وجليل نعمه ، هو رب السموات ورب الأرض ، ومالك الملك ، ورب العالمين أجمعين ، وهو جل شأنه صاحب العظمة والجلال ، والقوة والسلطان ، فى السموات والأرض ، العزيز الذى لا يُغلَب ، الحكيم فى كل ما قضى وقدّر ، فاحمدوه وأطيعوه وكبّروه ، جل جلاله ، وتقدست أسماؤه .

فهرس الجزء الخامس والعشرين من تفسير القرآن الكريم

١٩٥٥/٣٧